

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة منتوري قسنطينة

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية

الرقم التسلسلي:

رقم التسجيل :

قسم الفلسفة

عنوان البحث

مسألة الإمامة وتداعياتها العقدية

بين الباطنية و الغزالي

مذكرة مقدمة لخدمة لنيل درجة الماجستير في الفلسفة

إشرافه الدكتور

ساحد خميسي

إعداد الطالبة

موريت حسيبي

لجنة المناقشة

رئيسا	جامعة منتوري قسنطينة	أستاذ محاضر	د. إسماعيل زروخي
مشرفا ومقررا	جامعة منتوري قسنطينة	أستاذ محاضر	د. ساحد خميسي
عضوا مناقشا	جامعة منتوري قسنطينة	أستاذة	د. نورة بوحناش

السنة الجامعية: 2008 - 2009 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

" قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل

سعيهم في الحياة

الدنيا و هم يحسبون أنهم يحسنون صنعا "

* صدق الله العظيم *

إهداء

إلى من قُدّر له أن يرعى بشغفه ولهفة هذا العمل
على أمل أن يسعد معي بقطعة ثماره، دون أن تسمع
له الأقدار بذلك..

إلى من تعجلته الموت وهو يرقب نهاية هذا العمل
منتظرا أن يكمل بالنجاح والتوفيق ..

إلى والدي العزيز الذي كان وما زال يرقبني وروحه
هائمة على وجه الأرض في انتظار أن أوافيه بمشيئة الأقدار ..
أهديه هذا العمل المتواضع و أدعو الله تعالى
"أن يتغمده بواسع رحمته "



دسريني

دوري - ق

شكر وتقدير

الحمد لله ، حمدا طيبا ، مباركنا نشكره الشكر العظيم ولا نستوفى فضائله وحقه فلولا عون الله وتوفيقه لما تمكنا من إنجاز هذا العمل وإنهائه فهو اللطيف الخبير بعباده ، وهو على كل شيء قدير
كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى أستاذي الفاضل " ساعد خميسي" على نصائحه وتوجيهاته ودعمه لي برغم مسؤولياته وانشغاله .
وكذا لطول صبره عليا ومراعاته ظروفى فألفه شكر لك أستاذي ولا أنسى أن أتوجه بالشكر إلى كل من ساعدني في هذا العمل بمراجع ، أو نصائح إرشادات .. وسهل علينا إتمام هذا العمل ، وأخص بالذكر كل من الأساتذة " زروخي و حدوح" والأساتذة "خميرة" وكذا الأستاذ " موسى معيرش " وتوجيهه المستمر لي في بداية مشوارا لبحث العلمي فله منا خالص التحيات .

ولا يسعني في هذا الموضوع إلا أن أتذكر فضل الصديقة ورفيقة الدرب "هدى بوفضة " مذللة الصعوبات ، باعثة الأمل في حياتي.

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى زملائي في البحث العلمي دؤعة ماجستير 2004 وأخص بالذكر " عبد العظيم بلواهم ، وصافي الطاهر سليم أودينة". كما أشكر مدير متقن القالة " علي عابد " وكل تلاميذي الأعزاء .

وأشكر كل من ساعدني

المقدمة

أسس النبي الكريم محمد ﷺ حكما سياسيا جمع فيه بين السلطة الروحية والزمنية ضمن به حياة كريمة للأفراد الذين عبروا عن آرائهم بحرية وعمت بينهم المساواة فلا يتمايزون إلا بالاجتهاد والكسب. فالسلطان لله وعباده مستخلفين فيه ، وهكذا نظم الرسول ﷺ مراسيم الإمارة واعتمد مبدأ الشورى فكانت إدارته السياسية رشيدة اقتدى بها من بعده الخلفاء الراشدين على نحو ثلاث عقود فما إن مات الرسول ﷺ و انتقل إلى الرفيق الأعلى حتى ظهرت محنة الاقتتال حول الإمامة . فكان السلطان فتنة المسلمين إذ أوقع الصراع حول هذه الإمامة عددا هائلا من القتلى وتخريرا لا حدود له في البلدان، فلكل سياسته في تسيير الخلافة و لكل مناصروه و دعائه. فبعد عهد النبوة الذي سادته الاستقرار والأمن توالى على العالم الإسلامي الحروب و الفتن في غياب هذا النبي الذي جمع ووحده أصناف مختلفة متفاوتة من الناس . فعادت طوائف كثيرة من المسلمين إلى دياناتهم القديمة و كانت أشد بلاءا على الإسلام و المسلمين فندهور سير الحياة السياسية عن مقام الحق الخالص و تساقط نهج الخلافة الراشدة بمقتل عثمان بن عفان و ظهور الفتن الكبرى بين علي الخليفة المنصب من أهل المدينة و معاوية المطالب بالثأر لدم عثمان.

و في ظل هذا الصراع حول الإمامة ظهرت تيارات و فرق بارزة كل تناصر مذهباً و رأياً و من أشهرها أهل السنة و الجماعة و الشيعة و أيضا الخوارج. فلما سنحت الفرصة لمعاوية باعتلاء عرش الخلافة بعد حادثة التحكيم تشييع قوم للإمام علي و ناصروه و اعتبروا حقه مغتصبا و الإمامة لغيره باطلة في حين كان للخوارج موقفا خاصا.. لم يجلب نفعاً للمسلمين .

و استمر صراع السنين و الشيعة حول الإمامة قرونا. و هاهو يعود اليوم في عالمنا العربي الإسلامي بشكل اخطر و هو ما يعرف بالحروب الطائفية بين السنة و الشيعة لذات السبب القديم ألا وهو الإمامة، وكذا إغراق الحكام وهم أئمة المسلمين في الشهوات والبذخ و الانحراف عن نهج الشورى في خلافة المسلمين و تفشي الظلم بين الأقرباء و المقربين ، فساد الغلو في التشييع و اشتدت حمى الصراع و القتال بين المسلمين بسبب شهوة الملك و ولاية المسلمين .

فكانت الحياة العامة ملتهبة بحمى الصراع السياسي عاكسة لما سادته من فرق متناحرة حول مسألة إمامة المسلمين و حق ولايتهم .

فريفت القوانين و أولت العقائد و نقضت العهود و أخلفت الوعود في سبيل الحصول على الإمامة و الحرص على عدم خروجها من أيدي الملوك أصحابها ، بل التمس في ذلك فتاوى تبارك ذلك الواقع باسم الدين . فلم يبقى من الحكم و السياسة إلا الاسم و ممارسة زائفة ، فروح الدين ميتة .

و هذا التركيز على الإمامة و ما جلبه من الصراع و القلاقل أوقع المسلمين في الحروب و التخلف و أضعف كاهل الأمة ، و شغل الناس بزخرف الحياة عن جوهرها الروحي فانهارت حضارتهم و نهض بها الغرب الذين نضجت آراؤهم في السياسة نتيجة تأكيدهم على الجانبين النظري و التطبيقي . و كادوا للمسلمين كيذا فاستغلوا ضعفهم و شهوتهم في حب الملك و الشهوات و تلاعبوا بهم كيفما شاءوا و حاولوا فصل الدين عن الدولة و الجانب الروحي عن المادي و ظهر المبتدعة و المتربصون بالدين و وحدته ، الذين أدركوا نقاط ضعفه و حاولوا ضربه من خلالها . فكادوا يفلحون في ذلك لولا رعاية الله لعباده و وعده الحق لهم .

و بما أن الفلسفة السياسية للمسلمين قد تمحورت حول مشكلة الإمامة و تداعياتها لا سيما و أن الصراع حولها كان سياسيا و فكريا نتيجة لظروف اجتماعية معينة قسمت المسلمين إزاءها إلى سنة و شيعة كل يناصر صحابيا و فريقا من أصحاب النبي ، فقد ارتأينا أن نتناولها - مسألة الإمامة - كموضوع لبحثنا المتواضع هذا . محاولين بذلك تسليط الضوء على ما دار حولها من صراع بين الشيعة و السنة ، كاشفين عن أهم مواطن الاختلاف و التباين عاملين على التقريب بين وجهات النظر المتعارضة موضحين ما فيها من حقائق ثابتة أو ما فيها من غلو و مغالاة أو حتى تزييف و تلفيق . و فضلنا في هذا البحث عرض نموذج من كل تيار لتمكين على ضوء ذلك التحديد من الإطلاع على معنى الإمامة و حقيقتها بصورة أخص و أقرب من النظرة العامة في ظل المذهب الشيعي ككل أو السني كله كاشفين عن أهم المسائل الخلافية بينهما .

فمن الشيعة اخترنا الباطنية لما لها من أهمية بالغة في الفكر الشيعي ، و من السنة فضلنا أخذ ألد أعدائها و أهم نقادها و هو الغزالي ليكون العرض موضوعيا و نقديا في الوقت ذاته قائما على المقارنة و استخلاص العناصر المشتركة و الخلافية ، علنا نقرب بين التيارين السني و الشيعي و نكشف عن أصل الخلاف بينهما والذي أساسه الإمامة . و نحن هنا قابلنا بين فرقة و شخص و لهذا الأمر ما يبرره فقد اقتضى الخوض في مسألة الإمامة لدى الفرقة

الباطنية الشيعية الرجوع إلى حجة الإسلام "الغزالي" الذي اشتهر بالرد عليها و بإبطاله لمزاعمها في أمر إمام الزمان المهدي المنتظر. والمعروف أن هذا الأخير تعرضت آراؤه للنقد و التنفيذ من قبل أنصار الباطنية..

فضرورة اقتضاها موضوع الدراسة كان لابد من التعرض لكل من تصوري الباطنية و الغزالي لمسألة الإمامة والمقابلة بينهما قدر المتاح.
فكان أنسب عنوان للبحث "الإمامة و تداعياتها العقدية بين الباطنية و الغزالي" والذي حاولنا حصر إشكاليته كما يلي :

- ما حقيقة الإمامة وما هي مكانتها في الفكر الإسلامي؟ وهل يختلف تصورهما بين الباطنية

و الغزالي؟ ترى أين تكمن أهم مواطن الخلاف و التباين بين كل منهما حولها ؟

و ترتب عن هذه الإشكالية عدد من المشكلات الفرعية أهمها:

- ما حقيقة الإمامة عند الشيعة الباطنية و ما هو موقف الغزالي منهما؟ و ما العلاقة بين الإمامة والنبوة؟

- ما حكم الإمامة؟ و هل من الضروري نصب و عقد الإمامة في الأمة؟ ما هو أساسها النص والتوارث أم البيعة و التشاور؟

- هل الإمام منصوب عليه معصوم يجب أخذ العلم عنه كما ترى الشيعة الباطنية أم أنه مختار، يبايع وفق شروط محددة متفق عليها سائر أهل السنة؟

- ما هو التصور الصحيح للإمامة؟ هل هو الوارد لدى الشيعة الباطنية أم لدى الغزالي السني؟

- أيهما الأصح التصور الشيعي للإمامة أم التصور السني لها ؟

- ترى هل سينتهي الصراع و الجدل حول الإمامة بإيجاد سبل مشتركة للحوار و التواصل بين السنة والشيعة؟ و هل سيتم التفكير في تسوية مسألة الإمامة للتوفيق والتقريب بين السنة و الشيعة ؟

- هل مازالت مشكلة الإمامة تكتسي هذه الأهمية في عصرنا الحاضر أم أنها مرحلة صراع دامية تجاوزها التاريخ؟ و ما هي إيجابياتها و سلبياتها؟

وحتى تتمكن من الإجابة على كل هذه الأسئلة و الإشكاليات كان لزاما علينا إتباع منهج خاص نعرض فيه حقيقة الإمامة لدى الطرفين المتعارضين و نوضح تداعياتها و ما يترتب عن التصورين .. و رأينا أن المنهج المناسب لذلك هو المنهج التحليلي النقدي مستعينين بالمنهج المقارن نظرا للحاجة الملحة إلى ذلك فالبحت يقارن بين تصورين للإمامة أحدهما سني

و الأخر شيوعي يخالفه الرأي كما استفدنا من المنهج التاريخي للتعرف على سير الأحداث الماضية و ترتيبها و تناسبها الزمني.

و اعتمدنا في بحثنا هذا على مجموعة من المؤلفات الهامة لكلا الطرفين ، منها مصادر الفيلسوف " أبو حامد الغزالي" التي ألفها في مجال الرد على الباطنية ، والتي تبرز فيها آراءه السياسية: كالمستظهري ،المسمى فضائح الباطنية ، الاقتصاد في الاعتقاد ،إحياء علوم الدين القسطاس المستقيم ...إضافة إلى رسائله المختلفة التي تتناول الجانب السياسي.

أما مصادر الشيعة الباطنية فكانت قليلة مقارنة مع مثيلاتها لدى "الغزالي" و من أهمها الرسائل لإخوان الصفاء ، كتاب النبوءات للسجستاني، السياسة المدنية للفارابي، أصل الشيعة و أصولهم لكاشف آل غطاء و شجرة اليقين لعبدان قرمط ... و نحن مقلون في المراجع الفرنسية الأجنبية نظرا لتوفرها مترجمة باللغة العربية و أغلب هذه المراجع الأجنبية تستند إلى أمهات المؤلفات الإسلامية لتستقي منها روح الفكر الإسلامي. و كانت الخطة المتبعة لمعالجة هذه الإشكالية مكونة من عدة فصول لكل منها هدف و غاية و تفصيلها كما يلي :

المقدمة : حاولنا أن نبرز فيها أهمية الموضوع و المشكلة المطروحة للنقاش و دوافع وأسباب الخوض فيها و مبرراته.

الفصل الأول : تعرضنا فيه لمفهوم الإمامة و مكانتها و الظروف التي ولدتها ، مشيرنا إلى ذلك الصراع الذي نشأ بين السنة و الشيعة حولها.

الفصل الثاني : تناولنا فيه التصور الشيعي الباطني للإمامة و ما أنجر عنه من تداعيات كالنبوة و التأويل و القول بالنص و التوارث...

الفصل الثالث : كان نقديا عرضنا فيه موقف الغزالي من الباطنية و الرد عليها مركزين على الخلاف السياسي بينهما حول الإمامة. عارضين فيه رأيه السياسي و موقفه من الإمامة موضحين تصوره للنبوة و علاقتها بالإمامة مشيرين إلى منهجه النقدي المعتمد في ذلك الرد على الباطنية.

الخاتمة : كانت حوصلة و استخلاص لأهم نتائج بحثنا حاولنا فيها التقريب بين وجهتي نظر مختلفتين مشيرين لامتدادات مشكلة الإمامة عبر العصور و عودة الصراع حولها من جديد بشكل عنيف محاولين إيجاد حلول لتسوية الوضع و الخروج من دوامة الفتن.

فلكل طالب علم غايات يسعى لتحقيقها و طريقه مخوف بالمخاطر و المصاعب فهو يقطف
الورد النادر من أعالي الجبال الشاهقة، و من أبرز صعوبات بحثنا كانت قلة المصادر الشيعية
وتضارب الآراء حول هذه الفرقة الباطنية. و كذلك ما عرفه الغزالي من تقلبات في الأفكار
والمواقف فهو يتبنى في موضع و يعارض في آخر. و سبب آخر شخصي تمثل فيما عانيناه من
صعوبات الترجمة أضف إلى مرضي المفاجئ الذي لازمني الفراش لفترة تملكني فيها اليأس
والذي حال دون إتمامي للبحث في الوقت المناسب.
فلولا عون الله و مشيئته و تسامح المشرف بارك الله فيه ونصائحه لما استكملنا هذا البحث. لذا
نشكر المولى -عز وجل-أولا و قبل كل شيء ونسأله التوفيق و السداد.

الفصل الأول

حقيقة الإمامة و أهميتها في الفكر الإسلامي

المبحث الأول : مفهوم الإمامة و حقيقتها

المبحث الثاني : كيفية نصب الإمامة و انعقادها

المبحث الثالث : أهمية الإمامة و علاقتها باحتدام الصراع بين

السنة و الشيعة

أرسل الله سبحانه و تعالى رسوله محمد ﷺ بن عبد الله برسالة الإسلام إلى الناس كافة باعتبارها خاتمة الرسائل السماوية إلى الأرض ، وأنه خاتم الأنبياء ، و المرسلين . لذلك جاءت هذه الرسالة كاملة شاملة تتضمن العقيدة والشريعة ، وأمور الدين و الدنيا ، و حددت كيفية تسيير المجتمعات وتنظيمها موضحة لما ينبغي أن تكون عليه علاقة الناس مع بعضهم البعض في المعاملات الاجتماعية كانت أو اقتصادية أو سياسية... هكذا إذن حملت الشريعة الإسلامية لتأسيس الدول والأمم ونظّرت لطرق وأشكال الممارسات السياسية فيها.

فلم يكن الإسلام مجرد رسالة تحمل دعوة أساسها عقيدة التوحيد بل إضافة إلى ذلك احتوى جملة من القيم و المبادئ الأخلاقية، ودعا إلى تأسيس مجتمع متكامل . محمداً من خلال الكتاب و السنة النبوية الشريفة ، مختلف المعاملات الاجتماعية و الاقتصادية ،مرسيا لقواعد سياسية هامة تسيير وفقها دولة الإسلام ، من شأنها الحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية واستمرارها و ضمان استقرارها . من هذا المنطلق حملت طبيعة الإسلام وجوهر الرسالة النبوية السمحاء في مضمونها منشأ الدولة الإسلامية . حيث أرسى ركائزها الرسول الكريم بنشر دعوة التوحيد ، و إقامة الدولة الإسلامية. بدءاً من أخذ البيعة والهجرة ، و حكم المدينة فالفتح المبين لمكة. فكان هو الإمام و الحاكم المطاع القاضي بأمر الله تعالى.

ثم خلف من بعده خلف ساس الناس و حكمهم وفق سنة الله و رسوله ، و استمر حال إمامة المسلمين بهذا الشكل ، إلى أن صارت الإمامة محل جدل بين المسلمين بسبب ما طرأ عليها من سلوكيات و ممارسات سياسية . حتى تمحورت حولها جل النظريات السياسية والعقائدية و تارت بسببها الفتن و القلاقل.

واحتلت مسألة الإمامة مكانة هامة في الفكر الإسلامي فجل النظريات السياسية للمسلمين تدور حولها. إذ هي من أكثر المسائل الخلافية بين المسلمين ، فقد تعددت فيها الآراء واشتدّ حولها الجدل . فالبعض يراها مرادفة للملك ، باعتبارها حقاً متوارثاً، بينما يجعلها آخرون خلافة إلهية أساسها الاختيار.. لذلك لم يكن من اليسير الاتفاق حول تعريفها لضبط مفهومها ، نظراً لتشعبها و تباين تصورات الخائضين فيها.

ولن تتمكن من الإحاطة بمعنى الإمامة والكشف عن حقيقتها إلا إذا وقفنا على أهم ما يدور حولها من الآراء و النظريات ، لا سيما تلك التي كان لها بالغ الأثر في التنظير لمسألة الإمامة ووضع اللبنة الأولى لها .

وبناء على سبق نتساءل : ما مفهوم الإمامة و ما حكمها و كيف تقوم في الأمة ؟ و هل من الضروري نصب إمام في الأمة ؟ ترى ما الغاية من ذلك ؟ ما الذي يميز الإمامة عن غيرها من المصطلحات الأخرى كالحلقة والملك ؟ ترى متى ظهر البحث في الإمامة كمسألة ذات أبعاد متعددة ؟ و ما الدواعي التي أدت إلى البحث فيها و التنظير لها ؟

- ما هي الظروف التي جعلت مسألة الإمامة تكتسي أهمية بالغة في حياة الشعوب الإسلامية ؟ وهل للصراع الدائم حولها ما يبرره ؟

المبحث الأول : مفهوم الإمامة و حقيقتها

المطلب الأول : مفهوم الإمامة في اللغة و الاصطلاح

أولاً : المدلول اللغوي للإمامة

إن خير سبيل نستقي منه مدلول مصطلح « إمامة » هو القرآن الكريم ، فقد ورد هذا المصطلح في الذكر العزيز الحكيم مرات عدة حاملاً دلالات معينة مشيراً إلى قضية بعينها مثل قوله تعالى ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾¹ أيضاً قوله تعالى ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾². فأفاد لفظ إمامة هنا معنى الحكم.

و إذا ما بحثنا عن معنى هذا المصطلح في المعاجم و الموسوعات نجد أن اللغويين قد أجمعوا على أن الإمامة تفيد التقدم على الشيء، فيرى "الفيروز أبادي" (729-817هـ) في قاموس المحيط أن إمامة من لفظ « أمهم تقدمهم ، وهي :الإمامة والإمام ما ائتم به من رئيس أو غيره.. و جمعها أئمة ، وأئمة.. فيقال: هذا أئمة منه و أومّ : أحسن إمامة »³.

فأفادت الإمامة معنى المتقدم للشيء و هو المعنى ذاته الذي أقرّه من قبله « ابن منظور » (630-711هـ) في لسان العرب ، وجاء فيه عن الإمامة ما يلي « أم القوم ، و أمّ بهم تقدمهم وهي الإمامة، والإمام كل من ائتم به قوم كانوا على الصراط المستقيم أو كانوا ضالين..».

و عليه كان سيدنا رسول الله ﷺ إمام أمتة و عليهم جميعاً الائتمام بسنته التي مضى عليها « و قد ورد لفظ الإمامة في قوله الله تعالى ﴿ فَقاتِلُوا أئمة الكُفْرِ ﴾⁴ . أي قاتلوا رؤساء

1- سورة البقرة آية 124

2- سورة الأنبياء آية 72، 73

3- الفيروز أبادي ، قاموس المحيط ، ج4 ، لفظ «أمة» دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ، ط 1، 1999، ص9

4- سورة التوبة آية12

الكفر وقادتهم»¹ بمعنى آخر كان «الإمام الذي يقتدي به.. والقرآن إمام المسلمين والرسول ﷺ إمام الأئمة والخليفة إمام الرعية وإمام الجند قائدهم»².

ومن حيث الاشتقاق اللغوي نلاحظ أن «إمامة» مشتقة من لفظ «إمام» ويراد بهذا اللفظ القائم بالصلاة، مما يشير إلى وجود صلة وارتباط بين الإمامة والصلاة. و السر في هذا الربط بينهما يوضحه الأستاذ "محمد صبحي الصالح" بقوله « لا ريب أن اشتقاق الإمامة من هذا اللفظ القرآني «إمام» - بمعنى الذي يؤتم به ويقتدي بعلمه في نظام معين - هو أقرب شيء إلى روح الشرع الإسلامي فيما تطور من نظمه ...»³.

ويمكننا في هذا الموضوع التذكير بقوله تعالى ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾⁴ لتأكيد الصلة بينهما إذ غالباً ما ارتبطت الإمامة بالصلاة وكثيراً ما استعمل المسلمون إمام الصلاة للدلالة على مكانة إمام الأمة وقائدهم «و هكذا وقع الربط بين الإمامة في الصلاة و خلافة النبي في سلطنته». ويمكن أن نستخلص من خلال هذا المدلول اللغوي ارتباط معنى الإمامة بالصلاة فمكانة الإمام في الأمة باعتباره قائدها و حاكمها و خليفة للنبي على الخلق ، مثل مكانة الإمام في الصلاة يسوس المصلين و يرشدهم فيقودهم و يقتدون به باعتباره خليفة للنبي فيها. أي « إذا استعمل المسلمون لفظي إمام و خليفة للدلالة على نفس المعنى فإنهم إن أطلقوا لفظ إمام على من يقودهم في صلاتهم و حججهم و يقتدون به في عباداتهم و معاملاتهم. وإذا أطلقوا عليه لفظة خليفة فإنهم يقصدون من وراء ذلك انه يخلف النبي ﷺ في أمته و يقودها حسب توجيهات الإسلام»⁵.

ثانياً : المدلول الاصطلاحي للإمامة

يرتبط المعنى الاصطلاحي للفظ «إمامة» ارتباطاً وثيقاً بلفظ «خلافة» باعتبار أن الإمامة ما هي إلا خلافة و نيابة ، وكلا المصطلحين «إمامة و خلافة» يدلان على القائم على شؤون

¹ - ابن منظور ، لسان العرب ، ج1، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط3، 1999، ص 213

² - المرجع نفسه ص 214

³ - محمد صبحي الصالح ، النظم الإسلامية نشأتها و تطورها ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1965 ص 290

⁴ - سورة الفرقان آية 74

⁵ - محسن عبد الناظر ، مسألة الإمامة و الوضع في الحديث ، عند الفرق الإسلامية،الدار العروية للكتاب [د ط] 1983 ص

الأمة ورعيتهما. فهما مترادفان و دالان على نفس المعنى « فالخليفة أو الإمام هو الحارس للشرعية و هو اليد القوية التي توجه فتبع ، وتنهى فطاع وتأمّر فيستجاب لها »¹ .

ونفهم من ذلك الاشتراك في الاستعمال لكنتا اللفظين ، وجود تقارب كبير وارتباط بينهما من حيث الدلالة باعتبار أن « الإمامة والخلافة لا يجمع بينهما في اللغة أصل واحد إلا أن ارتباطهما في المعنى و الاستعمال الظاهر ظاهر، فكلاهما يفيد تحمل مسؤولية التسيير و القيادة »² .

فقد أطلق على القائم الراعي لشؤون الحكم في الأمة إماما و خليفة، كما استخدم المسلمون للدلالة على هذا الشخص المتولي لشؤون الخلافة إماما وفي الوقت ذاته فهو خليفة .

وما أوردنا هذا الأمر الملتبس إلا لفك وإزالة ذلك اللبس والغموض الذي يكتنف مسألة الإمامة حيث كثر فيها القيل والقال وعلقت عليها الآمال. لذا آن الأوان لكشف حقيقتها حتى تظهر جليلة واضحة للعيان خالية من أي تلفيق أو بهتان، إذ لطالما كانت الإمامة في الإسلام تأخذ معنى الخلافة .

لذا يؤكد " الماوردي " (370-450هـ) في "الأحكام السلطانية" أن « الإمامة أو الخلافة ليست إلا عقدا طرفاه الخليفة من ناحية وأولوا الرأي في الأمة من الناحية الأخرى » .

فكانت بذلك الإمامة هي عبارة عن إتفاق بين أفراد الأمة و بالتحديد أولي العزم منها على اختيار من يمثلهم ويخلفهم لتسيير شؤون الأمة ، فأساس هذا العقد الاختيار والقبول « ولا ينعقد العقد إلا بإيجاب وقبول »³ .

مما سبق يمكننا أن نقف على تعريف للإمامة يشمل تقريبا المدلولين اللغوي والاصطلاحي كما ما يورده " عبد الجبار المعتزلي " في شرح الأصول الخمس محمدا من خلاله حقيقة الإمام مميزا له عن غيره يقول « أن الإمام في أصل اللغة هو المقدم سواء كان مستحقا للتقديم أو لم يكن مستحقا و أما في الشرع ، فقد جعله اسما لمن له الولاية على الأمة و التصرف في أمورهم على وجه لا يكون فوق يده يد احترازا عن القاضي و المتولي فإنهما يتصرفان أمر الأمة و لكن يد الإمام فوق أيديهم »⁴ .

¹ - محسن عبد الناظر ، مسألة الإمامة و الوضع في الحديث ، ص 51

² - المرجع نفسه ص 41

³ - الماوردي ، الأحكام السلطانية ، دار الكتاب العربية ، بيروت لبنان ، 3 ، 1999 ، (هامش الكتاب) ص 39

⁴ - عبد الجبار المعتزلي ، شرح الأصول الخمسة ، ج 2 ، موفم للنشر، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، وحدة الرعاية الجزائر [دط] 1990، ص 380

وإذا كانت الإمامة خلافة نبوية كما سبق و أشرنا من قبل ، فالظاهر من معناها وجود ألفاظ أخرى تشترك معها في هذا المعنى و تتقارب و تستخدم أحيانا كمرادفات لها أو بدائل تدل عليها مثل : الخلافة و الحكم و القيادة و الملك و الولاية ..
لكن الخلافة هي الأكثر قربا واستعمالا . فيا ترى لماذا الإمامة هي خلافة ؟ وما معنى هذه الأخيرة ؟ وما وجه الاشتراك بين اللفظتين خلافة وإمامة ؟

المطلب الثاني : الإمامة و الخلافة و الفرق بينهما

ترتبط الإمامة بالخلافة والولاية حتى أننا أصبحنا نستعمل هذه المصطلحات الثلاث للدلالة على معنى الحاكم و المنفذ للسلطة لكن إذا أمعنا في المعنى اللغوي نجد اختلافات بينهم خاصة و أن الخلافة هي الأكثر استعمالا لدى فقهاء الأمة السنيين و الإمامة هي ما تقول به الشيعة بفرقها المختلفة .

معنى الخلافة

أولا : المدلول اللغوي للخلافة

من حيث الاشتقاق اللغوي لمفرد خلافة نجد أن « الخلافة مصدر خلف يقال خلفه خلافة كان خليفة ، و بقي بعده ، والخليفة هو الإمام أو السلطان و الجمع خلائف و خلفاء والخلافة موضوعة في الأصل لكون الشخص خلفا لأحد و من ثم سمي من يخلف رسول الله ﷺ في إجراء الأحكام الشرعية خليفة »¹.

و عليه كان الخليفة كل من ينوب عن رسول الله في حكم الأمة و تدبير شؤونها فمترلته في الأمة - من حيث التسيير و وجوب الطاعة- كمترلة الرسول ﷺ في المؤمنين إلا أن معنى « الخلافة مقيدة بقوانين دينية شرعية يسوس الخليفة بها أمته ، و يحمل الناس على أحكامها بالنيابة من الرسول ﷺ و من هذا القبيل اشتمال الخلافة على الإمامة »² فالإمامة أخص من الخلافة ، و الخلافة أعم منها و أشمل ، و الولاية تفيد معنى الوصاية على المؤمنين و وجوب الطاعة منهم ، و مع ذلك ينادى الخليفة بإمام المؤمنين و وليهم .

هذا كله يفيد أن معنى الخلافة و الإمامة و الولاية لا يخرج عن مدلول الإقتداء بالنبى ﷺ والنيابة عنه في الأمة لتطبيق الأحكام و تنفيذ الحدود و حفظ الأمن فهو خليفة له في أمته .

¹ - علي حسن الخربوطلي ، الإسلام و الخلافة ، دار بيروت للطباعة و النشر ، بيروت ، لبنان ، [د ط] 1969

ص 29 ، نقلا عن حسين إبراهيم ، النظم الإسلامية ص 20

² - المرجع السابق ص 30

لقوله تعالى ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ﴾¹.

كما ورد لفظ الخلافة عدد من الآيات و الصور ليفيد معنى النيابة ، مثل قول الله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾² و أيضا قوله تعالى لداود ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾³ وقال أيضا ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾⁴ فأفادت الخلافة معنى الإمامة و دلت في معناها على النائب الذي يتولى شؤون الرعية في الأمة خلف لرسول ، الذي هو في الأصل خليفة لله تعالى.

فيتولى مهمة السهر على نشر العقيدة و العدل ولا سيما الأمر بالمعروف ، إذ يؤكد "عبد الجبار المعتزلي" في شرحه للأصول الخمسة ، باب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر اتصال مسألة الإمامة بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر لقوله « و قد اتصل بباب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر الكلام في الإمامة ووجه اتصاله بهذا الباب أكثر ما يدخل في الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر لا يقوم بها إلا الأئمة »⁵.

و إذا كانت الإمامة تقترب بالصلاة عند البعض فإن للإمام "ابن حزم" (384-456 هـ) الإمام الظاهري في ذلك مقولة إذ « يذكر حديثا رواه أبو بكر و قد نطقه النبي ﷺ بمحضر منه و من سعد بن عبادة رأس الأنصار قال أبو بكر: علمت يا سعد أن رسول الله قال و أنت قاعد «إن الأئمة من قريش و الناس برهم تبع لبرهم و فاجرهم تبع لفاجرهم» قال له « صدقت »⁶.

و يحاول في هذا الموضوع أن يميز و يفصل بين الإمامة و الخلافة فيرى بن حزم أن الصلاة لا علاقة لها إذن بالخلافة و « ليست عليها علة الصلاة ، لأن الصلاة جائز أن يليها العربي و المولى و العبد و الذي لا يحسن سياسة الجيوش و الأموال و الأحكام و السير الفاضلة و أما

1 - سورة النور آية 55

2 - سورة الأنعام آية 165

3 - سورة "ص" آية 26

4 - سورة البقرة آية 30

5 - عبد الجبار المعتزلي ، شرح الأصول الخمسة ، ج 2 ، موفم للنشر، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، وحدة الرعاية

الجزائر [دط] 1990، ص 380

6 - ابن حزم ، الإحكام

الخلافة فلا يجوز أن يتولاها إلا فريشي صليبه عالم بالسياسة ووجوهها وأن لم يكن محكما للقراءة وإنما الصلاة تبع للإمامة وليست الإمامة تبعا للصلاة ¹ « فالإمامة هي الأصل والصلاة فرع من فروعها بحسب تصور بعض المفكرين كابن حزم الأندلسي .

في حين يضيف "بن خلدون" (732-808هـ) تأكيدا جازما يبرز ارتباط لفظي « الإمامة والخلافة » في تحديده لتعريفهما فيقول « إن حقيقة هذا المنصب أنه نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا به . تسمى خلافة و إمامة و القائم به خليفة وإمام ² .

وهذا يدل على أن لهما نفس المدلول مع فارق بسيط في المعنى يوضحه كما يلي « فأما تسميته إماما فتشبيها بإمام الصلاة في إتباعه والإقتداء به ولهذا يقال الإمامة الكبرى، و إما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في أمته فيقال خليفة بإطلاق وخليفة رسول الله ³ » إذ غالبا ما يستعملان - إمامة و خلافة - كمترادفان تحمل كل منهما مدلول الأخرى من حيث المعنى والمهام أيضا « فالإمامة مصطلح يعني الخلافة في الدين وحفظ الرسالة و تبليغهما بحيث يجب إتباع من يقوم مقامها وهو الإمام على كافة الأمة ⁴ .

و في الوقت ذاته نلاحظ أن « الخلافة مصطلح يعني الإمامة وهي على قسمين : خلافة صغرى وهي الإمامة و الرئاسة الظاهرية السياسية على الناس ، و خلافة كبرى وهي الإمامة و الرئاسة الباطنية ، وهذه تحققت للإمام علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- ⁵ فهما تشركان في كون كل منهما نيابة عن الرسول ﷺ في حكم أمته وتدبير شؤنها.

ثانيا : المدلول الاصطلاحي للخلافة

لا يختلف كثيرا المعنى الاصطلاحي للفظ « خلافة » عن معناها اللغوي فالخليفة هو من يخلف غيره وينوب عنه. وحسب الماوردي « يسمى خليفة لأنه خلف رسول الله عليه الصلاة والسلام في أمته ، فيجوز أن يقال: يا خليفة رسول الله وعلى الإطلاق فيقال الخليفة ⁶ .

¹ - عبد المجيد تركي ، مناظرات في أصول الشريعة الإسلامية بين بن حزم و الباجي ، ترجمة و تحقيق : عبد الصبور شاهين ، دار

الغرب الإسلامي ، بيروت لبنان ، ط 1 ، 1986 ، ص 392 ، نقلا عن ابن حزم :الإحكام ، ج 7 ص 125

² - عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة المسماة ديوان المبتدأ والخير ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان

ط 1، 2004 ، ص 232

³ - المرجع نفسه ص 204

⁴ - ممدوح الزوي ، معجم الصوفية، دار الجيل للنشر و الطباعة و التوزيع ، ط 1 ، 2004 ، ص 40

⁵ - المرجع نفسه ص 155

⁶ - الماوردي، الأحكام السلطانية ص 50

بالتالي فالخليفة هو من ينوب عن الرسول ﷺ ومن يتركه مكانه بعده باعتبار أن «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا»¹ فيتولى الخليفة مهام النبي ويعمل على إتمام دوره فهو نائب عنه .

وهذا المعنى يورده أيضا العلامة "بن خلدون" في مقدمته لقوله «أن حقيقة الخلافة نيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا». فالإمامة هي خلافة نبوية نراعي فيها مصالح العباد «فصاحب الشرع متصرف في الأمرين: أما في الدين فبمقتضى التكليف الشرعية التي هو مأمور بتبليغها وحمل الناس عليها ، وأما في سياسة الدنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم في العمران البشري»² فالخلافة أو الإمامة تكليف بهذا المعنى وأمانة تستوجب من صاحبها القيام بها على أكمل وجه، لأنه نائب عن النبي .

أما الشيخ الجليل "أحمد بن تيمية" (661-728هـ) فركز على وزن الكلمة ليستدل على معناها فقال «الخليفة هو من كان خلفا عن غيره، فعلية بمعنى فاعلة» ، و يضيف الإمام في التوضيح استشهادا بسنة الرسول الكريم إذ «كان النبي ﷺ إذا سافر يقول: اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل» و قال الرسول الكريم ﷺ أن «من جهز غازيا فقد غزا ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا»³ .

وأخذت الخلافة في جميع الحالات معنى النيابة عن النبي ﷺ واستخلافه ، لكنها الآن ارتبطت أكثر بمصطلح الحكم والحكومة والسلطة والملك.. وتداخلت هذه الألفاظ فيما بينها واتحدت وتنوعت التسميات والمصطلحات وسمي القائم بالإمامة أمير المؤمنين ، السلطان الخليفة، الحاكم.. وغيرها من الألقاب الدالة على صفة الحكم و الرئاسة.

و برغم هذا التعدد في التسميات و التنوع في الاصطلاحات المرادفة للفظ "إمامة" تظل معانيها متقربة مثل «الخلافة والإمامة العظمى وإمارة المؤمنين: ثلاث كلمات معناها واحد وهو رئاسة الحكومة الإسلامية الجامعة لمصالح الدين والدنيا ..»⁴ .

و قد سمي من أتى بعد رسول الله ﷺ و ناب عنه في حكم أمته بالخليفة حيث تعاقبت الخلافات واحدة بعد الأخرى ، ورغم تغير أسمائها و مسمياتها و طرق ممارستها ، إلا أنها قد عنت جميعها مسألة النيابة عن الغير، ولو عدنا إلى أول من لقب بذلك اللقب في الإسلام بعد النبي

¹ - الماوردي، الأحكام السلطانية ص 29

² - عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص 232

³ - أحمد بن تيمية ، الخلافة والملك ، شركة الشهاب للنشر و التوزيع ، الجزائر ، [دط] ، [دت] ، ص 50

⁴ - محمد السيد رضا ، الخلافة ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة مصر 2، 1988، ص 17

لظهر لنا أمر هام يتعلق ببدايات اعتماد ذاك اللقب عند المسلمين « وذلك أنه لما بويع أبو بكر رضي الله عنه وكان الصحابة - رضي الله عنهم - وسائر المسلمين يسمونه خليفة رسول الله ﷺ وبعد موته خلفه في الحكم عمر - رضي الله عنه - واستمر اللقب مع الإضافة إليه « فلما بويع لعمر بعهدده إليه كانوا يدعوناه خليفة خليفة رسول ﷺ »¹.

ولما طالت هذه التسميات صار كل من اعتلى عرشا خليفة .. وزعيما للأمة باعتبار « أن الله جلت قدرته ندب للأمة زعيما خلف به النبوة وحاط به الملة ، وفرض إليه السياسة ليصدر التدبير عن دين مشروع و تجتمع الكلمة على رأي متبوع، فكانت الإمامة أصلا عليه استقرت قواعد الملة وانتظمت به مصالح الأمة »².

وقد ورد في القرآن الكريم آيات بيّنت توضح مسائل شتى من الإمامة كضورتها و وجوبها ومكانتها ، منها قول الله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾³ أيضا قوله - جل وعلا- ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾⁴ ، و ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾⁵ . وغيرها من الآيات التي احتوت كلمة إمام وأخرى كلمة خليفة « و دلت على اعتمادهما في الحكم الإسلامي كمرادفين أو كدالين على الشخص الذي يسير شؤون الأمة ويتولى السلطة فيها.

فأصبح المعنى المسيطر والمتربع على عرش الإمامة هو الحكم، إذ ساد هذا المصطلح وهيمن على الساحة السياسية. مما دفع بالمفكر "عبد العزيز الثعالبي" إلى القول « أما الإمامة الشرعية فمعناها في الأصل الحكومة أو الحكم وهي ظاهرة اجتماعية بارزة تتكيف بحسب عقلية وقابلية الأمة وفلسفتها ووجهتها في التمدن والرقى أو الجهل والانحطاط »⁶ .

و نستنتج مما سبق ذكره أن الإمامة مسألة ارتبطت من حيث معناها بدالتين هامتين:

الأولى: دلالتها على معنى الحكم والرياسة وجانب السلطة والملك.

أما الثانية: فافتراضها بالنبوة وبذلك التقديس الإلهي والتكليف الرباني فهي خلافة نبوية واستكمال للرسالة الإلهية. باعتبار الإمام خليفة للنبي و متمم لأعماله.

¹ - عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص 240

² - الماوردي ، الأحكام السلطانية، مقدمة الكتاب

³ - سورة البقرة آية 30

⁴ - سورة الأنعام آية 165

⁵ - سورة الفرقان آية 74

⁶ - عبد العزيز الثعالبي ، محاضرات في التفكير الإسلامي والفلسفة ، دار الغرب الإسلامي ، ط 1، 1991، ص 268

و بناء على ما سبق ننتهي إلى النظرية التالية في الإمامة حسب استقراءنا لتاريخها الطويل والإطلاع على زبدة آراء المفكرين حولها، مفاده أن نظام الخلافة في الإسلام قد قام على أساس أنه رئاسة عامة في أمور الدين وشؤون الدنيا، نيابة عن النبي عليه أفضل صلاة وأزكى سلام حيث يتولى الخليفة حراسة الدين وسياسة الدنيا، ولأجل هذه الغاية، كان للإمامة كل الأهمية و المكانة لدى المسلمين .

المطلب الثالث : حكم نصب الإمامة و أحلتها

أولاً : حكم نصب الإمامة

إن الفرق الإسلامية على اختلافها وتعددتها تقرّ بوجود الإمامة بل وتتشدّد في مسألة تعيين الإمام « والحق أن وجوب الإمامة عند المسلمين جميعاً ثبت بالإجماع »¹ و ما ذلك إلا لما احتلته من مكانة هامة تكمل مهام النبوة، إذ كما سبق و قلنا عنها عند تعريفها « الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا وعقدتها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع وإن شذ عنهم الأصم»² . وقد سارع صحابة رسول الله ﷺ عقب وفاته إلى مبايعة أبي بكر -رضي الله عنه- لخلافة النبي ﷺ وأجمعوا على بيعته لحفظ الأمة، فعلم بذلك ضرورة الإمامة « ثم إن نصب الإمام واجب قد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين، لأن أصحاب رسول الله ﷺ عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر - رضي الله عنه- وتسليم النظر إليه في أمورهم، وكذا في كل عصر من بعد ذلك ولم يترك الناس فوضى في كل عصر من الأعصار، واستقر ذلك إجماعاً دالاً على وجوب نصب الإمام »³ .

فلا يمكن إغفال دور الإمام في حفظ الشرع والذود عنه وما التسريع في نصب إمام خلفاً للرسول ﷺ إلا دليل على ذلك. و"بن حزم" يرى إقامة إمام فرضاً لازماً على المسلمين وأنه لا يحل للمؤمنين أن يبيتوا ليلة وليس في عنقهم بيعة لإمام . وهو ما اتفق عليه الفقهاء المسلمين وما تعارف عليه الناس منذ عهود فيه أن « الأمة الإسلامية واجب عليها الانقياد لإمام عادل يقيم فيها أحكام الله ويسويهم بأحكام الشريعة التي أتى بها رسول الله ﷺ »⁴ .

¹ - محمد صبحي الصالح ، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، ص 286

² - الماوردي ، الأحكام السلطانية ص 29

³ - عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ص 160

⁴ - محمد أبو زهرة ، الإمام بن حزم، دار الفكر العربي ، القاهرة مصر ، [د ط]، [د ت] ، ص 234، 235 ، نقلاً عن بن حزم ، الفصل في الملل والنحل ، ص 78 ،

فالسُّـوْلُ ﷺ أشد خوفًا على أمتِه وأكثر حرصًا على سلامتها بعده وكل ذلك يجعله يشدد على ضرورة طاعة أولي الأمر بعده وعدم الخروج عنهم حتى لا تقع الأمة في الفتنة.

ثانياً: حجة وحليل وجوب الإمامة

ورد في القرآن والسنة ما يشير إلى وجوب نصب الإمام وطاعته برعاية مصالح العباد وتجنيب الأمة الفتن والقتال لقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾¹ فأولياء أمور المسلمين بعد الله - عز وجل - والرسول ﷺ هم أئمتهم وحكامهم ورعائهم ، فطاعتهم واجبة في غير معصية الله لأن الإمام خليفة لرسول الله ﷺ ومستخلف من الله تعالى.

لما ورد في القرآن الكريم من الدلائل المبرزة لذلك ، كقوله - عز وجل - ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾² كما قال الله تعالى في حق داود ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾³ وقال أيضا سبحانه و تعالى في حق آدم - عليه السلام- ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾⁴ . كما ثبت أيضا أن الرسول ﷺ قال « من مات وليس في عنقه بيعة إمام مات ميتة جاهلية »⁵ فلا بد للأمة من شخص مطاع يلزم أفرادها بإتباع الشرع ..

لكن هذا الوجوب أساسه الشرع لا العقل، بمعنى ورد في الشرع تأكيد على تولية أمور المؤمنين من قبل إمام مطاع إذ « أجمع سلف الأمة وأهل السنة و جمهور الطوائف الأخرى على أن نصب الإمام أي توليته على الأمة واجب على المسلمين شرعا لا عقلا »⁶ .

فلا يتوقع خلو العالم من إمام يسوس الأمة ، فالشرع والدين واضحان في هذه المسألة لحفظ الثغور وكف الفتن ، و عليه « إن إقامة حاكم أعلى للدولة في الإسلام - أيا كان لقبه- أمر واجب شرعا وعقلا فالشريعة الإسلامية معقولة الأحكام والغايات ولا يتعارض العقل السليم مع أحكامها »⁷ .

¹ - سورة النساء ، آية 59

² - سورة الأنعام ، آية 165

³ - سورة ص ، آية 26

⁴ - سورة البقرة ، آية 30

⁵ - رواه مسلم و أحمد

⁶ - محمد السيد رضا ، الخلافة ص 18

⁷ - محمد كامل ليلة ، النظم السياسية الدولة والحكومة ، دار النهضة العربية ، بيروت لبنان ، [د ط] 1969 ، ص 436

فما أوجب الإمامة ، هو الشرع و السماع ، لا العقل. نظرا لاختلاف العقول وميلها إلى الزعامة في حين أن الشرع دعا إلى موالاته أولى الأمر وكلفهم بمهام جليلة منها حفظ أحكام الدين، فالحق « أن الإمامة فرض لازم لأن قيام الناس بما أوجبه الله تعالى من الأحكام في الأمور والجنایات والدماء والنكاح والطلاق وسائر الأحكام ومنع الظالم و إنصاف المظلوم وأخذ القصاص يحتاج إلى رئيس فإن الناس لا يصلحون فوضى و لا تقام تكاليف الدين مع هذه الفوضى »¹ فظهر من ذلك أن نصب الإمام في الأمة من الأمور الضرورية لحاجة الناس إلى من ينظم مصالحهم و يرفع شؤونهم.

¹ - محمد أبو زهرة ، الإمام بن حزم ، ص 234 ، نقلا عن : بن حزم ، الفصل في الملل والنحل ، ص 78

المبحث الثاني : كيفية نصب الإمامة و انعقادها

إن وجوب نصب الإمامة يفترض وجود طريقة تتعقد من خلالها، تكون هذه الطريقة مقبولة لدى الكافة غير مبتدعة، توافق ما سار عليه أهل السنة والجماعة ولا تخالف الشرع ولا تناقض ما جاء فيه، وقد كان السلف الصالح يعقد الإمامة لمن تحب له « بالبيعة ». وهي الطريقة المتفق عليها حسب ما وصلنا من الأخبار عن الرسول ﷺ والصحابة الكرام لنصب الإمامة و ثبوتها للمطالب بها . رغم الاختلافات في كيفية المبايعة ، وإنكار البعض لها.. إلا أن التاريخ السياسي يذكر أن كثيرا من الدول والحكومات قامت لما انعقدت البيعة لأصحابها .

- فما هي البيعة و كيف تتعقد بها الإمامة ؟

المطلب الأول : انعقاد الإمامة بالبيعة و الاختيار

أولا : المدلول اللغوي للبيعة

للإحاطة بالمدلول اللغوي لمصطلح "بيعة" ارتأينا أن نعود إلى اشتقاقها اللغوي فظهر لنا أن « بيعة مصدر باع وصارت البيعة مصافحة بالأيدي هذا مدلولها في عرف اللّغة ومعهود الشرع »¹. فهي ترتبط بما يقوم به البائع من عهود و عقود رغم ما يفصلها و يميزها عنه باعتماد على مبدأ الإيجاب و القبول مما جعل العلامة "بن خلدون" يؤكد على أن عملية البيعة تشبه عملية البيع والشراء . و يبرر "بن خلدون" موقفه هذا محمدا مفهوم البيعة بقوله « اعلم أن البيعة هي العهد على الطاعة كأن المبايع يعاهد أميره على انه يسلم له النظر فيأمر نفسه و أمور المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك و يطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكروه ، كانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيدا للعهد فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري فسمي بيعة »² . و أشهر البيعات بيعة النبي ليلة العقبة عند الشجرة و بيعة الخلفاء..و بمقتضى البيعة يرعى الحاكم مصالح الأمة.

¹ - عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة، ص 222

² - المرجع نفسه ص 222

ثانيا : المدلول الاصطلاحي للبيعة

البيعة هي العهد الذي بموجبه يتولى المتقدم للإمامة منصب الإمامة فيه يطاع و به يقوم بواجباته وأساسها الاختيار باعتبار أن « الخليفة عند أهل السنة رجل من عامة المسلمين صار اختياره لهذا المنصب لفضله وشرفه وأخلاقه ومقدرته على الاضطلاع بأعباء الحكم إذ لم ينص رسول الله على خليفة »¹.

فكثير من الدول الإسلامية قامت عبر التاريخ بواسطة البيعة ، وما يزال استخدام هذه الأخيرة معمول به رغم تطورها ودخول بعض التعديلات عليها إذ « تقوم على أساس التعاقد، والعقد هنا يتم بين الرعية (الشعب) والحاكم بقصد التعاون على البر والتقوى و دفع الإثم والعدوان »² معنى ذلك أن الإمامة والحكم أساسها التعاقد والاتفاق، فلا ينصب الفرد إماما وخليفة للأمة إلا بموجب اتفاق يكون طرفاه الحاكم والشعب، أو ما يمثله من أولي العزم.

لكن هناك طريقة أخرى تتم من خلالها البيعة ظهرت من خلال تعريفنا لها و هي العهد - لكن ما معنى العهد؟ ولماذا يشترط في مبايعة الخليفة ؟

ثالثا : معنى العهد :

« يقصد به الأمان و اليمين و الموثوق و الذمة والحفاظ والوصية... ومنه اشتق العهد الذي يكتب للولاية »³.

وما العهد إلا طريقة أخرى لنصب الإمامة شبيهة بالبيعة يوردها الماوردي في الأحكام السلطانية الذي اعتبر الإمامة عقد مبايعة و هذه « الإمامة تنعقد من وجهتين : أحدهما باختيار أهل العقد والحل، والثاني بعهد الإمام من قبل »⁴ كما هو حال الخلفاء بعد رسول الله ﷺ ، فقد سارع الصحابة إلى استخلاف أبي بكر (ض) نيابة عن الرسول ﷺ وفي هذا اختيار وتشاور لتأكيدته تعالى على ضرورة اعتماد مبدأ الشورى بهدف صلاح حال الأمة في الآية الكريمة ﴿ وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾⁵.

و إذا كانت الإمامة تنعقد في الحالة الأولى بالبيعة و اختيار أفاضل الأمة و اتفاقهم على قبول شخص معين لذلك المنصب فإنها في الحالة الثانية لانعقادها تتم بموجب عهد من السابق

1- علي حسن الخربوطي، الإسلام والخلافة، ص 38

2- محمد كامل ليلة ، النظم السياسية الدولة والحكومة، ص 432

3- إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح تاريخ اللغة و صحاح العربية، ج2، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان ط 4 ، 1990

4- الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص 33

5- سورة الشورى آية 38

إلى اللاحق بالخلافة من بعده . و قد أقر فقهاء الأمة تلك الطريقة مما حصل في خلافة "بن الخطاب" حيث عهد أبو بكر إلى عمر -رضي الله عنهما- بالخلافة وهذا حال بني أمية أيضا ومن تلاهم، حيث كان الملوك يأخذون العهد بالبيعة لأبنائهم قبل وفاتهم " فلما دنت وفاة أبي بكر قال لكبار الصحابة : تشاوروا في هذا الأمر ، ثم وصف لهم، عمر- رضي الله عنه- بصفاته ورأى أن يعهد إليه بالخلافة من بعده ¹ « فصح انعقاد الإمامة بالبيعة من خلال أخذ العهد للشخص المتصدي لها، المطالب بالحكم ... ليقوم مكان النبي في تسيير أمته.

المطلب الثاني : حكم البيعة

إن مبايعة الخليفة تكون من قبل الأمة التي سترأسها وأفرادها الذين سيطبق عليهم سلطته لكن هل كل فرد من أفراد الأمة مطالب بالذهاب إلى الإمام ومبايعته ؟ وهل الإمامة ونصبها فرض عين لازم أم هي فرض كفاية ؟ الحقيقة أنه إذا ارتحل كل فرد من أفراد المدن والقرى لمبايعة الإمام خللت مساكنهم وتعطلت مصالحهم و تعذر الترحال.. وعليه « اتفق أهل السنة على أن نصب الخليفة فرض كفاية وأن المطالب به أهل الحل والعقد في الأمة ووافقهم المعتزلة والخوارج على أن الإمامة تنعقد ببيعة أهل الحل والعقد ² .

فلا بد من وجود زعماء ونواب لأفراد الأمة كالعلماء والفقهاء ، الولاة والقضاة يجمعون على خليفة مختار من قبلهم للأمة يقدمون له الولاء و الطاعة و يبائعونه ليصير إماما وخليفة على الأمة «وإنما تصحّ المبايعة باتفاقهم أو اتفاق الرؤساء الذين يتبعهم غيرهم ومن لم يتبعهم بالاختيار سهل عليهم إكراهه بقوة الأمة على الطاعة والانقياد.. ³ .

وأساس البيعة الاتفاق في الاختيار بين أهل الحل والعقد الذين يختارون بروية بين الأفراد المتقدمين للإمامة عن تشاور وروية و إجماع لقوله تعالى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ ⁴ .
و ذلك « أن الأصل في المبايعة أن تكون بعد استشارة جمهور المسلمين واختيار أهل الحل والعقد ولا تعتبر مبايعة غيرهم إلا أن تكون تبعاً لهم .. ⁵ .

¹ - محمد صبحي الصالح ، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها ، ص 284

² - محمد السيد رضا ، الخلافة ، ص 18

³ - المرجع نفسه ، ص 19 ، 20

⁴ - سورة آل عمران آية 159

⁵ - المرجع نفسه ، ص 251

المطلب الثالث : شروط البيعة

إن شروط البيعة الاختيار من الكافة والقبول والرضا من الأطراف المشاركة في هذا العقد لنصب الإمام « لأنها عقد مرضاة واختيار لا يدخله إكراه ولا إجبار »¹.

فيتفق أولوا العزم الذين سيحددون من يصلح للإمامة فإن حدث وأن اتفقوا على شخص محدد، أو ذهب أكثرتهم إليه اختاروه لها و عرضوها عليه إن قبلها حقت له و إن رفضها فلا يكره عليها و هذا ما سار عليه المسلمون في المجال السياسي إذ « ذهب جمهور الفقهاء والمتكلمين إلى أن الإمامة لا تنعقد إلا بالرضا والاختيار »².

فالإمامة لا تنعقد إلا بطريقة واحدة ألا وهي البيعة و لا سبيل إليها إلا بها ، و تتمثل في «اختيار أهل الحل والعقد للإمام أو الخليفة » و عليه « فالإمامة أو الخلافة ليست إلا عقدا طرفاه الخليفة من ناحية وأولوا الرأي في الأمة من الناحية الأخرى و لا ينعقد العقد إلا بإيجاب وقبول وتكون من كلا الطرفين »³.

رغم أن طائفة من الشيعة وخاصة الروافض والغلاة رأوا أن طريق الإمامة النص والتعيين من الله على لسان رسوله ﷺ ، لكن رأيهم مناف للإجماع وقد تكفل الإمام "الغزالي" وأيضاً "ابن تيمية" بالرد على دعواهم و إبطالها. فها هو " الغزالي" يؤكد قيام الإمامة بالبيعة فقط وأن « الإمام من انعقدت له البيعة من أكثر الخلق والمخالف للأكثر باع يجب رده إلى الانقياد إلى الحق »⁴ ..

وسانده في هذا الرأي " بن تيمية" الذي ربط بين الإمام والبيعة من الأكثرية وحسبه « الإمام متى صار إماماً فذلك بمبايعة أهل القدرة له »⁵.

وحتى تكون البيعة قائمة في حق صاحبها يتطلب ذلك وجود جانب مؤيد له سمي "الشوكة" التي تتردد كثيرا لدى "بن خلدون" و هذه الشوكة سيأتي الحديث عنها لاحقا باعتبار توفرها شرطا ضروريا لكل متصد للإمامة.

1 - الماوردي ، الأحكام السلطانية، ص 35

2 - المرجع نفسه ، ص 37

3 - المرجع نفسه ، هامش الكتاب ، ص 39

4 - أبو حامد الغزالي ، قواعد العقائد في التوحيد، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، [د ط] ، [د ت] ، ص 97

5 - أحمد بن تيمية ، منهاج السنة النبوية ، في نقض كلام الشيعة القدرية ج1، مكتبة المعارف ، المغرب ، ط1، 1998 ص 190

المبحث الثالث: أهمية الإمامة و علاقتها باحتدام الصراع بين السنة و الشيعة

المطلب الأول : مكانة و أهمية الإمامة في الفكر الإسلامي

اكتسبت الإمامة أهمية بالغة في حياة الناس ولعبت دورا فعّالا في تطور المجتمعات الإسلامية باعتبارها قيادة عامة للأمة من ناحية ، و من ناحية أخرى سياسة للرعية و حسن تدبير شؤونها « و لا ريب أن الله سبحانه و تعالى لا يترك عباده هملا و يدعهم سدى بلا راع يرعاهم و لا إمام يعمل فيهم بأمر الله و يقيم حدوده و ينفذ شرائعه و يحيي سننه و يميت البدع و الخرافات »¹.

لذا كان لزاما على أفراد الأمة تعيين إمام للأمة ليتولى شؤونها و يدير أمورها فلا ينال هذا المنصب إلا من استحقه عن جدارة و توافرت فيه الشروط الإمامة و بهذا يجترس أن يتربص بها المتربصون أو يحتكرها المحتكرون أو تتخذ الإمامة ذريعة للظلم و العدوان و الاستغلال فتتحرف عن وظيفتها النبيلة جارفة ورائها آمال الأمة و أماني الرعية كاشفة عن المكر و الخداع و الفرص الانتهازية...

ولهذه الأسباب دعت الحاجة إلى قيام الإمامة و نصب الإمام يقول عن ذلك عبد الجبار المعتزلي « اعلم أن الإمام إنما يحتاج إليه لتنفيذ هذه الأحكام الشرعية نحو إقامة الحد و حفظ بيضة البلد و سد الثغور و تجهيش الجيوش و الغزو و تعديل الشهود و ما يجري هذا المجرى و لا خلاف في أن هذه الأمور لا يقوم بها إلا الأئمة »².

فكان نصب الإمام من الضروريات عند المعتزلة وغيرها باستثناء البعض وهذا ما يؤكد أحد أعلامها "عبد الجبار المعتزلي" في قوله « اعلم أن من مذهبنا أن الزمان لا يخلو من إمام ولسنا نعني به أنه لا بد من إمام متصرف فالمعلوم أنه ليس، و إنما المراد به ليس يجوز خلو الزمان ممن يصلح للإمامة ثم أن العلم بحاجة إلى الإمام لا يجوز أن يكون عقليا بل إنما تعلمه شرعا »³. فالحاجة إلى نصب الإمام مما هو متفق عليه لما للإمام من وظائف و أدوار لا يمكن أن يقوم بها غيره من الخلق.

1- عاطف سلام ، الوحدة العقائدية عند السنة و الشيعة ، دار البلاغة للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت لبنان ط 1،1987 ص287

2- عبد الجبار المعتزلي ، شرح الأصول الخمسة، ج 2 ، ص 381

3- المرجع نفسه ص387

لطالما ارتبطت مشكلة الخلافة بالحياة السياسية و شؤونها و تشعب البحث فيها إذ يقول المفكر «عبد المتعال الصعيدي» (1313-1377هـ) في هذا الشأن « أما مسألة الخلافة فأمرها متشعب كل التشعب و للسياسية إصبع ظاهرة فيها و قلما يتفق الناس في أمر تدخل السياسة فيه بإصبعها على أن الخلافة يرجع أمرها إلى المسلمين كافة فلا يصح أن يقضي فيها بمثل هذا التحكيم وإنما يجب أن يترك أمرها للمسلمين ، فلا يملكون عزل الخليفة القائم إلا بسبب يوجب العزل»¹.

فالخلافة - في مجملها - لها حكمة إلهية و غاية وجدت لأجلها منها حماية مصالح العباد و حفظ الدين و هذه الأهمية تتأكد في قول بن خلدون « و إذا نظرت سر الله في الخلافة لم تعد هذا ، لأنه سبحانه إنما جعل الخليفة نائبا عنه في القيام بأمر عباد ليحملهم على مصالحهم و يردهم عن مضارهم »².

لكن بالعودة إلى التاريخ السياسي للإسلام و المسلمين نجد أن النبي ﷺ لم ينص على خليفة بعينه من بعده بل ما حدث بعد وفاة النبي ﷺ هو اتجاه الناس إلى مبايعة أبي بكر الصديق بالخلافة « فقيل أنه خليفة رسول الله و لم يتحدد نطاق حكومته كما لم يتحدد المقصود بكلمة خليفة والواقع أن كلمة الخليفة التي لقب بها أبو بكر الصديق تعني : من تبع النبي وتلاه في الزمان، ولا يفيد المعنى القانوني الذي هو وارثه كل الحقوق وكافة الالتزامات»³.

فقد ثبت أن النبي ﷺ لم يستخلف أحدا من بعده كما لم يحدد القرآن و لم يشير إلى أي حكومة أو خلافة بعد وفاته ﷺ بل ترك للناس الحرية في الاختيار و التعيين على أساس الشورى كما لم تنص الشريعة على نظام حكم معين و واضح المعالم و لم تحدد إماما بعينه .

المطلب الثاني : الإمامة أساس الصراخ المذهبي بين السنة و الشيعة

هكذا احتلت مسألة الإمامة مكانة هامة في الفكر الإسلامي و تاريخه ، فبغض النظر عن ضرورة قيامها في الأمة ، و غاياتها لا ننسى أبدا أن « مسألة الإمامة أو الخلافة هي الأصل الذي فرق المسلمين »⁴ . و هو الذي شتت شملهم في عهودهم الأولى ، و ضرب وحدتهم

1- عبد المتعال الصعيدي ، القضايا الكبرى في الإسلام ، دار آشريفة للطباعة و النشر و التوزيع ، بوزريعة الجزائر

[د ط] ، [د ت] ، ص 174

2- عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة، ص 209

3- محمد سعيد العشماوي ، جوهر الإسلام ، الوطن العربي ، بيروت لبنان ، ط 1، 1984، ص 51

4 - مصطفى حلمي ، نظام الخلافة بين أهل السنة و الشيعة ، دار الدعوة للطبع و النشر و التوزيع ، الإسكندرية مصر، ط1، 1988، ص 40

وكان سببا رئيسيا في اختلاف آرائهم وانعكس ذلك على أوضاعهم بمختلف جوانبها وإذا تأملنا النظريات و الأفكار السياسية التي صاغها مفكروا الإسلام منذ بداية عهودهم سنجدها تدور حول موضوع الإمامة معتمدين فيها على تجربة الرسول ﷺ مستمدين من حكمه وخلافته أساسا لنظرياتهم السياسية التي اتحدت و تشابهت من حيث المبادئ واختلفت من حيث أشكالها و ممارستها.

فالاتفاق بين الفرق الإسلامية حول أهمية وجوب نصب الإمام ، قائم و هو محل إجماع الأكرية منهم عدا طائفة الخوارج و الأصم « و لقد أجمعت الفرق الإسلامية على أن السلطة ضرورية لبقاء الشريعة و ديمومتها فقيامها واجب من واجبات الدين، إذ لولاها لما وجد مطبق لأحكامه و ناشر لتعاليمه و منظم لمجتمعه... »¹.

لكن هذا الإجماع على وجوبها لا يخفي الاختلاف حول مضمونها و شروطها و من يقوم بها .. فلأجله ثارت تائرة المطالبين بها و سقطت في سبيلها الأرواح حتى كرهها الناس و نهي العلماء عن الخوض فيها بل « و ظن هؤلاء أن المتسبب في كل هذه البلايا إنما هي الإمامة فكرهوها و طلبوا من المسلمين اعتزالها و تطرف جماعة ، فقالوا أنها أصل كل داء و رأس كل بلاء »².

وفي خضم هذا الصراع السياسي حول الإمامة ، برزا إلى الوجود تياران ، أحذا يتعاضمان تدريجيا، اتسع بينهما الخلاف حولها، و ازدادت الهوة بينهما مع اتساع نطاق الخلافات المذهبية و المسائل الكلامية و هذان التياران هما تيارا السنة و الشيعة ، فقد مثلا عملاقان متقابلان في الفكر الإسلامي .

و رغم اختلافهما في جوانب عديدة « تنفق الفرقتان على أن النبي ﷺ جمع بين السلطتين الدينية و السياسية ، وبهذا أرسيت قواعد الحكومة الإسلامية، فالإسلام دين جامع للدينا و الدين »³ بمعنى الاشتراك في فكرة وجوب نصب الإمام ، و خلافته للنبي و مراعاة مصالح الأمة بقيامه بوظائفه و واجباته إلا أن الاختلافات بينهما في أساسيات الإمامة و مبادئها هي التي تفصل بينهما إذ نرى « أن مسألة الإمامة هي حجر الزاوية في العقيدة الشيعية ، ولكنها

1- محسن عبد الناظر ، مسألة الإمامة ، ص 51

2- المرجع نفسه ص 60

3- مصطفى حلمي ، نظام الخلافة بين أهل السنة و الشيعة ، ص 13

عند أهل السنة من المصالح العملية التي يفوض فيها الأمر إلى الأمة الإسلامية¹ فقد كانت الإمامة عند الشيعة تحتل الصدارة في عقيدتهم فهي من أهم الأصول العقائدية بل و حتى الأركان الإيمانية أما عند أهل السنة و الجماعة فعلى الرغم من الأهمية التي تمثلها لم تكن محورا و ركنا أساسيا للدين كالشهادتين و الصلاة.

و بسبب الإمامة و تداعياتها نشب الصراع بين الشيعة و السنيين ، و احتدم عبر التاريخ لينتقل من صعيد السياسة إلى صعيد الفكر في جميع ميادين من الفن و الأدب و الشعر و حتى العمران .. فصاحب الخوض في مسألة الإمامة إبداع فكري و ثقافي خلاق أثرى الساحة الثقافية و اصطبغت به البيئة الإسلامية.

المطلب الثالث : الإمامة من الصراع السياسي إلى الإبداع الفكري والعقائدي

لقد تسببت الخلافات حول السلطة في صراعات سياسية دامية ، من سفك للدماء و هتك للأعراض و استبيحت لأجلها الأموال، حتى اعتبرت طوائف من الناس الحكم يورث و هو ملك لفئات دون أخرى لاسيما بعد أن خابت الآمال في الحكومات المتعاقبة بعد الحكومات الرشيدة إذ « كان الناس يأملون خيرا كبيرا في ظهور الدولة العباسية بعد الدولة الأموية ، و يرجون أن تعيد عهد الخلفاء الراشدين فتكون دولة تحقن فيه الدماء و تحترم فيها العهود و يقوم فيها الحكم على الشورى . و لكنها لم تكد تقوم حتى ضاع أمل الناس فيها و استبد ملوكها بأمر الرعية و اعتقدوا التقديس في ملكهم بقرابتهم من النبي ﷺ فأخذوا يتصرفون فيه بصرف من يعتقد العصمة في نفسه ولا يخشى رقبيا من الناس عليه »².

و يصف المفكر " عبد المتعالي الصعيدي " حال هؤلاء الملوك الذين أغوتهم شهوة الملك فكانوا سببا في زيادة الفتن و احتدام الصراع بين الطوائف و المذاهب قائلا أنهم « قد أباحوا لأنفسهم في ذلك ما سفكوا من دماء و ما نقضوا من عهود حتى بلغ من أمرهم أن يجعلوا ولاية العهد سلعة تباع و تشتري و لم يحصل هذا في عهد بني أمية »³.

و يعكس لنا " أبو حامد الغزالي " (450 - 505هـ) في كثير من مؤلفاته لا سيما المنقذ من الضلال ، حالة الصراع و الفوضى هذه التي شتتت الناس فرقا و طوائف ، و تاهوا بسببها عن

1- المرجع السابق ص 156

2- عبد المتعال الصعيدي ، القضايا الكبرى في الإسلام ، ص 243

3- المرجع نفسه ص 243

إدراك الحق ولم يخلو مؤلفه "فضائح الباطنية" أيضا من الإشارة لذلك ، يقول الإمام "الغزالي" فيه « إن الزمان زمان الفترة و الدنيا طافحة بالحن والاضطراب عام في سائر البلاد ، لا يسكن فيها أوار الحرب ولا تنفك عن الطعن و الضرب »¹.

فكان العصر عصر فتن و صراع سياسي ومذهبي و اضطراب لذلك لم تخلو مؤلفاته من نقد لاذع لما ساد عصره من طوائف ومذاهب و اتجاهات و فـرق متعددة مغالية أو متطرفة وحتى الفلاسفة والمتكلمون لم ينجوا من نقده.. وهذا في نظره يشكل خطرا متعظما على الدين والعقيدة المهددة بالتشويه. فالمعروف أن الصراع السياسي حول الإمامة، الذي خاضت فيه الفرق الإسلامية شيعية كانت أو سنية.. إضافة إلى ما نتج عنه من أنماط للحكم و أشكال للخلافات و نظير للإمامة فقد تولد عنه صراع فكري ، إذ كان من ثمار هذا الصراع السياسي على السلطة ، وضع نظريات و بروز آراء لم يشهدها العالم الإسلامي من قبل .

و طال الصراع السياسي مجالات الأدب و الشعر و الفن و الثقافة عموما . و تجلّى ذلك فيما عرفته تلك الحقبة من التنافس و الحاجة إلى دعمه باجتذاب الناس و المواليين . لاسيما ذلك الصراع الشديد بين الشيعة التي اشتهرت في بلاد المغرب الملقبة بالفاطمية ، والتي تعددت تسمياتها و فروعها ، و تلك التي ناهضتها من السنة العباسية و دخلت معها في جدالات كثيرة و انتشرت تعاليمهما و اختلفت عقائدهم و أفكارهم .

فقد انتقلت الدعوة الفاطمية لاحقا في بلاد فارس مع الباطنية التعليمية، واشتهرت عبر التاريخ بأعمالها الفكرية و مواقفها السياسية ، إلى أن أسست دولة عظيمة هي الدولة الفاطمية بالمغرب وقويت شوكتها ، حتى أنها نافست الخلافة العباسية و زاحتها . وكان الصراع بينهما عنيفا مما كان له أثر محمود على صعيد الفكر والثقافة عامة « فقد عمد الفاطميون إلى توسيع نشاطهم السياسية و ذلك ببث دعائهم في البلاد العباسية وإنشاء التنظيمات السرية وتنظيم الخطط للمواجهة المباشرة والعلنية إن اقتضى الأمر»² معتمدين على سلاح السيف والقلم متخذين من العلماء وسيلة لنشر دعوتهم .

و انعكس ذلك على صعيد الفكر والثقافة إضافة إلى إثراء الجانب العقائدي و غيره من المستجدات التي أفرزه الخوض في الإمامة و لم يجد السنيون وسيلة لدحض الأفكار الفاطمية الشيعية إلا في الفكر ذاته.

1- أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، الدار القومية للطباعة و النشر ، القاهرة مصر ، [د ط] ، 1964 ، ص 186

2- عبد الحميد خطاب ، الغزالي بين الدين و الفلسفة ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، [د ط] 1986 ، ص 46

- في ختام هذا الفصل نستنتج أن الإمامة قد كانت مسألة هامة من تلك المسائل الكثيرة التي شغلت مفكري الإسلام منذ أولى عهودهم، قد أفرزتها ظروف متعددة يعد أهمها الحاجة الملحة إلى من يخلف رسول الله في أمته ليسوس القوم . ورغم اتفاق أغلب مفكري الأمة الإسلامية و إجماع كثير من فرقها على وجوب نصب الإمامة ما يزال الاختلاف بينهم قائما حول أساس ذلك الوجوب « الفرق التي تتفق على وجوب الإمامة تختلف في أصل وجوبها».

فالبعض يدعي أن العقل هو موجب نصب الإمامة بمعنى صارت الإمامة ضرورية بمقتضى أحكام العقل كما هو رأي الشيعة عموما « إن الشيعة الإثني عشرية وكذلك الإسماعيلية قد أوجبوا الإمامة عقلا ، و تعسفوا في هذا الوجوب حتى أصبح في رأيهم أن الإمامة واجبة على الله تعالى »¹ و مفاد هذا الاعتقاد أن الله تعالى ورسوله قد نص على إمامة علي وذريته من بعده حتى أن هذه الفرق الشيعية جعلت الإمامة ركنا من أركان الدين .

ويصف العلامة " بن خلدون " حال هؤلاء الشيعة مع الإمامة و كيفية تصورهم لحالها وطريقة نصبها و قيامها كما يلي « قد ذهب بعض الناس إلى أن مدرك وجوبها العقل وأن الإجماع الذي وقع إنما هو قضاء بحكم العقل فيه . ومنهم الأصم من المعتزلة وبعض الخوارج وغيرهم والواجب عند هؤلاء إنما هو إمضاء أحكام الشرع ، فإذا تواطأت الأمة على العدل وتنفيذ أحكام الله تعالى لم يحتج إلى إمام »².

و في مقابل هؤلاء رأى فقهاء الأمة السنيين أن موجب نصب الإمامة هو الشرع وذلك اقتداء بالسلف الصالح الذي يستمد الأحكام من الشرع تماشيا مع سنة رسول الله. أما أولئك الموجبون لها عقلا فلا مبرر لهم. و يمكن أن ندرك عن كتب حقيقة مشكلة الإمامة وما دار حولها من صراع وجدل بالقلم أو بالسيف..حين نتعرض لتصور كل من الشيعة وكذا السنة لها و ما تمخض عن موقف كل منهما من نظريات وآراء محاولين من جهة إبراز تصور كلا منهما لها و من جهة أخرى إدراك أهم المسائل الخلافية بينهما.

و يعكس لنا كل من "الباطنية" و"الغزالي" في تصورهما لحقيقة الإمامة ، بعضا من ملامح ذلك الصراع السياسي و الفكري و المذهبي القائم بين التيارين الشيعي المتمثل في الفرق الباطنية ونظيره السني بزعامة " الغزالي" و هو ما سنحاول تسليط الضوء عليه في ثنايا بحثنا.

¹ - مصطفى حلمي ، نظام الخلافة ، ص 148

² - عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، 205

الفصل الثاني

الإمامة و تداعياتها العقديّة عند الشيعة الباطنية

المبحث الأول: الشيعة الباطنية التعليمية ، مفهومها ، تاريخها ، تعاليمها

المبحث الثاني : عقيدة الإمامة عند الشيعة الباطنية

المبحث الثالث : ارتباط الإمامة بالنبوة و الوحي

المبحث الرابع : المنهج التأويلي الباطني و دوره في تبرير

و تدعيم عقيدة الإمامة

للإحاطة بحقيقة الفرق الباطنية لا سيما تلك التي أدلت بدلوها في المجال السياسي وكان لها صدى واسع سجله تاريخ الفكر الإسلامي، كان لابد من العودة إلى أصل تلك الفرق بالكشف عن بذرتها الأولى التي تسببت في ظهورها و ضمت عدة فرق أخرى غير الباطنية وحدث بينها في الهدف و من حيث المبدأ رغم تشعب و تعدد وسائلها و سبلها..

و نقصد من كل هذا فرقة الشيعة ، تلك الفرقة التي ظهرت في عهد مبكر من عهود الإسلام و تميزت عن غيرها من سائر الفرق التي ظهرت فيما بعد إذ انفردت في آرائها وتصوراتها للإمامة و النبوة و مسائل أخرى.. وتشعبت فروعها وفرقها وربما كان أقواها وأشدّها بروزا عبر التاريخ فرقة الإسماعيلية الباطنية كأهم ممثل لطائفة الإمامية.

إذ كان لفرقة الإسماعيلية الباطنية الملقبة أيضا بالتعليمية دور بارز في رسم مبادئ التيار الشيعي و سن تعاليمه و نشرها بشكل واسع . بل لم يشهد تاريخ التشيع حركة مماثلة كان لها ما للفرق الباطنية من تميز وانفراد في التصورات و الآراء لا سيما في مسألة الإمامة.

و قبل الكشف عن حقيقة تصور فرقة الباطنية لمشكلة الإمامة التي احتلت مكانة هامة في الفكر الإسلامي عموما والشيعي على وجه الخصوص ، بجدد بنا في البدء معرفة بدايات التشيع والإمام ببعض ملاحظته للكشف عن خصوصياته ، التي اصطبغت بها سائر فرقته التي ظهرت عبر التاريخ .. لنبرز فيما بعد الجديد الذي أضافته فرق الباطنية للمذهب الشيعي ونقف على حقيقة موقفها من مسألة الإمامة و ما انجر عن ذلك من تصورات و معتقدات انفردت بها دون غيرها و خصّتها بما مسألة "الإمامة" . و بناء على ما سلف ذكره نتساءل:

- ما معنى التشيع وكيف ظهر ؟ هل كانت أصوله عربية أم أجنبية ؟
 - وكيف أفرز التشيع في تطوره حركة الباطنية ؟ وما هي هذه الفرقة الباطنية ؟ وما هي المبادئ والتعاليم التي أسست وفقها عقيدته ؟
 - كيف كان تصورها للإمامة ؟ و على أي أساس بنت آراءها السياسية حولها ؟
 - ترى ما هو موقف علماء الأمة من الآراء السياسية للشيعة الباطنية ؟ ...
- هذه الأسئلة و غيرها مما يثير فضولنا للكشف عن الغموض الذي يكتنف فرقة الباطنية ويدفعنا قدما للبحث في آرائها و تعاليمها لا سيما مفهومها للإمامة و هذا للإحاطة ببعض من ملامح التشيع الباطني الذي ترك أثرا واضحا في الفكر السياسي الإسلامي.

المبحث الأول: الشيعة الباطنية التعليمية ، مفهومها ، تاريخها ، تعاليمها

المطلب الأول : معنى الشيعة و تاريخ ظهورها

أولاً : المدلول اللغوي للشيعة

إن التشيع في أصله اللغوي لفظ يتصل بكلمة "شيعة" التي تدل على الجماعة من الناس أو الفرقة، و يقول الباحث في الفكر الشيعي "كامل مصطفى الشبي" (ولد:1927م) أن « شيعة الرجل أتباعه والفرقة على حده وتقع على الواحد و الاثنين والجمع المذكر والمؤنث »¹.

فدل لفظ الشيعة في مجمله على الجماعة التي يتبع بعضهم بعضا فكان « أصل الشيعة الفرقة من الناس [...] وكل قوم أمرهم واحد واجتمع بعضهم على رأى بعض فهم شيعة »². كما يرد في قاموس المحيط تعريف للشيعة أكثر توضيحا و تخصيصا يجعل منها دالة على الإتياع لأن « جمعها أشياع ، وشيع ، والتشيع في أصل اللغة هو الإتياع على وجه التدين والولاء للمتبع على الإخلاص»³.

و يرد هذا المصطلح في عدد من الآيات للدلالة على الفرقة و الجماعة ، مثل قوله الله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾⁴ و ارتبط هذا المصطلح "شيعة" بآل بيت النبي ﷺ وصار ملازما لهم مقترنا بهم ، ومعنى ذلك أن « هذا اللفظ غلب واختص على كل من يتولى عليا وأهل بيته ، حتى صار اسما خاصا بهم فإن قيل فلان من الشيعة .. عرف أنه منهم ، وأصل ذلك من المشايعة وهي المطاوعة والمتابعة »⁵.

ثانياً : المدلول الاصطلاحي للشيعة

لا يختلف كثيرا المدلول الاصطلاحي للفظ "شيعة" عن المدلول اللغوي لها ، من حيث دلالاته على أتباع آل البيت العلوي لكن في شكل سياسي ، فكانت « الشيعة حزبا سياسيا يمثل مع الخوارج جانب المعارضة لنظام الحكم في تاريخ الإسلام »⁶.

1- كامل مصطفى الشبي ، الصلة بين التصوف والتشيع ، دار المعارف ، القاهرة مصر ، ط2 ، [دت] ص 15

2- محمد أمين بدوي ، الشيعة ونشاطهم السياسي في العصر الأموي مطبعة الجبلاوي ، القاهرة مصر ، ط1 ، 1985 ص11

3- الفيروز آبادي ، قاموس المحيط ، ج3 ، ص 47

4- سورة الأنعام آية 159

5- محمد أمين بدوي ، المرجع السابق ، ص11

6- أحمد محمود صبحي ، في علم الكلام : الزيدية ، ج3 ، دار النهضة العربية ، ط3 ، 1991 ، ص 47

فقد عرفت الشيعة بمعاداتها الشديدة لنظام الحكم المتداول . و ما ذلك إلا لكرههم قيام الخلافة في غيرهم من الشيعة عقب وفاة نبي الله "محمد" فهم ﷺ يوالون أهل بيته الطاهرين. لذا « كانت البذرة الأولى للشيعة الجماعة الذين رأوا بعد وفاة الرسول أن ﷺ أهل بيته هم أولى الناس أن يخلفوه ». فقد أقام هؤلاء الدعوة لعلي - رضي الله عنه - دون غيره من سائر الصحابة فهو الأحق بخلافة النبي ﷺ بل ووريته الشرعي « وذهب أصحاب علي إلى أنه ميراث أديبي ولو كان النبي يورث في ماله لكانت قرابته أولى بإرثه فكذلك الإرث الأديبي»¹.

وأصبح المعنى المرادف للشيعة : الفرقة التي شايحت عليا - رضي الله عنه - وناصرته ووالته هو وذريته من بعده ودعت له ولأبنائه من بعده بالخلافة والولاية . و ارتبط مفهومها بمفهوم الولاية حتى أنه « يقال أن الشيعة هي عقيدة الولاية ، و أصحاب الشيعة يعتبرون أنفسهم أصحاب الولاية»² . إذ عدت الإمامة أهم الأمور التي خاض فيها الشيعة لأنهم لم يكتفوا بالبحث فيها فقط و إنما كان في موقفهم منها ما يظهر انخيازهم للذرية العلوية .

ومن أشهر التعريفات التي قدمها المفكرون للشيعة ما ذكره الفقيه "أبو الحسن الأشعري" (270-324هـ) حيث رأى ارتباط لقبهم بمواليتهم لعلي وآل بيته مؤكدا أنه قد « قيل لهم الشيعة لأنهم شايعوا عليا رضوان الله عليه، ويقدمونه على سائر أصحاب رسول الله ﷺ »³ . و إلى نفس الرأي ذهب المفكر الإسلامي الشهير "الشهرستاني" (توفي: 548هـ) في مؤلفه "الفرق بين الفرق" حين حصر التشيع في تلك الفئة التي اتبعت العلويين و خصتهم بالإمامة دون سواهم مؤكدا أن الشيعة « هم الذين شايعوا عليا على الخصوص بإمامته وخلافته نصا و وصاية إما جليا وإما خفيا واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده وإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتقيا من عنده»⁴ .

و سار على هذا الاعتقاد كثير من الناس العلماء منهم و العامة كل يرى مصطلح "شيعة" مرادفا لكل موال مناصر لإمام "علي" و ذريته معترف لهم بحق الولاية و الخلافة بعد النبي الكريم باعتبار أن "علي" هو أفضل الناس و الصحابة في اعتقاد الشيعة.

1- محمد الطاهر النيفري ، أهم الفرق الإسلامية ، نشر الشركة التونسية للتوزيع ، [د ط] 1974 ، ص 70
2- Mohammed – Ali Amir – Moezzi .Qu est-ce que le Shiisme? Libraire Artheme Fayard.2004

3- أبو الحسن الأشعري ، مقالات الإسلاميين و اختلاف المصلين ، مكتبة النهضة المصرية ، ط2 ، 1969 ، ص 65

4- أبو الفتح الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج1 ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة مصر ، [د ط] ، [د ت] ، ص 155

حتى أننا نلاحظ الفقيه "ابن حزم" قد أخذ يحدد معنى التشيع معنا خاص مركزا على مسألة "الإمام الأفضل" بعد النبي ، تلك القضية التي فرقت شمل المسلمين إلى شيع مختلفة جاء فيه « من وافق الشيعة في أن عليا رضي الله عنه أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ وأحقهم بالإمامة وولده من بعده فهو شيعي وإن خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعيا »¹ .

فالمعروف أن هناك من رأى بعد موت رسول الله ﷺ أن أبا بكر هو أفضل الصحابة لما عرف به من طاعة للنبي و طول صحبة ، و يليه عمر-رضي الله عنهما- فكانت الخلافة لهما قبل أي صحابي آخر ، و على خلاف هذا التصور رأى أتباع علي الملقبون بالشيعة بأنه أفضل الصحابة وأقربهم للرسول ﷺ فهو بن عمه و صهره و نصيره وورثه منكرين أي فضل أو أسبقية لأبي بكر وعمر، بل من الشيعة من قام بسبهما معتبرا إياهما مغتصبين للخلافة.

ثالثا : بدايات ظهور التشيع و تطوره عبر التاريخ

لا يمكن الجزم بأن ذلك الأمر- تاريخ ظهور التشيع- كان محل اتفاق ، فقد تناولته دراسات عديدة ومختلفة عربية وغير عربية ، حاولت الوقوف على بدايات ظهوره، و لا يمكن فهم هذا الأمر إلا بعد الإطلاع على الأسباب والأحداث الهامة التي جعلت التشيع يطفو ويطغى على الساحة. فالتشيع مختلف في تاريخ ظهوره بالنظر إلى الأسباب التي ساهمت في ذلك ، فالبعض يرجعه إلى حياة الإمام علي ، بينما يرجعه آخرون إلى حياة أبنائه وخاصة الحسين، بينما يرجعه آخرون إلى فترات أخرى.

و ها هو " أبو الحسن الأشعري" يجزم أنه حتى هذه الفترة من حياة الإمام علي كرم الله وجهه ، لم يكن لفظ الشيعة قد استخدم وأضيف إليه للدلالة على هذا الحزب الذي وقف بجواره وناصره² بل يذهب نفس هذا المفكر إلى التأكيد على أن التشيع كمذهب فكري وسياسي لم يتكامل بنيانه إلا مع ظهور القول بنظرية النص و التعيين التي أعطت له من المميزات و الملامح ما جعله بتخصص و يتميز عن غيره من الاتجاهات والمذاهب³ .

رغم أن قسما آخر منهم رأى أنه قد بدأ في حياة هذا الخليفة الرابع بمجرد نشوب الخلاف على الحكم بينه و بين معاوية -رضي الله عنهما- فمن خلال دراسة الأستاذ "صبري

1- صبري خدمتلي ، العقيدة و الفرق ، ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون ، الجزائر، [د ط] 1994 ص 70، 71، نقلا

عن :بن حزم الفصل في الملل والنحل ، ج2 ، ص 113

2- أبو الحسن الأشعري ، مقالات الإسلاميين ، ص65

3- المرجع نفسه ، ص14

خدمتلي" للفرق المتعددة و منها الشيعة أوضح أن « التشيع قد ظهر كحركة سياسية بعد أن نازع معاوية على الإمارة وتدير شؤون المسلمين ، عليا الخليفة الشرعي »¹ .

ولا يمكن إهمال أعمال اليهودي "عبد الله بن سبأ" (عاش في حياة الإمام علي) صاحب فرقة السبئية الذي دعا لمشايعة الإمام علي في حياته بل قال بتأليهه أيضا حتى اشتد غضب الخليفة علي عليه ، وأحرق كثيرا من القائلين بدعواه . فقد « أعلن ابن سبأ أنه لم يكن خليفة بحقه الإلهي فحسب ، وإنما حلت فيه روح إلهية عن النبي حتى ارتفع إلى مستوى فوق الطبيعي » .

و حين مات الإمام "علي" نشر ابن سبأ فكرة تأليهه وتقديسه بين الشيعة. فانتشرت وكثر شيعته « أعلن عبد الله بن سبأ أن روحه الشهيدة قد ارتفعت إلى السماء ، وأنها ستهبط في الوقت المناسب مرة أخرى إلى الأرض، إن روحه في السحاب وأن صوته ليسمع في الرعد وأن عصاه لهي البرق »² و هذه الفكرة متداولة بكثرة لدى الشيعة الغلاة .

و حكى "الشهرستاني" ذلك التأليه لعلي الذي يمكن أن يكون المنطلق الأول للتشيع في مؤلفه " الملل و النحل" موضحا « أن ابن سبأ زعم أن عليا لم يمت ففيه الجزء الإلهي ولا يجوز أن يستولي عليه، وهو الذي يجيء في السحاب و الرعد صوته و البرق تبسم ه و أنه سيتزل إلى الأرض بعد ذلك فيملاً الأرض عدلا كما ملئت جورا »³ كان هذا من أبرز الأسباب التي جعلت بعض الباحثين يشككون في عودة التشيع إلى حياة الإمام علي ونشوب الخلاف حول الإمامة ثم الدعوة له والقول بتأليهه ورجعته ..

إلا أن من المفكرين من ينكر ظهور التشيع لآل البيت في حياة الإمام "علي" و عليه يرجع بعض الباحثين بدايته إلى واقعه "كربلاء" ومقتل الحسين - رضي الله عنه - فإذا كان التشيع في حياة الإمام علي لم يتعدى مجرد ذلك الشعور الديني والحركة الدينية الروحية فإنه أصبح حزبا سياسيا عقب مقتل الحسين « فالتشيع قد ظهر كحركة سياسية بعد أن نازع معاوية على الإمارة وتدير شؤون المسلمين عليا الخليفة الشرعي كما أن تبلور الحركة السياسية تحت اسم الشيعة كان بمقتل الحسين مباشرة ، وإن كانت الحركة سبقت الاصطلاح »⁴ باعتبار أن تلك الحادثة وحدة جموع الشيعة المتشتتون و وحدت مسعاهم و أهدافهم.

¹ - صبري خدمتلي ، العقيدة والفرق الإسلامية ، ص 69

² - ديلاسي أوليري ، معالم الفكر العربي و مكانته في التاريخ ، ترجمة تمام حسان ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة و

الطباعة و النشر ، مصر ، [د ط] [د ت] ، ص 110

³ - أبو الفتح الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج 1، ص 171

⁴ - صبري خدمتلي ، المرجع نفسه ، ص 69

لكن ليس معنى ذلك عدم وجود تشيع سابق لهذه الحادثة ، بل نرى أنه قويّ واشتد وبرز إلى الوجود في شكله الكلي والنهائي بمقتل الحسين ، و أصبح عقيدة راسخة لدى الشيعة .لذا يصح القول أن التشيع لم يرتقي إلى هذه المكانة في قلوب أنصاره إلا بفاجعة كربلاء فكأن «دم الحسين- رضي الله عنه- هو الذي أنبت العقيدة الشيعية في صورتها النهائية»¹ .

ليبقى السؤال المحير الذي ما ينفك يتبادر إلى الأذهان باحثا عن إجابة تشفي غليل المتعطش للحقيقة ألا و هو: كيف حدث ذلك التشيع الهائل لطوائف و فئات مختلفة من الناس بسبب مقتل الحسين ؟ و كيف كان لهذه الواقعة التي تحييها طوائف الشيعة سنويا ، كل ذلك الصدى الواسع في نشر حركة التشيع و إبرازه كحزب سياسي عتيد ؟ وكيف تغيرت الموازين في العالم الإسلامي على هذا النحو؟ وما الذي جعل قتل الحسين نارا يزداد نطاقها ويمتد لهيبتها حتى يبلغ هذا المبلغ العظيم ؟

حسب اعتقاد كثير من الباحثين المتبعين لتاريخ التشيع « كانت واقعة كربلاء - التي قتل فيها الحسين حفيد النبي عليه الصلاة والسلام، قتلة شنيعة - سيئة الأثر على المسلمين فقد أنتجت ضروبا من الشقاق والجدال بينهم ، كما خلقت في العراق وفارس شعورا عدائيا ضد بني أمية »² .فهذه الحادثة أثارة قلوب الكثيرين واستمالتهم لنصرة آل بيت النبي فتشيعوا لهم .

كذلك يمكن التأكيد مما سبق عل مسألة هامة تتمثل في أنه « إذا كان (أي التشيع) قبل مقتل الحسين رأيا سياسيا نظريا فلما قتل أصبح عقيدة راسخة في نفوسهم »³ . فمقتل الحسين ابن علي - رضي الله عنهما- كان نقطة تحول هامة في العقيدة الشيعية التي انظم لها الأتباع من كل حذب وندب ومن كل فج عميق.

رابعاً : أسباب التشيع

نلخص أسباب هذا التشيع في حدثين بارزين : أحدهما التنازع على الخلافة بين علي ومعاوية وإن كان قبله أيضا في فترة وفاة الرسول ﷺ إلا أنه لم يكن ذا خطر أو ذا صيت ثم بدأت علامات ظهوره أثناء خلافة أبي بكر و عمر باعتبارهما خالفا أمر رسول الله و اغتصبا

1- المرجع السابق ص 67

2- محمد جلال سرور، الحياة السياسية في الدول العربية الإسلامية خلال القرنين الأول و الثاني بعد الهجرة ، دار الثقافة العربية للطباعة، مصر، [د ط]، 1960 ، ص 138

3- المرجع نفسه ، ص 138

حق الخلافة من علي حسب ما تدّعي بعض الشيعة. أما السبب الثاني لظهور التشيع بشكل مكثف جمع بين توحيد الروابط الروحية الدينية للأتباع وبين أهدافهم وغاياتهم السياسية في حزب أكثر تنظيماً.. فتمثل في فاجعة " كربلاء" و مقتل أبناء "علي" و بالتحديد الحسين وغيرها من الاغتيالات في صفوف آل البيت بعد سلبهم حقهم في الخلافة .

وبعض النظر عن تاريخ التشيع وأسبابه ، تمكّن هذا الحزب المنشق من الوقوف في وجه السلطة المعتصبة من الأمويين ومحاربتها. إذ أصبحت الشيعة تعبيراً دينياً عن معارضة الدولة والنظام القائم (السنة) الذي يناصرها و يؤيد سلطانها وكان « الشيعة يدعون أن خلافة الرسول كانت يجب أن تتم عن طريق علي ابن عمه و زوج ابنته فاطمة ، لحدوث عكس ذلك فقد كانت مشاكل في السلالة الحاكمة في أولى سنوات الإسلام نتج عنها اغتيال علي و ابنه الحسين و قد قيل أن هذه الاغتيالات جاءت وحيًا من الإله»¹.

فكان لهذه الدعوات صدى واسع على حركة التشيع ، التي اجتذبت الأتباع من كل الأقطار ومن شتى الأنواع و الأصناف « فكان ككل حزب ينظم إليه المخلص ومن له نفع فيه فتشيع إليه قوم يمانا بأحقية علي للخلافة وتشيع له قوم كرهوا الحكم الأموي ثم العباسي لظلمهم فيه ، أو لتعصب فريق من العرب للأمويين فكان العداوة يقتضي أن يكون خصومهم في الجانب المقابل و تشيع كثير من الموالي لأنهم رأوا أن الحكم الأموي مطبوع بالأرستقراطية العربية فانظموا إلى من عاداهم..»².

فهؤلاء كانت لهم دوافعهم ومبرراتهم المقبولة ، فماذا عن أولئك الذين تظاهروا بالإيمان في حياة النبي عليه الصلاة والسلام وعهد أبي بكر ومن تلاه، فلما رأوا عودة الفتن، عادوا إلى سابق عهدهم من الكفر وأرادوا الإساءة للإسلام.

معنى هذا أنه قد كانت بعض الأطراف المشيعة تنتسب للتيار الشيعي و تظهر الولاء لآل البيت و هي تبطن للإسلام و للمسلمين العداوة مما يعني أنه قد « تشيع آخرون لأنهم أرادوا الانتقام من الإسلام فتظاهروا بالغلو فيه خديعة ومكرا »³. و خاصة فرقة انتمت للشيعة في طور تطورها كان لها إنجازات عرفت بها بل مثلت مرحلة هامة و مثيرة مليئة بالأحداث ...

1- Philippe Lannois. L'orient désorienté. Etudes vivantes Paris– Montréal . 1980 p 40

2- محمد الطاهر النيفري ، أهم الفرق الإسلامية ص72

3- المرجع نفسه ص72

وهي جماعة « ميمون القداح وابنه عبد الله الذين أشاعوا الفساد والبدع حيث كان ميمون ملحدا من جنوب فارس و كان إمام جماعة من الملاحدة الذين كانوا يزيفون الأحاديث وينشرون في العامة مبادئ الإلحاد والهدم والإباحة تحت ستار التشيع لآل البيت »¹.

خامسا : تطور التشيع وفرقه

على هذا المنحنى سار الشيعة وتطورت عقيدتهم بالتدرج تحت تأثير عدد من الظروف والعوامل الداخلية والخارجية . فتداخلت فيها الأفكار و حتى المعتقدات والديانات الأخرى . و ظهر لدى بعض فرق الشيعة فيها أفكار ليست من الإسلام في شيء ، كالنص على الإمامة و تقديس الإمام ، الرجعة و الغيبة ، واتصال النبي بالوصي ، و اعتماد التأويل الباطني و ادعاء تحريف و تزيف القرآن ، كما أباح غلاة الشيعة المحرمات و رفعوا بعض العبادات ..

و استمر تيار التشيع عبر التاريخ مؤيدا في كل مراحل مسألة الإمامة العلوية مدافعا عن أحقية الذرية العلوية من أبناء فاطمة فيها . و يحصي الباحثون ثلاث فرق رئيسية في تاريخ التشيع ألا و هي الإمامية الزيدية و الإسماعيلية و كان لكل منها فروع في العالم الإسلامي.

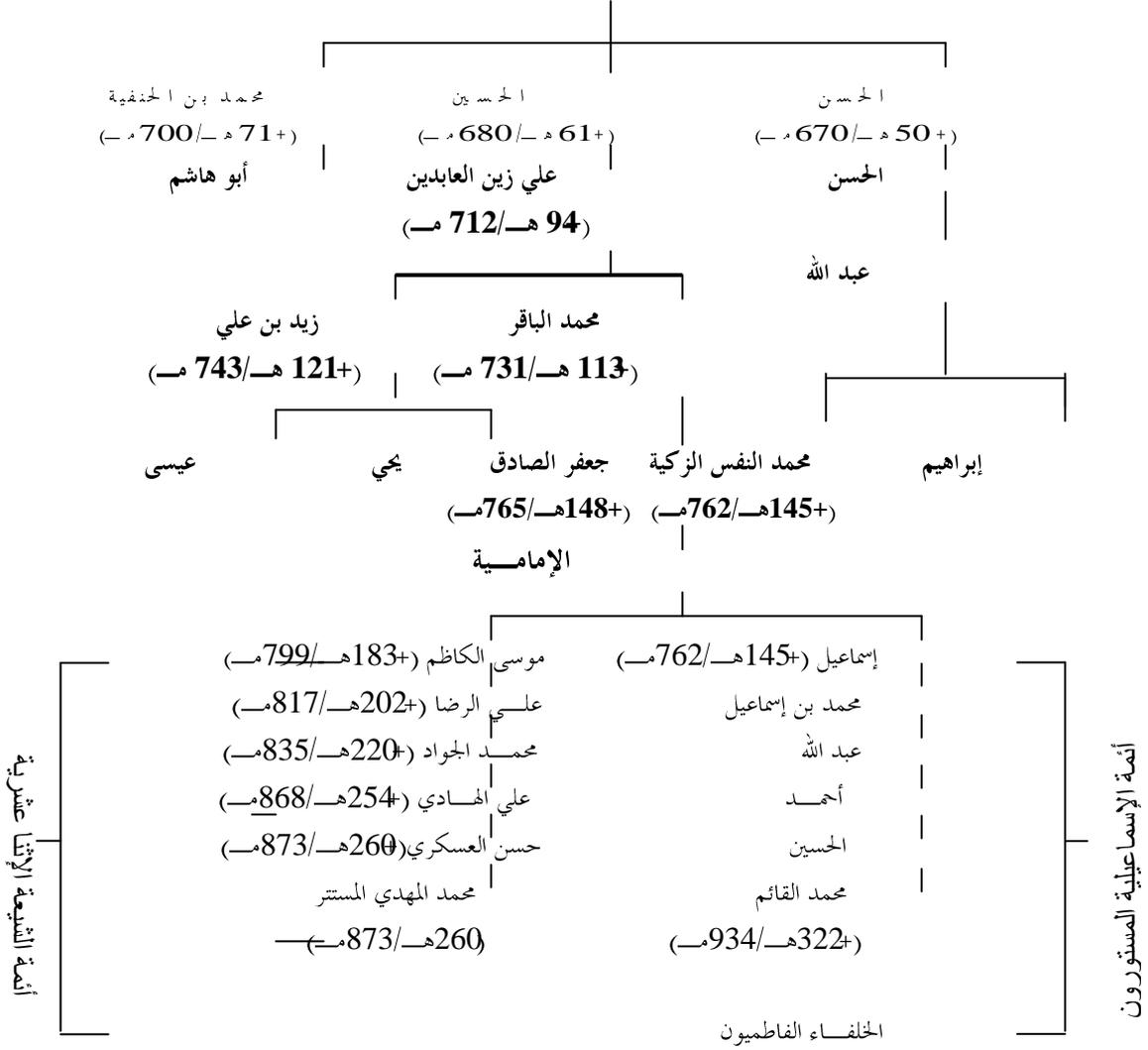
فتشتت و تفرعت الشيعة فرقا منها أقليات ما تزال قائمة حتى الآن، أبرزها الفرع الإسماعيلي القائل بإمامة إسماعيل (110-158هـ) بن جعفر الصادق (83-148هـ) و هو الإمام السابع ، إضافة إلى الإثني عشرية كفرع آخر لا يقل أهمية عن الفرع الأول ، و ترد الإمامة إلى غير إسماعيل بل ترى أن الأئمة اثنا عشرة .

و ليس معنى كلامنا هذا أن باقي فروع الشيعة و فرقها قد تلاشت من الوجود ، بل اقتصرنا في حديثنا على أهم الفروع و أكبرها لما لها من صدى على الصعيد الفكري. أما باقي الفرق الأخرى فأكثرها انضوى تحت هذين الفرعين أو تفرق أتباعه بموت الأئمة أو تسترهم.. و هكذا لم يصلنا عنها الكثير من أخبارها فقد تكون موجودة و تنشط في بقاع مختلفة لكن الغالب عليها هو التستر . و يوضح لنا المخطط التالي الأساس الذي تنحدر منه أهم فرق الشيعة و أشهر أئمتهم وصولا إلى فرقة الإسماعيلية الباطنية:

1- محسن عبد الحميد ، حقيقة الباطنية والبهائية ، منشورات المكتب الإسلامي ، ط1 ، 1999 ، ص 22

منظط لأهم فرق الشيعة و أئمتها :

علي بن أبي طالب (توفي سنة 40هـ/661م)¹



و ما يمكن قوله إجمالاً في ختام تحديداً لحقيقة التشيع هو أن هذه الفرقة ارتبطت في ظهورها و تطورها بآل البيت النبوي ، بالتحديد بالذرية العلوية رغم تعدد فروعها و تنوع فرقها إلا أن القاسم المشترك بينها هو الإمام "علي" الذي كان أول إماماً للشيعة ثم أبنائه من بعده ، و ما تزال هذه الشيعة موجودة حتى اليوم متمركزة في مناطق معينة .

1- عارف ثامر، القرامطة ، أصلهم نشأتم تاريخهم حروهم ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت لبنان [د ط] [د ت] ص 44 ، 45 . وأيضا : حنا الفاخوري ، و خليل الجر ، تاريخ الفكر الفلسفي عند العرب، مكتبة لبنان الشركة المصرية العالمية للنشر لو نجمان، القاهرة ط1، 2002 ص 200

و حسب بعض الإحصائيات التي أجريت حول التشيع تبين لنا أن « الشيعة هي الفرع الكبير الآخر للدين الإسلامي حيث تجمع حوالي 18% من المسلمين و تضم جماعات مهمة في إيران (الأغلبية)، و في العراق و لبنان (أين يمثلون إحدى الجماعات الوطنية) و في الديمقراطية العربية لليمن (شمالاً) »¹ و هناك أقليات أخرى من الشيعة منتشرة في أماكن عديدة و من العالم ، تكتم تعاليمها و معتقداته بل يصعب أحياناً آخر كشف حقيقته .

المطلب الثاني : مفهوم الشيعة الباطنية التعليمية

أولاً * المدلول اللغوي للباطنية

للقوف على حقيقة الباطنية التعليمية من حيث هي فرقة شيعية قائمة على مبادئ هامة، كان لا بد لنا أولاً من التعرّيج على معناها اللغوي وأصلها الاشتقاقي، فالباطنية مأخوذة من لفظ «باطن» Esotérique ضد الظاهر. و [Esoterisme] هو ما يضمّر اعتقاده»² أما لفظ «باطني» فهو يطلق على الفرد المنتمي للباطنية، المؤمن بالباطن وأولويته على الظاهر الذي يراه بعيداً عن الحقيقة .

أما حقيقة الباطنية Esoterisme « وهو مذهب من يقول أن للعلم باطنا وظاهراً » وعليه فإن « الظاهر هو علم العامة والباطن هو علم الخاصة ، و أن علم الخاصة ينبغي أن يصاب من الابتذال و يحجب عن الجاهلين »³ .

فالباطنية كما ذكر في معاجم اللغة ومنها لسان العرب لابن منظور من لفظ «بطن» و «البطن» من كل شيء جوفه وفي وصف آيات القرآن الكريم : لكل آية منها ظهر و بطن « و أراد بالظهر ما ظهر بيانه وبالطن خلاف الظاهر والجمع بواطن.. و الباطن من أسماء الله عز وجل .. وقد روي عن النبي ﷺ في تمجيد الرب: « اللهم أنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء »⁴ و قال "بن منظور" في إيضاحه « معناه أنه علم السرائر و الخفيات كما علم كل ما هو ظاهر الخلق .. »⁵ .

1- Philippe Lannois. L'orient désorienté. p 40

2- عبد المنعم الحفني ، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، مصر ، ط3، 2000 ، ص 144

3- المرجع نفسه ص 145

4- صحيح، ذكره أبو داود

5- ابن منظور ، لسان العرب ج1 ، لفظ "بطن" ، ص 434

فالشيعة الباطنية إنما سميت بهذا الاسم لقولها بأن الحقيقة في الباطن لا في الظاهر. وأيضاً لقولها بأن للقرآن ظاهراً وباطناً كما يورد ذلك المفكر "ديلاسي أو ليري" إذ « وضعت فكرة الباطن أو تفسير تفسيراً على غير ظاهره في المراتب الأولى باعتبارها ضرورية لفهم معناه فهما صحيحاً لأن المعنى الحرفي غالباً ما يكون غامضاً ويشير أحياناً إلى أشياء غير مفهومة »¹.

و ذهب البعض الآخر من المفكرين إلى اعتبار « الباطنية سميت كذلك لأنها ترى إن القرآن فيه المعنى الباطني و هذا المعنى الباطني وقف على الدعاء المجتهدين لا المكلفين بمداية المؤمن نيابة عن الإمام »². و الباطنية شملت العديد من الفلاسفة والعلماء و حتى غلاة متطرفين ، وما سوا كذلك إلا لقولهم بأن للقرآن باطناً وظاهراً . فقويت شوكتهم وتعاضم شرهم و زاد تخوف الخلق منهم .

لهذا كان معنى الباطنية محددًا محصورًا في فئة تؤمن بوجود الحقيقة في الباطن دون الظاهر و غالباً ما كان « يستخدم مصطلح الباطنية للدلالة على فكرة أو نظرية لا تعني إلا الخاصة ولا يستوعبها إلا القليل من الذين أوتوا العلم .. وقد بدأ يطلق هذا الاسم على الطوائف التي تلجأ إلى تأويل النصوص الظاهرة في الكتب الدينية إذ أخذوا يعتبرون هذه النصوص الظاهرة رموزاً لحقائق خفية »³. فالباطنية ارتبطت في معناها بالتأويل الباطني للنصوص الشرعية والعودة عن ظواهرها « وكان أول باطني إسلامي هو بن سبأ »⁴ اليهودي الأصل.

ثانياً * المدلول الاصطلاحي للباطنية

الباطنية التعليمية بعيداً عن الجانب اللغوي للكلمة ما هي إلا فرقة من الفرق الكلامية التي ظهرت لظروف و عوامل معينة كما حدث لسائر الفرق الأخرى و هي فرع من فروع الشيعة ، و مرحلة من مراحل تطور هذا العملاق الموالي لآل البيت وعليه « الباطنية شعبة من شعب الشيعة الباطنية كانت ترمي من وراء دعوتها إلى غايات سياسية خطيرة استفزت الخلافة في ذلك العهد »⁵.

¹ - ديلاسي أوليري ، معالم الفكر العربي ، ص 168

² - كامل حمود ، دراسات في الفلسفة العربية ، دار الفكر اللبناني ، بيروت لبنان ، [د ط] ، 1991، ص 228

³ - كميل الحاج ، الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي ، مكتبة لبنان ناشرون ، ط 1 ، 2000 ص 89

⁴ - المرجع نفسه ص 89

⁵ - أحمد توفيق عياد ، التصوف الإسلامي ، تاريخه و مدارسه و طبيعته و أثره ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، مصر

[د ط] ، [د ت] ص 123 ، 124

و هذا تعريف أكثر تحديدا لها فهي منتمة إلى الشيعة الفاطمية التي سيطرت على المغرب ومصر
وحكمتها لفترة من الزمن اصطبغت خلالها هذه المناطق بالفكر الشيعي.

حيث ادعت الباطنية العصمة لأئمتها و التقديس لهم حتى أن الإمام " محمد أبو زهرة"
(1315-1394هـ) يتحدث عن سر تسميتهم باطنية بقوله « أنهم قالوا : إن الإمام مستور وإنه قد
استمر مستورا إلى أن أنشئت لهم دولة بالمغرب ثم انتقلت إلى مصر.. ولأنهم يقولون: إن للشريعة
ظاهرا وباطنا ، وإن الناس يعلمون علم الظاهر وعند الإمام علم الباطن ..»¹.

فالباطنية ما وصفت بهذا الوصف إلا لقولها إن للقرآن ظاهرا و باطنا ، و أن الحقيقة في
الباطن دون الظاهر، مستدلة على دعواها بالآية الكريمة ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ
لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ
بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾² ولمعرفة هذه الفرقة عن قرب كان لزاما
علينا الإحاطة بتاريخها و عقيدتها والإطلاع على تعاليمها ومبادئها.

المطلب الثالث : تاريخ ظهور الباطنية التعليمية و تعاليمها

أولا : تاريخها وألقابها

بالعودة إلى تاريخ التشيع يمكن تحديد كيفية ظهور الفرق الباطنية في العالم الإسلامي
بالتحديد تلك الفرقة التعليمية والتي هي فرع من فروع الإسماعيلية.
- فكيف ظهر التشيع الباطني في العالم الإسلامي ؟ وكيف تشكلت الباطنية التعليمية ؟ و ما علاقتها
بالإسماعيلية و الإمامية ؟ ترى ما هي أبرز فرقها و حركاتها ؟ و ما هي أهم التطورات التي عرفتها
عقيدتها و تعاليمها ؟

يحدد لنا المفكر الشيعي الحديث " حسن كاشف آل غطاء " تاريخ التشيع في مؤلفه
عن أصل الشيعة و أصولهم قائلا عنه « إن أول من وضع بذرة التشيع في حقل الإسلام - هو
نفس صاحب الشريعة الإسلامية- يعني أن بذرة التشيع و وضعت مع بذرة الإسلام جنبا إلى
جنبا و سواء بسواء »³ لكن " الغطاء " لم يكتف بجعل بدايات التشيع مرافقة لتزول الوحي

1- محمد أبو زهرة ، تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة و العقائد وتاريخ المذاهب الفقهية ، دار الفكر العربي ، بيروت لبنان
، [د ط] ، [د ت] ، ص 91 ، 93 ،

2- سورة الحديد آية 13

3- حسن كاشف آل غطاء ، أصل الشيعة وأصولهم ، منشورات المكتبة الحيدرية في النجف ، ط 14 ، 196 ، ص 82

أي منذ جاء المهدي بل يرى أن النبي الكريم يد في ذلك ، أي أنه ساهم في خلق التشيع و احتضنه ، يقول "الغطاء" عن دور النبي الذي حسب اعتقاده أول من وضع بذرة التشيع « ولم يزل بتعاهدهما بالسقي و بالعناية حتى نمت وازدهرت في حياته ثم أثمرت بعد وفاته»¹ .

حيث استندت الشيعة التي ظهرت بسبب المولاة لعلي - رضي الله عنه- إلى أحاديث مشهورة منها ما أورده "كاشف الغطاء" لأصل التشيع مؤكداً أن « أكثرها مروى في الصحيحين مثل قول النبي ﷺ « علي مني بمنزلة هارون من موسى »² و أيضاً قوله ﷺ «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله و عترتي أهل بيتي»³ .⁴

فهذه الشيعة المولوية لعلي في اعتقاد "حسن كاشف آل غطاء" تأسست في عهد مبكر من عهود الإسلام، و تفرعت إلى فرق و حركات مختلفة اختلفت فيما بينها ، وما يهمننا في بحثنا هذا هو التركيز على كيفية ظهور الحركات الباطنية بالتحديد والتي كان لها شأن عظيم و خطير في التاريخ في الوقت ذاته.

و لا بد من العودة إلى تاريخها لإطلاع أكثر على معتقداتها و كيفية ظهورها و فروعها و ألقابها و أماكن تمركزها.

إن من أشهر الفرق الشيعية التي ذاع صيتها في سائر كتب التاريخ بل ولقيت انتشاراً واسعاً على مر العصور حتى نسجت حولها الأساطير و الخرافات و تداولت عقيدتها و مبادئها على الألسنة بين المؤمن المستجيب و المستهزأ المستنفر.. تلك الفرقة المعروفة بالباطنية أو الإسماعيلية أحياناً أخرى. و يجمعوا الدارسون لتاريخ هذه الفرق على الاعتقاد الجازم بأن « الإسماعيلية فرقة من فرق الشيعة الإمامية ظهرت بعد موت جعفر الصادق (148هـ/765م) حين انقسم أتباعه على قسمين : قسم تبع ابنه البكر إسماعيل، و عرفوا بالإسماعيلية ، كما عرف بعضهم بالشيعة بالسبعي لأن إسماعيل في نظرهم هو الإمام السابع . و اعترف قسم آخر منهم بالأئمة إلى موسى الكاظم أخي إسماعيل الأصغر ثم أحفاده من بعده حتى الإمام الثاني عشر (المهدي المنتظر)»⁵ .

1- حسن كاشف آل غطاء ، أصل الشيعة وأصولهم ص 82

2- صحيح ، و ارد في الصحيحين ، و لدى بن ماجه ،

3- صحيح النسائي و الحاكم

4- حسن كاشف آل غطاء ، المرجع نفسه ، ص 85

5- حسين علي حمد ، قاموس المذاهب والأديان ، دار الجيل ، بيروت لبنان ، ط 1 ، 1998 ، ص 35

وهؤلاء هم المعروفون الإثني عشريه . وبالنسبة للإسماعيلية فقد « اشتق اسمهم من اسم الإمام السادس ، وهم في حد ذاتهم ينقسمون إلى عدة جماعات ، و أهم مراكزهم تتواجد خارج الشرق الأوسط (في باكستان و الهند) وبعضهم يتواجدون في اليمن و سوريا و إيران و يترأسهم أغا خان»¹. و ما يزال نشاط الشيعة مستمرا إلى يومنا بل إن بعض الدول كإيران تعمل وفق تعاليم الشيعة وتؤمن بأفكار المهدي بل تتحدث اليوم عن مسألة ولاية الفقيه للأمة.

و تنتسب أغلب الفرق الباطنية إلى الإمامية التي تتخذ من مسألة الإمامة محورا تدور عليه جل عقائدها و الإمامية « هم القائلون بإمامة "علي" -رضي الله عنه- بعد النبي -عليه الصلاة و السلام- نصا ظاهرا وتعيينا صادقا من غير تعريض بالوصف بل إشارة إليه بالعين . قالوا وما كان في الدين و الإسلام أمر أهم من تعيين الإمام حتى تكون مفارقتة الدنيا على فراغ قلب من أمر الأمة فإنه إنما بعث لرفع الخلاف وتقرير الوفاق فلا يجوز أن يفارق الأمة ويتركهم هملا..»².

وهذه الإمامية طعنت في الصحابة وشوهت صورتهم ، و لكن أتباعها مختلفون حول الإمام القائم « ثم إن الإمامية لم يثبتوا في تعيين الأئمة بعد الحسن والحسين ، وعلي بن الحسين رضي الله عنهم .. على رأي واحد بل اختلافاتهم أكثر من اختلافات الفرق كلها حتى قال بعضهم أن نيفا وسبعين فرقة من الفرق المذكورة في الخبر هم في الشيعة خاصة»³ رغم كونهم متفقين على مسألة تفرغ الإمامة عن الإمام جعفر الصادق.

و انتهجت اغلب الفرق الشيعية في بداياتها طريق السرية وهو نفسه الدرب الذي سلكته الإسماعيلية الباطنية ، فبعد أن انتصرت هذه الحركة الإسماعيلية الشيعية في دعوتها السرية لإمام العصر أثمرت جهوداته ا حيث أسست دولة لها، تضاهي و تنافس في الوقت ذاته الخلافة العباسية ألا و هي الدولة الفاطمية و الأئمة الإسماعيليون « اجتنبوا المجاهرة بالدعوة إلى اللحظة التي أثمرت الحركة الإسماعيلية السرية بظهور الإمام الشرعي في شخص "عبيد الله" على اعتبار أنه المهدي المنتظر. و قد أسس هذه الدولة الفاطمية في شمال إفريقيا سنة 910 م

¹- Philippe Lannois. L'orient dés oriente .p41

² - أبو الفتح الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج1، ص 169

³ -المرجع نفسه ص 172

و أطلق على هذه الفرقة اسم السبعية تمييزا لها عن فرقة الإمامية المعروفة»¹.

وفي تسمية الإسماعيلية بالسبعية والباطنية وغيرها يؤكد العلامة "بن خلدون" «ويسمي هؤلاء الإسماعيلية نسبة إلى القول بإمامة إسماعيل ويسمون أيضا بالباطنية نسبة إلى قولهم بالإمام الباطن أي المستور ، ويسمون أيضا الملاحدة لما في ضمن مقالاتهم من الإلحاد».

ويميز الدارسون بين الباطنية القديمة والباطنية الجديدة و ما دخل عليها من تطورات ويرى "بن خلدون" أن «ولهم مقالات قديمة ومقالات جديدة دعا إليها" الحسن محمد الصَّبَّاح" (430-519) في آخر المائة الخامسة وملك خصوصا بالشام والعراق ولم تزل دعوته فيها إلى أن توزعها الهلاك بين ملوك الترك بمصر وملوك التتر بالعراق فانقرضت»².

ويطلق الباحثون على الباطنية صفة "الشيعة الفاطمية" لموقعهم من شمال إفريقيا وأيضا لملكهم العظيم ودولتهم الفاطمية الزاهرة . ويحدد "عبد القاهر البغدادي" (توفي: 429هـ) تاريخ ظهور فرق الباطنية بقوله «ظهرت الباطنية في زمن المأمون وانتشرت بعد ذلك في زمن المعتصم»³. ويضيف أيضا "الشهرستاني" في الملل والنحل ما يفيد تعدد ألقابهم «وأشهر ألقابهم الباطنية، وإنما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطنا ولكل تزييل تأويل»⁴.

ليتين أن الفرق الشيعية قد اختلفت تعددت بحسب المناطق التي تنشط بها فقد تلقت في كل منطقة بلقب خاص «ولهذه الفرقة ألقاب متعددة منها القرامطة المزدكية (في العراق) والتعليمية والملحدة (في خراسان)»⁵ وربما يقع الكثير من الناس في الخلط بين العقيدة الباطنية وغيرها من العقائد الشيعية نظرا لتشعب الفرق المتفرعة عنها والمنسوبة إليها والتي تأثرت بعوامل حضارية وثقافية لتلك المناطق التي تنشط بها فامتزجت باليهودية والجوسية والوثنية.

يقول الأستاذ "سليمان مظهر" في قصة الديانات «انقسمت الإسماعيلية نفسها أقساما خاصة بعد أن فرّ المعتنقون لها إلى فارس وخرسان وما وراء ذلك من الأقاليم الإسلامية

¹ - أجناس جولد تسيهر، العقيدة و الشريعة في الإسلام ، ترجمة محمد يوسف موسى ،علي حسن عبد القادر ،عبد العزيز عبد

الحق ، مطابع دار الكتاب العربي مصر ، ط2 ، [د ت] ، ص 238

² - عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص 215

³ - عبد القاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق ، دار المعرفة للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت لبنان ، ط3 ، 2001 ، ص 284

⁴ - أبو الفتح الشهرستاني ، الملل والنحل ، ص 154

⁵ - حسين علي حمد ، قاموس المذاهب والأديان ، ص 46

كالهند وتركستان وهناك خالط مذهبهم بعض أراء من عقائد الفرس والهند وتحت تأثيرها انخرفت بعض الطوائف الإسماعيلية حتى خرجت دائرة الإسلام»¹.

ومن أشهر هذه الفرق الباطنية تطرفا أو إغراقا في الإلحاد والزندقة " السبئية" التي تعود ﷺ تسميتها حسب ما ذكر "الجرجاني" (740-816هـ) إلى "عبد الله ابن سبأ" قال فيها «السبائية وهو عبد الله ابن سبأ(وأصحاب) قال لعلي-رضي الله عنه- أنت الإله حقا، فنفاه إلى المدائن و قال ابن سبأ لم يمت علي ولم يقتل وإنما قتل ابن ملجم شيطانا تصوره بصورة علي»² ولعب "ابن سبأ" دورا هاما في القول بألوهية علي وتقدسه وخلوده وهي أفكار تداولتها من بعده السبئية وغيرها حيث أشاع في الناس أفكارا لم يقل بها علي ولا ذريته.

و الدراسات تكشف عن أصله اليهودي الهادف إلى ضرب وحدة الإسلام وتشويه تعاليمه و دوره في ما نشب من فتن بين المسلمين إذ «تولى كبر هذا الإفك عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء وكان يهوديا أسلم ، لكن الأحداث التي شارك فيها تدل على أنه كان يخفي يهوديته تحت ستار الإسلام» وما أقدم عليه في عهد عثمان ثم علي من بعد، يؤكد يهوديته المعادية للإسلام فقد «ألبس الفتنة ثوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرغم أن عثمان ظلم عليا في أمر الخلافة وردّ الظلم واجب، ومن هذه الفكرة استطاع أن يخرج الفتنة من مصر إلى بقية الأمصار وأن يجمع حوله الأتباع»³.

مما سبق يتأكد بجلاء وجود صلة واضحة بين الباطنية باليهودية خاصة إذا نظرنا إلى فرقة السبئية إذ يؤكد الدكتور "فتححي الزغيبي" في مؤلفه "غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام" وجود ارتباط واضح وتأثر بارز للشيعة بالديانات الأخرى لاسيما اليهودية فيقول «أن هناك صلة وطيدة بين الباطنية واليهود وهذه الصلة لها جوانب متعددة فالبعض يذهب إلى أن مؤسس الباطنية يهودي [أي ميمون بن ديصان المعروف بالقداح] والبعض الآخر يذهب إلى أن أفكار الباطنية هي بعينها أفكار اليهود خاصة فيما يتعلق بالظاهر والباطن»⁴.

و من الفرق الأخرى المنسوبة للباطنية القرامطة أو المزدكية وقد ذكرهما "أبو حامد الغزالي" في مؤلفه فضائح الباطنية وهي تنسب إلى حمدان قرمط .. وغيرهما من الفرق الأخرى

¹ - سليمان مظهر ، قصة الديانات ، مكتبة مدبولي ، مصر ، 2002 ، ص 543

² - محمد الشريف الجرجاني ، التعريفات ، مكتبة لبنان ، بيروت لبنان ، [د ط] ، 1990 ، ص 103

³ - فرج الله عبد الباري ، موسوعة العقيدة و الأديان ، الاختراق اليهودي للمجتمعات الإسلامية ، ج13 ، دار الأفاق العربية ،

ط 1 ، 2006 ، ص 36 ، ص 32 ، 35

⁴ - المرجع نفسه ، ص 43 ، نقلا عن فتححي الزغيبي ، غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة ، ص 384

و الغالب لدينا أن أغلب الفرق الإسماعيلية الباطنية مشوبة بتعاليم الفرس وغيرهم وأنهم- أي أتباعها- اعتمدوا إخفاء عقائدهم السابقة للإسلام في طور الستر والتقية حتى تتاح لهم فرصة الظهور. وقد انحرفت بذلك الفرق الباطنية الإسماعيلية إلى الغنوص والمجوسية و ذلك بفعل عامل الاختلاط الثقافي والاحتكاك الحضاري حيث « ظهرت * الغنوصية على شكل طوائف أو فرق باطنية تحت اسم الغلاة أو الماموية أو القرامطة أو الحشاشين أو البابية أو البهائية أو إخوان الصفاء »¹.

ثانيا : تعاليمها و مبادئها

كان للإسماعيلية الباطنية سياسة خاصة ميزتها عن غيرها من فرق الشيعة لا سيما من حيث مبادئها وتعاليمها إذ اكتسبت طابع الغموض و التعقيد والسرية مما جعلها من أشد الفرق تنظيما وقوة « فهؤلاء ينظمون جمعية منظمة تنظيما دقيقا لها تعاليم سرية على حظ كبير جدا من الدهاء وتتنسب إليهم الدولة الفاطمية التي أسسها الفاطميون في مصر »² ولم تنكشف لنا هذه التعاليم إلا من خلال ما نقل عنهم في كتب التاريخ أو ما ظهر من مؤلفاتهم الخفية إذ كانوا يحرصون كل الحرص على كتمها و إخفائها لأسباب ودواع حتمت ذلك.

ومن تعاليمهم:

- القول بأفضلية الإمام علي وأنه الوصي وذريته هم أولياء وأئمة الدهر و هم في هذا الأمر كغيرهم من الشيعة « والشيعة يدعون أن خلافة الرسول كانت يجب أن تتم عن طريق علي ابن عمه و زوج ابنته فاطمة لحدوث عكس ذلك فقد كانت مشاكل في السلالة الحاكمة في أولى سنوات الإسلام نتج عنها اغتيال علي والحسين و قد قيل أن هذه الاغتيالات جاءت وحيًا من الإله»³ و قد سبق الإشارة من قبل إلى مسألة " أفضل الصحابة " و كيف

* الغنوصية: كلمة غنوص أصلها كلمة يونانية تعني المعرفة أو الكشف واختلط معناها الاصطلاحي بالأسرار والسحر و الطلاسمه ، نشأت أول ما نشأت على يد كل من "باز ليدس و فالنتيوس" اللذان مزجا المذاهب اليونانية والوثنية بالتراعات الفارسية والسريانية والأفلاطونية والفيثاغورية والسيراتية باليهودية والنصرانية والصابئة خاصة في العهد الهيليني المتأخر على يد القديس " كيلمانس ، أورجين" نقلا عن محمد عزيز نظمي سالم ، جدلية التاريخ والحضارة ، ص 204
1- محمد عزيز نظمي سالم ، جدلية التاريخ والحضارة ، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية مصر ، [د ط] 1996 ، ص 204
2- سليمان مظهر ، قصة الديانات، ص 542

اختلف الخلق بشأنها ، و كان لهذه المسألة بالغ الأثر على ما جرى من أحداث في العالم الإسلامي لا سيما في الجانب العقائدي و الفكري و السياسي ، أين تجل التباين حول من الأفضل و الأولى بالحكم .

- يعترف هؤلاء الباطنية بأن إسماعيل الإمام السابع «ووظل الإسماعيليون يعترفون بالإمامة لإسماعيل برغم أن أباه بعد أن نصبه للإمامة رجع فسحب الولاية منه لما رآه عليه من انغماس في الملمات والمنكرات وتعاطي الخمر».

- كما أحلو المحرمات وأباحوا المنكرات « فرعموا أن الإمام مباح له أن يفعل كل شيء لأنه مطهر عند الله ومعصوم من الخطأ و المنكر. فكل ما يأتيه من قول أو فعل يراه الرائي منكرا ليس كذلك إلا في الظاهر فقط أما الحقيقة فهو مبرأ منذ القديم من المعاصي معصوم من الخطأ»¹ بل لا يتبادر إلى الأذهان صدورها عنهم .

- إضافة للدعوة السريّة والقول بالتستر والتقية الضروريين ، فعند الحاجة يستتر الإمام حتى تنتصر دعوته و تقوى شوكته فكان لها نظام داخلي لا تعرف فيه الرئيس من المرؤوس و التابع من إمامه « و كان الإسماعيلية يخفون ما يريدون أن يحملوا الناس على إتباعه ويتظاهرون أمامهم بأمر أخرى و كان دعاة المذهب الإسماعيلي إذا شككوا المدعو وطلبوا إليه حل رموز الدعوة التي جعلوها سرية وأخذوا عليه العهود والمواثيق بألا يكشف عن سر دعوتهم وان يدافع عنها وان يتحمل في سبيل الدفاع عنها كل ضروب العذاب والآلام»².

لذا عرف أتباعها بصبرهم على الأذى الذي تعرضوا له ، فرق الباطنية جميعا قد اضطهدت بل نكّل بمناصريها فقد «اضطهدت كغيرها من المذاهب الشيعية ففر معتنقوها على بلاد فارس وخرسان وهناك بلغ بهم الكتمان إلى درجة أنهم كانوا يكتبون رسائلهم وكتبهم دون أن يعلنوا أسماء كاتبها لذلك سمو بالباطنية»³ و تجلّى ذلك في رسائل إخوان الصفاء الذين أعلنوا في رسائلهم عن انتمائهم للشيعّة والتعاطف مع آل البيت. فصوروا فيها معانثهم وما عرفوه من ظلم و قسوة بسبب معتصبي حقهم في الخلافة سواء كانوا أمويين أو عباسيين .

1- سليمان مظهر ، قصة الديانات، ص 542

2- المرجع نفسه ص 543

3- حسين علي حمد ، قاموس المذاهب والأديان ، ص 35

* إخوان الصفاء : جماعة من المفكرين الجمهوري الأسماء ، والذين تركوا آراء ومؤلفات هامة في مختلف المعارف والعلوم أجهلت في "الرسائل" يؤكد جميع المؤرخين أنهم من الشيعة الأوائل الذين أسسوا الحركة الإسماعيلية الباطنية .

إضافة إلى تعاليمهم و مبادئهم السابقة لهم آراء و معتقدات أخرى يؤمنون بها و يعملون بمقتضاها من أهمها :

-اعتقد الإخوان بأن الشريعة قد دنست بالجهالات و اختلطت بالضلالات و لا سبيل إلى غسلها و تطهيرها إلا بالفلسفة¹ .

- « إن الله تعالى خلق النفس ، والإله هو الأول والنفس هي الثاني وهما مدبرا هذا العالم .

- الإمام معصوم عن الخطأ وليس مسؤولا أمام أحد من الناس .

- أنكروا المعجزات ونزول الملائكة و إباحة نكاح البنات والأخوات و شرب الخمر والتمتع بالملذات² .

زيادة على كل ذلك ، كان لهم تأويل للأحكام والأركان والعبادات وفسروا الظواهر الجلية

تفسيرا باطنيا حيث « تعتقد بأن الأنبياء سبعة فقط . و تزعم بأن الله أوجد العقل والعقل أوجد النفس ، ثم الكواكب و تفسر الآيات تفسيرا باطنيا وتسقط بعد التكليف الشرعية وتبيح عدم الاغتسال بعد الجماع ويذهب بالقول بأنه من لا إمام له فلا دين له » وهذا ما وجد خاصة عند فرقة « القرامطة أو الحشاشين ونسبهم إلى حمدان القرمطي وحسن الصباح³ .

لكن يبقى أهم مبدأ ترتكز عليه جل تعاليم الشيعة بما فيها الباطنية هو موالاتهم لآل البيت وحبهم ونصرتهم لهم ، إلى حد تقديس البعض لهم . كما دفع هذا الأمر فئة من الشيعة إلى مسألة الوضع في الحديث بهدف إبراز مكانتهم و شرفهم آل البيت النبوي من نسل الإمام علي - رضي الله عنه - و فيما سيأتي تفصيل لكل ذلك.

1 * أفضلية أهل البيت و مكانتهم عند الشيعة (قد استهم و خلودهم)

مهما يكن من أمر الشيعة و حقيقتهم إلا أنهم - لا اختلاف في ذلك - مجتمعون على طهارة آل بيت رسول الله ﷺ الواردة في القرآن الكريم لقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾⁴ .

¹ - إخوان الصفاء ، رسائل إخوان الصفاء ، ج 1 ، موفم للنشر، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرعاية، الجزائر ، [دط] 1992 ، مقدمة الرسالة الأولى

2- المصدر نفسه ، ص 47

3- محمد عزيز نظمي سالم ، جدلية التاريخ والحضارة ، ص 209

4- سورة الأحزاب ، آية 33

لأن أهم عامل وحد المتشيعين كان حبهم لأقرباء الرسول الكريم ونصرتهم، فهم مجتمعون على حماية ذريته و حفظها مستدلين بقول المولى -عز وجل- ﴿ قُلْ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرٌ -رَأً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾¹

و يورد المفسر العظيم "بن كثير" (700-774هـ) تفسير بعض الشيعة لهذه الآية ، مشيراً إلى اختلافهم عن أهل السنة في ذلك فذكر أن « شيخنا شيعياً هو حسين الأشقر فسرهما على أن المقصود منها فاطمة وولدها رضي الله عنهما. والحق تفسير هذه الآية بما فسرهما به حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - كما رواه البخاري ، ولا ننكر الوصاة بأهل البيت ، و الأمر بالإحسان إليهما واحترامهم وإكرامهم فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على وجه الأرض فخراً وحسباً ونسباً»².

كذلك أوصى الرسول بآل بيته وحث على إتباعهم في قوله ﷺ في خطبته "بغدير خم" لقوله « إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله و عترتي ، و إلهما لم يفترقا حتى يردا على الحوض»³ و في حديث آخر نقله الرواة عنه ﷺ حين سمع بأن قريشا إذا لقيت آل بيته لا تلقاهم بوجه حسنة فغضب وقال « و الذي نفسي بيده لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم الله و لرسوله»⁴ أو كما ورد في حديث آخر «حتى يحبكم الله و لقرابتي»⁵.

يؤكد جل الشيعة على أفضلية الإمام "علي" وآل بيته على غيرهم من الناس لذلك كانوا أتباعاً لهم وموالين إذ «لا يقاس بآل محمد ﷺ و آله من هذه الأمة أحد و لا يسوى بهم من جرب نعمتهم عليه أبداً ، هم أساس الدين وعماد اليقين، إليهم يفئ الغالي و بهم يلحق التالي ولهم خصائص حق الولاية وفيهم الوصية و الوراثة، الآن إذ رجع الحق إلى أهله ونقل إلى منتقلة»¹ وإلى آل البيت العلوي ينسب الفضل كله والخير هم منبعه فهم عتره النبي ﷺ .

1 - سورة الشورى آية 23

2 - إسماعيل بن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج4 ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان ، ط1 ، 1985 ، ص179

3 - صحيح ، أورده النسائي و الحاكم

4 - صحيح ، أكده الترمذي

5 - ضعيف ، من جامع السيوطي

6 - إسماعيل بن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ص 180

1 - علي بن أبي طالب ، نهج البلاغة ، مراجعة و تحقيق محمد عبده ، ج1 ، دار الجليل ، بيروت لبنان ، ص 30

فآل البيت هم أفضل الخلق و أشرف البيوت وأطهرها ولم يبق لنا من نسل النبي سوى ابني فاطمة من علي و ذريتهما التي ما فتى العدو يتربص بها ، ليفتك منها شرف الإمامة ويسلبها حقها في خلافة النبي الذي ينحدرون من صلبه .

بل ذهب فريق من المتشيعيين للعلويين إلى القول بالخلود فقد روى عن علي - رضي الله عنه- أنه قال « أيها الناس خذوها من خاتم النبيين ﷺ و آله و سلم إنه يموت من مات منا و ليس بميت و يبلى من بلى منا و ليس ببالي » فهم ليسوا كباقي البشر، إنهم أعلام مخلدون قادة الحق نور يقتدى به سائر الخلق لقوله - رضي الله عنه - للناس « بل كيف تعمهون و بينكم عتره نبيكم وهم أزيمة الحق و أعلام الدين و السنة الصدق »¹.

ومن مناقب الإمام "علي" التي يتغنى بها الشيعة ما يورده البخاري عنه من أحاديث تبرز فضله و مكانته عند الرسول الكريم منها قول النبي ﷺ لعلي « أنت مني و أنا منك » و قول عمر رضي الله عنه « توفي رسول الله ﷺ وهو عنه راض »².

وجاء في حديث آخر عن سهل بن سعد - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال « لأعطين الراية غدا رجلا يفتح الله على يده » قال فبات الناس يدركون ليلتهم أيهم يعطاها ، فلما أصبح الناس غدوا على رسول ﷺ كلهم يرجون أن يعطاها فقال « أين علي ابن أبي طالب ؟ فقالوا: يشتكي عينه يا رسول الله . قال فأرسلوا إليه فأتوني به »

فلما جاء بصق في عينه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال علي: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال له النبي « أنفذ على رسلك حتى تنزل ساحتهم ثم أدعهم على الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لئن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم »³. كما أثبت " البخاري " صحة الحديث المروي عن النبي ﷺ لعلي « أما ترضى أن تكون مني بمرتلة هـارون من موسى »⁴.

1- علي بن أبي طالب ، نهج البلاغة ، ص 30

2- البخاري ، صحيح البخاري ، ج3، دار الفجر للتراث ، القاهرة مصر ، [د ط] ، 2005 ، رقم الحديث 3700 ، ص 17

3- المرجع نفسه ، رقم الحديث 3701 ص 20

4- المرجع نفسه ، رقم الحديث 3706 ص 21

و هكذا استندت الفرق الشيعية في دعواها و عقيدتها على حب آل البيت و خاصة الإمام علي و لم تكتفي بما روي عنهم من الأحاديث ، بل اعتمدت الوضع في الأحاديث لتأكيد مكانة آل البيت الطاهرين، و أحقيتهم بالإمامة حتى نسب إليهم بعض الشيعة كثيرا من الأخبار و الأحاديث المتواترة عن أهم أعلامهم و أئمتهم.

2* كتاب الجفر

يؤكد كثير من الباحثين أن التعاليم السرية للباطنية قد حفظت في كتاب خاص بهم شامل لمذهبهم هو " كتاب الجفر" إذ يعتبر مرجعا لهم فيما يخص أمور العقيدة وغيرها وتحدث عنه " بن خلدون" في مقدمته قائلا « واعلم أن كتاب الجفر كان أصله أن هارون بن سعيد العجلي وهو رأس الزيدية كان له كتاب يروي عن جعفر الصادق وفيه علم ما سيقع لأهل البيت على العموم ولبعض الأشخاص منهم [...] وكان مكتوبا عند جعفر في جلد ثور صغير فرواه عنه هارون العجلي وكتبه وسماه الجفر ، باسم الجلد الذي كتب عليه [...] وصار هذا الاسم علما على هذا الكتاب عندهم »¹ و هو جلد معز لأن الجفر في اللغة كما أوضحه "الجوهري" (332-400هـ) أحد اللغويين هو « من أولاد المعز، ما بلغ أربعة أشهر »² فارتبط الجفر بالجلد الذي كتب عليه و حمل اسمه.

يقول عنه الأستاذ "محمد رضا" « اعلم أن الجفر عبارة عن العلم الإجمالي بلوح القضاء والقدر المحتوي على كل ما كان وما يكون كليا وجزئيا »³ وكثير من شيعة اليوم يعودون إلى هذا الكتاب ليستقوا منه أحكاما تفيدهم و تساعدهم على قضاء حاجاتهم فالجفر مرجع هام لكافة المتشيعين ، و الاعتقاد السائد في الوسط الشيعي أن واضعه هو "علي" أو ربما "جعفر الصادق" صاحب المذهب الجعفري .

و رغم أهمية كتاب الجفر إلا أن الاختلاف قائم حول شخصية واضعه و مسن تعاليمه السرية التي تضمنها « وقد ادعى طائفة أن الإمام علي بن أبي طالب وضع الحروف الثمانية والعشرين على طريق البسط الأعظم في جلد جـفر، وهو الذكر من المعز و الشاه الذي يبلغ أربع أشهر ، يستخرج منها بطريق مخصوصة و شرائط معينة ألفاظ مخصوصة، يستخرج منها ما في لوح القضاء والقدر وهذا علم يتوارثه أهل البيت ومن ينتمي إليهم ويأخذ منهم من

1- عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص 149

2- إسماعيل بن حماد الجوهري ، الصحاح ، مرجع سابق ص 615

3- محمد رضا ، الإمام علي بن أبي طالب ، ص 233

المشايخ الكاملين وكانوا يكتمونونه عن غيرهم كل الكتمان وقيل لا يقف على هذا الكتاب حقيقة إلا المهدي المنتظر». فالتستر على محتوى ذلك الكتاب بما فيه من تعاليم سرية لم يسمح لأي أحد من خارج المذهب الشيعي بالإطلاع على ما فيه من معتقدات و آراء.

وعليه رجوع الشيعة إلى هذا الكتاب واعتبروه أساسا متينا بنوا عليه جمل عقائدهم بل تأولوا آيات القرآن ونصوصه بحسب ما دون لديهم في الجفر، فتضمن عقيدتهم التي نسبوها إلى الإمام علي رضي الله عنه « وكون الجفر من العلوم التي أسرها رسول الله ﷺ إلى علي رضي الله عنه وتوارثه عنه أبناؤه، هو عقيدة المتقدمين من الشيعة الذين يعتقدون أن الأئمة لا تـذنب ولا تخطئ تزيها لآل البيت ، وقيل إن الجفر كتاب وضعه الإمام م جعفر الصادق الإمام السادس »¹ . و بعض المفكرين ينسبونه إلى علي أو فاطمة و الأمر محل جدال.

وهذا الكتاب إما أن يكون قد ألفه الإمام الصادق نفسه .. لأن أغلب الأحاديث منسوبة إليه .. وإما أن يكون قد ألفه الإمام علي كما ادعى آخرون ذلك . و المهم عندنا هو كونه منسوب إلى أهل البيت وحامل لتعاليمهم المتداولة بين شيعتهم مروية عن أشهر أئمتهم علما ، لما نقله عنهم بن خلدون في مقدمته لقوله « وكان فيه تفسير القرآن وما في باطنه من غرائب المعاني مروية عن جعفر الصادق»² . لذا لا يخفى على أحد من الدارسين للفكر الشيعي- لا سيما- الإسماعيلي الباطني ما لهذا الكتاب قيمة كبيرة لدى أصحابه.

***3 التخطيط والحماية وحسن التنظيم للفرقة الباطنية**

إن الدعوة الباطنية التي اشتهرت في مصر كانت تعتمد أساليب خاصة في نشر عقيدتها بسرية تامة حتى تتغلغل بين الناس وحينها تكشف عن نفسها وكان أسلوبها - بالنظر إلى الدعوة الباطنية الجديدة مع الحسن ابن الصبّاح- مختلفا في الإعداد والتنظيم ودرجات وطبقات الدعاة ومراتبهم و مهامهم ..

و للإحاطة بأسلوب الباطنية في التخطيط و التنظيم يمكن أن نستعرض بعضا من أسرارها التنظيمية في الدعاية ونشر دعوتها حتى قبل قيام ملكهم في شمال إفريقيا أي في دور الستر يذكر عنهم الدكتور " محمد كامل حسين" (1901-1977م) في مؤلفه العظيم "طائفة الإسماعيلية" قوله « أما قبل ظهور هذه الدولة بينما كان الأئمة في دور الستر ، فكان

1- محمد رضا ، الإمام علي بن أبي طالب ، ص 233

2- عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص 149

لابد لهم من دعاة يدعون لهم سرا ، و يبشرون الناس بقرب ظهورهم حتى تم للإمام الإسماعيلي تأسيس ملكه» . فالتستر كان مرحلة هامة في الفكر الشيعي الباطني بل هو عقيدة راسخة لازمت نصب الأئمة و نشر الدعوة في مراحلها الأولى . و ما ذلك كله إلا لضمان سلامة هؤلاء الأئمة و دعائمهم و من والاهم.

لهذا ركزت الإسماعيلية على انتقاء الدعاة ونشرهم في الأقطار والأمصار المترامية الأطراف حتى يتيسر لهم بفضل هذا الأسلوب التخطيطي المحكم نشر الدعة الباطنية في سرية تامة ، فجاح الفرقة مرهون بمدى حنكة الدعاة ، وحسن التخطيط و التنظيم للدعوة « فالدعاية إذن هي الوسيلة التي اتخذوها لتحقيق نجاحهم في دور الستر وفي دور الظهور معا ومن ثم كان اهتمامهم بأمر الدعاية و أمر الدعاة حتى جعلوا الدعاية من صميم المذهب الإسماعيلي «¹ ولم يكن تقسيم الدعاة إلى مراتب ودرجات بالأمر البسيط لدى الإسماعيلية بل تراعى فيه شروط وقواعد.. لشدة حرصهم على سرعة الانتشار من جهة وحفظ الدعوة وحماية الدعاة من المتربصين بها من جهة أخرى . ولكل داع عمل خاص موكل إليه لا يتجاوز ولا يجيد عنه فمثلا كان هنالك دعاة للنهار وآخرون لليل وما هذه إلا رموز تدل على الدعاة الظاهرين ونظرائهم من المستورين . « فدعاة النهار الإثني عشر في كل جزيرة كانوا يعرفون بالمكاسرين أو المكالين وهم أصغر طبقة من درجات الدعاة كانت وظيفتهم أن يشككوا الناس في عقيدتهم، ولا يتجاوزون ذلك إلى أي عمل آخر «².

فإن نجح هؤلاء الدعاة الظاهرين [دعاة النهار] في تشكيك المستجيبين ، وزعزعة يقينهم ، ونشر البلبل في أوساطهم ينتهي دورهم ويبدأ دور دعاة الليل الذين يتدرجون به إلى معرفة الحقيقة فينتقل المستجيب من داع إلى داع وصولا إلى أحد الدعاة الملقب "بالمأذون" « و الداعي المأذون و هو من دعاة الليل الذي يبدأ بأخذ العهود و الموائيق المؤكدة عليه (أي المستجيب) بأن لا يفشي سرا ولا يطلع على آرائه أحدا من الناس»².

فإن اطمأن الداعي إليه و وثق من شدة تلهفه لعلم الحقيقة ، أرسله إلى من هو أعلى درجة ومرتبة منه . وهنا ينتهي دوره أيضا ليبدأ دور من هو أعلى منه فيكشف له من

1- محمد كامل حسين ، طائفة الإسماعيلية ، تاريخها نظمها و عقائدها ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة مصر ، ط1 ، 1959 ،

ص 132

2- المرجع نفسه ص 134

2 - المرجع نفسه ص 139، 138

المعرفة الباطنية ويعلمه من التأويل ما يثير تلهفه فإن وجد منه إقبالا أرسله إلى غيره .. وهكذا
دواليك تتدرج مراتب الدعاة و مهامهم .

كما لاحظنا من خلال اطلاعنا على طبقات و فئات الحركة الباطنية حسن تنظيمها بحيث لا
تداخل وظائف الدعاة و مهامهم بقدر يحترم فيه كل ما أوكل له لا يتعداه و لا يقصر فيه» وهكذا
نظم الإسماعيلية دعائم تنظيمها دقيقا جدا بأن جعلوا لكل داعية عملا خاصا لا يتعداه واختاروا
هؤلاء الدعاة اختيارا دقيقا وأعدوهم هذا الإعداد حتى يستطيعوا أن يقوموا بما يعهد إليهم وقد أطلق
عليهم حدود الدين»¹ .

لكن ماذا عن الإمام والمقربين إليه من الدعاة وما دورهم ؟ وهل هم في مرتبة واحدة ؟
الحقيقة إن الإمام الإسماعيلي محاط بجملته من الدعاة المقربين يسمون "القيادة العليا" ونذكر منهم
بعض المراتب كما تداولتها الكتب و كشف عنها المؤرخون للفكر الشيعي الباطني .
فلدينا مرتبة داعي "الدعاة" و هي الأكثر شهرة « إن الإمام يختار من دعاة الجزائر أقوامهم
بنانا وأصدقهم جنبا وأغزرهم علما فيجعله في مرتبة داعي الدعاة « ومن مهامه أنه موكل
بالإشراف على سير الدعوة وتنظيم دعايتها وموكل بعقد المجالس « وهو الواسطة بين دعاة الجزائر
وبين الإمام فداعي الدعاة إذن لا يستتر بل هو معروف بين الدعاة جميعا وبين حاشية الإمام في أدوار
الستر والظهور لأن مرتبته ليست من المراتب السرية»² .

ويوكل الإمام مرتبة أخرى إلى داعي الدعاة أحيانا وهي "الحجة" و قد يفرد لها داع آخر أقل منه
درجة فهي مرتبة سرية فكان «يستتر اسم صاحب مرتبة الحجة فلا يعرف أحد حتى داعي الدعاة
نفسه» بهذا تظهر مدى سرية التنظيمات الشيعية ككل لاسيما الباطنية خاصة.
ومرتبة أخرى هي الباب وهي أشد سرية من غيرها إلى درجة أن من عرفوا بها كانوا يعدون
على الأصابع فكان باب الأبواب معروفا لدى الإمام فقط حتى « وصفه أحد علماء الإسماعيلية
بقوله : وحدّ الباب هو من الحدود الصفوة والباب هو أفضل الحدود، وهو حدّ العصمة ولا ينتهي
إلى ذلك إلا الآحاد والأفراد».

إضافة إلى مرتبة أخرى تظهر غريبة التسمية لما يكتنفها الغموض وهي « داعي البلاغ
وهي من المراتب السرية أيضا .. قيل إنها مربية الاحتجاج بالبرهان في إثبات الحدود العلوية
ومراتبها وتعريف المعاد»³ وعليه نجد أن هؤلاء السابقي الذكر هم من يحوون الإمام ويمثلون

1- محمد كامل حسين ، المرجع السابق ، ص 138، 139

2- المرجع نفسه ص 140

3 المرجع نفسه ص 141، 142

الدعاة المقربين أو بالأحرى القيادة العليا. وهذه المراتب هي على التوالي «مرتبة باب الأبواب: وهي أعلى المراتب كلها وهي مرتبة سرية، ومرتبة الحجة، ومرتبة داعي البلاغ» و«كلها سرية عكس» «مرتبة داعي الداعي أو الداعي المطلق وهي أعلى مرتبة ظاهرة»¹.

المطلب الرابع : الحسن بن الصباح ودوره في بناء الفرقة الباطنية التعليمية ونشر عقيدتها

بعد أن طاب للشيععة المقام في الدولة الفاطمية التي ساندت فكرهم و دعمته و نشرته من خلال مدارسها أصبح للشيععة شأن عظيم فقد قامت لهم و باسمهم دولة عظيمة بالمغرب . وتربصوا بالخلافات و الحكومات الأخرى و أزهبوا الملوك و السلاطين المجاورين بعد ما عانوه من أدى واضطهاد من قبل أقربائهم من بني العباس .

و كانت الدولة الفاطمية تحتذب إليها الأتباع و الأنصار من الشيعة المتفرقين في الأمصار لنصرة مذهبهم و نشر دعوتهم ، و يوضح الباحث المعاصر "كارل بروكلمان" (1868-1956م) أنه «وكان من جملة دعاة الشيعة المنتقلين في البلاد في عهد ملكشاه لاجتذاب الغوغاء من طريق التبشير بظهور المهدي المنتظر الذي سينتقم لهم من حكامهم الظالمين رجل يدعى الحسن بن صباح»² فقد كان له شأن عظيم في نشر العقيدة الشيعية الباطنية في فارس حيث كان.

أولا : تأسيس ابن الصباح للحركة الباطنية التعليمية

ما يذكره عنه الباحثون في بداية تأسيسه لحركته « إنه رحل إلى مصر حيث استهوته الدعوة الفاطمية و انحاز إلى صف نزار بن الخليفة المستنصر»³ ضد أخيه "المستعلي" خلال الخلافة الفاطمية . إذ قصد "ابن الصباح" مصر واطلع على ما ساد فيها من أفكار وعقائد وكان يرى في الابن نزار الخليفة الشرعي للحكم الفاطمي بعد المستنصر لذا رفض « الحسن الصباح و أتباعه من الفرس أن يعترفوا بورثته على العرش لضعفه واستكانته للقواد العسكريين و قطعوا علاقتهم بالنظام القائم في القاهرة وأعلن الإسماعيليون الشرقيون ولاءهم لنزار، و هو ابن المستنصر تحطاه القواد العسكريون وولوا غيره ملكا»⁴.

1- المرجع السابق ص 141، 142

2- كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة : نبيه فارس و منير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان ، ط10، 1984 ، ص281

3- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

4- عبد المحسن عاطف سلام ، حيوات العرب ، الشركة القومية للتوزيع ، ط1، 1968، ص585.

فدعا " ابن الصباح " للابن "نزار" ، وسمي هو و أتباعه الإسماعيليون "بالترايين" وقادوا ثورة كبيرة على السلاجقة « و قد تسمى أصحاب الدعوة الجديدة باسم الحشاشين ولعله اسم أطلق عليهم لاستخدامهم الحشيش لإحداث النشوة في إتباعهم»¹.

ثم نقل الحسن ابن الصباح الدعوة الشيعية الجديدة من مصر إلى بلاد فارس و التف به المتعاطفون مع الخليفة "نزار" و هناك شرع في تشييد حركة كان لها من التعاليم و الأعمال ما أربهت به عدوها و حسب ما نقله عنه المؤرخون عن مسيرته في تلك الفترة أنه « في سنة 1090 ، عاد إلى فارس كداعية من دعاة الفاطميين فعسكر مع عصابة قليلة من أتباعه أمام قلعة * الموت الجبلية »².

و هناك حيث المسالك الجبلية الوعرة و الحصون المنيعة تمركزت الدعوة الباطنية وانطلقت عقيدتها و « لقد تحصن الحسن و أتباعه في قلعة آلموت في بلاد فارس فنشروا الملح و الذعر، و فرضوا الضرائب على الناس و أسرفوا في القتل و قطع الطريق و الاعتداء على الأمنيين و سلب أموال القوافل و السابلة »³.

و هكذا اقترن اسم هذا الداعية بفرقة الحشاشين الخطيرة ، و هؤلاء « الحشاشون فرع من فروع الحركة الإسماعيلية قادها احد الملا حدة الذين تستروا وراء حق آل البيت في الخلافة . و هو الحسن بن الصباح و أسسها على أسس تنظيمية دقيقة قسمها على سبع مراتب « و كانت لهم كغيرهم من الغلاة أعمال شنيعة إرهابية طالت العلماء و رجال السياسة على السواء . و التاريخ السياسي يتحدث بإسهاب عن جرائمهم البشعة المرتكبة في حق غيرهم إذ « اعتبروا الدين شيئاً باطلاً و كان شعارهم لا حقيقة الوجود و كل شيء مباح »⁴.

لذلك ظلت هذه الفرقة تفتك بالخلافات و تتربص بالحكومات و قويت شوكته حين اجتذبت إليها أصنافاً شتى من الأتباع من ملل مختلفة و حدهم مبدأ نصرته الإمام العلوي و آله المضطهدين ، و رد الحق إلى أهله المستضعفين . بأي وسيلة كانت. و قد نجح "الصباح" في إقناعهم و توحيدهم حتى أنه سمح لهم بإباحة بعض المحضورات و منحهم من المزايا ما أرادوه بل و أكثر مما يسمح به لغيرهم من الناس .

¹ - المرجع السابق ص 585.

* آلموت: ملجأ العقبان و تقع من ناحية "روذ بار" على مسافة (60) ستين فرسخاً إلى الشمال من قزوین.

² - كارل بروكلمان ، المرجع السابق ص 282

³ - محسن عبد الحميد ، حقيقة الباطنية و البهائية ، ص 26

⁴ - المرجع نفسه، ص 25

وصار الأتباع يبيحون كثيرا من المحرمات ويتنهدون حرمان الدين وابتدع لهم دعائهم ما يبررون به تلك الأفعال « و أشاعوا الرعب في بقاع كثيرة و لقد ظل الرعب منهم قائما حتى قضى عليهم المغول في القرن الثالث عشر ¹ » إذ تمكن العالم من الإطمئنان و لو نسبيا حين « أدرك هولاء ضرورة القضاء على طائفة الإسماعيلية قضاء مبرما » حتى يسهل عليه فيما بعد الإستلاء على كامل العالم الإسلامي .

و بفضل قوة إرادة الأشياخ و دهاء ابن الصباح ، تمكن من الصمود و تطوير حركته لفترة لا أمل فيها بالنصر ملتجئا و أتباعه في قلعة ألموت الحصينة رغم أن المغول فتك بكل القلاع الإسماعيلية « في حين امتنعت قلعة ألموت فطال حصارها ² » إلى أن وقعت على يده و تشتت شمل الأتباع .

« و هكذا تم القضاء على طائفة الإسماعيلية بعد أن ألقى الرعب في نفوس الخلفاء و السلاطين عن طريق فرقة الفداوية (الحشاشين) ³ » بينما بقيت أقليات منها منتشرة في جبال فارس و البهرة و شمال بلاد الشام . « و أصبحت الإسماعيلية بعد ذلك مجرد حركة صغيرة و تقلصت جهودها ⁴ . و السبب في شهرتها و استمرارها راجع إلى دقة تنظيمها و حسن إعدادها الذي ساهم في إطالة عمرها .

ثانيا : درجات و طبقات الباطنية التعليمية

*تقسيم الحسن ابن الصباح للجماعة و دعائه و حركته

لقد كانت الإسماعيلية كأى فرقة شيعية تسعى إلى التغلب و السيطرة للوصول إلى السلطة السياسية و في سبيل هذه الغاية لن يتردد دعائها عن اعتماد شتى الوسائل و السبل المحققة لتلك الغاية المنشودة و الحسن بن الصباح أهم زعمائها و دعائها، فهو بحق داهية شيعية منحكة أراد كسب الأتباع و نصره "نزار" و ضمان الطاعة المطلقة له و عدم الخروج عليه فكان له ما أراد، بل و أكثر من ذلك. لكن كيف تسنى له ذلك ؟ و بأي السبل تمكن من بلوغ غايته؟

أثار " الحسن بن الصباح " بأسلوبه التنظيمي المحكم في التخطيط و الدعاية دهشة أعدائه الذين عجزوا عن إخماد حركته الجديدة المناوئة لهم و نقصد الملوك العباسيين ، فقد استفاد مما

¹ - عبد المحسن عاطف سلام ، حيوات العرب ، ص 586

² - عصام محمد شيبانور، السلاطين في المشرق العربي "المماليك" ، دار النهضة العربية ، بيروت لبنان ، [د ط] 1994 ص 50

³ - المرجع نفسه ، ص 50

⁴ - عبد المحسن عاطف سلام ، حيوات العرب ، ص 586

شاهده حين كان بمصر خلال عهد الفاطميين « و الواقع أنه نظم الجماعة على الطريقة الفاطمية و جعل أتباعه درجات منهم المقربون و منهم ما دون ذلك »¹ .

و تقسيمه لأتباعه إلى طبقات ، ضروري لتنظيم الجماعة و أدوارها، و قد وجد عند القرامطة أيضا تقسيم للجماعة بحسب مراتب الوجود إذ أن « مراتب الوجود عند هذه الجماعة هي الله فالعقل فالنفس فالمكان فالزمان ، و طبقا لهذه المراتب كانوا يتخيلون أن المظهر الإلهي لا يتجلى في الكون فحسب بل يتجلى أيضا في نظام جماعتهم المتفاوتة المراتب » .

فهذه الجماعة الشيعية المنظمة مقسمة إلى درجات و طبقات « كانت طبقات بعضها فوق بعض مما يقضي بالطاعة و التضحية »² و عليه تختلف التعاملات مع كل طبقة، حتى العقيدة و مبادئها و كيفية شرحها كان مختلفا أيضا بوجود هذا التقسيم و يظهر ذلك في علاقة الصباح معهم « و بينما كان أفراد الطبقة الأكثر اتصالا به يحيون حياة إباحية لا يحد منها أي من قيود الأخلاق أو الدين كان أتباعهم ينشئون على أشد التعصب و أغلظه »³ و لهدف من تفاوت طبقات الجماعة الشيعية بالنسبة لابن الصباح هو تنظيمها و حسن التخطيط للوظائف فهناك الدعاء و هناك أيضا الحجج و ما دونهم .

و أرسى مبدأ التضحية في سبيل الجماعة و الإخوان و غرس في الأتباع عقيدة الإخلاص للدعوة و الموت في سبيل الإمام فلا يحق لأي كان بث أسرار الدعوة الباطنية أو كشف أسرارها إلا لمن وثقوا بموالته لهم « و كان المقدمون في الجماعة يدخلون في روع هؤلاء الأتباع أن من قتل رجلا من أعداء الإيمان الحق إذا أشار به زعيمهم و ما يكسبونه من رضوان الله و يدخلهم جنات النعيم »⁴ فالجهاد ضد أعداء العلويين و مغتصبي حقهم في الخلافة واجب سرا و جهرا . و على هذا المنوال تم ارتكاب المحازر و قتل العلماء المخالفين للفكر الباطني و لتعاليم الأئمة.

ما يذكره " دي بور " عن إخوان الصفاء في هذا المجال — محبة الإخوان و التضحية في سبيل الجماعة و نصره أمام العصر... — يؤكد ارتباطهم بالإسماعيلية الباطنية « وهم ينادون

1- كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص 282

2- ت. ج . دي بور ، تاريخ الفلسفة في الإسلام ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت لبنان ، ط 5 ، 1981 ، ص 158

3- كارل بروكلمان ، المرجع نفسه ص 282

4- المرجع نفسه ص 282

بأن يكون الواحد منهم مخلصا حتى الموت إذ أن ملاقاته الموت في سبيل صلاح الإخوان هي عندهم الجهاد الصحيح»¹.

و كان يبيح لأتباعه المحرمات و يرفع عنهم التكاليف الشرعية و لإحداث نشوة الأتباع وشهوة تدفعهم إلى الإبداع اعتمد وسائل جهنمية كالخمر و الحشيش لذلك «كان هؤلاء الفتاك يدعون الفدائيين أو الحشاشين» بسبب تعاطيهم الحشيش و أنواع المخدرات التي كانت رائجة آنذاك، كما أوضحها "بروكلمان" بقوله « و الحق أن تعاطي المنبهات كان فاشيا في الحلقات الصوفية في غير هذا الموطن»².

ثالثا: التخطيط والدعاية في عهد الحسن الصباح ودعوته

كما سبقت الإشارة من قبل أن "الحسن بن الصباح" كان أهم رواد الدعوة الباطنية الجديدة في بلاد فارس وسميت حركته بالتعليمية لقوله بضرورة أخذ العلم والتأويل عن الإمام المعلم المعصوم .. و اتضح لنا من خلال ما سبق عرضه أن جميع الفرق الشيعية عملت على تنظيم دعوتها حتى تلقى النجاح المرغوب و على نفس المنوال صار "بن الصباح" و أتباعه .

فقد أسس دعوته على أسس و تعاليم لا تختلف كثيرا عن ما كان سائد في الدولة الأم مهد الشيعة ، لكن ابن الصباح كان له في تقسيم طبقات جماعته شأن خاص، كما رأينا لتنظيم الدعاية التي تركز عليها في دعوتها، فقد قسمها إلى قسمين « القسم الأول : الخاص بالدعاية الدينية فهو شبيه على حد بعيد بما كان عليه أيام الفاطميين بمصر ولكن عدد الدعاة تقلص ونقص بأن جعل " الشيخ" في مرتبة داعي الدعاة وله ثلاثة نواب فقط في الجبل و خورستان و الشام ومع كل نائب عدد غير محدود من الدعاة الذين كانوا يدعون الناس للعقيدة الإسماعيلية التزارية»³.

فمن الواضح انه كان أحرص من سابقه في السرية و الكتمان لما شهدته الشيعة عموما من بطش العباسيين وغيرهم من الموالين لهم فكانت الدرجات العليا تركز عملها على العقيدة في جانبها النظري من معارف و أصول و عبادات و تأويلات « و أما القسم الثاني فهو خاص بالفدائيين وهؤلاء كانوا يتبعون شيخ الجبل نفسه مباشرة كانوا شبه حرس له وهو في الوقت نفسه قائدهم الأعلى يتلقون منه الأوامر مباشرة»⁴.

1- دي بور ، المرجع سابق ص 159

2- كارل بروكلمان ، المرجع سابق ص 282

3- محمد كامل حسين ، طائفة الإسماعيلية ، ص 143، 144

4- المرجع نفسه ص 144

و هذه هي المعروفة بالفتك و القتل عند مؤرخي الإسلام فغالبا ما يرادف اسم الفدائيين تلك الفئة المعروفة بأعمال القتل والإرهاب وسلسلة الاغتيالات في صفوف العلماء ورجال السياسة وهذه المجموعة مقسمة بدورها إلى مراتب وليسوا ثلة واحدة « و لكنهم على ثلاث درجات : أولا مرتبة الرفاق : وهم أشبه شيء برؤساء الفرق الذين كانوا يدرّبون الفدائيين ويشرفون على حاجياتهم ومطالبهم ».

و هناك مرتبة أخرى لها مهمة التنفيذ و هي التي تتولى أداء الأعمال التي يأمر بها الأئمة أو الدعاة جاء في وصفها ما يلي « والمرتبة الثانية : هي مرتبة الفدائيين وهم المجددون للقيام بما يأمرهم به شيخ الجبل بعد أن تم تدريبهم و أظهروا استعدادهم للتضحية في سبيل إمامهم ومذهبهم »¹ و هؤلاء هم من نفذوا عمليات التخريب التي طالت العالم الإسلامي بكامله ونشرت الرعب في صفوف العامة والخاصة .

و لو نظرنا إلى العالم الإسلامي اليوم ، وما يشهده من عمليات تعرف « بالفدائية » خاصة في العراق موطن الشيعة لوجدنا عودة الفدائيين بالنموذج القديم إلى الحياة مجددا محيينا لتلك الحروب الطائفية بين السنة والشيعة مؤكدين على سياسة الموت التام والتضحية في سبيل تحقيق أهداف الحركة وعدم خيانة العهود والمواثيق ولا إفشاء سرّ الجماعة أو خيانة الإخوة والرفاق بل من واجبها التضحية في سبيل الآخرين .

و مرتبة أخرى تظهر في بداية الدعوة وهي التي تسمح بتمييز المعتنقين للعقيدة و إدراك قدراتهم و التفطن إلى ملكاتهم كمرحلة أساسية في الدعوة و هي مرتبة المؤمنين المستجيبين للدعوة يقول عنها "كامل حسين " « أما المرتبة الثالثة : فهي مرتبة المستجيبين وهم الذين في دور التدريب والتعليم وهؤلاء كانوا من الشبان الذين لا يزيد عمر الواحد منهم على عشرين عاما وهؤلاء كانوا في صغرهم يدرّبون بإشراف شيخ الجبل في قصره »² و هؤلاء يتدرجون عبر عدة مراحل من الدعوة و يتم تهيؤهم و تعليمهم بالتدرج.

هكذا وضعت طبقات بالغة الترتيب محكمة البنيان من خلالها يتم تبليغ الدعوة وفي الوقت ذاته إرساء قواعد الدولة الفاطمية تدل على ذلك التكتيك السياسي المحكم الذي سارت عليه الباطنية في نظامها الداخلي و الذي نلخصه كما يلي:

1- المرجع السابق ص 144

2- المرجع السابق ص 144

إن نظام الإسماعيلية الداخلي ينقسم إلى خمسة أقسام :

* **المقدمون : وهم الرؤساء**

* **الدعاة : وهم الذين يثبتون الدعوة¹**

* **الرفاق : ويتولون إدارة حركة المؤمنين**

* **الفدائيون : وهم المنفذون للأحكام**

* **المؤمنون : وهم المستجدون في الطريقة²**

هكذا إذن كان للباطنية طرق خاصة في إيصال المعارف والأسرار ، بمراعاة مراتب ودرجات الجماعة وفق خطوات محددة يكتنفها الغموض والسرية « أولها : اختيار استعداد الشخص لقبول التعاليم و ثانيها : الاستئناس به ، وثالثها : إدخال روح التشكك في أعماقه. فإذا نجحت هذه الخطوات الثلاث تؤخذ عليه المواثيق بألا يبوح بشيء مما يسمع ثم تبدأ خطوات الإقناع وأولها غرس الإيمان بعقيدة الإسماعيليين و قوتهم و ثانيها تلقين التابع تعاليم العقيدة ، فإذا تم ذلك رفعت عنه بعض الفروض الشرعية ومنح السرّ الأعظم» .

وما هذا التنظيم والأحكام السرية إلا لضمان انتشار دعوتهم في مأمن من تهديدات الحكومات والخلافات القائمة فلا يكشف المنخرط إلا القدر القليل لاستمالاته ولا يعرف عن ما يليه من الدرجات إلا القليل .. « فإمام العصر يستمد فيضه من الله ليتم شريعة الناطق والحجة يستمد فيضه من الإمام ويكون حجة لوجوده، وذو المصبة : يمتص العلم من الحجة والداعي الأكبر وهو أعظم المؤمنين مقاما ، والداعي المأذون يأخذ العهد ممن يريد الدخول في الإسماعيلية من أهل الظاهر والمكلب لا يؤذن له بالدعوة لكنه يرشد الطالب إلى المؤذون والمؤمن هو الذي دخل في زمرة الجماعة »³ وعليه يستتر الإمام وهو ما يعرف بالثقية فيقوم الداعي يدعوا إليه حتى يكشف عن نفسه في الوقت المناسب للظهور والكشف .

*** علاقة الإسماعيلية بالباطنية:**

- ترى هل هما فرقة واحدة تعددت تسمياتها و اختلفت بحسب المواقع و البقاع التي تنشط فيها ؟
أم أنهما فرقتان منفصلتان رغم تقاربهما و لكل عقائدها الخاصة ؟

1- سليمان مظهر ، قصة الديانات ص 543

2- المرجع نفسه ص 544

3- المرجع نفسه ص 544

إن أغلب الدراسات التاريخية للحركات الشيعية وتطورها تؤكد أن الإسماعيلية والباطنية مختلفتان في القديم ربما في مرحلة النشأة فقط أما في مرحلة التطور فقد اندمجتا بحيث أننا نصادف في الكتب التي تتناول الحركات الباطنية والتي تم توظيفها في هذا البحث، أنها تميز بين الباطنية والإسماعيلية من حيث النشأة تم جعل منهما فرقا انطوت تحت المذهب الشيعي الباطني باعتبار أن لهما نفس المذهب والمعتقد و حتى "الغزالي" يجعل من الاسمين دالين على فرقة واحدة هي التي أهال عليها بالنقد لفضح و كشف أمرها في مؤلفه المستظهري، ملقبا إياها بالإسماعيلية الباطنية والتعليمية بالتحديد.

ومن الواضح أن العقيدة الإسماعيلية تطورت في عهد الدولة الفاطمية وعقب وفاة الإمام الفاطمي "المستنصر بالله العبيدي" انقسمت هذه الفرقة إلى قسمين نزارية أتباع ابنه "نزار" و"مستعلوية" أتباع ابنه "المستعلي" و سبب الخلاف هو الصراع على الخلافة « وكان الحسن بن الصباح مؤسس الفرقة النزارية أو الحشاشين قد افتتح دورا جديدا هو دور القيامة وجعل من نفسه الحججة الكبرى لقائم القيامة»¹

واعتبرت هذه الدعوة الجديدة المؤيدة للإمام "نزار" كإمام شرعي « أن نفس الحججة الكبرى هي امتداد لنفس الإمام » فيكون بذلك كل إمام « يعلن بأنه قائم القيامة الجديد وخليفة الله على أرضه فهو إذن ناسخ الشريعة محلل الحرام ورافع الأصار والأغلال التي هي الصلاة والصوم و الزكاة والحج »².

و ليضمن "الصباح" تأييدا أكبر من مناصريه وأتباعه أسس مذهب التعليم الذي عرفت به فرقته فيما بعد بالتعليمية و كانت تنشط ببلاد فارس و من خلاله يضمن الموالاتة التامة من الأتباع فتحسن قيادتهم. يؤكد أبو حامد الغزالي في مؤلفه فضائح الباطنية الذي انتقدهم فيه بشدة أنه « لكي يستطيع ابن الصباح السيطرة على أتباعه أو وجد لهم مبدأ جديدا هو مبدأ التعليم »³ بمعنى آخر ضمن "بن الصباح" بفضل اعتماده مبدأ أخذ العلم عن الإمام الذي هو المعلم المعصوم عدم العصيان من قبل الأتباع و طاعة عمياء لكل ما يصدر عن الإمام أو أي داع من دعائه المكلفين بتبليغ رسائله و تأويلاته للناس .

¹ - محمد أحمد الخطيب ، الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ، دار عالم الكتب ، للنشر و التوزيع ، الرياض السعودية، 2،

1986، ص 106

2 - المرجع نفسه ص 107

3 - المرجع نفسه ص 107

و حسب ما يورده " الغزالي " « يقوم مبدأ التعليم على أصلين: الأصل الأول: هو التسليم [...] كلما سلم كل حد من هذه الحدود (الجماد ، النبات الحيوان) نفسه إلى الحد الذي يليه مقام ورتبة وجعل نفسه تحت تصرفه تحقق كماله »¹. يضيف " الغزالي " عن الأصل الثاني الذي تعتمده التعليمية الباطنية « والأصل الثاني هو محبة الإمام وآية هذه عدم محبة النفس وذلك لأن من أحب نفسه مثقال ذرة فكأنما لم يحب الإمام قط»².

وهكذا صار من الضروري الجزم بأن هذه الحركة التعليمية الباطنية قد تفرعت عن الإسماعيلية أو بالأحرى ما هي إلا مرحلة من مراحل تطور الإسماعيلية عبر التاريخ . وقد أكد ذلك "الديلمي" في مؤلفه الشهير « بيان بطلان مذهب الباطنية » نفس الفكرة « فقد أجمعت الأمة المسلمة أن الإسماعيلية و الباطنية واحدة »³.

رغم أن دراسات أخرى حديثة جعلتهما مختلفتان متميزتان فالدكتور " علي سامي النشار " يرى أنه « من الخطأ الشنيع أن يقال إن هذه الباطنية هي الإسماعيلية » و حسب تأكيد الدكتور النشار « هي أبعد ما يكون عن الإسماعيلية و إن كانت قد شابتها مسحة إسماعيلية »⁴ فالإسماعيلية فرقة شيعية تقول بالإمام المعصوم وقد تبنت العقيدة المعتزلية في بداية أمرها حتى قوي عودها واشتد، وباشرت نشر عقيدتها الشيعية فيما بعد ومرت بفترات من التستر ثم الظهور حتى تمكنت فيما بعد من بلوغ ما بلغته.

وكان لها تاريخ عريق ، حافل بالأحداث ، رغم أن الخلط بين الباطنية والإسماعيلية من قبل المفكرين والباحثين يبقى الفرق بينهما قائما، و يكمن في اختلافهم حول مسألة الظاهر والباطن « تؤمن الباطنية بالباطن فقط ، بينما تؤمن الإسماعيلية بالظاهر و بالباطن »⁵. ومع تطور الفرقتين واتحاد أفكارهما صار من الصعب الفصل بينهما ، إذ يجعلهما البعض دالين على فرقة واحدة بينما يفصل بينهما آخرون « و قد أدى هذا الخلط إلى قيام مؤرخي الإسماعيلية من أهل السنة بالمزج بين الاثنتين فنسب إلى الإسماعيلية كل طوائف الباطنية

1- المرجع السابق ص 107

2- المرجع السابق ص 108

3- محمد بن الحسن الديلمي ، بيان مذهب الباطنية و بطلانه ، مطبعة الدولة ، استانبول ، [د ط] 1938 ، ص 92

4- علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، نشأة التشيع و تطوره ، ج 2 ، دار المعارف ، ط 4 ، 1969 ص 546

5 - المرجع نفسه ص 64

والجوسية التي انتشرت في فارس وكثيرا ما اعتبر أهل السنة والجماعة الخرمية إسماعيلية، كما نسبوا إلى الإسماعيلية التناسخ والحلول»¹.

و من أهم المبادئ التي قامت عليها الباطنية و تميزت بها عن غيرها، حسب ما وردت في كتبهم وفي الكتب التي تناولتهم هي « الفيض الإلهي من المعرفة التي يفيض الله تعالى به على الأئمة فيجعلهم بمقتضى إمامتهم فوق الناس علما واحتسابا وقربا من النبي - صلى الله عليه وسلم وربه فعندهم علم الشريعة»².

هذه النظرية موجودة عند "أبي نصر الفارابي" (872-950م) وأيضاً أخذتها فرق الشيعة عن الفلاسفة « الأفلاطونية المحدثه » والمبدأ الثاني دائما متعلق بالإمامة، إذ لا تخلوا الأرض من إمام قط ظاهرا معروفا أو غائبا منتظرا فهي أي الباطنية - تقول بوجود الإمامة وأنه لن تقوم القيامة حتى يظهر ويملا الأرض عدلا كما ملئت جورا وظلما .

ومهما يكن من أمر هذه الفرقة محل الجدل ، فإنها على اختلاف تسمياتها ، تبقى حقيقة وجودها راسخة، لما عرف عنها من أعمال الرعب بسبب موقفها السياسي . فقد استمرت تفتك بنظام الحكم العباسي وتطالب بالإمامة للعلويين و استمر الصراع قائما حول مشكلة الإمامة حتى يومنا هذا ، إذ نرى عودة بعض مظاهر الصراع المذهبي بين السنة و الشيعة أكثر احتداما في العراق اليوم حول السلطة والأحق بممارستها.

ضف إلى ما سبق ما انجر من مسائل عقائدية تؤكد وتثبت وجوب نصب الإمام بالنص، كمبدأ التوارث والوصية، وعصمة الأئمة وتسترهم .. وما إلى ذلك من العلم بالغيبيات والأسرار الكونية من حركة الكواكب والأفلاك.. وأغلب تعاليمهم محفوظة في الجفر.

- مما سبق عرضه في هذا المبحث يتبين أن للفرقة الباطنية دور بالغ الأهمية، على الفكر والسياسة، ولم يتوقف تأثير الحركة الباطنية على شمال إفريقيا حيث تمركزت دولتهم الفاطمية بل شملت مناطق هامة في العالم الإسلامي و استقطبت عددا هائلا من المستجيبين لعقيدته. و سواء كانت الفرق الباطنية هي ذاتها الإسماعيلية أو تطور لها فالظاهر للعقول مدى التأثير المتبادل بينهما . بل إن كثير من الأفكار الباطنية مستقاة من الإسماعيلية القديمة لا سيما و أن الاتفاق بينهما قائم حول أحقية الإمام السابع بالخلافة إضافة إلى مسائل أخرى مشتركة .

¹ - المرجع السابق ص 539

² - محمد أبو زهرة ، الوحدة الإسلامية ، دار الفكر العربي ، القاهرة مصر ، [د ط] ، [د ت] ، ص 185

- فالباطنية الإسماعيلية هي تلك الفرقة التي تركت بصماتها في تاريخ الفكر الإسلامي في جوانب متعددة « قام الإسماعيلية بدور خطير في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في بلدان مختلفة من العالم الإسلامي ولهم اثر في التاريخ لا نستطيع أن ننكره ولا أكاد أعرف فرقة من الفرق الإسلامية كان لها ما للإسماعيلية من تاريخ طويل حافل بالحوادث والتيارات »¹ . وما نقله عنها الدارسون لتاريخها و أفكارها يتفق مع ما قلناه عنها.

إذ اجتذبت إليها الكثير من المؤيدين الذي شبوا على العقيدة الشيعية متسلحين بالشجاعة والإقدام بفضلها لعبت الحركة الإسماعيلية دورا هاما في تاريخ البشرية و أثرت فيه تأثيرا بارزا و« كانت في أكثر مراحلها أداة هائلة من أدوات التغيير والإصلاح والبناء وزعزعة أركان المجتمع وإزالة رواسيه وتفكيك روابطه »² .

ويذكر المفكر "بجي هو يدي" عن هذه الحركة « والأصل فيها كما نعلم التشيع لعلي بن أبي طالب وقولهم بأحقية للخلافة بعد الرسول -صلى الله عليه وسلم- ومنادتهم بأن الإمامة حق شرعي له ولأبنائه من بعده »³ لذلك يوضح أبو الحسن الأشعري سر تسميتهم بالشيعة في كتابة مقالات الإسلامية أهم من الشيعة وأنهم « إنما قبل لهم الشبهة لأنهم شيعوا (شايعوا) عليا -رضوان الله عليه- ويقدمونه على سائر أصحاب الرسول ﷺ »⁴ .

والملاحظ أن أغلب الباحثين يخلطون بين فرقة الباطنية و غيرها من الفرق الشيعية فالكتب التي تناولت الحركات الباطنية تصنف الإسماعيلية على أنها من أهم هذه الحركات الباطنية التي استمرت عبر التاريخ. وها هو المفكر المعاصر "مصطفى غالب" (1923-1981م) يؤكد على أنه « من استقراء النصوص التاريخية والعلمية الموجودة لدينا يتبين أن الحركة الإسماعيلية نشأت نشأتها الأولى سنة (127هـ) كحركة دينية علمية فلسفية تأويلية باطنية في العراق وفي الكوفة بالذات خطط لها ونظمها الإمام جعفر الصادق -عليه السلام- عميد المدارس الفكرية في الإسلام »⁵ . ربما يميز كثير من المفكرين بين الباطنية والإسماعيلية إلى الحد الذي يفصل بينهما نظرا لاختلافهما في بداية ظهورهما لكنهم لا ينكرون ما بينهما من ارتباط وتأثير أيضا.

¹ - محمد كامل حسين ، طائفة الإسماعيلية ، مقدمة الكتاب

² - عارف ثامر ، القرامطة ، ص 100

³ - بجي هو يدي، تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية، ج 1 ، مكتبة النهضة المصرية ، [د ط] ، [د ت] ص 80

⁴ - أبو الحسن الأشعري ، مقالات الإسلاميين ، ص 05

⁵ - مصطفى غالب ، الحركات الباطنية في الإسلام ، دار الكاتب العربي ، بيروت لبنان ، [د ط] ، [د ت] ص 71

المبحث الثاني: محققة الإمامة عند الشيعة الباطنية

لعبت الباطنية التعليمية دورا بارزا على الساحة السياسية والاجتماعية والثقافية من خلال خوضها في مشكلة الإمامة وانفرادها بآراء في ذلك كان لها صداها وأثرها فيما بعد رغم أنها « لم تكن في أول أمرها تختلف عما ذهب إليه غيرهم من المسلمين في شيء وكان الخلاف ينحصر في نقطة واحدة ليست من صميم الدين في شيء إنما كان الاختلاف حول الإمامة حقا شرعيا للإمام علي بن أبي طالب ولأبنائه من بعده وذهبوا إلى أن هذا الحق الشرعي هو بأمر من الله سبحانه وتعالى ونص منه إلى نبيه الكريم»¹.

وهكذا أثبت أشياع الباطنية ومؤيدوها وجوب الإمامة وضرورة نصب إمام في كل عصر، وهذا ما ذهبت إليه جميع الفرق الشيعية عموما، بل وأكدوا على عصمة الأئمة وضرورة التعلم عنهم. فأبطلوا بذلك النظر العقلي والرأي مادام التأويل والعلم يؤخذ فقط عن الإمام الشيعي من ذرية "علي" فهو العالم بأسرار الترتيل والقادر على علم التأويل وهو المشرع والمسئول والمتبع وأقاموا تصورا مميزا للإمامة أظهروا فيه مسائل جديدة خصتهم وانفردوا بها مثل مسألة عصمة الأئمة وخلودهم وغيرها من الأفكار الشيعية.

ولأجل تأكيد رواد الباطنية لدعواتهم في الإمامة، اعتمدوا على التأويل الباطني للشريعة، بل إنهم رمزوا إلى العبادات والأركان الشرعية بمرموزات غريبة وأولوا الظواهر الجلية واعتمدوا على الحروف والأعداد وحتى الأفلاك.. وما كل ذلك إلا لتدعيم رأيهم في مسألة الإمامة التي تدور حولها جل معتقداتهم الشيعية الباطنية.

ولنا الآن أن نفصل هذا الرأي المزعوم في الإمامة بعدما أجملناه من قبل لتتضح لنا الرؤية عن قرب ولنتمكننا من النفوذ إلى عمق الفكر الإسماعيلي الباطني ونميز بين غلوه أو مغالاته وبين اعتداله أو تفريطه فيما يخص الإمامة وتداعياتها العقدية.

المطلب الأول: التصور الشيعي الباطني لمسألة الإمامة

أكدت الشيعة على وجوب نصب الإمام كغيرها من الفرق الإسلامية فلا تستقيم حياة الأفراد دون إمام حسب ما ورد عن تصور "إخوان الصفاء" للإمام وهم من الشيعة الإسماعيلية الباطنية أنه صورة الصورة « فالإنسان صورة مختصرة من جميع صور الحيوان »².

1- محمد كامل حسين، طائفة الإسماعيلية، ص 03

2- إخوان الصفاء، رسائل إخوان الصفاء، ج 4، ص 213

و بهذا رأوا أن الإمام شخص قد تجمعت فيه من الخصال ما جعله أهلا لاستحقاق منصب الإمامة ليكون خليفة لله إذ « أن هذه الصورة هي خليفة الله في أرضه متحكما على حيواناتها ونباتاتها ومعادنها حكم الأرباب على خولها »¹ ونستشف مما سبق أن الإمام مادام خليفة لله على خلقه ، فوجوده ضروري وبالتالي صار نصبه واجبا على الخلق .

هذا الرأي الشيعي الباطني هو ما أورده "الغزالي" عنهم في مؤلفه "فضائح الباطنية" لتأكيد أنه هؤلاء الباطنية « قد اتفقوا على أنه لا بد في كل عصر من إمام معصوم قائم بالحق يرجع إليه في تأويل الظواهر وحل الإشكالات في القرآن و الأخبار والمعقولات »².

أولا : الإمامة عقيدة شيعية في الأصل

لم يناد الشيعة حاكمهم باسم الملك أو الخليفة أو غيره من الألقاب بل انفردوا بتسميته إماما و الملاحظ « ان الشيعة خصوا عليا باسم الإمام نعتا له بالإمامة التي هي أخت الخلافة وتعريضا بمذهبهم في أنه أحق بإمامة الصلاة من أبي بكر لما هو مذهبهم و بدعتهم » باعتبار أن الإمامة مرتبة أشرف من الخلافة ولكن أغلب الخلق لا يعقلون ذلك وأيضا لغرض في أنفسهم « فكانوا كلهم يسمون بالإمام ما داموا يدعون لهم في الخفاء حتى إذا استولون على الدولة يحولون اللقب فيمن بعده إلى أمير المؤمنين كما فعل شيعة بني العباس»³.

فظهر أن الإمامة عقيدة شيعية في الأصل، مفادها أحقية علي و ذريته في خلافة النبوة باعتبارها أمرا وراثيا لا تخرج من آل بيت النبي ﷺ. لذلك كان للإمامة شأن عظيم في الفكر الشيعي على اختلاف فرق و مذاهبه فهي جميعها و إن شذا عنها البعض توجب نصب الإمام العلوي من نسل النبي الطاهر و هذا تكملة للرسالة الإلهية.

حتى المؤرخون لبداية التشيع يجعلون من الإمامة أساسا لبداية الخلاف بين المسلمين ومدعاة لفرقتهم و تشتتهم و تحزب فئة من الصحابة لعلي و مولاتهم لآل البيت . والشيعية في عمومهم يعتبرون الإمامة المحور الأساسي الذي تدور حوله كافة العقائد وكان « قوام مذهب الشيعة هو الإمامة لأن الإمام عندهم هو أكبر معلم و متصف بصفات وصف بها الأنبياء اللهم إلا النبوة فالإمام الأول قد ورث علوم النبي ﷺ و هو ليس شخصا عاديا »⁴.

¹ - إخوان الصفاء ، رسائل إخوان الصفاء ، ص 114 ، 115

² - أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 42

³ - عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ص 241

⁴ - صبري خدمتلي ، المرجع السابق ص 63

و يؤكد الشيعة عموماً على أهمية الإمامة و مكانتها في تسيير المجتمعات و الإسماعيلية الباطنية بدورها لا تخرج عن ذلك الاعتقاد. إذ يرى "إخوان الصفاء" في رسائلهم أنها أساس الخلاف القائم بين الفرق فيقولون « اعلم أن مسألة الإمامة هي أيضاً من إحدى أمهات مسائل الخلاف بين العلماء قد تاه فيها الخائضون إلى حجج شتى و أكثرها فيها القيل و القال و بدت بين الخائضين فيها العداوة و البغضاء و جرت بين طالبها الحروب و القتال و أبيضت بسبها الأموال و الدماء و لا تزال باقية إلى يومنا هذا لم تنفصل بل كل يوم يزداد الخائضون المختلفون فيها خلافاً على خلاف »¹ مما يبرز بوضوح تأثيرها على الإنقسامات الفكرية و السياسية ، و دورها في استمرار التراع بين الفرق و تأجيجه.

و مسألة الإمامة بالمفهوم الشيعي كغيرها من الآراء الشيعية الأخرى مستوحاة من أفكار فارسية و معتقدات فارسية قديمة إذ تأثرت العقيدة الشيعية بأفكار الفرس و امتزجت بها و ظهر ذلك خاصة في مشكلة الإمامة و نصب الخليفة بعد النبي ﷺ « فبالنسبة للفرس » ان مبدأ انتخاب خليفة للنبي أمراً غير معهود و لا مفهوم لأنهم لم يعرفوا غير مبدأ الوراثة في الحكم لهذا اعتقدوا أنه مادام محمد لم يترك ولدا يرثه فإن علياً هو الذي يجب أن يخلفه و أن الخلافة يجب أن تكون وراثية في آل علي»².

فكان « معنى ذلك أن الخلافة لديهم بعيدة كل البعد عن مبدأ الشورى أو الانتخاب بل أنها بطريق النص من رسول الله ﷺ »³.

ثانياً : العقل أساس وجوب الإمامة

يجعل الباطنية من العقل أساساً لنصب الإمامة و تأكيد وجوبها ، إذ لا يعقل ترك مصالح العباد دون اختيار إلهي و تحكم رباني لذا « يجب أن يعتقد كل مسلم بأن الرسول ﷺ لم يترك الدنيا بدون أن يعين خليفة له و إلا فيلزم أن يكون قد ترك أهم الأمور الدينية و ارتكب ما هو قبيح في نظر العقل وعند العقلاء وهو مته عن ذلك » و ما دام النبي ﷺ يهتم بشؤون أمته و يحرص على إتمام رسالته و نشرها بعد رحيله عنهم . لذا كان من الضروري أن « الإمام يجب أن يتم تعيينه من قبل الله كما هو في الرسول ﷺ لأنه هو الذي يعلم من الذي يصلح للإمامة »⁴.

¹ - إخوان الصفاء ، رسائل إخوان الصفاء ، ج4 ، ص 305

² - محمد أمين بدوي ، الشيعة و نشاطهم السياسي ، ص 22

³ - المرجع نفسه ص 23

⁴ - عبد الحسن دستغيب ، النبوة ، ترجمة أحمد القبانجي ، دار المعارف للمطبوعات ، [د ط] ، 1988 ، ص 149

وحسب ما يؤكد الفكر الشيعي " السيد عبد الحسن ديستغيب " اقتضى ذلك الوضع أمرا بالغ الأهمية لا غنى عنه لحفظ مصالح العباد تمثل في وجوب نصب الإمام ، بل و تعيينه من قبل النبي ﷺ لأنه «إذا لم يعين النبي ﷺ خليفة بعده فيلزم من ذلك القبح العقلي . لماذا؟ لأن رئيس القوم أو القبيلة إذا أراد السفر فإن العقلاء يقولون إن عليه ألا يترك قومه بدون رئيس فكيف إذا كان السفر سفر الآخرة»¹ فبان من ذلك كله ارتكاز الإمامة الباطنية على العقل كدليل قاطع على وجوبها.

ولم يكتف الشيعة الباطنية بذلك بل أضفوا على الإمامة هالة من التقديس و نوعا من التعاليم المميزة لتكون محورا تدور حوله كافة معتقداتهم « فعقيدة الإمام هي حجر الزاوية في المذهب الشيعي بل أن كثيرا من المعتقدات الشيعية الأخرى كالعصمة و الرجعة و البداء و التقية تدور حول الإمامة فهي جوهر العقيدة الشيعية»².

مما سبق يتوضح لنا أن الإمامة كمسألة رئيسية في الفكر الشيعي كانت محور الخلاف بين المسلمين بل حتى بين الفرق الشيعية ذاتها، وهي واجبة وجوبا عقليا لا شرعيا « قال الإسماعيلية أن الإمامة أهم أركان الدين وأنها واجبة عقلا لأن القرآن و السنة في حاجة إلى تفسير و إيضاح»³ وبذلك خالفوا غيرهم و خرجوا عن ما اتفق عليه اجماع أهل السنة .

المطلب الثاني : وجوب الإمامة بالنص و توارثها في الأئمة

إذا كان نصب الإمام من الضروريات لحفظ الأمة و سياسة الرعية كما سبق الحديث عن ذلك من قبل، فإن هذه الضرورة تتأكد عند الباطنية ، حين تربط وجوبها بالنص ، و تعتبرها حقا متوارثا في الذرية العلوية ، لا مجال فيه للاختيار أو الانتخاب، لتضفي عليها هالة من التقديس، وتجعلها ركنا من أركان الإسلام و شرطا لصحة الإيمان أيضا .

أولا : النص على الإمامة

اتخذت الباطنية من النص سبيلا لإقامة عقيدتها في الإمامة التي اعتبرت المحور الأساسي الذي تتمحور حوله كافة عقائدها ، و كان لقولها بذلك أسبابه و مبرراته . ففي وجوبها بالنص مجلبة للطاعة من الأتباع، و باعث على الخضوع التام لسلطة الإمام و عدم رفع راية العصيان في وجهه ، ما دام قد تم تنصيبه بنص شرعي رادع للطغاة و المتمردين والضالين.

1- عبد الحسن ديستغيب، النبوة ، ترجمة أحمد القباجي ، ص 147

2- صبري خدمتلي، العقيدة و الفرق الإسلامية ، ص 63

3- محسن عبد الناظر ، مسألة الإمامة ، ص 61

وبالنسبة لفرقة الإسماعيلية الباطنية يتم توارث هذا الحق في تولي الإمامة في ذرية "علي بن أبي طالب" بوصية من السابق فيهم إلى اللاحق الذي يليه ويعهد له بالخلافة والإمامة من بعده حتى « إن الإمامية تعتقد أن الله سبحانه لا يخلي الأرض من حجة على العباد من نبي أو وصي ظاهرا مشهورا أو غائبا مستورا وقد نص النبي ﷺ وأوصى إلى علي وأوصى علي ولده الحسن وأوصى الحسن أخاه الحسين وهكذا .. »¹ وهكذا ينص كل إمام على غيره ليصبح أمر النص شرعيا بل سبيلا لعقد إمامة الأئمة العلويين.

*1 أدلة وجوب الإمامة بالنص

و إذا كان النص على الإمامة قائما في الفكر الشيعي للتدليل على أحقية آل البيت العلوي بالخلافة ، فإن طبيعة هذا النص متفاوتة بين فرق الشيعة . إذ تجدر بنا الإشارة هنا إلى اختلاف فرق الشيعة في أمر النص على "علي" وإمامة « فالإمامية ومنها الإسماعيلية الباطنية قالوا بإمامة "علي" نصا ووصاية ويكون هذا بنص جلي بينما جعلته الزيدية خفيا واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده بعده وإن خرجت بظلم واغتصاب»².

ففرق الشيعة في مجملها نسجت معتقداتها وطورت مذاهبها بالاستناد إلى مسألة الإمامة فكان لها بذلك دور بالغ الأهمية على الصعيد السياسي والعقائدي، أرهبت به خلفاء عصرها على مر الزمن من غير العلويين الذين ساندتهم ودعت لهم وإليهم مؤكدة على أن « الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة ويتعين القائم بها بتعيينهم ، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام ولا يجوز لني إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصوما من الكبائر والصغائر وأن "عليا" رضي الله عنه- هو الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها».

كما يميز العلامة "بن خلدون" بين تلك النصوص التي اعتمدها الشيعة لإثبات الإمامة ويرى أنها تنقسم إلى نصوص جلية وأخرى خفية (بحسب الفرق) « فالجلي مثل قوله النبي ﷺ للناس في حجة الوداع « من كنت مولاه فعلي مولاه» ولما تطرد هذه الولاية إلا في "علي" ولهذا قال "عمر" « أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة»³.

1- حسن كاشف آل غطاء ، أصل الشيعة وأصولهم ، ص 104

2- عبد الفتاح أحمد فؤاد ، الفرق الإسلامية وأصولها الإيمانية ، ج1 ، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، الإسكندرية

مصر، [د ط] [د ت] ، ص313

3- صحيح أورده البخاري و غيره

إضافة إلى قول النبي الكريم في مدح الإمام "علي" « أقضاكم علي » و المقصود هنا الإمامة إذ « لا معنى للإمامة إلا القضاء بأحكام الله و هو المراد بأولي الأمر الواجب طاعتهم لقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾¹ لهذا كان (علي) حكما في قضيه الإمامة يوم السقيفة دون غيره .

كما وظف الشيعة من الباطنية حديثا هاما نسبوه إلى النبي أظهروا فيه نص النبي عليه وتعيينه له كوصي و ولي على ما خلف من بعده فرووا عن النبي قوله لعشيرته عند بداية الوحي « من يبايعني على روجه وهو وصي وولي هذا الأمر من بعدى؟ فلم يبايعه إلا علي»².

وأما غير الجلي فاعتمدوا فيه على التأويل لظاهر النصوص والخوض فيها بحثا عن بواطنها تماشيا مع مذهبها لكن العلامة بن خلدون يذكر بعضا من هذه النصوص الخفية في مقدمته فيقول « وأما الخفي فهو بعث النبي ﷺ "عليا" لقراءة سورة "براءة" في الموسم حين أنزلت فكان "علي" القارئ المبلغ وهذا يدل على تقديم أي النبي ﷺ لعلي وهذه كلها شواهد بتعيين "علي" للخلافة دون غيره »³

كما وظف الشيعة نصوصا من شرعية من القرآن والسنة وأولوها تأويلات باطنية ليعتمدها كأدلة قاطعة ، يؤكدون من خلالها النص على الأئمة الشيعيين من الذرية العلوية لتولي زمام الإمامة وهذه الأدلة متفاوتة فيما بينها من حيث صدقها وقوتها وتفسيراتها .. فقد أورد الدكتور "محمد أحمد الخطيب" في كتابه "الحركات الباطنية في العالم الإسلامي" بعض النصوص الشيعية المؤولة للتدليل على وجوب الإمامة بالنص منها ما ورد في قوله " فهم يفسرون بعض الآيات القرآنية بأن المقصود بها الأئمة من أهل البيت كقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾⁴ فيزعمون أن رسول الله قال في شرح هذه الآية « أنا المنذر وعلي الهادي من بعدي » بل فسر الباطنية أيضا قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾⁵ بأنه إقسام بما هو غاية القسم « أن ذلك الكتاب الناطق المترجم عن هذا الكتاب الصامت لا ريب فيه وأنه مختار من الله لمحمد وصيا كاختيار محمد من الله سبحانه »⁶ .

¹ - سورة النساء آية 59

² - صحيح أورده البخاري

³ - عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص210، 211

⁴ - سورة الرعد آية 07

⁵ - سورة البقرة آية 02

⁶ - محمد أحمد الخطيب ، الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ، ص102، 101

هذه الأراء و الأفكار الشيعة القائلة بالعصمة هي ذاتها التي أوردها الباحثون في الفكر الباطني من أمثال "جولد تسيهر" صاحب كتاب "العقيدة والشريعة في الإسلام" و الذي جاء فيه بخصوص مسألة التنصيب اعتقادا هام لطالما كان سادا بين الشيعة يفيد أن النبي قد أرث آل بيته الخلافة و العلم الإلهي أيضا « فقالوا بأن النبي بثه علوما كان يخفيها عن جمهور صحابته لأنهم لم يكونوا أهلا لها » .

ويضيف أيضا "جولد تسيهر" موضحا سبب ذلك الفعل النبوي قائلا " كما اختار النبي عليا و عيونه صراحة ليكون خليفة له فيما بعث لأجله هداية الأمة و حكمها و تدبيرها أمورها فهو لذلك وصي أي أنه انتخب برغبة النبي و إقراره»¹ .

مما سبق نستنتج أن إمامة "علي" واجبه الطاعة بالنص- عند الشيعة- و ليس بعد النص عليه شك في إمامته هو و ذريته من بعده ، و يقولون « لا تصح صلاة ولا صوم ولا عبادة إلا معرفة الله، النبي و الإمام "ومن أنكر إمامته [...] حسبهم فهو مخلد في النار (تراه الشيعة كافرا)»² فكان نصب الإمامة من الضروريات و معرفة الإمام القائم من أشد الواجبات.

وكما رأينا أن الإسماعيلية الباطنية لا تختلف عن غيرها من الفرق الشيعة الإمامية الأخرى في مسألة النص الجلي ، إذا « حكى شيخنا أبو القاسم البلخي أن الإمامية تزعم أنه ﷺ نص على "علي"- عليه السلام- باسمه و أظهر ذلك و أعلنه و أن أكثر الصحابة، بل كلها ارتدوا إلا ستة أنفس و تزعم أن الإمامة قرابة و أن الإمام يعلم ما تحتاج إليه الأمة من دينها»³ .

و يذكر الإمام "محمد أبو زهرة" في مؤلفه "الوحدة الإسلامية" أن الشيعة الإمامية تجمع على القول بأن « الأئمة عينوا من النبي ﷺ بالشخص لا بالوصف فعين النبي ﷺ عليا وهو يعين من بعده بوصيته من النبي ﷺ وكذلك من بعده... الخ . كما أجمع الإمامية على أن إمامة علي- كرم الله وجهه - قد ثبتت بالنص عليه بالذات من النبي ﷺ نصا ظاهرا و يقينا صادقا من غير تعريف بالوصف بل بالعين»⁴ .

¹ - أجناس جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام ، ص196

² - سميح دغيم ، موسوعة مصطلحات علم الكلام، الجزء الأول، مكتبة لبنان، ط 1، 1998، ص 212

³ - المرجع نفسه 219

⁴ - محمد أبو زهرة، الوحدة الإسلامية ، ص181

رغم أن " البغدادي " يشير إلى أن هذه الفرقة الشيعية على اختلافها، إن كانت تتفق في مسألة وجوب النص على الإمامة فهي لم تتفق على علة ذلك الوجوب، إذ يقول « و اختلف هؤلاء في علة وجوب النص عليه فمهم من بناه على أصله في إبطال الاجتهاد ومنهم من بناه على أصله في وجوب عصمة الإمام»¹.

*2 بطلان الاختيار في وجود النص

ومما يرد عن الشيعة في مختلف المؤلفات التي تناولتها بالبحث و التحليل أنها لا تخرج عن نفس المبدأ القائل بالنص على الإمام و رفض الاختيار، و يورد أبو الحسن الأشعري رأيهم هذا في مقالات الإسلاميين فقد « قالوا لا تكون إلا بنص من الله سبحانه و توقيف و كذلك كل إمام بنص على أمام بعده فهو بنص من الله سبحانه على ذلك و توقيف عليه »². ذكرهم الأستاذ "عبد العزيز الثعالبي" في مؤلفه "محاضرات في التفكير الإسلامي والفلسفة" حين قال «أما الشيعة فقد أنكروا الاختيار وهم مجمعون على أن الإمامة في النص والتعيين»³.

فكان نصب الإمام عند الشيعة كغيرهم من سائر المسلمين ضرورة للأمة مع زيادة في القول بإمكانية تستره غيبته أي ليس من الضروري أن يكون ظاهراً للعيان ، بل نتبعه ونطيعه و لا نستبدله بغيره ، يظهر ذلك فيما يذكره عنهم البغدادي بقوله « أجازت الروافض غيبته عن جميع الناس وأوجبوا انتظاره و لم يجيزوا نصب إمام في حال انتظارهم من ينتظرونه»⁴.

*3 الإمامة تفويض إلهي توجهه العناية الإلهية

مع غياب الاختيار و القول بالنص الإلهي و التفويض ، أصبح الحكم السياسي الذي دعا إليه الشيعة وأرسوا دعائمه حكماً " تيوقراطياً " أساسه الاختيار الإلهي للإمام الحاكم المنصوص عليه من النبي و الذي يوحي لمن يليه بتوفيق من الله فالعناية الإلهية تتدخل في نصب الإمام يظهر ذلك من خلال آراء المفكر الشيعي "حسن كاشف الغطاء" التي تؤكد على

1- عبد القاهر البغدادي ، أصول الدين ، مطبعة الدولة ، استانبول ، ط1، 1982، ص280

2- أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين ، ص148

3- عبد العزيز الثعالبي ، محاضرات في التفكير الإسلامي و الفلسفي ، ص270

4- عبد القاهر البغدادي ، المرجع نفسه ، ص273

* تيوقراطية théocratie : حكم تمارسه طبقة قديسية مغلقة... و يستعمل بعض الكتاب الإنجليز هذه الكلمة للدلالة على المذهب القائل : إن الله هو المصدر الحق للسلطان الأخلاقي في المجتمع * أندريه لالاند ، موسوعة لالاند الفلسفية، الجزء3، ترجمة: خليل أحمد خليل ، منشورات عويدات ، بيروت لبنان ، ط2 ، 2001 ، ص1449

وجوب الإمامة بالنص وارتباطها بالنبوة . إذ يقول أن «الشيعية الإمامية زادوا ركنا خمسا وهو الاعتقاد بالإمامة يعني أن يعتقدوا أن الإمامة منصب إلهي كالنبوة».

بل ويزيد في التوضيح أكثر عن ذلك الاختيار الإلهي للأئمة تماما كاختيار الأنبياء قائلا «كما أن الله سبحانه يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة و يؤيد بالمعجزة التي هي كنص من الله عليه [...] فكذلك يختار للإمامة من يشاء و يأمر نبيه بالنص عليه وأن ينصبه إماما للناس»¹ إذن الإمامة بالنص من الله على لسان نبيه، فعليه أن يحسن تبليغ ذلك للخلق أجمعين.

يؤكد المفكر الشيعي الحديث "حسن كاشف آل غطاء" كل ما سبق الحديث عنه من أفكار وآراء تتعلق بمسألة توارث الإمامة والنص عليها الإمامة في مؤلفه " أصل الشيعة وأصولهم " و الذي زخر بشتى آرائهم حولها ، لا سيما تأكيد توارثها و النص عليها من الله عند الإمامية و التي تعتبر الباطنية أهم فرقها فيحكي تصور هذه الشيعة الإمامية لعقيدة الإمامة بقوله « إن مرادهم بالإمامة كونها مذهبا إلهيا يختاره الله بسابق علمه بعبادة كما يختار النبي بأن يدل الأمة عليهم»² و النبي مخبر عن كل ما بلغه عن ربه بما في ذلك الإمامة و الوصاية .

و هذا الاختيار من الله إلى الحاكم واضح في أمره لنبيه بأن يدل عليها، أي ينص ويوضح ذلك للأمة فالإمامة هنا لا تكون إلا بنص واختيار الله هذا نفسه ما قالت به أوروبا العصور الوسطى عن الحكم "التيوقراطي" الذي يكون فيه الحاكم بأمر من الله و انقياد من الشعب بفعل الإرادة والعناية والإلهية.

و لا تختلف الإسماعيلية الباطنية عن غيرها من سائر فرق الإمامية الذين « يعتقدون أن الله سبحانه أمر نبيه بأن ينص على "علي" وينصبه علما للناس من بعده » ولكن حسبهم أن النبي تردد في ذلك لأنه أدرك أمرا ما و خشية « وكان النبي يعلم أن ذلك سوف يتقل على الناس و قد يحملونه على المحاباة والمحبة لابن عمه وصهره»³.

¹ - حسن كاشف آل غطاء ، أصل الشيعة و أصولهم ، ص 98

² - المصدر نفسه ، ص 102

³ - المرجع نفسه ، ص 102

فحاول الإشارة إلى ذلك بأحاديثه يمكن فهم مضمونها والمقصود منها بتدبر وتأمل وتأويل وتفسير فهي أمثله مضروبة وإيماءات مكشوفة.. حتى أتى أمر الله الذي طلب منه الإفصاح بدقة عن الأمر الإلهي يقول آل غطاء « لكن الله سبحانه لم يعذره في ذلك فأوحى إليه ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾¹ »².

وبذلك أتى الأمر الإلهي الداعي إلى الإفصاح بدقة عن المقصود الإلهي بالنص على الإمامة لعلي وبهذا كانت الإمامة واجبة بالنص من الله على لسان نبيه الكريم "محمد" الذي عمل على تبليغ ذلك في حادثة غدِير "خم" أثناء حجة الوداع ليعلمها الناس كافة. فيدرك أتباعه أبعده أبعده بالخلافة دون ريبه أو شك، حتى أن التزارية وهي من الإسماعيلية الباطنية قد جعلت من نور الإمام مبدأ الكون الأسمى واعتبرت مبدأ الإمامة، أي مبدأ الهداية موجودا قبل إبداع الكون³ «³ و ربطته بالوجود و خلق الكون فالإمام هو إذن الأمر الإلهي و الكلمة وهو "كن" التي انطلق منها الوجود كله .

و نتيجة لما سبق وصف الحكم السياسي الشيعي بأنه حكم تيوقراطي، ولا يخفى على أحد ما لهذا الحكم "التيوقراطي" من صدى و تأثير علي الرعية و تسيير الأمة، فقد ساد أوروبا وعرفت به قرونها الوسطى التي حكم فيها الأباطرة الناس باسم الدين بدعوى اختيارهم من الله فهم كلمته وهم خلفاؤهم الذين اختارهم بعناية ليسودوا أرضه وليحكموها نيابة عنه وباسمه كما حكمها من قبلهم الرسل و الأنبياء .

فكانت الخلافة بالمنظور الشيعي تعيين من الله « و لهذا المبدأ جسدوا معنى الحكم "التيوقراطي" داخل الأمة الإسلامية . ومعناه أن يصبح مصدر السلطة السياسية للإمام وحكمه ولا يستمد من الأمة و إنما يستمد من الله⁴ «⁴ والحاكم هنا على قدر كبير من القداسة نظرا لارتباطه بالرسول- صلى الله عليه وسلم- من ناحية النسب العلوي.

¹ - سورة المائدة آية 67

² - حسن كاشف آل غطاء ، المصدر السابق ، ص 102

³ - حنا الفاخوري، وخليلي الجر، تاريخ الفكر الفلسفي عند العرب ، ص 220

⁴ - إسماعيل زروخي ، الدولة في الفكر العربي الحديث ، دار الفجر للنشر و التوزيع ، القاهرة مصر ، ط 1 ، 1999 ، ص 22 ، نقلا عن محمد فاضل زكي ، الفكر السياسي العربي الإسلامي ، ص 241

ثانيا : توارث الإمامة

إن الباطنية التعليمية تذهب مذهب غيرها من الفرق الشيعية على اختلاف فرقها وتوجهاتها في مسألة وجوب الإمامة من الذرية النبوية « فوجود إمام لكل عصر أمر ضروري لا غني عنه لأن الغاية من التشريع السماوي والتوجيه الإلهي لا تتحقق دون إمام حائز لمثل هذه الهداية وهذه العلوم الربانية » لكنها تزيد على القول بالوجوب أمرا يتعلق بتوارث هذا الحق في الخلافة لتبقى و بشكل حصري قائمة في آل البيت من أبناء فاطمة .

مما يؤكد على أن الوراثة هي أساس الإمامة عند الشيعة أما الإختيار و الإتفاق لتعيين الخليفة فهو مما لا يؤخذ به في الفكر الباطني « فالإمامة هي نظام واجب و تنتقل بوراثة لا تنقطع إلى أفراد الذرية النبوية الحائزين على مثل هذه الصفات »¹ فالوصاية و الوراثة مرتبطان بمسألة النص على الأئمة و تعاقبهم على الحكم.

و هذا معروف عند سائر فرق الشيعة من أتباع الإمام "علي" « القائلون بإمامته بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالنص الجلي أو الخفي و يرون أن الإمامة لا تخرج عن أهل بيته و هي ليست قضية مصلحة و أمرا سياسيا يتحقق بتعيين الأمة بل هي قضية مبدئية» بل يجمع أتباع "علي" على الاعتقاد بأن الإمامة لا توكل إلى الخلق ليختاروا من يؤمهم و يراعي مصالحهم و إنما هي أمر يتجاوز حدود البشر و اتفاهم لأنها « هي ركن من أركان الدين و لا يجوز على النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يغفل هذا الأمر و يوكل تعيين الإمام إلى عامة الناس»² بل عليه نصب الإمام و تعيينه للخلق حتى لا تتضارب أراؤهم و أهواءهم .

هكذا إذن دلت الشيعة عموما و الباطنية خصوصا على إمامة العلويين على مر الزمن و تعاقب الفترات بنصوص شرعية أكدوا - حسبهم - صحتها و يقينها. معتمدين سبلا عدة منها التأويل الباطني مادامت الغاية المنشودة من كل ذلك الإقناع بالإمامة الشيعية و التأكيد على صحتها و أحقيتهم بها « فقد زعمت أغلب فرق الشيعة و منها "الإمامية" و "الجار و دقي" من "الزيدية" و "الرواندية" من العباسية أن الإمامة طريقها النص من الله تعالى على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإمام ثم نص الإمام على الإمام بعده»³ .

1- أجناس جولد تسيهر، العقيدة و الشريعة في الإسلام ، ص197

2- مجموعة من الباحثين ، موسوعة الأديان في العالم ، ج4 ، الفرق الإسلامية ، دار كريس أنترناسيونال ، بيروت لبنان ، [د ط] 2000، ص 37 ، 38،

3- عبد القاهر البغدادي ، أصول الدين ، ص270

يوضح الإمام " أبو حامد الغزالي " قول الإسماعيلية الباطنية بفكرة التوارث في "فضائح الباطنية" مبرزا مدى تمسكهم بضرورة توارث حق الذرية العلوية في خلافة النبي « و اتفقوا على أنه المتصدي لهذا الأمر ، و أن ذلك جاد في نسبهم لا ينقطع أبدا الدهر و لا يجوز أن يقطع»¹ ثم يذكر " الغزالي " دليلا لهم في ذلك التمسك بالحق في الإمامة و توارثها في الأعقاب حتى لا تنقطع قائلا « و لا يجوز أن ينقطع إذ يكون فيه إهمال الحق وتغطية عن الخلق وإبطال قوله - عليه السلام- « كل سبب ونسب ينقطع إلا سبي ونسبي » و أيضا قوله « ألم أترك فيكم القرآن و عترتي .. »².

و في مسألة النص على الإمامة تأكيدا جازم و أشد وضوحا على النص على توارثها، بل إنه هذا حق عند هذه الفرقة إذ « يرى التزاريون أن الجزء الإلهي الموجود في الإمام ينتقل من الأب إلى الابن عن طريق النص »³ ورغم إنكار المنكرين لحق التوارث نجد أنصار الشيعة من الشعراء يؤكدون ذلك فقد ورد على لسان "الكميت":

يقولون لم يورث ولولا تراثه
ولانتشلت عضوين منها يحابر*
لقد شركت فيه بكيل وأرحب*
وكان لعبد القيس عضو مورب
فإن هي لم تصلح لحي سواهم
إذا فذوو القربي أحق وأقرب⁴

حتى أن "علي سامي النشار" أكد ذلك في دراسته للشيعة وعقائدها إذ خلص في بحثه إلى أن أساس عقيدتهم هي الفكرة القائلة « لولا وجود الإمام لساحت الأرض بمن فيها فالإمام إذن عنصر وجودي كوزمولوجي » .

بل يضيق الدكتور " علي سامي النشار " تأكيدا آخر يوضح من خلاله عقيدتهم الراسخة في ارتباط وجود الإمام بنظام الكون فحسبه «خلق الكون لأجله ولا يوجد الكون بدونه ولو لم يوجد لما وجد الكون، فهو مركز السكون ونقطة الوجود»⁵

¹ - أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 42

² - المصدر نفسه ، ص 42

³ - حنا الفاخوري و خليل الجر ، المرجع السابق ، ص 221

* بكيل وأرحب: قبيلتان وهما من همدان

* يحابر: قبيلة من مراد ، نقلا عن أحمد أمين ، المرجع السابق ، ص 305

⁴ - أحمد أمين ، ضحي الإسلام ، ج1، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ، ط1 ، 2005 ، ص 305

⁵ - علي سامي النشار ، نشأة الفكر الفلسفي الإسلام ، ص 527

لكن إن كانت الفرق الشيعة تختلف في إسناد الإمامة إلى أبناء علي ، فإن الباطنية تحصرها في أبناء علي من فاطمة وصولاً إلى جعفر الصادق الذي ترى الإسماعيلية أنه أوصى بالإمامة إلى ابنه البكر "إسماعيل" الذي أوصى بها إلى أبنائه من بعده ، وبقيت متوارثة فيهم ، و لا يجوز أن تخرج عنهم و سبق أن أشرنا إلى ذلك عند تعريف الباطنية.

المطلب الثالث : عصمة الإمام وضرورة التعلم منه

أولاً : عصمة الإمام

من المصطلحات التي ظهرت و انتشرت مع ظهور الشيعة و اتسع نطاقها فيما بعد حين أثبتوا أن الأئمة من أهل البيت معصومون عن الخطأ و الخطيئة. فإضافة إلى تقديسهم و توارثهم للإمامة أضيف إليهم جانب العصمة و لشدة إلحاح الشيعة على القول بها، أصبح هناك ارتباط وثيق بينها و بين الإمامة بل « لقد فهمت العصمة على أنها قوة تحمي الإنسان من الأخطاء والمخاطر مادية كانت أو معنوية »¹ كأما وقاية له من ارتكاب المعاصي فهي واجبة له كوجودها للأنبياء رغم اعتراض أهل السنة و الجماعة على ذلك .

فدعوى عصمة الأئمة من الشيعة توجب الطاعة لهم من قبل الأتباع « و من هنا فإن المؤيدين لا يرتكبون شيئاً من الكبائر وإهم معصومون لأن أرواحهم تصورت بصور الجن في قلوبهم و الصغائر مغفورة لهم لأن أحكامهم شبيهة بأحكام الإنس بالقوة وذلك لتشبههم في القوالب »² وبذلك اعتبر أئمة الشيعة من طينة خاصة و وجبت لهم الطاعة العمياء.

و بعدما أكدنا على قول الباطنية بالعصمة كصفة ملازمة للإمام الشيعي علينا أن نكشف عن بعض الأغراض التي من أجلها تعمد هؤلاء الشيعة إضفاء هذه الصفة على أئمتهم . وكان أهمها عدم رفع راية العصيان على الإمام باعتباره معصوماً وأيضاً مقدساً فهو ظل الله في أرضه و هذا يقتضي عصمته و عليه لا يجب على الناس معارضته « حتى لقد تعرض الناس للموت إذ أظهروا سخطاً أو تدمراً أو قاوموا أوامر الخليفة و نواهيه لأنها صادرة من الله الذي أملاها على الإمام المعلم لأنه تلقى علمه من الله عن طريق الوحي»³.

1- محسن عبد الناظر ، مسألة الإمامة ، ص 415

2- عبدان قرمط ، شجرة اليقين ، دار الأفاق الجديدة ، ط 1 ، 1982 ، ص 30

3- حسن الخربوطلي ، الإسلام و الخلافة ، ص 202 ، 203

الأئمة الشيعيون معصومون مقدسون طاهرون يرثون بعضهم البعض و هم حقيقة خلفاء الله في أرضه و ظله وهذا يدل على نوعية الحكم الشيعي التيوقراطي القائل بفكرة الحق الإلهي والتفويض الرباني إذ « لقيت نظرية الحق الملكي المقدس التي كانت سائدة في بلاد الفرس في عهد " آل ساسان " و التي أخذها عنهم الخلفاء العباسيون فيما بعد قبولا عند الخلفاء الفاطميين ، و أصبح الإمام في نظر الناس ظل الله في الأرض»¹.

و حسب ما ورد من أخبار عن الشيعة أنها تقول بعصمة الأئمة تماما كعصمة الأنبياء وقد ذكر عنهم "البغدادي" في "أصول الدين" لقوله « قال الشيعة كلها بوجود عصمة الإمام في الجملة » يضيف « وهم مناقضون لهذه الدعوى في التفضيل لأنهم ثلاث فرق زيدية وأمامية وغلاة »² مما يبرز أن العصمة والمناداة بها متفاوتة في القوة والتفضيل بين فرق الشيعة رغم أنها قصر عليها هي فقط ،لأنه قد « قال أكثر الأمة أن العصمة من شروط النبوة والرسالة وليست من شروط الإمامة وإنما يشترط فيها عدالة ظاهرة»³.

و بهذا يظهر أن مسألة عصمة الأئمة العلويين قد انفردت بها الشيعة و بلغت فيها ما قد بلغت من الغلو والتطرف في بعض الأحيان، حتى أن من الشيعة من بني الإمامة على وجوب العصمة « و زعم أن العصمة لا تعرف بالاجتهاد وإنما يعرف المعصوم بالنص»⁴.

ومن خلال دراسات بعض المؤرخين للتيار الشيعي تبين لهم وجود تقارب و تأثير بينهم وبين التيار الصوفي في بعض جوانبه حيث ظهر « توافق المتصوفة والشيعة في إسباغ العصمة على الأولياء والأئمة» .بمعنى أن صفة العصمة ظهرت لدى الطرفين وشاعت بين أتباعهما ولوعدنا للفكر الشيعي عموما نجد « أن أول شيعي قال بعصمة جعفر الصادق كان هشام بن الحكم المتكلم الشيعي الكوفي وأنه رأى أن الإمام أحوج إلى العصمة من النبي»⁵.

و السبب في ذلك الاختلاف حسب ما ورد عن هذا المتكلم « أن الثاني - أي النبي - يوحى إليه فيسدد الله خطاه ، و أما الثاني فلا يوحى إليه و لذلك احتاج إلى العصمة»⁶

1- حسن الخربوطلي ، الإسلام و الخلافة ، ص 202

2- عبد القاهر البغدادي ، أصول الدين ، ص 278

3- المرجع نفسه ص 277 و 278

4- المرجع نفسه 280

5- كامل مصطفى الشبيبي ، الصلة بين التصوف والشيع ، ص 385

6- المرجع نفسه ص 385

و لم يظهر وصف العصمة إلا في الفكر الشيعي مرتبطاً بالأئمة و قد أثبت "دونا لدسن" أن العصمة فكرة شيعية أصلية لم تتطرف إليها الأسفار الدينية المسيحية واليهودية، و لم يقل بها المسلمون الأولون في جدهم المسيحيين وأن القرآن نفسه لم يذكر عصمة الأنبياء¹.

لكن العصمة عن الكبائر وصف بها الأنبياء والأئمة معا لدى الشيعة ماعدا بعض المغالين الذين قصروها على الأئمة دون سواهم لأن «الشيعة على العموم يعصمون الأنبياء والأئمة معا» فقالوا بأن الله «حفظ الأنبياء بالوحي والأئمة بالعصمة»² لكن بعض الغلاة من الشيعة تبادوا في القول بعصمة الأئمة إلى درجة بلغت حد تأليههم و رفع الأحكام والتكاليف عنهم باعتبار أن الإمام معصوم من الخطأ والخطيئة .

رغم أن جمهور الأمة يقر بعصمة الأنبياء دون الأئمة باعتبار «أن أهل السنة متفقون على عصمة الأنبياء في تبليغ الرسالات و كل ما يبلغونه عن الله تعالى من أمر و نهي فهم مصدقون»³ قد ورد في العصمة للأنبياء ما وصف به سيدنا يوسف - عليه السلام - حين حكى الله تعالى حاله على لسان زوجة العزيز لما جمعت له من النسوة ليربصن به ، قال الله تعالى ﴿قَالَتْ فذَلِكَ الَّذِي كُنْتُ لُمْتُنِّي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾⁴.

إلا أن اتفاق هذا بخصوص عصمة الأنبياء، ما يزال محل جدل فالبعض يرى عصمتهم في الكبائر والصغائر معا، في حين يرى آخرون أنهم معصومون من الكبائر دون الصغائر لأنهم بشر مثلنا يخطئون و يصيبون، والغزالي بدوره يؤيد هذا الموقف الثاني «فالأنبياء كما وصفهم القرآن لا يتعمدون المعاصي و لا يفكرون فيها ، و لكنها قد تصدر عنهم عرض فينبههم إذ ذاك الوحي و يرشدهم و لذلك كان الرسول يقول : إنه ليغان على قلبي و إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة⁵»⁶ فالنبي الكريم محمد و غيره ممن سبقه من المرسلين لم تثبت عصمتهم وهم أقرب الخلق إلى الله . فكيف بحال الأئمة إذن؟

1- كامل مصطفى الشبيبي ، الصلة بين التصوف والشيع ، ص 385

2- المرجع نفسه ص 387

3- مصطفى حلمي ، نظام الخلافة ، ص 240

4- سورة يوسف الآية 32 :

5- صحيح متفق عليه

6- أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج 1 ، دار السلام للطباعة و النشر و التوزيع و الترجمة ، القاهرة مصر ، ط2 ،

2005 ، ص 320

فإذا كان النبي يرى نفسه عرضة لارتكاب الأخطاء و يلجأ إلى الاستغفار اليومي و الدائم لإحساسه بأنه غير معصوم فما بالوا الشيعة إذا يدعون العصمة للأئمة الذين هم من جملة البشر يخطئون و يتمادون و يعترتهم النقص و الخلل.

لذلك يرى الدكتور مصطفى حلمي بطلان القول بالعصمة للأئمة لما يرد عنه من القول «أما دعوة عصمة الأئمة فلم تقم حجة تدعمها إلا ما يراه الشيعة من ضرورة عدم خلو العالم من أئمة معصومين و هم علة اللطف و المصلحة»¹.

ثانيا : بطلان نظر العقول في وجود معلم معصوم

1* أخذ العلم عن الإمام المعلم المعصوم

قامت الدعوة الباطنية على مبدأ أخذ المعرفة من معلم ادعت له كل العصمة حتى تلقبوا بهده الصفة و عرفوا بالتعليمية الدين مثلوا الدعوة الباطنية الجديدة مع "الحسن ابن الصباح" في بلاد فارس . الذي أرسى مبادئ دعوته انطلاقا منه فدعا إلى وجوب أخذ العلم من معلم هو الإمام المعصوم كما ذكر ذلك الشهرستاني عنه "الفصول الأربعة" التي ابتدأ بها دعوته و كتبها عجمية و يوضح كل منها مطلبا معينا و فكرة تبطل الرأي و نظر العقل لتؤكد ضرورة العودة دائما إلى معلم معصوم و يمكن أن نتعرف على محتوى هذه الفصول كما عرضها "الشهرستاني" في مؤلفه الشهير "الملل و النحل".

فقد أورد "الشهرستاني" أهم ما احتواه الفصل الأول لابن الصباح و الذي جاء فيه أن «الأول قال للمفتي في معرفة الله تعالى أحد القولين: إما أن يقول أعرف الباري تعالى بمجرد العقل و النظر من غير احتياج إلى تعليم معلم وإما أن يقول لا طريق إلى المعرفة مع العقل و النظر إلا بتعليم معلم ، قال: و من أفتى بالأول فليس له الإنكار على عقل غيره و نظره ، فإنه متى أنكر فقد علم ، و الإنكار تعليم ، و دليل على أن المنكر عليه محتاج إلى غيره ، قال و القسمان ضروريان لأن الإنسان إذا أفتى بفتوى أو قال قولا فإما أن يعتقد من نفسه أو من غيره»² ليظهر من خلال ما سبق الحاجة إلى التعليم لبلوغ مقاصد الخالق فالإنسان لا يقدر على تحقيق معرفة دون ارشاد مرشد و عون معلم نظرا لثقت الآراء و تضاربها .

1- مصطفى حلمي ، المرجع نفسه ص 240

2- أبو الفتح الشهرستاني ، الملل و النحل ، ج1، ص 201

ثم يقول "الشهرستاني" في ختام هذا الفصل أن « هذا هو الفصل الأول فهو كسر على أصحاب الرأي والعقل » و بالتالي ثبتت الحاجة إلى التعليم نظرا لاختلاف العقول والحاجة إلى نهل العلم من معلم .

أما الفصل الثاني "لإبن الصباح" فقد تضمن تأكيدا لوجوب وجود المعلم مع ابراز شروطه فلا يصلح لهذا الدور أي كان من البشر. لذا يصف "الشهرستاني" بعض ما احتواه ذلك الجزء بقوله « وذكر الفصل الثاني : أنه إذا أثبت الاحتياج إلى معلم أفصلح كل معلم على الإطلاق أم لا بد من معلم صادق؟ قال : ومن قال : إنه يصلح كل معلم ما ، يساغ له الإنكار على معلم خصمه وإذا أنكر فقد سلم أنه لا بد من معلم صادق معتمد » .

و في هذا الفصل تأكيد لضرورة العودة إلى معلم شرط أن يكون معصوما عن الخطأ تقي، صادق عدل. وهو من ذرية علي وآل بيته الصادقين وبالتحديد من ذرية الإمام "إسماعيل" بن "جعفر الصادق" لا من غيره من آل البيت ، لما عرف عنهم من غزارة المعارف و لا سيما جعفر الصادق-رضي الله عنهم جميعا-

ليكون الفصل الثالث دالا دلالة واضحة لا مجال فيها للشك على ضرورة معرفة الإمام والإعتراف به كخليفة لله تعالى هذا ما قرره "بن الصباح" و أكد عليه حيث « وذكر في الفصل الثالث : أنه إذا ثبت الاحتياج إلى معلم صادق فلا بد من معرفة المعلم أولا والظفر به ثم التعلم منه ؟ أم جاز التعلم من كل معلم من غير تعيين شخصه وتبيين صدقه ؟ و الثاني رجوع إلى الأول ومن لم يمكنه سلوك الطريق إلا بمقدم ورفيق ، فالرفيق ، ثم الطريق وهو كسر على الشيعة »¹. و هنا تظهر تلك التعاليم الشيعية التي تستوجب معرفة الإمام المعلم المعصوم أولا ثم أخذ المعرفة عنه المعصوم أولا ثم أخذ المعرفة عنه لنشر واستكمال الدعوة وإعلاء كلمة الحق وهذا تأكيدا لتعاليمهم « أن من مات ولم يعرف إمام زمانه فقد مات ميتة جاهلية »².

و في ختام مقالات "ابن الصباح" أوجب ضرورة العودة إلى ذلك الإمام المعصوم عند معرفته إذ « ذكر في الفصل الرابع : أن الناس فرقان ، فرقة قالت نحن نحتاج في معرفة الباري تعالى إلى معلم صادق و يجب تعيينه و تشخيصه أولا ثم التعلم منه ، و فرقة أخذت في كل

1- أبو الفتح الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج1، ص 202

2- المرجع نفسه ص 198

علم من معلم و غير معلم . و قد تبين بالمقدمات السابقة أن الحق مع الفرقة الأولى ،
فريئسهم يجب أن يكونوا رؤساء المبطلين».

وهكذا يختم فصول دعواه بقوله « بالاحتياج عرفنا الإمام وبالإمام عرفنا مقادير
الاحتياج » كما يؤكد حاجتنا الماسة إلى المعلم نظرا لاختلاف العقول في إدراك الحق فاحتاجوا إلى
قائد يهديهم ويرشدهم بعد الرسول ﷺ لتكون تعاليمه واحدة ليست محل اختلاف باعتبار أن بن
الصباح « يذكر أن في العالم حقا وباطلا، ثم يذكر أن علامة الحق هي الوحدة وعلامة الباطل
هي الكثرة وأن الوحدة مع التعليم والكثرة مع الرأي والتعليم مع الجماعة والجماعة مع الإمام والرأي
مع الفرق المختلفة وهي مع رؤسائهم »¹.

فثبت بذلك بطلان الرأي ونظر العقل والتأكيد على الرجوع إلى الإمام المعلم لما له من المعرفة
و يقين العلم ليحل ما استعصى من مسائل الدين . فله علم الظاهر و الباطن ، و هو القائم على
تأويل التزويل وتفسيره ولن يتمكن من فعل التعليم ما لم يكن معصوما. فالشيعية الإمامية و منها
الإسماعيلية « يشترطون أن يكون الإمام معصوما كالنبي عن الخطأ والخطيئة وإلا لزلت
الثقة به »² و ذلك لقوله تعالى ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ
عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾³.

والغرض من القول بعصمة الإمام الشيعي بحسب ما يستند إليه المفكر الشيعي "كاشف آل
غطاء" « أن يكون أفضل أهل زمانه في كل فضيلة وأعلمهم بكل علم لأن الغرض منه تكميل
البشر وتركية النفوس وتهذيبها بالعلم والعمل »⁴.

* إبطال الرأي و نظر العقل

فشيعية الإمام والموالين له عليهم أخذ العلم عنه فهو القدوة التي ينبغي الإقتداء بها، فيتولي
تعليمهم الحكمة والدين وتأويله. ويورد حجة الإسلام " الغزالي " بعضا من أدلة فرقة
الباطنية التي اعتمدها دعاؤها فينشر تعاليمهم مثل قولهم عن الكثرة و الوحدة و استخدام—ها لإبراز
أن العودة لتعاليم الإمام أفضل من الإحتكام إلى شطحات العقل إذ « ان الحق إما أن يعرف
بالرأي المحض أو بالتعليم المحض، وإذا بطل أحدهما ثبت الآخر وباطل أن يكون مدرك بالرأي

1- أبو الفتح الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج1، ص 202 ، 203

2- حسن كاشف آل غطاء ، أصل الشيعية وأصولهم ، ص 98

3- سورة البقرة آية 124

4- حسن كاشف آل غطاء ، المصدر نفسه ص 98

العقلي المحض لتعارض العقول والمذاهب فثبت أنه بالتعليتم ¹ « فدعاة الباطنية ينكرون الرأي والنظر العقلي بدعوى اختلاف العقول حول الأمور وتعدد وجهات النظر والآراء أمام المسألة الواحدة لذلك كان لا بد من الاحتكام إلى من إذا عدنا إليه ما اختلافنا وهذا هو إمام العصر. وبذلك ألغت فرقة الباطنية أي دور للاجتهد وبدد دعائها دور في وجود الإمام المبلغ والمبلغ. وبرهنوا على ذلك حسب ما جاء في الآثار الواردة عنهم في "المستظهر" للغزالي " حيث قال « فلقد سمعت كثير من أقولهم: إن الحق مع الوحدة والباطل مع الكثرة ومذهب الرأي يفضي إلى الكثرة، ومذهب التعليتم يفضي إلى الوحدة فيلزم منه أن يكون الحق في مذهب التعليتم» ² و باعتماد ذلك الأسلوب قللوا من شأن العقل و أرجعوا الفضل كله في حصول المعرفة الحقة إلى الإمام المعلم المعصوم. يقول الإمام " أبو حامد الغزالي" الذي أمعن في تناول فكرهم وعقيدتهم أنهم « بهذا يطلون النظر العقلي ويقللون من قيمته» ³.

فكان من أهم النتائج المترتبة عن الإمامة والقول بالعصمة مسألة التعليتم من الإمام، فهو الأمر النهائي والمسّن والمنفذ لأحكام الشريعة، يؤخذ الحق عنه ولا يؤخذ عن سواه لذا «إن الشيعة أنكروا الإجماع العام كأصل من أصول التشريع لأن هذا يسلم إلى الأخذ بأقوال غير الشيعة وأنكروا القياس لأنه رأي، الدين لا يؤخذ بالرأي وإنما يؤخذ عن الله ورسوله وعن الأئمة المعصومين» ⁴ فتعاليم الأئمة مرجع هام في الشريعة عند الشيعة و هو سابق عن الإجماع و القياس خلافا لما سار عليه أهل السنة والجماعة.

*المنكرون للرأي و نظر العقل من خير الشيعة الباطنية

لم يكن الشيعة من الباطنية وحدهم من أبطلوا العمل بالرأي والقياس و ورفضوا فتح المجال لنظر العقول حتى لا يتعارض ذلك مع ما ينص عليه الإمام المعصوم من التعاليم، بل اتفق مع مذهبهم عدد من المنكرين للقياس والرأي ذكرهم العلماء في كتبهم وكان منهم الظاهرية والنظامية والشيعة والروافض و غيرهم عدا الزيدية وبعض المعتزلة ⁵

1- أبو حامد الغزالي، القسطاس المستقيم، دار المشرق، بيروت لبنان، ط3، 1991، ص74

2- المصدر نفسه ص73

3- المصدر نفسه ص73

4- أحمد أمين، ضحى الإسلام، ص255

5- محمد محدة، مختصر أصول الفقه الإسلامي، شركة الشهاب الجزائر، ط4، 1990، ص192

و تذهب أغلب تلك الفرق و المذاهب إلى إنكار العمل بالرأي و تعتقد بأن ما يستنبط من الأحكام بالقياس غي جائز . و الملاحظ أن « مذهب الشيعة الإمامية و النظام و داود الأصفهاني أن التعبد بالقياس مستحيل عقلا لأنه يترتب على اختلاف الأقيسة في نظر المجتهدين لزوم اجتماع النقيضين »¹ فتفاوت العقول و اختلاف الآراء و الأهواء من شأنه أن يفسد الشريعة و أحكامها . و قد استدل منكرُوا الرأي و القياس بأدلة من الكتاب و السنة و ذلك لإنكار أي دور قد يؤديه القياس و نظر العقول في فهم أحكام الشريعة . فمن الكتاب استدلوا بقول الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾² إضافة إلى قوله تعالى ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾³

أما من السنة فاحتجوا بما قاله النبي ﷺ لإبطال الرأي المتمثل في هذا الحديث « تعمل هذه الأمة برهة بالكتاب و برهة بالقياس فإذا فعلوا ذلك ضلوا » و من خلال تلك الأدلة النصية يمكن أن نفهم أن القول بالقياس و العمل بالرأي يؤدي إلى الضلال و يجلب المفساد .

و لم يكتف هؤلاء الرافضون للرأي و القياس بغلق الباب في وجه كل من سولت له نفسه النظر بعقله و رأيه في فهم أحكام الشريعة بل أثبت بعضهم استهجان كبار الصحابة له و نفورهم منه . حيث ذكروا من الإجماع ما استدلوا به على بطلان القياس « فهذا أبو بكر الصديق الخليفة الأول لرسول الله ﷺ يقول: أي سماء تظلي وأي أرض تقلني إن قلت في كتاب الله برأيي » و أيضا ما ذكر عن عمر-رضي الله عنه- من التحذير شديد اللهجة لأولئك المقبلين على الرأي لما روي عنه من الحديث « إياكم و أصحاب الرأي فإنهم أعداء السنن أعيتهم الأحاديث أن يحصوها فقالوا بالرأي فضلوا و أضلوا » ، وقال علي - رضي الله عنه - « لو كان الدين يؤخذ قياسا لكان باطن الخف أولى المسح من ظاهره »⁴ .

و استند هؤلاء المنكرون لنظر العقول إلى أدلة عقلية يردون بها على من أجاز الإشتغال به فمن المعقول تأكيدهم بأن القياس و الرأي مفضي إلى الخلاف و التنازع و هذا مفسدة للشرع⁵

1- محمد محمدا ، مختصر أصول الفقه الإسلامي ، ص 197

2- سورة الحجرات آية 01

3- سورة المائدة آية 47

4- محمد محمدا ، مرجع سابق ، ص 192

5- المرجع نفسه ص 193

عملا بقوله تعالى ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيكُكُمْ ﴾¹ .
 فالاجتهاد وإعمال القياس فيما استجد من الدين يفتح باب السؤال فيما نهي الله عنه
 ورسوله فعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال «لن يرح الناس يسألون حتى يقولوا هذا الله خالق
 كل شيء فمن خلق الله»² مع أنه تعالى نهي عن ذلك في قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَن
 أَشْيَاءٍ إِن بُدِّ لَكُمْ تَسْؤُلُكُمْ ﴾³ .

وهكذا نصل إلى أن إنكار الرأي وإبطال نظر العقل مسألة اتفق فيها الشيعة الباطنية
 بتعاليمها المختلفة مع عدد من الفرق والمذاهب التي فضلت الإحتكام إلى الشرع وحده . في حين
 اتخذت الباطنية من تعاليم الإمام المعصوم و تأويلاته بديلا عن نظر العقل هذا ما يؤكد أحد
 أهم دعائها "الحسن بن الصباح" صاحب فرقة التعليمية و الذي جعل من مبدأ التعلّم عن الإمام
 الشيعي المعصوم شرطا لصحة العقيدة ، فالعلم لا يؤخذ عن سواه نظرا لتفاوت العقول و كثرة
 الآراء و تضاربها .

المطلب الرابع : مبدأ التقية والتستر للإمام

لو تأملنا بدايات اعتماد التقية والتستر لوجدناها مغرقة في القدم، إذ استخدمها غالبا المستضعفون
 في الأرض الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ولا يملكون الجهر بدعواهم ولا عقائد م
 خوفا من أعدائهم أو من كل من يتربص بهم من المتربصين. فكان لزاما عليهم التقية والتستر حفاظا
 على أنفسهم وأهلبيهم استدلالا بقوله تعالى ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيِّجَعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ
 يُسْرًا ﴾⁴ و ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾⁵ .

فما هي التقية؟ وهل ينبغي للإمام الاتقاء و التخفي دائما؟

أولا : مفهوم التقية و التستر

إن اختفاء الإمام عن العيون و احتجابه عن الخلق يسمى التستر و يقال بالمعنى المتداول
 لدى الأتباع أنه استتر و دخل طور التقية « وهي تعني لغة اتخاذ الوقاية واصطلاحا أن يكتفم
 الإنسان الحق في قلبه و يظهر خلافه ولا يربح أن سياسة العسف هذه قد امتدت عبر العصور

1- سورة الأنفال آية 46

2- البخاري ، صحيح البخاري ، ج4 ، حديث رقم 7296 ، ص 424

3- سورة المائدة آية 101

4- سورة الطلاق آية 07

5- سورة الشورى آية 19

والدهور إلى وقتنا هذا وكانت التقية بمثابة المخرج من تلك الأخطار التي تحدق بالفرد والجماعة»¹. و يقدم الدكتور "علي سامي النشار" في كتابه "نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام" تحديد لمعنى التقية والتستر عند الشيعة جاء فيه « إنما التستر عندهم هو اختفاء إمام حي أو هو نوع من التقية التي عرفت عن الشيعة عامة فلكي يتقي أعدائه ويحافظ على حياته يختفي الإمام ويستتر حيا»². بمعنى أن التقية و التستر لها مبرراتها و دوافعها التي أظهرتها.

ثانيا : حكمها

كانت التقية سبيلا لتجنب الظلم و الاعتداء و استبداد الأعداء والأقوياء بالمستضعفين فحكمها "الجواز" بحسب المصلحة العامة للإسلام والمسلمين .. مادام غرضها دفع الضرر عن الإسلام والمسلمين ونصرة دعوته وتجنب كل جور وظلم « وفي ظل هذا الموضع الجائر يكون أهل الحق مستضعفين لا يمكنهم المواجهة والتغيير بل لا يمكنهم الوفاء بما يعتقدونه من الحق حيث أن الظلمة يتربصون بهم الدوائر ويقعدون لهم كل مرصد فلا محيص عندئذ من استخدام التقية إلى أن تنكشف الغمة وتنمحي الظلمة ويرتفع البلاء ويعود الحق إلى نصابه»³.

ثالثا : الظروف و الأسباب التي دعت الأئمة إلى التستر و التقية

والدوافع كثيرة ، تلك التي قادت الحركات الباطنية إلى التستر و التقية كان من أبرزها ذلك الظلم الشديد و الاعتداء الوحشي الذي تعرض له الشيعة من قبل العباسيين خاصة بعد ما هوت الدولة الأموية . حيث لاقت الحركات الشيعية ولاسيما الإسماعيلية الباطنية اضطهادا كبيرا منذ ظهورها و حتى بعدما شهدته في تطورها ، و بسبب ذلك الظلم الذي ألم بها لجأت إلى التخفي والتستر و عرف هذا بمبدأ التقية .

هذا ما وضحته دراسة أجراها الدكتور "مصطفى غالب" عن الحركات الباطنية في الإسلام حيث ينوه إلى انعكاس هذا الاضطهاد على سرية العقيدة والذي « اضطر الإسماعيلية إلى إحاطة دعوتهم بهالة كثيفة من السرية والكتمان معتمدين على الطرق الخفية لنشرها وبذر بذور معتقداتها شأن كل دين أو فكر اجتماعي ممنوع مضطهد»⁴.

1 - عاطف سلام ، الوحدة العقائدية ، ص 263

2 - علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص 528

3 - عاطف سلام ، المرجع نفسه ، ص 264

4 - مصطفى غالب ، الحركات الباطنية في الإسلام ، ص 70

فليتك تتصور خيبة آمال العلويين بعد أن استحكم ذووهم من بني العباس بالخلافة من بعدما تحالفوا معهم على الأمويين و وعدهم باسترجاع حق آبائهم لكن العكس هو ما حدث «إذ بالآمال تستحيل سرايا وحلاوة الانتصار تنقلب غضة؟ و مرارة، بعد أن غدر الخلفاء واغتصبوا البيعة لأنفسهم و انقلبوا على أصحاب الحق يعملون فيهم قتلا و تشريدا « حتى قال فيهم أحد الشعراء المواليين لهم واصفا خيبتهم تلك بقوله :

يا ليت جور بني مروان عاد لنا باليت عدل بني العباس في النار¹

و في الرسالة الخامسة " لإخوان الصفاء " وصف لمعاونة الذرية العلوية من ظلم و شرور أقربائهم العباسيين و ذكر لمظاهر من هذا الشر و مآله ، مؤكداً على قرب زوال ملك هؤلاء الإغراب المغتصبين ، و مما ورد فيها من تلميحات أو تصريحات و « اعلما أن كل دولة لها وقت منها تبتدى و لها غاية إليها ترتقي وحد إليه تنتهي و إذا بلغت إلى أقصى مدى غاياتها و منتهى نهاياتها ، أخذت في الانحطاط و الخذلان و بدأ في أهلها الشؤم و الخذلان »² فاندفع الشيعة من العلويين بفعل هذه الدعوة و تلك الدوافع إلى التستر والتخفي و تغيير أسلوبهم من المواجهة بحد السيف إلى المعارضة بسلاح الكلمة و الفكر.

هذا الحال من الظلم و الإضطهاد الذي آل إليه الشيعة العلوية هو تحديدا ما أدى إلى بروز حركات باطنية سرية ، هي التي قاومت الخلافات المعتصبة لحقهم الشرعي في الخلافة النبوية . و استمر صراعها مع العباسيين محتما على مر التاريخ ، أملة في استرجاع الحق لأهله من الذرية العلوية الطاهرة . و هكذا « استخفت الخاليا الإسماعيلية كما اختفى الإمام وانتشرت الدعوة سرا - تحت الأرض كالنار تحت الرماد - لتظهر فجأة في القرن الثالث مقوضة أجزاء من الدولة العباسية في شمال إفريقيا و في مصر و مناطق إسلامية أخرى»³.

لذ رجح الشيخ الدكتور " أبو زهرة " أنهم « قد سموا الباطنية أو الباطنيين وذاك لاتباهم إلى الاستخفاء عن الناس و قد ابتداء الاستخفاء بسبب الاضطهاد »⁴ ، و الملاحظ أن أغلب حكاهم « كانوا أئمة مستترين متخفين اجتنبوا المجاهرة بالدعوة »⁵.

1- أحمد محمود صبحي ، في علم الكلام ، " الزيدية " ، ج3 ، ص 50

2- إخوان الصفاء ، رسائل إخوان الصفاء ، ج 5 ، ص 56 ، 57

3- أحمد محمود صبحي ، المرجع نفسه ، ص 51

4- محمد أبو زهرة ، الوحدة الإسلامية ، ص 185

5- محمد جلال شرف ، دراسات في التصوف الإسلامي ، دار النهضة العربية ، بيروت لبنان ، [د ط] 1984.

ولم يكن هذا التستر والاختفاء وعدم الظهور خوفاً من الملوك سواء الأمويين أو العباسيين فقط لكن كان له سبب آخر وردت في رسائل "إخوان الصفا" جاء نصها «اعلم أيها الأخ البار الرحيم أنا لا نكتم أسرارنا عن الناس خوفاً من سطوة الملوك ذوي السلطة الأرضية ولا حذر من شغب جمهور العوام ولكن صيانة لمواهب الله - عز وجل - لنا، كما أوصى المسيح فقال: لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم»¹.

و عليه نستنتج أن لجوء الشيعة الإسماعيلية الباطنية إلى مبدأ التستر والتخفي أو كما عرف عندهم بالتقية كان أمراً لازماً فرضته عليهم ظروف الدعوة في مراحلها الأولى وأطلق على تلك الفترة التي يستتر فيها الإمام ويتقي بدور الستر وفي مقابله دور الظهور.

رابع : أهمية دور الستر في الحفاظ على عقيدة الإمامة

والتستر والتخفي مرحلة لا بد منها للإمام لتجاوز مرحلة الخطر فإذا جاء دور الكشف ظهر للعيان باعتباره حجة الله على خلقه وخليفة في أرضه « وهو تعالى لا يرفع حجته ولا يقطع الحبل الممدود بينه وبين عباده فهم أوتاد الأرض وهم الخلفاء بالحقيقة في الدورين جميعاً »² كما يتأكد ذلك الأمر بشكل أوضح عند "إخوان الصفا" حين فسروا أعمال الأئمة في الدورين إذ « في دور الكشف يظهر ملكهم في الأجسام والأرواح وفي دور الستر يجري أمرهم في الأنفس والعقول وأصحاب المملكة الأرضية والخلافية الجسمانية»³.

ومع ذلك التخفي والتستر والتزام مبدأ التقية ينبغي الإطلاع على العالم وما يجري فيه من قبل الإمام بواسطة دعواته وشيعته المنتشرين في أقطار الأرض المبشرين برجعته وظهور بعد طول غيبته وهذا ما أكدته لنا إخوان الصفا من الإسماعيلية الباطنية المؤيدين لولاية العلويين وعودتهم من غيبتهم وتسوترهم في آخر الزمان بقولهم «فما من جزيرة في الأرض ولا إقليم ولنا فيه حجج ودعاة يدعون إلينا ويدلون علينا و يأخذون بعلمنا و يذكرون رجعتنا وينشرون علمنا و يندرون بأسنا ويشرون بأيامنا»⁴.

1- إخوان الصفا ، رسائل إخوان الصفا ، ج5، ص28 ، 29

2- المصدر نفسه ص319

3- المصدر نفسه ص319

4- عارف ثامر ، إخوان الصفا و خلان الوفاء ، ص 20 ، نقلا عن أنماط الحنفا ، للمقريزي ، ص139

و ها هو "دعبل الخزاعي" يؤكد تلك الرجعة للإمام الشيعي بعدما عانته الشيعة العلوية من قساوة واضطهاد من قبل أعدائهم إذ نشد قائلاً في تائيته البديعية التي مدح بها "علي بن موسى" بخرسان:

الذي أرجوه في اليوم أو غد
لقطع قلبي إثرهم حســــراتي
فلولا خروج إمام لا محالة خارج
يقوم على اسم الله والبركات
يميز فينا كل حق وباطل
ويجزى على النعماء والنقمات¹

فالتستر و التقية من العقائد الراسخة في الفكر الشيعي فلهم أئمة مشهورون في التاريخ بتسترهم و « يعتبر الإمام محمد بن إسماعيل (ولد 141هـ) موجد دور السـتر عند الإسماعيلية »² ليس فقط هذا بل « يعتبر رأس الأئمة المستورين وصاحب فكرة الاستتار ومبدع طريقة التسمية بأسماء مستعارة للتضليل وإبعاد الشبهة »³ و أبرز الأئمة المستورين كان الإمام "إسماعيل" بن جعفر حين اختفى عن عيون الخليفة "المنصور" ثم تلاه آخرون كابنه "محمد بن إسماعيل" و عبد الله وأحمد، و الحسن و عبيد الله.. و عرف هذا بدور السـتر.

و قد أحسن أئمة الشيعة من إسماعيلية و إثني عشرية الاختفاء والتستر و أجادوا طرق التمويه خلال فترات الحكم المتعاقبة لأعدائهم من معتصي الخلافة ، إلى أن قامت دولتهم الفاطمية بالمغرب، حيث يروى عن "محمد ابن إسماعيل" أنه تستر تحت أسماء مستعارة لنشر دعوته جهله أقرب الناس إليه حتى يبلغ غايته « باعتماده ألقاباً منها الشاكر والمكتوم والمستور والسابع، وميمون القداح .. »⁴ ما ذلك إلا لتضليل أعدائهم وتوفير الجو المناسب لبت دعوتهم السرية قبل تفجيرها. و دور السـتر والتخفي الذي باشرته هذه الحركة مثل ذروة نشاطها بل وأخطر مراحلها التي ساد فيها الفكر الشيعي الباطني حتى أن الدكتور سامي النشار يصف المذهب الشيعي في هذا الدور قائلاً « قد كان في دور السـتر من أخطر المذاهب على وحدة الإسلام الدينية والسياسية فلما دخل في دور الظهور كون دولة من أعظم دول الإسلام الدينية وهي الدول

1- أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ص311

2- عارف نامر ، القرامطة ، ص 66 ، 67

3- المرجع نفسه ص46

4- المرجع نفسه ص48

الفاطمية ولما عاد إلى دور الستر حيث يعيش الآن أصبح مذهبا سريريا يمزق في عصورنا الحاضرة وحدة المسلمين ويلحق أفدح الأضرار بمستقبل الإسلام وكيانه ¹ « وقد سمح دور الستر والتخفي بنشر العقيدة الباطنية بأمان أكثر بعيدا عن عيون الحكام والموالين لهم، من أفراد الأمة فكانت أسرع انتشارا في حالة السرية.

فكانت تعاليم هذه الفرقة مجهولة عبر التاريخ إلى أن ظهرت بعض مؤلفاتهم في الهند وغيرها معلنة بعض من تعاليمها كاشفة عن بعض الغموض الذي يكتنفها « كل شيء في التشيع الإسماعيلي غامض مختلف عليه لا من خصومهم فحسب بل من دعاةهم أيضا و تلك طبيعة الدعوات الباطنية و الحركات السرية لكن حسب كثير من الدراسيين كانت الإسماعيلية أكثرها غموض و التواء » ².

لكن هذه الأفكار الشيعية حول التقية والتستر، لا تقول بما كل فرق الشيعة و بنفس الإيمان الراسخ بها بل بعضها فقط، المتمثلة خاصة في الإمامية والفرق الباطنية من تعليمية وإسماعيلية. أما الزيدية « و هم في تعاليمهم أقرب إلى أهل السنة فلا يقولون بالتقية و لا يتبرؤون من أبي بكر وعمر.. و لا يلعنونها ولا يقولون بعصمة الأئمة ولا يقولون باختفائهم » بل وعلى خلاف غيرهم من الشيعة « يشترطون الاجتهاد في أئمتهم فلذلك كثر فيهم الاجتهاد وكثرت آراؤهم في الفقه » ³

كما يرفضون تستر الإمام و يشترطون خروجه و ظهوره. و خلافا للإسماعيلية الباطنية و فرق الإمامية الأخرى رأيت الزيدية أنه « لا يكون الإمام إماما إلا إذا خرج على الظلم شاهرا سيفه و لا يكون إماما من يرخي ستره ويغلق بابه فلا يسع الإمام إلا الخروج » ⁴ إذ ترى فالزيدية ضرورة خروج الإمام و ظهوره و تفرض عليه رفع السيف لتحقيق أهدافه.

بناء على ذلك يظهر مدى تباين آراء و تصورات الفرق الشيعية لأمر التقية و تفاوتها في قبول مسألة احتجاب الإمام و عدم ظهوره للأتباع فقد « انتقدت الزيدية التقية بالتصور

1- على سامي النشار ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص 546

2- أحمد محمود صبحي ، في علم الكلام ، "الزيدية" ، ج 3 ، ص 51

3- أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ص 276

4- أحمد محمود صبحي ، المرجع نفسه ، ص 49 ، 50

الإمامي الذي يتيح للمرء أن يكون سنياً مع السنين و شيعياً مع الشيعيين و يهودياً مع اليهود مسيحياً مع المسحيين»¹.

باعتبار أن الشيعي الإمامي يخاطب الناس على قدر عقولهم ، بحسب ما يفهمون و يورد أحد المؤلفين المعاصرين بعض ملامح التقية الشيعية و أسبابها جاء نصه « أن أصل مذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية قائم على اعتبار جميع الحكومات الإسلامية من يوم وفاة النبي ﷺ إلى هذه الساعة عدا سنوات حكم علي بن أبي طالب ، حكومات غير شرعية و لا يجوز لشيعي أن يدين لها بالولاء و الإخلاص من صميم قلبه بل يداجيها مداجاة و يتقيها تقاة لأهمها كلها ما مضى منها ، وما هو قائم الآن و ما سيقوم منها فيما بعد حكومات مغتصبة»².

و لعل أبرز ما تميزت به الحركة الباطنية الإسماعيلية هو قولها بأن لكل ظاهر باطن مع العمل على تطبيقه في جميع جوانب عقيدتها ، حيث اعتمدت المعارض المتمثلة في سلاح الحركات السرية مما ساعد على انتشار تعاليمها ، و حفظ عقائدها و استمرارها عبر التاريخ رغم الخطر المحدق بها.

المطلب الخامس : الغيبة و الرجعة

الرجعة مبدأ شيعي يفيد ظهور الأئمة المختفين و ظهورهم بع غيبتهم و تسترهم ، كما جاء في "رسائل الإخوان" ما يؤكد ذلك الأمر حيث يصرح الإخوان في إحدى تلك الرسائل لأشباعهم بانقضاء دور الستر و بداية دور الظهور و الرجعة فيقولون موجّهين كلامهم لكل شيعي موال لهم « إذا لقيت أحدا منهم وأنست منه رشدا فبشره بما يسره و ذكره باستئناف دور الكشف والانتباه و انجلاء الغمة عن العباد»³ بمعنى أن الإمام سيظهر و يتولى الإمامة والقيادة و يحكم الأمة الموالية له ليقضي على كل جور أو ظلم حلّ بها في فترة غيبته.

لكن فكرة الرجعة تعدت عودة الأحياء المختفين عن الأنظار إلى عودة الأموات بعد مفارقة الحياة وهذا أمر قائم لدى الشيعة خاصة الروافض « قال بعض الروافض من الشيعة بالرجعة و هي رجعة الأموات في الحياة الدنيا مرة ثانية»⁴ واستدلوا على وجود الغيبة

1- محسن عبد الناظر ، مسألة الإمامة ، ص 425

2- محب الدين الخطيب ، الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامية الإثني عشرية ، مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، 1401 هـ ، 1980م ، ص 16

3- إخوان الصفاء ، رسائل إخوان الصفاء ، ج5 ص 2

4- علي عبد الفتاح المغربي ، الفكر الديني الشرقي القديم و موقف المتكلمين ، مكتبة وهبة ، القاهرة مصر ، ط1، 1996، ص

والرجعة و شرعيتها بما قاله الله تعالى في الذكر الحكيم من الشواهد التي وظفت لتثبت ذلك مثل قوله تعالى ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾¹ وقالت الشيعة الباطنية برجعة الإمام المنتظر بعد غيبته لتجعل الأتباع يثقون بوجود مخلص لهم مما هم فيه من ظلم وأذى وفقر.. و يرجع الباحثون و المؤرخون بداية ظهور فكرة الرجعة بعد الغيبة إلى عهد الإمام "علي" و يعتقد "الشهرستاني أن " السبئية " أصحاب عبد الله بن سبأ « هم أول فرقة قالت بالتوقف والغيبة والرجعة وقالت بتناسخ الروح الإلهي في الأئمة بعد علي « و حسب "الشهرستاني" أن "ابن سبأ" « زعم أن عليا حي لم يميت ففيه الجزء الإلهي»² ومن هنا دعا إلى الاعتقاد بعودته الأكيدة.

أولا : أدلة تثبت الرجعة بعد الغيبة

وظف الشيعة الباطنية أدلة من الشرع يؤكدون بها كلامهم عن الرجعة و العودة بعد الغيبة والظهور عقب التستر، منها ما ذكره عنهم "البغدادي" كاستشهادهم بقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾³. ومن خلال هذه الآية الكريمة أمنوا « أن علي سيعود بعد قتله ، فهو حي و يعود ليملاً الأرض عدلا ، فهو يجيء في السحاب و الرعد صوته والبرق تبسمه»⁴ لذلك أقدم بعض المتشيعين على السجود و التسبيح عند حدوث ظواهر كالرعد و البرق و السحاب بدعوة ظهور الإمام في تلك الأثناء .

كذلك وظفت أدلة نقلية أخرى متعددة للتأكيد على وجود رجعه للإمام بعد طول غيبته لدفع الأتباع و الأشياع إلى التمسك بعقيدتهم في انتظار ظهور مخلصهم، مثل قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾⁵ و أيضا قول المولى - عز وجل- ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾⁶ فأفادت تلك البراهين الشرعية إمكانية قيامك الرجعة بع الغيبة و شرعيتها .

1 - سورة غافر الآية 11

2 - أبو الفتح الشهرستاني ، الملل و النحل ج1 ، ص 181

3 - سورة القصص أية 85

4 - عبد القاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص 223

5 - سورة البقرة آية 243

6 - سورة البقرة آية 259

كما يورد الدكتور "محسن عبد الناظر" حديثا منسوبا إلى الرسول ﷺ ورد في مؤلف "أنوار الإسلام" لمؤلف شيعي مجهول جاء نصه « أن الرسول ﷺ قال إن غائبا لم يرغب وميتنا لم يمت وإن قتلنا لم يقتلوا [...] ». وهذا الحديث ينسب إلى الرسول ﷺ فكرة انتقال الأئمة من الحياة الدنيا إلى حياة ثانية ليس فيها موت . فهي تقتصر على غيبة الإمام عن أبصار الناس ، وهذه الغيبة لا يكون لها معنى إلا إذا ارتبطت بالرجعة»¹ .

ويورد المفكر "كامل مصطفى الشبيبي" الحديث السابق بمعنى آخر نقلا عن بعض الشيعة مرويا عن النبي ﷺ بما نصه أن النبي قال « أيها الناس خذوها من خاتم النبيين إنه يموت من مات منا وليس بميت ويلى من بلى منا وليس ببال »² .

و تؤكد الأحاديث المنسوبة إلى النبي ﷺ و المروية من قبل الشيعة أنه - أي هذا المهدي المنتظر- يكون من آل البيت بل من ذرية فاطمة - رضي الله عنها - كحديث "الريات" والذي أوردوه ابن ماجة في كتاب السنن ، عن عبد الله بن مسعود من طريق يزيد بن أبي زياد عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال « بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذا أقبل فتية من بني هاشم فلما رأهم رسول الله ﷺ ذرفت عيناه وتغير لونه قال فقلت : ما نزال نرى في وجهك شيئا نكرهه . فقال ﷺ : إنا أهل البيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا . و إن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاءا وتشريدا و تطريدا ، حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود فيسألون الخير فلا يعطونه فيقاتلون وينصرون فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي فيملأها قسطا كما ملؤوها جورا »³

و هذا الحديث و غيره مما وضعه الشيعة لتبرير غيبة الأئمة عن الناس ، ثم عودتهم بعد زمن من انتظارهم .. مشكوك في صحته و الرافضون له كثيرون أكدوا على كون مثل هذه الأحاديث هادفة إلى تأييد سلطة الأئمة و تدعيم فكرة خلودهم وعودتهم فقد روى «عن الحسن البصري عن أنس ابن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا مهدي إلا عيسى ابن مريم »⁴ .

1- محسن عبد الناظر ، مسألة الإمامة ، ص 485

2- حديث موضوع لا أثر له ، أورده : كامل مصطفى الشبيبي ، الصلة بين التصوف و التشيع ، ص 486

3 - عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص 332

4 - المصدر نفسه ، ص 337

وعليه كان الشيعة يقسمون الإمامة إلى فترات منها الباطن أو دور الستر و الغيبة، ومنها الظاهر أو دور الظهور و الرجعة ، ليبرروا سبب اختفاء الأئمة مع دفع الخلق إلى الاعتقاد بعودتهم و لزوم انتظارهم .

ثانيا : أسباب القول بالرجعة بعد الغيبة

و رغم تعدد الأحاديث و الروايات المؤكدة لحنمية ظهور الإمام الغائب المنتظر تبقى الأسباب الموجبة لغيبته واستتاره متضاربة . إذ « لم يتفق القائلون بالغيبة على أسبابها فذهب بعضهم إلى أنها لطف إلهي و قال آخرون إنها تابعة لعصمة الأئمة وأكد قسم ثالث أنها لطف ناتج عن قصور الإنسان و ابتعاده عن الحقيقة »¹ .

فكثرت الأساطير و الحكايات التي نسجت حول غيبة كثير من الأئمة كالإمام إسماعيل بن جعفر وأبنائه من بعده ، ودخول الإمام الثاني عشر في سرداب تسترا . و ما أطلق من ألقاب على هؤلاء الأئمة أثناء غيبتهم و استتارهم .. فكانت آراء الشيعة مزيجا من أفكار وثقافات فارسية و مجوسية .

و إذا كانت السبئية من أول الفرق الشيعية التي تثبت فكرة الغيبة و الرجعة فما ذلك إلا تبريرا لعقيدهما في الإمامة و بداية للخوض في مسألة تقديس الإمام و تأليهه ، إيمانا منهم بأنه من المستحيل فقدان علي -رضي الله عنه - كما فقد الرسول ﷺ . إذ « السبئية المتشبهون بنظام الحكم التيوقراطي و المسجونة آرائهم في حدود الأساطير و الديانات القديمة لم يستطيعوا أن يتحملوا نبأ استشهاد الإمام علي لإخلاصهم للدين أولا ، أو لآل البيت . لأن البعض منهم كان يرى فيه و في آل بيته الوارث الطبيعي للدماء الساسانية »² .

فكانت هذه الطائفة الموالية للإمام "علي" هي أول من أشاع فكرة غيبته لهول فاجعة مقتله وهو ابن العم والصهر والصديق .. ثم شاعت هذه الفكرة مع الفرق الشيعية جميعا خاصة الإمامية إذ « فلسف الإمامية مبدأ الغيبة و الرجعة و ربطوه بنظريات فلسفية ما وراثية »³ . و قد ورد في مؤلف يحاول صاحبه التقريب بين مذهب أهل السنة و الشيعة حديث عن فكرة الرجعة بعد الغيبة عند الشيعة جاء فيه « ومن عقائدهم الأساسية أنه عندما

1 - كامل مصطفى الشبيبي ، مرجع سابق ص 57

2 - محسن عبد الناظر، مرجع سابق ص 481

3 - المرجع نفسه ص 482

يقوم المهدي (و هو الإمام الثاني عشر) الذي هو حي حتى الآن و ينتظرون خروجه - أي ثورته ليثوروا معه- و إذا ذكروه في كتبهم يكتبون في جانب اسمه أو لقبه أو كنيته حربي "عج" أي عجل الله فرجه «¹ و مسألة الرجعة بعد طول الغيبة و التستر تجعل من الأئمة أشخاصا من طينة فوق طينة البشر و تضي عليهم هالة من التقديس مما ترتب عنه أمر آخر ارتبط بالعقيدة الشيعية ككل و الباطنية خصوصا، تجسد في فكرة خلود الأئمة الشيعيين والإعتقاد الجازم بضرورة تقديس سلطتهم. .

ثالثا : خلود الأئمة و التقديس المطلق لسلطتهم

و يمكن القول أن مفهومي الغيبة و الرجعة يؤكدان عقيدة خلود الأئمة و قداستهم من وجهة نظر الشيعة الإسماعيلية الباطنية حتى يظل التمسك بالعقيدة قائما لا تفريط فيه.

* خلود الأئمة

يذكر العلامة "بن خلدون" عن فرق الشيعة تحدثهم بفكرة العودة و المهديية بعد الغيبة و التستر مما يمنح لأئمتهم جانبا من التأليه و يؤكد على التقديس المطلق للإمام و سلطته ، لما يحكيه عنهم في مقدمته « و جاء الإسماعيلية منهم يدعون ألوهية الإمام بنوع من الحلول و آخرون يدعون رجعة من مات من الأئمة من التناسخ و آخرون منتظرون مجيء من يقطع بموته منهم و آخرون منتظرون عود الأمر من أهل البيت .. »² .

ففكرة العود الأبدي و الرجعة إلى الحياة تأكيد و دليل على خلود الأئمة و هذه الفكرة رائجة بين العوام و الكافة من الخلق إذ « أن المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على ممر الأعصار أنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين و يظهر العدل و يتبعه المسلمون و يستولى على الممالك الإسلامية و يسمى بالمهدي »³ .

* التقديس المطلق لسلطة الأئمة

و بسبب إتباع سلطة الإمام المعلم «غلا الإسماعيلية في الثقة غير المحدودة التي حولوها لأصحاب السلطة وهي تطابق في غلوها نظريتهم في الإمامة و لهذا أطلق عليهم اسم التعليمية أي الذين يعتمدون اعتماد مطلقا علي سلطة الإمام التعليمية »⁴ مما يكشف بجلاء أن الحركة

1 - محب الدين الخطيب ، الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامية الإثني عشرية ، ص 19

2 - عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص 338

3 - المرجع نفسه ص 326

4 - أجناس جولدت تسيهر ، العقيدة و الشريعة في الإسلام ، ص 244

التعليمية الإسماعيلية الباطنية قد عملت على نشر و تدعيم العقيدة الباطنية إلى درجة تقديس الإمام والثقة العمياء به و بكل ما يقوله أو يسنه من أحكام .

فلم يكن الإمام الإسماعيلي الشيعي كما هو عند أهل السنة فردا كغيره من أفراد الأمة امتاز عليهم بخصلة واختاروه ليسوسهم بل هو شخص متميز فوق الناس في طبيئته وتصرفاته وهو مشرع وهو منفذ وأكثر من كل هذا القدر من التعظيم جعل الخير والشر يقاس به فما عمله هو خير وما نهي عنه فشر فسلطته مطلقة وطاعته واجبة « وتفزع عن هذا التقديس لسلطة الإمام واجب الطاعة المطلقة للرؤساء كما هو الحال على الأخص عند طائفة الحشاشين إحدى فروع الحركة الإسماعيلية التي خلقت من هذه الطاعة العمياء حكما إرهابيا صارما»¹

فمن جهة دعت هذه الأفكار السياسية الشيعية إلى تقديس الإمام لأنه مختار من الله فهو معصوم عن الخطأ و من جهة أخرى ترتب عن ذلك أن تكون سلطته مطلقة باعتباره « هو قائد روحي له سلطة روحية تفوق حتى سلطة البابا في الكنيسة الكاثوليكية »².

فلا أساس للعبادات أو الطاعات، بل سائر الأركان ما لم يسبقها إيمان به فتكون الإمامة ركن الدين « و لولا وجود الإمام لساحت الأرض بمن فيها »³ فإذا خلت الأرض بمن فيها و كأنه الرب الذي بيده زمام الأمور فلا يجوز خلعه ولا التمرد عليه فهو المسن والمشرع والآمر النهائي مادام نص عليه الشرع .

وقد بلغ تقديس الأئمة الشيعيين أوجه في عهد الدولة الفاطمية حين أغرقوا في الدعوى لهم وصف "الشهرستاني" لهم أنهم « قالوا ولن تخلو الأرض قط عن إمام حي قائم إما ظاهر مكشوفاً وإما باطن مستور فإذا كان الإمام ظاهر يجوز أن تكون حجته مستورة وإذ كان الإمام مستورا فلا بد أن تكون حجته و دعواته ظاهرين»⁴ .

فالإعتراف بالإمام الشيعي من الذرية العلوية أمر لازم لصحة الإيمان سواء كان ظاهرا أو مستترا نظرا لتشديد دعاة الفرق الشيعية الباطنية على ضرورة معرفة إمام العصر وطاعته والإقرار له بالولاء وإلا " فإن من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية وكذلك من مات ولم يكن في عنقه بيعه إمام مات ميتة جاهلية»⁵ و يقرن الباطنية بين معرفة الإمام

1 - أجناس جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام ، ص 245

2 - أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ص 221

3 - علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص 527

4 - أبو الفتح الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج1، ص 197

5 - المرجع نفسه ص 198

والإعتراف بأحقيته في ذلك المنصب وبين سلامة الإيمان و قبول العبادات و الطاعات و سائر الأركان الأخرى للشريعة .

وانجر عن هذا التقديس لسلطة الأئمة أن قال البعض بلوهيتهم كحال الأئمة الشيعيين من الفاطميين يقول " علي سامي النشار" حاكيا ما شهدته تلك الفرق بقوله « وقد كان من أثر إغراق الإسماعيلية في الجانب الروحي وإضافتهم الصفات الإلهية إلى الأئمة أن قيل بإلهية الحاكم بأمر الله الفاطمي (المتوفى 411هـ-1020م) »¹.

فإذا خلا خلعت الأرض بمن فيها و كأنه الرب الذي بيده زمام الأمور فلا يجوز خلعه ولا التمرد عليه فهو المسن والمشرع والآمر الناهي مادام نص عليه الشرع حتى اعتبر أحمد أمين «أن عقيدة الشيعة على هذا المنوال تشل العقل وتميت الفكر وتعطي للحاكم أو الخليفة أو الإمام سلطة لا حدود لها [...] وهي أبعد ما تكون عن الديمقراطية الصحيحة»².

- مما سبق يتبين أن الإمامة من أهم المباحث التي قام عليها الفكر الشيعي، الذي أضفى عليها هالة من التقديس، و جعل الحاكم أمرا بأمر الله بل لا ينبغي مخالفته بل الطاعة له والإتباع هما الواجبان في حقه تماما كإمام الصلاة، حتى « كان المفهوم المتداول عندهم للحاكم لزام أمور السلطة والسيادة في الدولة هو الإمام واعتبروا أن هذا اللقب هو الأنسب لمعنى الحكم في الدولة الإسلامية لأنه يدل في معناه على مقام ديني ومكانه دينية ملحوظة لا توجد في غيره من الألفاظ»³

فكان الشيعة الباطنيون يسبغون على أئمتهم نوعا من التقديس و التأليه و يمنحونهم قدرات و صفات لم تتوافر لغيرهم من سائر البشر " فهو يتلقى علمه من الله عن طريق الوحي و يعده الله إعدادا خاصا من حين أن يكون نطفة ، و يحفظه برعايته السامية ويعصمه من الذنوب ويورثه علم الأنبياء والمرسلين»⁴ مما يجعله في مرتبة قريبة من مرتبة النبي بل إن الإسماعيلية الباطنية تربط بين الإمامة و النبوة و لها في ذلك تصورات و آراء فريدة تميزها عن غيرها و هذا ما سنكشف الستار عنه فيما سيلي.

1 - علي سامي النشار ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص 210

2 - أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ص 221

3 - إسماعيل زروخي، الدولة في الفكر العربي الحديث ، ص 23

4 - أحمد أمين ، المرجع نفسه ، 122

المبحث الثالث : ارتباط الإمامة بالنبوة و الوحي

المطلب الأول : حقيقة النبوة عند الباطنية

لم تقتصر الشيعة في مذهبها على بيان مسألة الإمامة ووجودها بالنص بل تعدتها إلى ربط هذه الإمامة بالنبوة ، ليكون لموقفها أكثر قوة . حتى أن « أقدم المعطيات لإقامة علم النبوة الإسلامية نجدها في تعاليم الأئمة » مما يدل على وجود صلة وثيقة بين الإمامة و النبوة.

فبالنظر إلى طبيعة فرقة الشيعة و العدد الهائل من المتشيعين لها على اختلاف عقائدهم ونزعاتهم و ما ساد من تعاليم و معتقدات خاصة بها « يمكن القول أن الوسط الشيعي هو الوسط الذي كان ملائما لينشأ فيه علم النبوة ، و يكون مدارا للتأمل و التطور فلا يمكن إلا للشيعة أن يتصل به و شروط هذا الاتصال و ظروف ما يمكن أن يعطيه محتواه من نتائج بعد اختتام النبوة تشكل الموضوع الذي تدور الفلسفة النبوية حوله و هذه الفكرة تشكل مع صلب الفكر الشيعي وحدة لا تفصم ¹ .

هذا لا يعني أن مفكري الإسلام من غير الشيعة لم يتناولوا مسألة النبوة بالبحث و الدراسة بل إنهم خاضوا فيها و كانت لهم فيها مواقف لا تتعارض مع ما حوته الشريعة الإسلامية السمحاء . لكن الوسط الشيعي أضفى على النبوة خصائص من مذهبه و ربطها بتعاليم الأئمة واضعا في الوقت ذاته نظرية في النبوة تتوافق مع نظريتهم في الإمامة.

و يمكن التدرج في تحديد بعض من ملامح التصور الشيعي الباطني للنبوة انطلاقا من هذا الحديث الذي يرويه " ابن بابويه " (القرن الثالث الهجري) عن الإمام " جعفر " أنه قال « يا مفضل إن الله جعل للنبي خمسة أرواح... وليس للمؤمنين الصادقين منها إلا أربعة ، و أما ما تبقى من الخلق فلديهم منها ثلاثة » . بمعنى أن للنبي من الخصال ما يزيد عن ما يتوفر لدى سائر الناس ، فهو بشر مثلهم لكن مؤيد بالمعجزات و أكثر قربى منا إلى الله تعالى .

إذن فإن ضرورة النبوة تعني من جهة ضرورة وجود أشخاص ملهمين أشخاص فوق مستوى البشر حتى أنه ليتمكن لنا أن نقول بوجود « إنسان رباني أو رب إنساني دون أن تتضمن هذه المقالة فكرة التجسيد » . و من جهة ثانية فإن « علم النبوة الشيعي يختلف تماما عن المدارس السنية السابقة له » ² .

¹ - هنري كوربان ، تاريخ الفلسفة الإسلامية ، مراجعة موسى الصدر ، عويدات للنشر و الطباعة ، بيروت لبنان ، ط1 ،

2004 ، ص98

² - المرجع نفسه ص 98

هذا يبرز اختلاف تصور مسألة النبوة عند الشيعة عن غيرهم و انفرادهم بمعتقدات خاصة لذا كلما ذكرت هذه الطائفة الشيعية تبادر إلى الأذهان شيئا طالما ارتبطا بها وهما: إمام الزمان المنتظر والنبوة المحمدية، وقد كان لهم في الأولى آراء ومعتقدات راسخة عرفوا بها أما الثانية أي النبوة، فارتبطت كثيرا بالإمامة و الولاية « فبعد دور النبوة التي أقفلت يلي دور آخر هو دور الولاية الذي يكون ظهور الإمام خاتمة له »¹.

شرح كيفية حدوث النبوة عند الشيعة الباطنية

ما روي عن الشيعة الباطنية في مفهوم النبوة مثير للغاية ، فلهم فيها معتقدات يتعدون فيها عن ما جاء في الشريعة الإسلامية ويقترّبون بها أكثر إلى أفكار الفلاسفة منها ما ذكره عنهم الإمام "الغزالي" إذ يقول « والمنقول عنهم في بيان معتقدتهم من النبوات قريب من مذهب الفلاسفة ، و هو أن النبي عبارة عن شخص * فاضت عليه من السابق- بواسطة التالي- قوة قدسية صافية مهيأة لأن تنقش- عند الاتصال بالنفوس الكلية- بما فيها من الجزئيات، كما قد يتفق ذلك لبعض النفوس الزكية في المقام حتى تشاهد من مجرى الأحوال في المستقبل إما صريحا بعينه أو مدرجا تحت مثال يناسبه مناسبة ما فتفتقر منه إلى التعبير، إلا أن النبي هو المستعد لذلك في اليقظة ، فلذلك يدرك النبي الكليات العقلية عند شروق ذلك النور و صفاء القوة النبوية كما ينطبع مثال المحسوسات في القوة الباصرة من العين عند شروق نور الشمس على سطوح الأجرام السفلية »².

و من الواضح أنهم مزجوا بين الفلسفة و الدين في تصورهم للنبوة و يبرز لنا ذلك بجلاء حين يوظفون مسألة العقول و الأنفس و الفيض تحديد مراتب و درجات للاتصال... و غيرها من كلام الفلاسفة. و ينقل لنا الغزالي بعضا من أفكارهم في النبوة و الوحي و كذا تفسيراتهم في "المستظهر" فيقول « وزعموا أن جبريل عبارة عن العقل الفاض عليه و رمز إليه لا أنه شخص متجسم متركب عن جسم، لطيف ، أو كثيف يناسب المكان حتى ينتقل من علو إلى سفلى، و أما القرآن عندهم فتعبير محمد عن المعارف التي فاضت عليه من العقل الذي هو المراد باسم "جبريل" و سمي " كلام الله " تعالي مجازا فإنه مركب من جهته و إنما الفاض عليه من

¹ - هنري كوربان ، تاريخ الفلسفة الإسلامية ص 80

*الفيض emanation: صيرورة تكمن حسب بعض العقائد في أن الكائنات الكثيرة التي تشكل العالم تصدر(طيف) من الكائن الأحد الذي يكون مبدؤها دون أن يكون ثمة فصل في هذا التطور، الفيض يتعارض مع الخلق creation .. - من: أندريه لالاند

، الموسوعة الفلسفية، ج1، ص 335

² - أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ص 40، 41

الله بواسطة "جبريل" بسيط لا تركيب فيه وهو باطن لا ظهور له، وكلام النبي ﷺ عبارة عن ظاهر لا بطون له وزعموا أن هذه القوة القدسية الفائضة على النبي ﷺ لا تستكمل في أول حولها كما لا يستكمل النطفة الحiale في الرحم إلا بعد تسعة أشهر كذلك هذه القوة كمالها في أن تنتقل من الرسول ﷺ الناطق إلى الأساس الصامت وهكذا تنتقل إلى أشخاص بعضهم بعد بعض فيكمل في السابع»¹.

فالوحي يبلغ النبي بهذا الشكل المنظم و المحكم ليتمكن النبي من إدراكه فعبر عنه ويبلغه للناس لذلك كان وجوده أي النبي بالغ الأهمية وعليه « فإن ضرورة النبوة تعني من جهة وجود أشخاص ملهمين أشخاص فوق مستوى البشر »² . ولا تتوقف النبوة عند شخص النبي فقط بل تجعل الشيعة للإمام دورا مكملا لدور النبوة باعتبار أن النبي هو الناطق و الإمام هو أساسه الصامت و سيأتي تفصيل المصطلحين لاحقا.

المطلب الثاني : مكانة وترتيب الإمامة بين النبوة والوصاية

ومما ينفرد به الفكر الشيعي الإسماعيلي الباطني في مسألة الإمامة هو التمييز بينها وبين الوصاية من ناحية وبينها وبين النبوة من ناحية أخرى فيمنحون لكل منزلته و درجته و لهم في ذلك ترتيب و في الوقت ذاته يرون أن تلك المراتب مرتبطة فيما بينها و متضافرة .

أولا : النبوة و الوصاية

إن ازدواجية النبوة و الإمامة كانت محورا أساسيا للفكر الشيعي بل هي المبدأ الذي ناضل لأجله كل معتقد بإمامة آل البيت و خلافتهم للنبوة . فالأئمة من نسل علي هم الأحق بالإمامة و علي وصي النبي ﷺ حيث ذهب الشيعة عموما إلى « أن الوصية لعلي بالخلافة قد ابتدأت مع ظهور الدعوة فقد أخبر الرسول ﷺ ابن عمه أن جبريل -عليه السلام- نزل عليه بقوله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾³ »⁴ .

و عليه يمكن أن نستخلص فكرة هامة مفادها « أن الوصية لعلي بن أبي طالب نشأت مع الإسلام ثم أخذ أمرها ينمو بنموه حتى ركز في النفوس و أصبح عقيدة يوم اجتماع الغدير قبل انتقال الرسول ﷺ على ربه بزمن قصير»⁵.

¹ - أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ص41، 42

² - هنري كوربان ، مرجع سابق ، ص 99 ، 100

³ - سورة الشعراء آية 214

⁴ - محسن عبد الناظر ، مسألة الإمامة ، ص 151

⁵ - المرجع نفسه ص 152، 153

الملاحظ أن الشيعة الباطنية حاولت اعتماد سبل شتى لتأكيد الوصاية من النبي لصهره وبن عمه الإمام علي . و كان من بينها إحصاء الأحاديث التي من شأنها تأكيد ذلك الأمر حيث « رَوَا الأحاديث التي تفيد أن الله جعل نصف الدين تحت مسؤولية الرسول ﷺ والجزء الآخر كلفوا به عليا و وصلوا إلى نوع من الاشتراك بين الرسول و الوصي »¹.

فالوصية لعلي كانت من النبي كما ذهب إلى ذلك المؤلف الشيعي الإثني عشري "المسعودي" صاحب "مروج الذهب" حين صنف كتابا في إثبات الوصية للإمام "علي بن أبي طالب" و لذريته من بعده و لم يكتف في هذا المؤلف بإثبات الوصية "لعلي" بل تعداه إلى مسألة بالغة الأهمية و هي مسألة توارث الإمامة و النبوة في عقب واحد طاهر منذ خلق الله الخلق إلى اليوم الذي وصلت فيه إلى الإمام علي ثم خلفته عليها ذريته من بعده ..

فالحديث عن أمر الوصاية من النبي هو ما أكده المؤلف الشيعي "المسعودي" الذي « ذهب إلى اتصال الحجج والأوصياء من لدن آدم - عليه السلام - إلى القائم بالأمر أو قائم الزمان بمعنى أن كل رسول قد أوصى بإمام، " آدم " أوصى لهبة الله وهو " شيث " بالعبرانية »² و استمرت الوصية تنتقل في أولاد " شيث " إلى أن سلمها آخرهم إلى إدريس و كان من دوره آدم الذي أنزل الله عليه صحفه و انتقلت من بعده إلى أولاده حتى سلمها آخرهم إلى نوح عليه السلام .. »³.

و بعد نوح - عليه السلام - استمر تناقل هذه الوصية في الأعقاب « و انتقلت من نوح في أوصيائه من ذريته حتى وصلت إلى إبراهيم ثم بالطريقة عينها و من خلال الأوصياء انتقلت من بعده إلى موسى ثم إلى عيسى ثم إلى محمد خاتم الأنبياء ، لكن محمدا أوصى بعلي واستمرت الوصية من بعده في ذريته »⁴ .

ثانيا : الإمامة والوصاية

لقد ميز الإسماعيلية بين الوصاية و الإمامة باعتبار أن الوصاية أعلى من الإمامة ، والنبوة أعلى من الوصاية وهذا ما يوضحه لنا الدكتور محمد أحمد الخطيب بقوله « فلم يكن علي بن أبي طالب إماما من أئمتهم بل ذهبوا إلى أن الإمامة في الرتبة دون الوصايا فعلي كان وصي

¹ - محسن عبد الناظر ، مسألة الإمامة ، ص 180

² - يحي هويدي ، تاريخ فلسفة الإسلام في إفريقيا ، ص 81

³ - المرجع نفسه ص 81

⁴ - المرجع نفسه ص 82

النبي ﷺ وكانت الإمامة بعده إلى الحسن بن علي وهو أول أئمتهم وبعده كانت الإمامة في الحسين¹ و بقيت الإمامة في عقبه متوارثة بوصية من إمام العصر إلى من يأتي بعده أي ولدا بعد ولد وهذا الكلام أولوه من قول الله - عز و جل - ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يُرْجَعُونَ ﴾² فعلي هو وصي النبي -عليه السلام- ومن جاءوا بعده كانوا الأئمة وهكذا توارث نسل علي هذه الإمامة والوصاية جيلا بعد جيل فهم الخلفاء من بعده.

أما إذا نظرنا إلى الوصاية أو بالأحرى الوصية بمعنى أن الأول من الأمة يوصى للثاني الذي يليه كان « كل إمام منهم وصي لسلفه الذي عينه بإقراره الصريح موافقا للترتيب الإلهي وجاعلا إياه المرشح الشرعي للوظيفة الربانية وهذا الترتيب سبق أن قضى الله به وكتبه على كل عصر وأقره الرسول كتقليد إلهي لمنصب الحكم وولاية أمور الأمة »³.

إذن النبوة كانت لمحمد و الوصاية لعلي و توارثت ذريته الإمامة من بعده فهم ولاة هذا الأمر لا يخرج عنهم إلى سواهم و يعرف الأستاذ "محمد أحمد الخطيب" مصطلح الولاية المعمول به كمرادف للإمامة عند الشيعة الباطنية الإسماعيلية بقوله « فالولاية عند الإسماعيلية هي اعتقاد وصاية علي وإمامة الأئمة المنصوص عليها من ذرية "علي بن أبي طالب" و"فاطمة" بنت الرسول ﷺ »⁴.

حتى أن "إخوان الصفاء" حين يذكرون في رسائلهم عليا -رضي الله عنه- يصفونه بالوصي كقولهم مثلا « ومما يجمعنا وإياك أيها الأخ البار الرحيم محبة نبينا عليه السلام وأهل بيت نبيه الطاهرين وولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب خير الوصيين صلوات الله عليهم أجمعين ». كما أنهم يميزون بين الإمامة والنبوة وواضح هذا بشكل جلي في قولهم « وأعلم أن الإمامة إنما هي خلافة والخلافة نوعان خلافة النبوة وخلافة الملك »⁵.

ثالثا : النبوة و الإمامة

و الأئمة كالأنبياء درجاتهم متفاوتة و لكل مرتبته يظهر هذا الرأي على لسان أحد مفكري الشيعة من خلال تعرضه لمشكلة النبوة في كتاب "إثبات النبوءات" الذي جاء فيه

¹ - محمد أحمد الخطيب ،الحركات الباطنية في الإسلام ، ص105

² - سورة الزخرف آية 28

³ - أجناس جولد تسيهر ، العقيدة والشريعة في الإسلام ، ص 196

⁴ - محمد أحمد الخطيب، المرجع السابق ، ص100

⁵ - إخوان الصفاء ، رسائل إخوان الصفاء ، ج5 ، ص 68 ، 69

شرح لكيفية انتقال النبوة و الإمامة في النسول الطاهرة ، يقول السجستاني « إن كل رسول يفضل على الذي تقدمه بدرجة أو درجات لقوله تعالى ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْ كَلِمِ اللَّهِ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾¹ »² .

يتبين من هذا الرأي السابق أن الأئمة أيضا درجات أي أنهم متفاوتون فيما بينهم وهذا الارتباط يكشف عنه قول "السجستاني" كما يلي « لما كانت الإمامة متولدة عن النبوة ثم وجدت الإمامة تزداد عند كل إمام شرفا وفضلا »³ . لذلك يميز الشيعة بين الإمامة والنبوة من خلال تقسيمهما إلى ما يسمى الولاية الكبرى والولاية الصغرى المخصوصة « فالولاية العظمى والخلافة الكبيرة التي هي خلافة الله تعالى والمستخلف بها هو النبي ﷺ »⁴ وبهذا الشكل يكون من استخلفه النبي ﷺ من بعده من آل بيته قد تولى الخلافة الصغرى.

و سبق و قلنا مرارا من قبل أن تولي آل البيت للإمامة هو عين الصواب لأنهم هم أصحاب هذا الحق يديرونه كيفما شاءوا دون تدخل من غيرهم ممن لا يرتقون إلى مرتبتهم و يحيطون دعوتهم بكثير من السرية و الكتمان « وهذه الولاية المخصوصة لأهل بيت الرسالة عليهم السلام لا يحتاجون فيها إلى مدبرين غيرهم وإلى علماء سواهم ، و لا يطلع على أسرارهم ، و لا يعرفون أخبارهم و لا يطلعون على مواليدهم ، و لا يعرفون سنيهم في موتاهم و لهم علوم يتميزون بها و ينفصلون عن العالم بمعرفتها و أعمال يعملونها لا يشركون فيها غيرهم . لذلك استحقوا الرياسة و وُسموا بالخلافة و أنهم لا يبدون عملا من الأعمال و لا يظهرون فعلا من الأفعال إلا بمشيئة إلهية وإرادة ربانية»⁵ .

و كانت القراءات الشيعية لمسألة النبوة لا تخلو من دلالات واضحة تؤكد في مجملها على الارتباط الوثيق بين هذه النبوة و الإمامة و تحدد مهام و أدوار كلا منهما مستدلة بحركات الأفلاك و الكواكب . فهامهم " إخوان الصفاء" يعملون على تفسير النبوة بالتأثيرات الفلكية شارحين كيفية بلوغ الوحي « فالنبي هو الذي يتلقى الأخبار من الملائكة وهم الكواكب .. فالنبي يسمع كلام الملائكة من عالم الأفلاك»⁶ .

¹ - سورة البقرة آية 253

² - أبو يعقوب السجستاني ، إثبات النبوات ، دار المشرق ، بيروت لبنان ، ط1 ، 1982 ، ص162

³ - المصدر نفسه ص166

⁴ - إخوان الصفاء ، رسائل إخوان الصفاء ، ج5، ص313

⁵ - المصدر نفسه ص313، 114

⁶ - حنا الفاخوري و خليل الجر ، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص254

هكذا إذن يتلقى النبي الوحي الإلهي ليعمل فيما بعد على تبليغه بكل أمانة للناس ليرشدهم إلى طريق الحق ويخلصهم من الشرور. فكان « غرض النبي تأديب النفوس الإنسانية ونقلها من رتبة البشرية إلى رتبة الملائكة » وهي فكرة أفلاطونية استمدتها الأخوان من الفلسفات اليونانية التي كانت رائجة في الوسط الشيعي و الفارسي ، وأحسنوا توظيفها في مناقشة مسألة النبوة فصارت « النبوة في رأي الإخوان فيض من النفس الكلية على نفس النبي الجزئية »¹ فللنبوة خصائصها الهامة في الفكر الشيعي الباطني ويميزها هذا عن الإمامة والوصاية .

رغم الصلة الوثيقة بين النبي و الإمام إلا أن هذا لا يعني إسقاط كلا منهما على الآخر فهما مرتبطان لكن لكل منهما خصائصه و وظائفه هذا ما يؤكد لنا شروحات " كاشف آل غطاء" للفرق بينهما . ففي نظره « الإمام لا يوحى إليه كالنبي وإنما يتلقى الأحكام منه مع تسديد إلهي فالنبي مبلغ عن الله والإمام مبلغ عن النبي »² فحسب رأي "آل غطاء" يكون النبي أعلى درجة من الإمام بالنظر إلى قربته من ربه وصلته المباشرة به عن طريق الوحي .

كذلك يظهر هذا الفرق بوضوح إذا عرفنا مدلول النبي عند الإسماعيلية وما يميزه عن الإمام إذا «يطلق الإسماعيلية على النبي اسم الناطق فالأنبياء هم النطقاء، ولكل نبي أو ناطق إمام أو وصي هو الصاحب أو السوس أو الأساس»³ فالنبي ناطق بالوحي و الإمام صامت و متمم له . فيبقى دائما النبي أعلى درجة من الإمام الذي يسمى عندهم الأساس فحسب " المقرئزي « الأساس هو صاحب الشريعة الباطنية في حين أن النبي هو صاحب الشريعة الظاهرة »⁴ . ولكل نبي إمام أو وصي يوصي به بعده ولكل منهما سلطة نافذة على الخلق إذا « يخضع الناس لناموسين.. ناموس الشريعة و ناموس القيامة و أما ناموس الشريعة فإنه يحدد علاقات الإنسان بالإنسان و هو من النبي و أما ناموس القيامة فيحدد علاقة الإنسان بالله و هو من قائم القيامة »⁵ الناموس الأول يكون مع النبي أما الناموس الثاني الخاص بالقيامة فيتولاه الإمام .

و ما مصطلح "قائم القيامة" هذا إلا مصطلح مرادف للفظ "إمام"، ابتدعه "الحسن ابن الصباح" لإبراز سلسلة الأدوار المتعاقبة التي تكمل بظهور قائم للقيامة هو الإمام الشيعي السابع في كل دور .

¹ - حنا الفاخوري و خليل الجر ، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص 255

² - حسن كاشف آل غطاء ، أصل الشيعة وأصولهم ، ص 98

³ - يحي هويدي ، تاريخ فلسفه الإسلام في القارة الإفريقية، ج 1 ، ص 81

⁴ - المرجع نفسه ص 81 ، نقلا عن المقرئزي ، الخطط ، ج 1، ص 393

⁵ - حنا الفاخوري و خليل الجر ، مرجع سابق ، ص 217

لكن يمكن الاستدلال بطريقة أخرى على طبيعة العلاقة بين الإمام والنبى بالعودة إلى الحوار الذي دار بين " الكليبي محمد بن يعقوب " (توفي: 329هـ) و هو أحد أعلام الشيعة الإمامية و أحد سائليه من طلبة العلم عن الفرق بين النبي و الإمام و هذا جزء من نص الحوار « كتب الحسن ابن العباس المعروف إلى الرضا: جعلت فداك أخبرني ما الفرق بين الرسول و الإمام و النبي؟ فكتب أو قال: الفرق بين الرسول و النبي و الإمام أن الرسول هو الذي يتزل عليه جبريل فيراه و يسمع كلامه و يتزل عليه الوحي و ربما رأى في منامه نحو رؤيا إبراهيم. و النبي ربما سمع الكلام و ربما رأى الشخص و لم يسمع، و الإمام هو الذي يسمع الكلام و يرى الشخص »¹. و هذه بعض من الجوانب التي تظهر اختلاف النبي عن الرسول.

و حسب "إخوان الصفاء" يحدث هناك اشتراك بين النبي و الإمام أو الملك من حيث الخصال فقد ورد في رسائلهم « أعلم أنه ربما تجمع هذه الخصال في شخص واحد من البشر في وقت من الزمان فيكون هو النبي المبعوث و هو الملك و ربما تكون في شخصين اثنين: أحدهما النبي المبعوث إلى تلك الأمة و الآخر المسلط عليهم » و النبي الكريم خاتم المرسلين سيدنا محمد ﷺ قد آتاه الله من كليهما بمعنى «جمع الله الملك و النبوة لنبيه محمد عليه السلام»².

و بذلك كان للنبي الملك ميزات و خصال خاصة لا يشاركه فيها أحد كالرغبة و الرهبة لذلك يؤكدون على قوة الرباط القائم بينهما حيث أجمع هؤلاء الأخوان على « أنه لا قوام لأحدهما إلا بالآخر كما قال ملك الفرس " أردشير" في وصيته: إن الملك و الدين أخوان توأمان لا قوام لأحدهما إلا بالآخر و ذلك أن الدين أس الملك و الملك حارسه فما لا أس له مهدوم و ما لا حافظ له ضائع و لا بد للملك من أس و لا بد للدين من حارس »³.

و رأي آخر في النبوة و الإمامة تستشفه من المؤلف الإسماعيلي " إثبات النبوءات" لصاحبه للفيلسوف الإسماعيلي "السجستاني" جاء فيه أنه قد « حكم الله تعالى بأن الذرية التي تجري النبوة فيها ذرية واحدة غير منتقل عنها ذلك الشرف إلى غيرها من النسل كأهم خلقوا لها لا يمكن لأحد غيرهم قبولها» و يرى "السجستاني" كغيره من مفكري الشيعة أن الإمامة كالنبوة متوارثة لا تخرج من أهلها مستدلاً بقول الله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ ﴾⁴.

¹ - أحمد أمين ، ضحي الإسلام ، ص 213 ، 214 ، نقلا عن الكليبي ، أصول الكافي ، ص 82

² - إخوان الصفاء ، رسائل إخوان الصفاء ، ج 4 ، ص 309

³ - المصدر نفسه ص 310

⁴ - سورة آل عمران آية 33 ، 34

لأن خروجها يجلب الضرر إذ « النبوة من نسل إلى نسل آخر ضرب من الفساد »¹
وقد فهم جل الشيعة من ذلك أن نسل النبوة الطاهر الشريف قد عقبه نسل الأئمة الطاهرين
من حفدة النبي والذين جعلت الإمامة فيهم بالتوارث نسلا بعد نسل تماما كثبت النبوة في نسل
واحد . وقد حكى الله تعالى في الذكر الحكيم سؤال خليته النبي إبراهيم -عليه السلام- في أن
يجعل النبوة متوارثة في عقبه فأجابه إلى ذلك الطلب راضيا لما علمه من حسن سيرتهم وعظم شأنهم
قال تعالى ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾² .

مما يعني أن الإمامة باقية في نسل سيدنا إبراهيم متوارثة ، هكذا برهن "السجستاني" على أن
النبوة مثل الإمامة باقية في نسل واحد طاهر شريف لا تحق لسواهم . « فإذا كانت الإمامة لا تستقر
إلا في أهل بيت النبوة فكيف يتوهم أن النبوة تستقر في غير بيت أهل النبوة فإذا النبوة ثابتة في نسل
واحد غير منقطعة »³ .

و يذهب المستشرق "هنري كوربان" إلى الاعتقاد بخلو الزمان اليوم من الأنبياء .معنى «إن
دور النبوة مقفل و قد كان محمد خاتم الأنبياء الذين جاءوا للإنسانية بشريعة جديدة » كما
يضيف « أما عند الشيعة فقد كان أجل النبوة النهائي موعدا لابتداء دور جديد وهو دور
الولاية أو الإمامة »⁴ لتكون جميع المهام موكلة للإمام وحده فيؤدي أدواره ويكمل
مهام النبي و يؤول الشريعة التي أتى بها النبي للناس .

فبالنظر إلى ما انتشر من أفكار شيعة أكدت على ارتباط النبوة بالإمامة وخروجها من النسل
الواحد الطاهر الشريف، يمكن القول أن لعلم النبوة متمم ضروري هو علم الإمامة فالنبي صاحب
الشريعة الظاهرة المتزلة من المولى عز وجل، أما الإمام فهو صاحب التأويل والباطن لأن « دور الباطن
يعقب دور الظاهر والحقيقة تتلو الشريعة »⁵ .

وهكذا كان تعاقب أنبياء الله على الأرض كل بشريعة تنسخ ما قبله ا مصحوبا بوصي
وأئمة « فكل حقبة من دور النبوة أي من دور الستر بيتدئها ناطق أو وصي تليه سباعية واحدة
أو أكثر من الأئمة ثم تختتم بإمام أخير وهو القائم أو إمام القيامة »⁶ .

¹ - أبو يعقوب السجستاني ، إثبات النبوات ، ص 156

² - سورة الزخرف آية 28

³ - أبو يعقوب السجستاني ، إثبات النبوات ، ص 158

⁴ - هنري كوربان ، تاريخ الفلسفة الإسلامية ، ص 82

⁵ - المرجع نفسه ص 82

⁶ - المرجع نفسه ص 164

لكن علاقة ارتباط كلا من مرتبة النبوة بالإمامة هو محل اختلاف لدى الفرق الشيعية، فإذا كانت الإثنا عشرية « تحفظ التوازن بين الشريعة والحقيقة بين النبوة و الأئمة دون أن تفصل بين الظاهر و الباطن »¹ و على العكس من ذلك كان للإسماعيلية في ترتيبهما رأي مختلف عن الإثني عشرية وترى من المهم « تقديم الإمام والإمامة باعتبارها باقية على النبي و الرسالة النبوية لأنها وقتية إذ تخلص الإسماعيلية إلى نتيجة جذرية : فيما أن الولاية متقدمة على النبوة التي هي معينها ، فإن شخص الولي أي الإمام متقدم على شخص النبي »².

ويؤكد الشيعة الباطنية الإسماعيلية بهذا الرأي أن للأئمة منزلة روحية سامية تقترب من منزلة النبوة إلا أنهم ليسوا بأنبياء تحرم عليهم بعض المباحات على النبي، لا كلها ، أما ماعدا ذلك فهم بمنزلة النبي و هم بذلك يجعلون له مقام الإبلاغ عن النبي و كأن تعاليمه هي تعاليم النبي نفسها و ذلك أن الإمامة وراثية روحية و هي من صلب تعاليم الإسلام .

المطلب الثالث : توارث النبوة وتأثير ذلك على مسألة الإمامة

من المعتقدات التي جعلت للشيعة الباطنية تميزا وانفرادا عن غيرها هو قولها بتوارث الإمامة في نسل واحد وهو نسل النبي من أبناء فاطمة وعلي ،وقولهم بهذا راجع إلى الفكرة الهامة التي دارت حول توارث النبوة فالإمامة مثل النبوة متوارثة في ذرية علي من فاطمة .

لذلك ربط الشيعة عقيدتهم في الإمامة بفكرهم عن النبوة فالإمامة مثل النبوة لا تخرج عن نسل واحد إلى غيره لقوله تعالى في النبوة ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾³.

وإذا كان هذا حال النبوة فقد ارتبط به حال الإمامة من حيث التوارث في الأعقاب وفي هذا الشأن يقول "السجستاني" « فحكّم الله تعالى بأن الذرية التي تجري النبوة فيها ذرية واحدة غير منتقل عنها ذلك الشرف إلى غيرها من النسول كأنهم خلقوا لها لا يمكن لأحد قبولها »⁴ فهي ثابتة لهم راسخة فيهم .

وأما ما نراه من تدهور و فساد في الأمة بعد انقضاء طور النبوة فذلك مرده خروج الإمامة عن أهلها الحقيقيين إلى المعتصبين لها من الأمويين وغيرهم، فمتى رجعت إليهم رجعت الأمن والاستقرار ، لكن مادام هذا الحق ضائعا سيظل الفساد و الظلم سائدين.

1- هنري كوربان ، تاريخ الفلسفة الإسلامية ص 83

2- المرجع نفسه ص 172

3- سورة آل عمران آية 33 ، 34

4- أبو يعقوب السجستاني ، إثبات النبوات ، ص 156

و في هذا الشأن يصف "السجستاني" تدهور حال الأمة لما غدت الإمامة في غير أهلها فيقول « وما يصنع بالنبوة وأنت ترى الإمامة والخلافة لما انتقلت من أهل بيت النبوة ورفعت إلى أولاد تيم وعدي وأميه، أتت بالخلاف وإظهار الفتن من سفك الدماء واستحلال الفروج وانتهاك الأموال و التجارات وفي كل يوم تزداد شرا حتى لم يبق من الإسلام إلا اسمه ومن القرآن إلا رسمه »¹ و يعود سبب البلاء كله إلى خروج الإمامة عن العلويين إلى أعدائهم ممن اغتصبوا حقهم الشرعي في النيابة عن النبي الكريم في أمته.

و عليه يتأكد للشيعة الباطنية الإسماعيلية و لمن والاهما - من خلال ما أقره أعلام الشيعة وعلمائوها- استحالة خروج الإمامة من الذرية العلوية الشريفة وهم أهل بيت التي كما لم تخرج النبوة عن نسل إبراهيم ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾².

فإن الله وعد إبراهيم الخليل بعدم خروج هذا الشرف العظيم للنبوة من نسله ، و ما كان الله مخلف وعده أبدا و هذا هو حال الإمامة أيضا « فإذا كانت الإمامة لا تستقر إلا في أهل بيت النبوة فكيف يتوهم أن النبوة تستقر في غير بيت أهل النبوة »³ . و فكرة التوارث هذه التي قال بها أئمة الشيعة عموما تؤخذ في أصلها من مسألة توارث النبوة و شرفها مادام الارتباط بينهما كبيرا وقائما. أما ما نراه من تدهور و فساد في الأمة بعد انقضاء طور النبوة فذلك مرده خروج الإمامة عن الإمامة عند الإسماعيلية الباطنية عقيدة استمدت جذورها من عقيدة أخرى هي النبوة لا سيما في مسألة توارث الإمامة في الأعقاب الشريفة العلوية دون سواها « لقد أمن الشيعة عموما والغلاة خصوصا بأن الأئمة خلقوا من طينة خاصة ونور انبثق من ساق العرش و انتقل في الأصلاب الزكية الطاهرة النقية »⁴.

فالشيعة على خلاف غيرهم من سائر الفرق الإسلامية تجعل من الإمامة تكملة وتتمة للنبوة فهي دور يعقبها و ما قامت لأجله النبوة هو ذاته الذي نصبت بسببه الإمامة « فكل الناس في الإسلام ينادون بأن دورة النبوة قد ختمت مع خاتم النبيين أما في التشيع فإن ثمة دورة ثانية وهي الولاية والتعريف الروحي يبدأ فور ختام دورة النبوة »⁵.

1- أبو يعقوب السجستاني ، إثبات النبوات ص 159

2- سورة الزخرف آية 28

3- المصدر نفسه ص 159

4- محسن عبد الناظر، مسألة الإمامة ، ص 437

5- هنري كوربان ، تاريخ الفلسفة الإسلامية ، ص 103، 104

برهن الشيعة الباطنية على قضية توارث للإمامة بالاعتماد على النصوص الدينية المؤولة التي تؤكد أن الإمام علي-رضي الله عنه - وارث النبي ووصيه والمتصدي للإمامة من بعده ومن هذه الأدلة نصوص يوردها " هنري كوربان " نقلا عنهم مثل قول الرسول ﷺ « أنا وعلي من نور واحد»¹ وأيضا قوله ﷺ « لولا أن يقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النصرى في عيسى بن مريم لقلت فيك اليوم مقالات لا تمر على ملام من المسلمين إلا أخذوا من تراب رجلك وفضل ظهورك يستشفون به ولكن حسبك أن تكون مني وأنا منك ترثني وأرثك وأنت مني بمثلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»².

ولا يكتفي كوربان بذلك بل يورد أحاديث كثير بطرق مختلفة جميعها تبرز صلة "علي" الوثيقة بالنبي و تحده كوصي له و وريث على الملك . منها قول النبي ﷺ « أرسل علي مع كافة الأنبياء سرا وأرسل معي جهرا ³»⁴ . ليفيد بمعنى أوسع خلود "علي" و قدم خلقه و قداسته.

* توارث الأئمة لعلم الأنبياء

يمتاز الإمام الشيعي إضافة إلى كونه الحاكم الشرعي خليفة النبي في الحكم ، بكونه وارث علمه أيضا ولكن ليس أي علم منسوب إليه بطريق الاكتساب والتعليم بل هو علم نبوي موروث ، و علة ذلك أنه « لما أمن الشيعة بالحكم الوراثي الذي ينتقل في الأعقاب كان لزاما عليهم أن يقرنوا إرث العلم بإرث الحكم ⁵» فعلي ورث علوما و قد تركها في عقبه نسلا بعد نسل ، و لو أردنا الإطلاع عليها كان لا بد من التقرب إلى الأئمة العلويين فهم وحدهم مالكي خزائن العلم النبوي و ورثته . لكن ما طبيعة هذه العلوم ؟ وكيف يتم توارثها ؟ إن الشيعة ما قالت بتوارث الإمام للعلم إلا لتدعم وتتم مسألة عصمته « وحتى تكون العصمة تامة ذهب القائلون بها إلى أن إمامهم يمتاز بعلم لا يمكن لغير الإمام أن يتصف بها أو أن يحصل عليها ⁶» ونفهم من ذلك أن معارف وعلوم الأئمة هي خاصة أي وقف عليهم

1 - لا أثر له ، موضوع

2 - ضعيف و لا إسناد له

3 - لا أثر له ، موضوع

4 - هنري كوربان ، تاريخ الفلسفة الإسلامية ص 102

5 - محسن عبد الناظر، مسألة الإمامة ، ص 445

6 - المرجع نفسه ص 437

نظر لقداستهم وشرفهم فعلمومهم فوق علوم البشر، خاصة عند الشيعة الغلاة إذ « آمن الشيعة عموماً والغلاة خصوصاً بأن الأئمة خلقوا من طينة خاصة و نور انبثق من ساق العرش وانتقل في الأصلاب الزكية الطاهرة النقية »¹ فالأئمة خلفاء الأنبياء .

لذا ظلت فكرة ارتباط النبي بالوصي والإمام وتكاملهما مهيمنة على العقيدة الشيعية خاصة في عهد الغلاة والمتطرفين لا سيما بعد فشلهم السياسي وخيبة آمالهم في اعتلاء السلطة السياسية وعرش الخلافة. إذ " لاحظ بعضهم أنه لا يمكنهم عملياً تحقيق ما تصبوا إليه نفوسهم فانتهجوا طريق السلبية و تركوا للحكام السلطة السياسية وحولوا وجهتهم نحو السلطة الروحية التي من أبرز مقوماتها الناحية العلمية »².

حتى يتدارك دعاة الحركات الباطنية ذلك الفشل السياسي ويرفعوا من معنويات مؤيديهم وشيعتهم « أكدوا على أن العلوم التي يمتاز بها أئمتهم والتي بفضلها يستطيعون معرفة الغيب ومصير الأمم لن تكتسب اكتساباً و لم تنقل إليهم نقلاً بل ورثوها عن الرسول ﷺ الذي كان قد ورثها عن الأنبياء قبله » .

فحركة العلم دائرية مستمرة من الأنبياء إلى الأئمة المتسلسلين المتعاقبين على مر الزمن «فالعالم منذ أن نزل على آدم - عليه السلام - بقي متوارثاً يأخذه رسولا عن رسول عن رسول أو وصي عن وصي أو إمام عن إمام »³ . فالسابق من الأنبياء و الأئمة يفضي بما لديه من علوم وأسرار إلهية للاحق الذي يليه وهذا بدوره لمن يأتي بعده وهكذا..

و عليه نسج الشيعة أحاديث وقصص عن النبي ﷺ يدعمون بها رأيهم في توارث العلم عنه منها ما ينقله المستشرق "هنري كوربان" عن الإمام علي-رضي الله عنه- أنه قال حسب ما يرويه الشيعة « ما أنزلت آية في القرآن على رسول الله ﷺ إلا و أقرأنيها وأملاها علي فكتبتها بيدي وعلمي تفسيرها وتأويلها ومحكمها ومتشابهها وناسخها ومنسوخها و خاصها و عامها ، و دعا الله أن يعطيني فهمها وحفظها ووضع يده على صدري ودعا الله أن يملأ قلبي علماً وفهماً وحكماً ونوراً»⁴ . و يعد هذا النص من أشهر الأحاديث المنقولة عن "علي" بروايات شيعية لا يمكن الجزم بصدقه مادام الوضع في الحديث كان أشهر ما أقدمت عليه الشيعة لتقييم دعوتها و تساندها أحقية أئمتها بالخلافة.

1- محسن عبد الناظر، مسألة الإمامة ، ص 437

2- المرجع نفسه ص 446

3- المرجع نفسه ص 446

4 - هنري كوربان ، تاريخ الفلسفة الإسلامية ، ص 96

وهذا الحديث المنسوب "لعلي" يظهر مدى معرفته الواسعة و علمه الفياض الذي حصل عليه من النبي لقربه منه ، فكأن النبي ﷺ كان يهيئه ليحل محله في أمته و يخلفه فيها و بالتالي كان حريصا كل الحرص على تلقيه من العلوم و المعارف التي أوحاها الله إليه ما يساعده على تحمل أعباء منصب الإمامة مثلما تحمل منصب القضاء .

فعلي -حسب الشيعة الباطنية- خليفة رسول الله هو الأحق بتركته سواء المادية أو المعرفية فهو وصيه وبن عمه وصهره .. لذلك « أشاروا إلى أن كل ما كان فيه من صفات وعلم وعمل قد انتقل إلى الأئمة من بعده بضرب من ضروب الوراثة »¹ . "فعلي" أكثر الناس علما بعد النبي ﷺ حيث كان يقول للناس « سلوني قبل أن تفقدوني » فهو مدينة العلم و أيضا شهد له أبو بكر الصديق- رضي الله عنه- بأنه أعلم منه -حسب ما روى عنه الشيعة لتقليل شأنه وإبراز فضل "علي"- و ذلك في قوله « أقبلوني ولست بخيركم وعليُّ فيكم »² و هذه الأحاديث هي ما يقرها و يؤكدھا المفكر الشيعي "عبد الحسين دستغيب" .

و قد قلنا من قبل أنه وريث الرسول الكريم لأنه ﷺ حين جمع عشيرته و طلب منهم العون و المبايعة أبوا و رفضوا و لم يبايعه إلا علي - رضي الله عنه- و كان صغير السن ومع ذلك قال له ﷺ « أنت أخي ووصيي ووارثي ووزير و قاضي ديني »³ .⁴

إن مشكلة النبوة بما يتصل بها، من أكثر المسائل العقائدية التي اهتم بها المفكرون لا سيما في الفكر الشيعي الذي ربطها بالإمامة وعلق عليها الآمال فذكر "كوربان" أن « أقدم المعطيات لإقامة علم النبوة يجدها في تعاليم الأئمة [...] ويمكن القول أن الوسط الشيعي هو الوسط الذي كان ملائما لينشأ فيه علم النبوة ويكون مدارا للتأمل والتطور»⁵.

و على الرغم من وفات النبي ومعرفة الناس بكونه خاتم النبيين إلا أن مشكلة النبوة سواء بين الديانات أو الفرق الإسلامية لطالما كانت مسارا للجدل لكنها في الفكر الشيعي اتخذت منحى آخر مغاير لما هو سائد يرتبط في جوانب عدة بمسألة الإمامة وتداعياتها حتى « أن التشيع يستند إلى علم للنبوة يتسع فيصل إلى علم إمامة»⁶.

1- محسن عبد الناظر ، المرجع نفسه ، ص 421

2 - عبد الحسين دستغيب ، النبوة ، ص 125

3 - ضعيف ، السلسلة الضعيفة

4 - عبد الحسين دستغيب ، المرجع نفسه ، ص 153

5 - هنري كوربان ، تاريخ الفلسفة الإسلامية ص 98

6 - المرجع السابق ص 55

و يتضح ارتباط عقيدتي الإمامة والنبوة عند الشيعة الإسماعيلية بالتحديد عندما تطلق عليهما مصطلحات خاصة بما تكاد تنفرد بها وتميزها عن سائر الفرق لولا أن استخدمها بعدهم المتصوفة. وهاته المصطلحات تؤكد حسب مضمون كل منها أن للنبوة دورا لا يكتمل إلا بوجود متمم لها هو الإمامة.

ومن أبرز هذه المصطلحات المتداولة لديهم : الدور، الناطق ، الصامت ، السابق، التالي القائم،الحجة الداعي الوصي ، والمستودع والمستقر.. ويمكن الإحاطة ببعض مدلولات هذه المفردات و علاقتها ببعضها عند عرضها ضمن أدوار الإمام .

المطلب الرابع : أحوار الإمام

حتى نحيط بمعنى الدور لابد لنا أولا من تحديد بعض المصطلحات اللازمة لفهم معناه أهمها:

أولا : الناطق و الصامت

يراد بالناطق الدلالة على النبي المبلغ للشرائع الإلهية والصامت هو معينه على ذلك والمفسر لهذه الشريعة والموضح لمعانيها . ففي كل فترة وكما يسمى عند الشيعة **الدور**، يبعث الله ناطقا وصامتا للأمة لتبليغ رسالاته وهكذا « إن الدور لا يكون إلا من اثنين صامت وناطق لما كان الناطق يأتي لنسخ شريعة ما قبله بإظهار شريعة جديدة كذلك يكون الصامت فيأتي لنسخ التأويل الذي قبله وإنه لابد للناطق من صامت يكون قريبا منه وأساسا له »¹.

و يستدل الشيعة الباطنية بقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا ﴾² ليرزوا أن كل دور لا يخلو من الاثنين الناطق و الصامت، فالثاني يعين الأول ويشد على يديه فيأخذ في مشورته و نصحه، فيتولى تفسير القرآن أو كما يقولون تأويل الترتيل « وقد وجب أن يكون الصامت قد اطلع مثل الناطق على جميع الأسرار النبوية ليتمكنه موازته ومعاونته ومعاوضته بتنفيذ أحكامها »³.

والناطق هو النبي المبلغ للشريعة و الناموس الإلهي، بينما الصامت هو وصيه الذي يتولى شرحها وتفسيرها، لأن « الله سبحانه وتعالى أنزل فرائضه في الشرائع مجملة وغير مفسرة ومقسمة ففسرها وقسمها الرسول ظاهريا و وضع كل شيء في موضعه، ثم عهد بتقسيمها وتفصيلها باطنيا إلى صامت»⁴.

1- أبو يعقوب السجستاني ، إثبات النبوات ، ص 191

2- سورة الفرقان آية 35

3- المصدر نفسه ص 191، 192

4- المصدر نفسه ص 192

فوصف النبي محمد ﷺ بالمستودع و سمي علي الوصي الذي استقرت فيه الإمامة ثم في ذريته من بعده « وكان محمد الإمام الناطق وعلي الإمام الصامت وحين أعلن محمد ﷺ استقرار الإمامة في علي ، أصبح علي الإمام الناطق وانتقل الرسول الأعظم إلى الرفيق الأعلى وترك إمامين إمام صامت هو القرآن وإمام ناطق هو علي»¹.

و غالبا ما كان الناطق دالا على النبي المبلغ للوحي في حين عُدد الصامت أساسه ووصيه الشارح للوحي ، المفسر للشريعة ، والمؤول لها . و هذا تماما ما ذكره " البغدادي" عن الباطنية أنهم « قالوا إن النبي هو الناطق والوحي هو أساسه الفائق وإلى الفائق تأويل نطق الناطق على ما تراه يميل إليه هواه فمن صار إلى تأويله الباطن فهو من الملائكة البررة ومن عمل بالظاهر فهو من الشياطين الكفرة»².

حسب ما ورد في مؤلفات الشيعة و ما كتب عنهم أن كل نبي له وصي بمعنى لكل ناطق صامت ويحصون الفترات التي جاء فيها هؤلاء، والتي يصطلحون عليها اسم " دور" بسبعة أدوار إذ أن « أدوار النطق سبعة و تبدأ من آدم صاحب الدور الأول و تنتهي بالقائم صاحب الدور السابع و هذا الدور يسمى الدور الكبير، أما ما بين كل ناطق وناطق فيسمى دورا صغيرا ويكون فيه سبعة أئمة»³ معنى ذلك اشتمال كل دور على ناطق هو النبي وصامت هو الوصي، ويعقب كل وصي أئمة سبعة فإذا بلغ السابع منهم وانتهى دوره ليبدأ منه دور جديد إلى غاية سبعة أدوار.

و يمكن تفصيل هذه الأدوار بما تحويه من أنبياء و أوصياء كما يلي « فأدم هو الناطق الأول للدور وأساسه الصامت شيث وبعده ستة أئمة وبعده نوح صاحب الدور الثاني وأساسه الصامت سام، وبعده ستة أئمة، وبعده إبراهيم صاحب الدور الثالث وأساسه الصامت إسماعيل، وبعده ستة أئمة، وبعده موسى صاحب الدور الرابع وأساسه هارون، ومن بعده ستة أئمة وبعده عيسى صاحب الدور الخامس وأساسه شعون الصفا، ومن بعده ستة أئمة، ومن بعده محمد صاحب الدور السادس وأساسه علي»⁴.

1- علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ج 2 ، ص 504

2- عبد القاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص 261

3- أبو يعقوب السجستاني ، إثبات النبوات ، ص 193

4- المصدر نفسه ص 193

و لا تتوقف حلقة الأدوار عند "علي" بل تجعلها الشيعة الباطنية الإسماعيلية سلسلة متواصلة بعده ، إذ يلي علي أئمة من نسله توارثوا النبوة و الإمامة جيلا بعد جيل لا تخرج عنهم إلى سواهم . يقول عنهم "السجستاني" « و من بعده أئمة كثيرين حتى القائم الذي هو صاحب الدور السابع و صاحب الكشف والظهور »¹ .

فبعد علي والأئمة من بعده أي الحسن والحسين وزين العابدين والباقر وجعفر الصادق وابنه الأكبر إسماعيل يلي دور آخر يكون فيه أئمة متعاقبون « و قد انتهت الدورة الأولى بمحمد بن إسماعيل وقد جمع قوى الأئمة الستة فهو الأساس ونهاية الدور، ثم أتى الإمام الثامن و هو قائم لأنه الأول في الدور الجديد وانتهى الدور الثاني بالإمام الفاطمي المعز لدين الله الفاطمي وهو أيضا أساس و متمم للدور »² وكانت سلسلة أدوار الأئمة محل اهتمام مفكري الشيعة الذين ربطوا بحركة الأفلاك و تنظيم الكون.

فالإسماعيلية اتخذت من دورات الأفلاك وتأثيرات الكواكب أساسا نصبت عليه قولها بالدورات والتعاقب الدوري للأئمة مما يبرز تأثيرها بفلسفات ما ورائية مرتبطة بأصل الكون وحرركته.. و عليه أكدت « وجود دورات متعاقبة لهذا العالم في كل دور نبي ناطق و وحي وأئمة ستة فإذا جاء السابع افتتح دورا جديدا وصار ناطقا »³ .

ثانيا : السابق والتالي

تأثر الشيعة الباطنية بأفكار فارسية الأصل كانت الغنوصية والمجوسية أبرزها وضوحا في هذه النزعة الشيعية ظهر ذلك متجليا في كثير من نظرياتهم وآرائهم مثل القول بإلهين النور والظلمة فقد حكى عنهم "الغزالي" ذلك في مؤلفه الكاشف لبدعهم "فضائح الباطنية" ما جاء فيه « أنهم قائلون بإلهين قديمين لا أول لوجودهما من حيث الزمان إلا أن أحدهما علة لوجود الثاني واسم العلة السابق واسم المعلول التالي وأن السابق خلق العالم بواسطة التالي لا بنفسه وقد سمي الأول عقلا والثاني نفسا وحسبهم هذان السابق والتالي متمايزان مختلفان حتى أن الباطنية يزعمون أن الأول هو التام والفعل الثاني بالإضافة إليه ناقص لأنه معلوم »⁴ .

1- أبو يعقوب السجستاني ، إثبات النبوات ص 193

2- علي سامي النشار ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ج2 ، ص 396 ، 397

3- علي عبد الفتاح المغربي ، الفكر الديني الشرقي القديم ، ص 86

4- أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 38

رغم أنهم - أي التعليمية - لا يصرحون صراحة بمذنبين الإلهيين كما تصرح بها ديانات الجوس وذلك للتضليل والترفيف وخوفا من تعرضها للأذى فالغزالي يؤكد ذكرهم ذلك ويشور على معتقداتهم في والألوهية بل يراها « كفر مسترق من الثانوية والجوس في القول بإلهين مع تبديل عبارة "النور والظلمة" "بالسابق والتالي" إلى ضلال منتزع من كلام الفلاسفة»¹.
و لم تقف هذه الفرقة عند هذا الحد بل أضافت إلى نظريتها في النبوة والإمامة أفكار ابتدعتها أو لنقل لم تكن موجودة أو معروفة لدى المسلمين من قبل . فقد « ذهب الباطنية إلى آراء في النبوة تعد مخالفة لما ورد في النصوص الدينية في ذلك فهي ترى أن النبي فاضت عليه من السابق بواسطة التالي قوة قدسية صافية وزعموا أن جبريل عليه السلام عبارة عن العقل الفائض لا أنه شخص واتفقوا على أنه لا بد لكل عصر من إمام معصوم قائم بالحق يرجع إليه تأويل الظواهر، مساو للنبي عليه السلام في العصمة»².

والقول بالسابق والتالي مرده حسب "البغدادي" إلى التأثير بالأفكار الفارسية وبالثنائية خاصة « أن الثانوية زعمت أن النور والظلمة صانعان قديمان والنور منهما فاعل الخيرات والمنافع والظلام فاعل الشر والمضار [...] إلا أن الباطنية عبرت عن الصانعين بالأول والثاني وعبر الجوس عنهما بيزدان وأهرمن»³.

ثالثا : المستودع والمستقر

عندما يربط الشيعة الباطنية كغيرهم من فرق الشيعة الإمامة بالنبوة يكون غرضهم تأكيد شرف الإمامة و توارثها في النسل النبوي الطاهر، مع مراعاة وظيفة لا منهما و سماته لذا استخدموا مفهومي " الاستيداع والاستقرار" الواردتان هذان في الذكر الحكيم لقوله تعالى ﴿و هو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر و مستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾⁴.

- فما مدلول كل منهما يا ترى؟ و على من تطلقان؟ و متى يحدث الاستيداع والاستقرار؟ ز هل يمكن حصولها للشخص الواحد؟..

1- أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ص 40

2- علي عبد الفتاح المغربي ، المرجع نفسه ، ص 8 ، نقلا عن ابن الجوزي ، تلبس إبليس ، ص 107 ، 108

3- عبد القاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص 253

4- سورة الأنعام آية 28

في الحقيقة لم يتوان دعاة الفرق الشيعية عن وضع مصطلحات و ألقاب يُدللون من ورائها على أئمتهم و يخفون بما حقيقة أمرهم خوفا عليهم من بطش الأعداء و هذا الأمر هو المعروف لديهم بمبدأ التقية و التستر « قد أطلق الإسماعيليون على مرتبة النبوة والرسالة مرتبة الاستيداع أما مرتبة الإمامة والوصاية فسموها مرتبة الاستقرار» .

و لهم حديث في ذلك يبرزون من خلاله مراتب الأنبياء و من تلاهم من الأوصياء والأئمة « إذ زعموا أن إبراهيم الخليل-عليه الصلاة والسلام- اجتمعت لديه مرتبة الاستيداع وائتمن على مرتبة الاستقرار فأورث إسحاق مرتبة الاستيداع وأعطى إسماعيل مرتبة الاستقرار ، وتوارث أولادهما هذه المراتب حتى وصلت مرتبة الاستقرار إلى عبد المطلب جد النبي - عليه الصلاة والسلام- «¹ .

وحسب هذا الترتيب كان هناك من تحفظ فيه الإمامة كوديعة وأمانة يعمل على صيانتها إلى أن يودعها صاحبها فتستقر له وعنده ، ويورثها أبناءه وهي لا تنتقل من أخ إلى أخ بل من الأب إلى الابن « واستودع عبد المطلب مرتبة النبوة و الرسالة لمحمد ثم استودع أبو طالب مرتبة الوصاية و الإمامة أيضا «² إن عبد المطلب كان له ولدان " أبو طالب" و "عبد الله" ولما مات " عبد الله" والد النبي في حياة أبيه ثم توفي الجد ، فكانت النبوة في أبناء عبد الله والوصاية والإمامة في أبناء أبي طالب.

والملاحظ أن النبي كان جامعا لكل تلك المراتب حين نزل عليه الوحي في حياة عمه « فلما مات أبو طالب اجتمعت كل هذه المراتب لمحمد ﷺ فكان إليه جماع الرتب جميعا: النبوة والرسالة والإمامة والوصاية «³ لكن كان ذلك كان لفترة وجيزة ، حتى تمكن من تبليغ الرسالة و إنباء الناس بأخبار ربه « و في غدِير خم سلّم الرسول محمد مرتبة الاستقرار إلى علي بن أبي طالب ولأولاده الأئمة من بعده وإمام الاستقرار كل صفات صاحب الاستيداع إلا في الرسالة والنبوة»⁴ فالرسول كان الإمام الناطق المستودع ، وعليه أن يسلم الإمامة لعلي فلما استقرت فيه رحل الرسول إلى جوار ربه الأعلى.

1- محمد أحمد الخطيب، الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ، ص104

2- المرجع نفسه ص 104 ، نقلا عن ديوان المؤيد في الدين ، تحقيق كامل حسين ص 72 ، 73

3- علي سامي النشار ، المرجع السابق ص 504

4- المرجع نفسه ص 504

المطلب الخامس : الأصول الفلسفية لعقيدتي النبوة و الإمامة عند الباطنية

مما لا شك فيه أن التأثير الفلسفي على الشيعة الباطنية كبير و بارز بوضوح في جل عقائدهم ومذاهبهم فقد تأثروا بالمعتزلة خاصة ، كفرقة كلامية ذات نزعة فلسفية في اعتمادها على العقل والتأويل... لكن الشيعة الإسماعيلية أو كما يطلق عليها " الغزالي" التعليمية كانت أكثر تأثراً في مسألة النبوة بالفيلسوف " أبو نصر الفارابي".

أكد الدارسون لفكر الفيلسوف "الفارابي" وفلسفته على وجود تقارب كبير بين نظرية النبوة الفارابية و عقيدة الإمامة الإسماعيلية في جوانب عدة . و يمكننا القول بشكل أدق أن « هناك تشابه بين وجهة نظر الفارابي في العلاقة بين رئيس المدينة الفاضلة والله ونظرية نصر الدين الطوسي في الإمام المعصوم فكما أن الأئمة لا يكونون على الأرض إلا واحدا بعد الآخر»¹ . فالإمام الشيعي و رئيس المدينة الفاضلة يشتركان في أمر تولي رئاسة المسلمين بشكل دوري متسلسل فلا يظهر الأئمة و لا الرؤساء في وقت واحد بل لكل دور محدد .

و من الواضح فرقة الإسماعيلية قد تأثرت إلى حد كبير بأراء الفارابي في مسألة النبوة والوحي و استوحت منها تعاليم أضافتها لعقيدتها في الإمامة ، مما يؤكد أن « فكرة الإمام عند الإسماعيلية لا تختلف عن النبوة اختلافا جوهريا فالنبي متعلم ومعلم في آن واحد، هو متعلم لأنه يتلقى المعرفة عن طريق الوحي وهو معلم لأنه يعطي الناس ناموس الشريعة و يخاطبهم بلغتهم وبحسب عقلياتهم»² . وحتى مسألة الإرشاد والحاجة إلى التعلم من إمام يقود الناس إلى سبل السعادة هي نقطة اشتراك بين الفارابي و الإسماعيلية لأن كلا منهما يؤمن بقصور مدارك الفرد وحده عن بلوغ الحقيقة و يحتاج إلى من ينير طريقه و يأخذ بيده « فليس في فطرة كل إنسان أن يعلم من تلقاء نفسه السعادة ولا الأشياء التي ينبغي أن يعملها بل يحتاج في كل ذلك إلى معلم ومرشد» وهذا الإنسان الذي يملك القدرة على إرشاد وتعليم غيره والأخذ بيدهم هو وحده الذي يصلح لرئاستهم « ومن كانت له قوة على أن يرشد غيره إلى شيء ما ويحمله عليه أو يستعمله فيه فهو رئيس في ذلك الشيء»³ .

1- محمد جلال شرف ، نشأة الفكر السياسي وتطوره في الإسلام ، دار النهضة العربية ، بيروت لبنان ، ط2 ، 1990، ص

198

2- المرجع نفسه ص 199

3- أبو نصر الفارابي ، السياسة المدنية ، دار المشرق ، بيروت لبنان ، ط2 ، 1993 ، ص 78

فالرئيس عند "الفارابي" لا يختلف عما قالت به الإسماعيلية التي أكدت علمه الواسع فله إحاطة بكل العلوم الإلهية وله علم تأويل التزويل الذي يسمح له تفسير الشرع وتوجيه الخلق و نفس الاعتقاد الذي ساد عند "الفارابي" « فالرئيس الأول على الإطلاق هو الذي لا يحتاج ولا في شيء أصلاً أن يرأسه إنسان بل يكون حصلت له المعارف والعلوم بالفعل ولا تكون له حاجة في شيء إلى إنسان يرشده » مما يظهر اتصال الفارابي بالإسماعيلية و انتمائه لها.

إذ أن صفات هذا الرئيس تنطبق تماماً على الإمام الشيعي الذي له كمال و تمام العلم ونجدها في شخص الإمام "علي" الذي جعله أشياعه مالك مفاتيح مدينة العلم، فهو بابها وذريته ورثة علمه « وهذا الإنسان هو الملك في الحقيقة عند القدماء وهو الذي يقال فيه أنه يوحى إليه فالإنسان إنما يوحى إليه إذا بلغ هذه الرتبة وذلك إذا لم يبق بينه وبين العقل الفعال واسطة »¹ و تلك الصفات التي حددها "الفارابي" للرئيس لا تختلف عن مثيلاتها لدى الإمام الشيعي ، مما يبرز التأثير الواضح و الارتباط الكبير بينهما.

فيصبح هذا الإنسان المرشد و المعلم و الموجه الذي حصلت له جميع العلوم و المعارف ملكا للناس و رئيسا « و رئاسة هذا الإنسان هي الرئاسة الأولى و سائر الرئاسات الإنسانية متأخرة عن هذه و كائنة عنها »² كما هو حال الإمام الشيعي الذي يتولى تعليم الأتباع و تأويل الشريعة فلا يحصل لأحد سواه ما له من علم إلهي خصّ به وحده دون سواه .

من خلال المقارنة البسيطة بين نظرية النبوة الفارابية و مسألة ارتباط الإمامة بالنبوة عند الإسماعيلية الباطنية يتضح أن هناك تأثيراً متبادلاً بينهما يكشف في سياقه عن ميل "الفارابي" إلى التيار الشيعي حتى أن بعض الباحثين يعدونه من أصل شيعي لتقارب فكره مع الفكر الشيعي خاصة الإسماعيلي . و يؤكد الدكتور "إبراهيم مذكور" ذلك الارتباط بقوله « قد تأثر الإسماعيلية بالأفكار الفلسفية في غير موضع إلا أن نظرية النبوة على الخصوص راقتهم إلى حد كبير و صادقت هوى في نفوسهم فإنها لا توضح النبوة فحسب بل تشرح فكرة الإمامة التي قامة عليها دعوتهم »³ .

1- أبو نصر الفارابي ، السياسة المدنية ص79

2- المصدر نفسه ص 80

3- إبراهيم مذكور، في الفلسفة الإسلامية منهج و تطبيقه ، ج2 ، دار المعارف ، القاهرة مصر ، [د ط] ، [ط ت] ، ص

ويعد " الفارابي " أكثر الفلاسفة الذين انبهر بهم الإسماعيلية خاصة نظريته في الإمامة
«فالنظرية الفارابية للنبوّة اعتبرت أساسا علميا متينا تبني عليه الإسماعيليون كثيرا من تعاليمهم ولم
يزيدوا عليها شيئا إلا أنهم تأولوا بعض النصوص التي سكت عنها الفارابي»¹.
كما نلاحظ في استعراضنا لموقف الشيعة الإسماعيلية من مسألة النبوّة احتواءها على تلك
الأفكار الفلسفية المتعلقة بالفيض والألوهية وهي نفسها الأفكار التي تحدث عنها " الفارابي "
ما يبرز بجلاء « أن للنبوّة الفارابية تأثيرا كبيرا على من ينتمون إلى الإسماعيلية الباطنية خاصة
على " إخوان الصفا " الذين لم يبق اليوم شك في اتصالهم بالإسماعيلية فهم يشيدون بذكر
قوة المخيلة ويبيّنون مالها من أثر في الظواهر النفسية المختلفة وخاصة في المنامات والأحلام
والوحي والإلهام »² إذ الواضح أن نظرية النبوّة الشيعية الباطنية ترد في مجملها إلى
أصول فلسفية .

- مما سبق يظهر المذهب الباطني و التروع إلى ما وراء الظاهر لدى هذه الإسماعيلية الباطنية في
تناولها لمسألة النبوّة والربط بينها وبين الإمامة مؤكدة أن « الإمامة المحمدية هي بالذات باطن
النبوات السابقة جميعا و ما ذلك إلا لأهما باطنية الإسلام فثمة نبوّة مطلقة عامة ومشتركة و ثمة نبوّة
مقيدة ضيقة و خاصة [...] وكذلك بالنسبة للولاية التي هي باطن النبوّة الباقية فثمة ولاية مطلقة
وعامة ، و ولاية مقيدة خاصة »³.

و نفهم من ذلك أن ولاية علي حسب الإسماعيلية الباطنية ظاهرها النبوّة وباطنها
الولاية والنبوّة لم تنته مع محمد خاتم الأنبياء بل لدى الشيعة « ثمة دورة ثانية هي دورة الولاية
والتعريف الروحي يبدأ فور ختام النبوّة »⁴ ليتبين في الختام أن الشيعة الباطنية الإسماعيلية تعتبر
الولاية متقدمة على صفة النبي المرسل لأن ولاية الإمام مطلوبة في الظاهر ولما كانت للباطن
الصدارة على الظاهر فيجب أن نصل من ذلك إلى أن الإمام متقدم وبشكل رئيسي على النبي وأن
الباطن مستقل عن الظاهرة .

1 - إبراهيم مذكور، في الفلسفة الإسلامية منهج و تطبيقه ، ص 190، 108

2 - هنري كوربان ، تاريخ الفلسفة الإسلامية ، ص 103، 104

3 - المرجع نفسه ، ص 103، 104

4 - المرجع نفسه ص 104، 105

المبحث الرابع: المنهج التأويلي الباطني و دوره في تبرير وتدعيم عقيدة الإمامة

المطلب الأول : التأويل أصله ومعناه أسباب ظهوره

يعد* التأويل من أهم المسائل التي بنيت عليها العقيدة الشيعية ، و الباطنية خصوصا ،
لما له من صلة وثيقة بعقيدتهم في الإمامة .فقد كان التأويل منهجا و أداة فعالة في نشر
عقيدة الإمام المعصوم المنصوص عليه .لكن قبل الخوض في هذا الأمر، تجدر بنا الإشارة إلى
معنى التأويل واستخداماته.

- فما المقصود به ؟ و هل هو نوع من التفسير للتزويل؟ ترى ما رأي الشريعة فيه؟

أولا : معنى التأويل

* المدلول اللغوي للتأويل

لتحديد حقيقة التأويل ينبغي أولا العودة إلى آراء بعض اللغويين للوقوف على أصله
ومعناه ففي قاموس الهادي إلى اللغة العربية ، نجد هذا التعريف للتأويل « أول يؤول تأويلا ، و أول
الرجل الشيء جعله في الأول . أول الله على فلان رد عليه ضالته، أو ما فقدته ، أو خسره .
و يقال أول الله عليك ضالتك و أول الله عليك شملك أي رده ، و أول المفسر الكلام رده إلى
معناه الأصلي وإلى ما يفهم منه و هذا لا يكون بالتفسير وحده ، ولا بالترجمة وحدها . و أول الرجل
الرؤيا فسرهما و غيرها . و تأول الرجل الكلام أوله ، و يقال هو يتأول أي يعطي الكلام معنى
من عنده فكأنه يتصرف في المعنى من عنده»¹.

لكن التعريف السابق يتميز بالعموم و الشمولية لأنه جامع لكل استخدامات مفردة
"تأويل" . و نجد تعريفا آخر له أكثر تحصييا و تحديدا في كتاب "التعريفات" "للجرجاني" إذ
يجعل التأويل مرتبطا بالنصوص الشرعية و معانيها باعتبار « التأويل في الأصل الترجيع
و في الشرع صرف الآية عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه موافقا
بالكتاب و السنة »².

* التأويل *exégèse* : استنباط تأصيلي لغوي و عقيدي لنص ، خصوصا لنص مرجعي : التوراة ، النصوص القانونية. من أندريه

لالاند ، الموسوعة الفلسفية ، ج1، ص384

1- عبد الرزاق قسوم ، سلطة التأويل في الخطاب الرشدي ، مجلة دراسات فلسفية ، العدد الخامس ، الجزائر ، 1998 ، ص

173، نقلا عن حسن سعيد الكرمي قاموس الهادي إلى لغة العرب ، دار لبنان للطباعة و النشر ، بيروت ، 1411هـ ، ص101

2- محمد الشريف الجرجاني ، كتاب التعريفات ، مرجع سابق ، ص 52

فيظهر لنا من معنى التأويل أنه ما احتيج إليه إلا لوجود غموض اكتنف بعض النصوص الشرعية وحال دون معرفة المراد منها ، فظاهر النص لم يكن معبرا عن المقصود وكان لا بد من الرجوع إلى باطن النص . لذا عرف "الغزالي" التأويل من خلال مقابلته بالظاهر، فإذا كان «الظاهر في اللغة عبارة عن الواضح ونقول ظهر الأمر الفلاني أي اتضح وانكشف» أما التأويل فهو كما يقول يعرفه الغزالي في المستصفي « ما غلب فهم معنى منه من غير قطع»¹ .

مما سلف نستنتج أن التأويل في اللغة جذره "آل يؤول" بمعنى ردّ و رجوع ، لقوله تعالى ﴿ابتغاء تأويله﴾ أي النظر إلى ما يؤول إليه . فغلب على معنى التأويل أنه ردّ الشيء إلى أصله لاستبيان حقيقته .

ب* المدلول الاصطلاحي للتأويل

ظهر التأويل بعد وفاة الرسول الكريم عندما صار ما نقل إلينا عن النبي و الصحابة من تفسيرات للقرآن غير شامل لكل الآيات، أو يكتنفه الغموض لاسيما و أن العارفين بأمر الدين تتخطفهم الموت يوما بعد يوم. فاجتهد التابعون من في استدراك ذلك النقص معتمدين على لغة العرب و أساليبهم البلاغية فمنهم واقف عند حدود النص و منهم متعد إلى باطنه مجتهد فيه برأيه وهو ما عرف بالتأويل و « يطلق إصطلاحا على تفسير مادة القرآن لأنه جزء هام للشرح اللفظي الظاهري»² و ذلك لبلوغ مغزى الآيات القرآنية و الإحاطة بمدلولها. لذلك يظهر تباين التأويل عن التفسير فالتأويل أخص منه قد ظهر مع ظهور الفرق والمذاهب.

و من أشهر تعريفات التأويل ما يذكره " الغزالي" في المستصفي بقوله « التأويل عبارة عن احتمال يعضده دليل يصير به أغلب على الظن من المعنى الذي يدل عليه»³ و يجعل "بن رشد" (520-595 هـ) التأويل مرتبطا بما يثيره اللفظ من معان ودلالات فيقول « معنى التأويل هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب في التجوز من تسمية الشيء بشبيهه أو بسببه أو لاحقه أو غير ذلك»⁴ .

1- رفيف العجم ، الأصول الإسلامية ، منهجها و أبعادها ، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان ، ط 1 ، 1983 ، ص 160 ، نقلا عن الغزالي ، المستصفي من علم الأصول ، ج1 ، ص 384 ، 386

2 - عبد الحميد خطاب ، الغزالي بين الدين و الفلسفة ، ص 161

3 - رفيف العجم ، المرجع نفسه ، نقلا عن الغزالي ، المستصفي ، ج1 ، ص 387

4 - أبو الوليد بن رشد ، فصل المقال وتقرير ما بين الحكمة والشريعة من اتصال، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، [دط]، [د] ت [ص32

ثانيا : الفرق بين التأويل و التفسير

يكثر الخلط بين مصطلحي التأويل والتفسير لما بينهما من تقارب و ارتباط وأحيانا يتدخلان من حيث الاستعمال ، فيصعب لغير المتخصص التمييز و الفصل بينهما .
و سنحاول فيما يلي إبراز الفرق بينهما موضحين معنى كل منهما . ففي لسان العرب "لابن منظور"
ورد أن « التفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل » لذا كان التفسير « بيان كلام الله أو انه المبين لألفاظ القرآن و مفهوماتها »¹.

و يوضح "الجرجاني" الفرق بين التأويل و التفسير مستندا إلى قوله تعالى « يخرج الحي من الميت » إن أراد إخراج الطير من البيضة كان تفسيرا ، و إن أراد إخراج المؤمن من الكافر أو العالم من الجاهل كان تأويلا «² . فكان التفسير يرتبط بالأشياء الحسية الظاهرة الجلية للعيان بحيث يمكن تأملها بوضوح في حين يتمحور التأويل حول بواطن الأمور وعبارة أخرى المعنى الباطن الخفي والمعنوي..

ومن ناحية أخرى الفرق بين التأويل و التفسير أن التفسير إعطاء المعنى بحسب ما ورد من الكلام و التأويل إيراد المعنى بحسب ما يراه المؤول أي بحسب ملابسته . فالتأويل فيه تصرف و التفسير فيه تقييد. فتأويل القرآن الكريم يختلف من تفسيره . و أهل التأويل هم الباطنية و أهل التزويل هم أهل السنة «³ .

ثالثا : ظهور الحاجة إلى التأويل وأسباب القول به عند فقهاء الأمة ونلاسيتها

في حياة الرسول ﷺ لم يحتر الناس في أمور دينهم إذ كان هو الإمام المفسر والمفتي لما يعرض من غوامض الدين ، لكن بوفاته وغيابه عن الدنيا احتاج الناس إلى من ينوب عنه في شرح دينهم ..
لا سيما فيما طرأ من مستحدثات ومستجدات .. فانقسم الناس إلى أقسام فريق يأخذ بالنص (الظاهر منه) ويكتفي به ، وينهى عن الخوض والبحث فيما وراءه وهذا ما جسده بوضوح الاتجاه السلفي مع الأئمة مالك ، بن حنبل ، بن حزم وبن تيمية.. وفريق آخر تفقه في الدين وعمد إلى باطن النصوص لفهم مضامينها .

1 - ابن منظور ، لسان العرب ، فصل الفاء حرف الراء ص

2 - محمد الشريف الجرجاني ، كتاب التعريفات، ص 52

3 - عبد الرزاق قسوم ، سلطة التأويل في الخطاب الرشدي ، ضمن مجلة دراسات فلسفية ، ص 173 ، نقلا عن حسن سعيد الكرمي ، قاموس الهادي إلى لغة العرب ص 102

وادعى أصحاب التأويل أن له أساسا وأصلا في القرآن و السنة فبعض الآيات ورد فيها لفظ "التأويل" صريحا وثبت أن الله تعالى قد علم يوسف - عليه السلام- من تأويل الأحاديث والأحلام و يعتقد المفكر " حسين مروة " أنه « يمكن القول أن مسألة الظاهر والباطن ومسألة التأويل وجد لها أصل في القرآن نفسه»¹ .

و يستدل " حسين مروة " (1908-1987م) على رأيه بالآية القرآنية الكريمة ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾² .

إذ يشير هذا الباحث إلى وجود نوعين من الدلالات للنصوص الشرعية، لقوله « ففي القرآن إذن نوعان من الآيات نوع الآيات المحكمة وهي ذوات الدلالات الظاهرة ونوع الآيات المتشابهات وهي التي تحمل دلالات غير ظاهرة من النص وإنما هي المعاني الباطنة التي لا تنكشف إلا بالتأويل »³ .

فحسب زعم عدد من الفلاسفة والمفكرين أن القرآن لا يؤخذ كله على ظاهره بل يتضمن معان خفية مستترة تحتاج إلى التأويل للكشف عنها، و من أبرز هؤلاء " بن رشد " الأندلسي لتأكيد على « أن الشرع لا يؤخذ كله على ظاهره بل على الخواص أن يؤولوه حتى يدركوا حقيقته التي تتناسب واستعداداتهم »⁴ .

هذا التفاوت والاختلاف مرده مدارك الناس وملكاتهم التي توهمهم لفهمهم، فليسوا كلهم في مستوى واحد من الفهم ، وهذا ما يتضح في قول ابن رشد « والسبب في ورود الشرع فيه الظاهر والباطن هو اختلاف فطر الناس وتباين قرائحهم م في التصديق، والسبب في ورود الظواهر متعارضة هو تنبيه الراسخين في العلم على التأويل الجامع بينها وإلى هذا المعنى وردت الإشارة لقوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ..

1 - حسين مروة ، الترععات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية ، ج 2 ، دار الفارابي ، بيروت لبنان ، ط 7 ، 1985 ، ص 212

2 - سورة آل عمران آية 07

3 - حسين مروة ، المرجع نفسه ص 213

4 - الوليد بن رشد ، فصل المقال ص 36

.... يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١﴾¹ «².

و بخصوص هذه الآية وتفسيرها .. يقول "بن خلدون" « وثبت في هذا القرآن الكريم حروفا من الهجاء مقطعة في أوائل بعض سوره ، لا سبيل لنا إلى فهم المراد بها و سُمِّي هذه الأنواع كلها من الكتاب متشابهة و ذم على إتباعها « مستندا في موقفه على الآية الكريمة السابقة ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ... ﴾ .

و بهذا أشار "بن خلدون" إلى كون هذه الآية تبرز بوضوح ذلك الاختلاف القائم حول آيات الذكر الحكيم بين علماء الأمة لقوله « و حمل العلماء من سلف الصحابة والتابعين هذه الآية على المحكمات وهي المبيّنات الثابتة الأحكام ولذا قال الفقهاء في اصطلاحهم : المحكم المتضح المعنى ، و أما المتشابهات فلهم فيها عبارات ، فقليل هي التي تفتقر إلى نظر وتفسير يُصَحِّحُ معناها لتعارضها مع آية أخرى ، أو مع العقل فتخفي دلالتها وتشتبه»³ .

- لكن ما معنى التأويل عند الشيعة الباطنية ؟ و هل يمكن تجاوز الظاهر إلى الباطن دائما واعتماد التأويل الباطني للنصوص ؟ ما الذي أضافته الباطنية للمنهج التأويلي ؟..

المطلب الثاني : التأويل الباطني عند الشيعة الباطنية التعليمية

و إذا كنّا قد أشرنا من قبل إلى معنى التأويل في عمومته و أدركنا من خلال ذلك مدلوله يجدر بنا الآن أن ندرك حقيقة معناه لدى الباطنية التعليمية، التي عرفت باعتمادها على المنهج التأويلي لدعم مذهبها وعقيدتها وكذا لنشر دعوتها بين أنصارها وشيعتها كإفهامه .

لاسيما أن هذه الفرقة الشيعية قد أصبغت على التأويل من عقيدتها ما يجعل له معنا خاصا لديها ، انفردت به و صار مما يميزها عن غيرها من سائر الفرق و « إن كانت لتكون ممارسة تميز الشيعة فلن تكون غير الترجمة الرمزية هذا النوع من التفاهم ينطبق قبل كل شيء على القرآن الكريم لكن العلماء الشيعيين جعلوا منها منهجا وطريقا للوصول إلى الحقائق المتضمنة أسرار عالم الحقيقة»⁴ .

إذ اعتمدت الشيعة الباطنية على تأويل الآيات والنصوص لإبراز عقيدتها في الإمامة ولتبريرها حتى كان منهجها التأويلي الباطني الذي اشتهرت به وسيلة لازمتها و دافعت من

1 - سورة آل عمران آية 07

2 - الوليد بن رشد ، المرجع نفسه ص 36

3 - عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص 495

خلالها عن أرائها و مواقفها الباطنية المتميزة .يرد على لسان أحد أعلامها ما يؤكد « إن كل من ينظر في هذه الآيات الموجودة في الآفاق والأنفس والدلالات الباطنة فيها ولا يطلب حقائقها وتأويلاتها من أرباب الدين وأصحاب اليقين فيكون من الألبسة والشياطين الذين استوجبا غضب الله وخذلانه وحرمانه »¹ .

إذن التأويل الباطني ارتبط بالشرائع المترلة ونصوصها وألفاظها المقدسة فلا بد من العودة إلى بواطنها وعدم الاكتفاء بالظاهر فقط إذا « أن للكتب النبوية تأويلات و تفسيرات غير ما يدل عليها ظاهر ألفاظها يعرفها العلماء و الراسخون في العلم »² . فالحقيقة لا تكون مكشوفة دائما للعيان بل يجب إظهارها من بين السطور بالاستناد إلى التأويل الباطني باعتبار أن النصوص الدينية ذات معان باطنة خفية مستورة و الأئمة وحدهم هم القائمون على تأويل الشرع و تفسيره لدعاتهم و أتباعهم ليتم تناقل تلك التأويلات بين شيعتهم .

و اتخذ التأويل معنى خاص عند الإسماعيلية التعليمية ارتكز على ضرورة العودة إلى ما وراء الظاهر لإدراك الأشياء على حقيقتها إذ « لا بد لكل ظاهر من باطن وهو المقصود في الحقيقة وهو بمثلة اللب والظاهر بمثلة القشر »³ . و تأويلات الباطنية كغيرها من فرق الشيعة الأخرى مستمدة من تأويلات الإمام جعفر الصادق أحد أهم أعلام الشيعة وإمامها السادس حسب الإسماعيلية « إذ يستند الإمام جعفر الصادق في تأويلاته على المنهج القائل بأن كتاب الله على أربعة أشياء: العيادة، والإشارة واللطائف والحقائق ، فالإشارة للخواص والعيادة للعوام واللطائف للأولياء والحقائق للأنبياء »⁴ .

ليتضح أن التأويل حكر على الأئمة لا يتجرأ غيرهم على الخوض فيه و لا ينبغي قبول أي شرح أو تفسير للنصوص ما لم يثبت صدورها عن الإمام المعلم المعصوم . و هنا تأكيد على أن الإشارة و هي الظاهر ينبغي استغلالها و تأويلها و حسن توظيفها من قبل الخواص وهم كما سبق الذكر أهل الباطن والراسخون في العلم . وهذا التصور « مؤسس على قول علي بن أبي طالب : ما من آية إلا ولها أربعة معان ، ظاهر وباطن وحد ومطلع فالظاهر التلاوة والباطن الفهم والححد هو أحكام الحلال والحرام، والمطلع هو مراد الله

1 - عبدان قرمط ، شجرة اليقين ، ص 10

2 - حنا الفاحوري، و خليل الجر، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص 250

3 - محمد بن الحسن الديلمي ، المرجع السابق ، ص 39

4 - كامل مصطفى الشبيبي ، الصلة بين التصوف والتشيع ، ص 191

تعالى من العبد بما ¹ هكذا يسوقنا الحديث دائما إلى نفس الفكرة الباطنية التي تمثل جوهر العقيدة الباطنية الإسماعيلية الشعبية آلا وهي فكرة «الظاهر والباطن».

أولا: الظاهر و الباطن

تنقسم العقيدة الإسماعيلية إلى قسمين، الظاهر وهو كل ما يتعلق بالسلوك الخارجي والعلاقات بين البشر، والباطن ومعناه أن للآيات المتزلة والعقائد معنى باطنا لا يعرفه إلا الإمام والمقربون إليه وقد تمسكت الإسماعيلية بالمبدأ للقائل لا ظاهر بدون باطن يقابله كما أنه لا باطن بدون ظاهر يقابله وهذا من جعل الإسماعيلية تعرف باسم الباطنية ². لذلك أوّل الباطنية النصوص الشرعية وأكدوا أن الحقيقة في الباطن فقط . ويذكر الإمام "البغدادي" في " الفرق بين الفرق " أنهم « تأولوا آيات القرآن و سنن النبي عليه السلام على موافقة أسسهم » ³.

وقد وظف بعض علماء الشيعة من أمثال المفكر الشيعي "عبدان قرمط" بعض الأدلة النقلية ليؤكد من خلالها ضرورة العودة إلى باطن النص لفهم حقيقته منها قوله تعالى ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ﴾ يعني ظاهرها ﴿ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ يعني باطنها ﴿ كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ ⁴ ليوظفه دلالة على ضرورة العودة إلى بواطن النصوص « فهذا القول موجه إلى من وقف على ظاهر القرآن أو غيره من كتب الله تعالى المتزلة على رسله ولم يقف على تأويله فهو كالحمار يحمل أسفارا دون أن يعرف ما فيها » ⁵.

فلا بد من العودة لباطن النص و العمل به ،لأن الحقيقة تكمن فيه أما الظاهر فهو مجرد ستار تحتجب وراءه المعرفة الحقة لسائر أركان الشريعة و العبادات . و من هنا « زعموا أن من عرف معنى العبادة سقط عنه فرضها » ⁶ و تأولوا في ذلك الزعم قول الله تعالى ﴿ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ ⁷ واعتبروا اليقين حاصل بالتأويل وبمعرفة الباطن معتبرين « أن الظواهر عذاب وباطنها فيه الرحمة » ⁸ تماشيا مع قول الله تعالى ﴿ فَضْرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ

1 - المرجع السابق ، ص 190

2 - حنا الفاخوري ، و خليل الجر ، المرجع السابق ، ص 210

3 - عبد القاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص 253

4 - سورة الجمعة آية 05

5 - عبدان قرمط ، المصدر نفسه ص 32

6 - عبد القاهر البغدادي ، المرجع نفسه ، ص 262

7 - سورة الحجر آية 99

8 - عبد القاهر البغدادي ، المرجع نفسه ، ص 266

بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهَرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ»¹ الذي استندوا إليه في دعواهم .
 وبناء على ذلك اعتبر الباطنية أن حقائق الأمور مدركة بإعمال التأويل الباطني لا غير
 لكنهم تبادوا في تأويلاتهم حتى وصل بهم الأمر أن ادعى بعضهم بأن القرآن الكريم محرف فقد
 « ألف أحد أعلامهم " حسين بن محمد تقي النوري الطبرسي النجفي " (وفاته 1320م) ألف في
 1292م كتابا سماه " فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب " جمع فيه مئات
 النصوص عن علماء الشيعة ، و مجتهديه في مختلف العصور بأن القرآن قد زيد فيه ونقص
 منه»² . و إخوان الصفاء يقولون بأن القرآن زيد فيه ، و قد سبقت الإشارة إلى ذلك الأمر من
 قبل في تعاليم الشيعة الباطنية .

بعض تعريفات الباطنيين للتأويل

ويمكن أن نقف على معنى التأويل لدى الباطنية من خلال الاستشهاد بتعريفات للتأويل وردت
 في مؤلفات بعض أعلامها من الإسماعيلية الباطنية المعروفة بالتعليمية من أمثال " إخوان الصفا" إذ
 يرد في إحدى رسائلهم « واعلم أن للكتب الإلهية تزييلات ظاهرة وهي الألفاظ المقروءة ولها
 تأويلات خفية باطنة وهي المعاني المفهومة المعقولة ، وهكذا لواضعي الشريعة موضوعات عليها
 وضعوا الشريعة ولها أحكام ظاهرة جلية ، وأسرار باطنة خفية وفي استعمال أحكامها الظاهرة
 صلاح المستعملين في دنياهم ، وفي معرفة أسرارها الخفية صلاح لهم في أمر معادهم وآخرهم»³ .
 فالتأويل تحتمه ضرورة شرعية حسب الإسماعيلية الباطنية توجب وجوده واستعماله ألا وهي
 الأسرار الخفية و الأحكام الباطنة المستورة التي تحتويها النصوص المتزلة من الله عبر أنبيائه
 ومرسله، والتي ينبغي الكشف عنها حتى يتضح المقصود من هذا التزليل.
 يرد تأكيد هذا الموقف على لسان " أبو يعقوب السجستاني" أحد أعلام الشيعة البارزين إذ
 يقول « قد اتفق جميع العلماء على أن الله سبحانه وتعالى أنزل فرائضه في الشرائع مجملة وغير
 مفسرة ومقسمة ففسرها وقسمها الرسول ﷺ ظاهريا ، ووضع كل شيء منها في موضعه ثم
 عهد بتقسيمها وتفصيلها باطنا إلى صامت يعرض عليه من التأليف ما يكون له القوة الفاعلية ولا
 يكمل الدور إلا باثنين صامت وناطق»⁴ .

1 - سورة الحديد آية 13

2 - محب الدين الخطيب ، الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامية الإثني عشرية ، ص 09

3 - إخوان الصفاء، رسائل إخوان الصفاء ، ج 4 ، ص 552

4 - أبو يعقوب السجستاني ، إثبات النبوات ، ص 192

فإن الله تعالى أنزل الوحي على النبي ليكون مبلغه للناس فهو ناطق بالشرعية أما القائم بتأويل
الشرعية فهو الإمام الصامت لا الناطق . إذ يرى "السجستاني" أنه « لما كان الناطق يأتي لنسخ شريعة
ما قبله بإظهار شريعة جديدة كذلك يكون الصامت فيأتي لنسخ التأويل الذي قبله »¹ . فدلّ
قوله على ارتباط تأويل النصوص بالإمام باعتباره خص به وحكر عليه.
ونود أن نورد تعريفاً آخر للتأويل الباطني استفدناه من "الكرماني" وهو من أعلام الشيعة
لنقف على بعض مدلولاته وخصائصه عند هذه الفرق ولفهم أساليبها في التلاعب بظواهر الآيات
لبلوغ بواطنها. فبالنسبة "للكرماني" يعتبر التأويل « العبادة الباطنة »² أما في المجال الديني فإن
الكرماني يجعل التأويل مقابلاً للتزويل . أي « أن التأويل هو المعنى الباطن للتزويل . إن هذه الازدواجية:
تأويل تزويل هي نفسها الظاهر والباطن وهي أيضاً الشرعية والحقيقة وهي العلم والعمل والمثل
والمثول »³ .

و في موضع آخر يعرف "الكرماني" التأويل بشكل يجعله دالاً على بلوغ منتهى الحقيقة
ودرجة الكمال فبالمنهج التأويل يرد كل شيء إلى حقيقته و أصله فيكون التأويل « هو معرفة ما
يؤدي إلى توحيد الله وحدود دينه و الإحاطة بمنزلة علمهم ومراتبهم علماً وإعطائهم حقهم كما أمر الله
تعالى وهي تعطي النفس شرف النفس للكمال وتلحقها بذوي النهي والجلال والبهاء فلفظ تأويل من
خلال هذا التعريف ينصرف إلى فكرة الانبعاث الذي يفيد الرجوع إلى الأصل »⁴ و لا ينال شرف
تأويل ظواهر الشريعة والظواهر الجلية إلا أئمة الشيعة الطاهرين.
وحسب هذا التعريف يعتبر التأويل أداة فعالة في الكشف عن الحقيقة الكامنة وراء الظاهر ومن
خلاله تبلغ الكمال وهذا الكمال مقصور على إدراك الباطن لا الظاهر من الأحكام عليه «يظهر أن
التأويل * الديوديسيماي مسكون بانشغالات تعديل النظام ما بين الوجه الظاهر للآيات القرآنية و
المعنى المخفي المستخرج من الإمام »⁵ .

1 - أبو يعقوب السجستاني ، إثبات النبوات ، ص 191

2 - عبد الجليل بن عبد الكريم سالم ، التأويل عند الغزالي ، المطبعة العصرية ، تونس ، ط 1 ، 2000 ، ص 36

3 - المرجع نفسه ص 37

4 - المرجع نفسه ص 36

* ديوديسيماية: أو الإماميون ، فهم من فرق الشيعة ، يجهرون بالأمر الموالي : كان هناك اثنتا عشر إمام علي الحسن
الحسين و تسعة أئمة آخرون من سلالتهم و الثاني عشر هو محمد الذي اختفي بطريقة غامضة في آخر القرن
التاسع و لا بد أن يظهر في شخص المهدي كي يؤسس العصر الذهبي . .نقلا عن L'orient :

-Lannois Philippe désorienté. P 41

⁵ Mohammed -Ali Amir - Moezzi. Qu'est que le Shiisme p145

و الحقيقة تكمن في الباطن أي في التأويلات التي قام بها الإمام ليكشف من خلالها عن رموز و أسرار النصوص المقدسة « إن كان المعنى المخفي للآيات يحطم المعنى الظاهر ، إن كانت الحقيقة تبطل الشريعة أو دين العبادة ، يتبع عنه أن الدين الداخلي أصبح ديناً خارجياً و تمرينا لسلطة مؤقتة فتعكس الحقيقة إلى شريعة جديدة و حكمية »¹.

ثانياً : التأويل حكر على الإمام

لطالما ارتبط التأويل عند الإسماعيلية الباطنية بإيضاح النصوص الشرعية من قبل الأئمة ففهم المعلمون والمؤولون وكذا المفسرون لهذه النصوص لأتباعهم و مؤيديهم. وهذا يجعلنا نحيط بحقيقة هامة لدى الباطنية تتعلق بكون التأويل ليس متاحاً و ممكناً للجميع بل هو حكر على فئة خاصة من الناس ألا وهي فئة الأئمة « فقد ذهب الإسماعيلية إلى أن لكل شيء ظاهر محسوس تأويلاً باطنياً، لا يعرفه إلا الراسخون في العلم وهم الأئمة يودعون هذا العلم الباطني لكبار الدعاة بقدر مخصوص »².

وهذا التأويل حكر على الأئمة ففهم الراسخون في الدين والعارفون بأسراره و خاصة القائم ، و قد جاء في شجرة اليقين لعبدان قرمط « وأما القائم - سلام الله عليه - فهو صاحب التأويل الذي يجمع به جميع شرائع النطقاء وأعمالهم وهو صاحب يوم الكشف الذي ذكره الله تعالى في كتابه ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ﴾³ »⁴

و لم يكتف الإسماعيلية بهذا القدر في التأكيد على أهمية التأويل بل « قالوا بأن التأويل الباطن من عند الله خص به علي بن أبي طالب فكما أن رسوله الله خص بالترتيل فكذلك علي ابن أبي طالب خص بالتأويل »⁵ لكن يضيف "محمد كامل حسين" أحد أهم المولعين بالفكر الإسماعيلي الباطني وله في ذلك عدة مؤلفات أن « التأويل خص به علي ابن أبي طالب والأئمة من نسله »⁶ يؤكد ذلك ما يروى عن التأويلات الباطنية المحفوظة منذ عهد الأئمة الأوائل في كتب مستورة لا يطلع عليها إلا أقرب المقربين للإمام من دعائه المخلصين .

1 - Mohammed –Ali Amir - Moezzi. Qu'est que le Shiisme p145

2- محمد جلال شرف ، دراسات في النصوص الإسلامية ، ص 360

3- سورة الأعراف أية 53

4- عبدان قرمط ، شجرة اليقين ، ص 12

5- محمد جلال شرف ، المرجع نفسه ، ص 360

6- محمد كامل حسين ، طائفة الإسماعيلية ، ص 163

فإذا كانت الإمامة متوارثة في نسل "علي" فإن التأويلات أيضا متوارثة فيهم يتناقلونها فيما بينهم لذا تقول الشيعة الباطنية « بوجوب التأويل الباطن وضرورته واستدلوا بقصه موسى و الخضر، وقد أورث علي بن أبي طالب التأويل الباطن الأئمة من أعقابه بأمر من الله »¹.

ثالثا : أسباب اعتماد الباطنية للتأويل

و يمكن إدراك أسباب اعتماد الباطنية للتأويل بالنظر إلى المراحل التي مرّت بها في تطورها متنقلة بين الستر والظهور إذ بدأ التأويل الباطني يتخذ منحى خاص حين دخل في دور الستر مع الأئمة المستورين ثم تطور بعد دور الستر، فكان الفكر الإسماعيلي في دوره الأول أي الدور الباطني المخيف يعتمد على التأويلات الخفية للظواهر الجلية خوفا من افتضاح أمرهم أمام أعدائهم الأمويين و من بعدهم العباسيين و يشهد التاريخ الإسلامي على ذلك الأذى العظيم المحزن الذي ألمّ بآل البيت و بشيعتهم جراء سعيهم وراء الخلافة لذا عمدوا إلى التأويل الباطني والتقية والستر لنشر أفكارهم في البداية.

و هذا ما يذكره عنهم كثير من الباحثين المهتمين بدراسة تاريخهم مثل الأستاذ "علي سامي النشار" في كتابه " نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام" الذي أبرز فيه بوضوح اعتمادهم الدائم على المنهج التأويلي فيقول « لقد استند المذهب (الباطني) في دور الستر- كما استند في دور الظهور- على التأويل الباطني للقرآن وأعلنت الإسماعيلية أن للقرآن ظاهرا وباطنا و أن الأخذ بالظاهر فقط دون الباطني خروج على روح الإسلام وبهذا استطاعوا تفسير القرآن وتأويله طبقا لما يريدون... »².

فباشروا بتأويل العبادات والأركان الإسلامية مستخدمين براعتهم في العلوم خاصة الحساب و الفلك والسحر و التنجيم. و رأت الإسماعيلية « أن الفرائض والسنن التي أتى بها محمد ﷺ لها ظاهر وباطن وأن جميع ما إستعبد الله به العباد في الظاهر من الكتاب والسنة هي أمثال مضروبة وتحتها معان هي بطونها » ولن نبلغ هذه المعاني الباطنة إلا بتأويل تلك الأمثال وفهم معانيها الخفية ذلك « أن هذه البطون هي التي عليها العمل وفيها النجاة و أما الظواهر ففي استعمالها الهلاك و الشقاء و هي جزء من العقاب الأدني عذب اله به قوما إذا لم يعرفوا الحق ولم يقولوا به »³ فالناجي من عمل بالتأويل و الهالك من وقف عند الظاهر.

1- محمد جلال شرف ، دراسات في التصوف الإسلامي ، ص 361

2- علي سامي النشار، نشأة الفكرة الفلسفي في الإسلام ، ص 406

3- المرجع نفسه ص 389

و طبقت الإسماعيلية الباطنية تأويلاتها في نشر عقيدتها مقنعة كل من استجاب لدعوتها أن الشريعة دنست و حرفت و وحده الإمام القادر على فهم المراد منها و تأويل ظواهر الآيات بل قام دعاؤها « يجبرون من يدعونه أن جميع ما عليه الناس أمثال مضروبة لمثولات محجوبة »¹ ونفهم من ذلك أنهم أي الإسماعيلية الباطنية قد أغرقوا في التأويل إلى درجة ساد فيها الاعتقاد بأن لكل ظاهر باطن وهذا الباطن لا يدرك إلا بالتأويل مستشهدين بقوله تعالى ﴿ وَذُرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾² وأيضا قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ﴾³.

رابعاً : مراتب و درجات التأويل الباطني

إن للتأويل مكانة هامة في الفكر الإسماعيلي الباطني إذ يقرنه الشيعة الباطنية بمسألة الإمامة و يستخدمونه كوسيلة للدفاع عن أحقية البيت العلوي في الخلافة دون غيرهم و لهم في هذا المنهج مآرب آخر لا يحيط بها إلا شيعتهم وأنصارهم. لذا راع الإسماعيلية الباطنية في تأويلاتهم الحرص على مخاطبة الناس بما يفهمون و تدرجوا في ذلك و حرصوا على كتمان أسرارهم فلا يجاهرون إلا بما يسمح لهم من بلوغ أهدافهم المنظمة والمخطط لها بدهاء شديد. فكان للتأويل الباطني مراحل و مراتب و درجات « باعتبار أن المعرفة تنطوي على مراحل ثلاث: الظاهر والباطن ، و باطن الباطن، أو تتريل ، و تأويل ، و حقيقة »⁴.

و لم يكن هذا التقسيم للتأويل عبثاً بل راع فيه الباطنية درجات المعرفة، ومراحلها ودلل على هذا التقسيم السابق لمراتب و درجات التأويل بأدلة شرعية منها الحديث النبوي « طوبى لمن رآني، أو رأى من رآني، أو رأى من رأى من رآني »⁵. و هذا الحديث فسر من قبل الشيعة الباطنية تفسيراً يتلاءم مع طبيعة مذهبها أظهروا من خلاله درجات و مراتب للتأويل فهو يحمل « إشارة إلى هذه الدرجات الثلاث : الظاهر والباطن و باطن الباطن »⁶.

1- المرجع السابق ، ص 433

2- سورة الأنعام آية 120

3- سورة الأعراف آية 33

4- عبد الجليل بن عبد الكريم سالم ، التأويل عند الغزالي ، ص 40

5 - حديث حسن

6- عبد الجليل بن عبد الكريم سالم ، المرجع نفسه ص 41

لم تكتف فرقة الباطنية بتحديد مراتب التأويل و درجاته على هذا المنوال بل ذكرت وسائل وأدوات لحصول المعرفة في كل مرتبة إذ « لا تحصل هذه المعارف ولا تتحقق إلا بأدوات مترتبة ومندرجة وهي ثلاث فالظاهر يحصل بالسمع، والباطن هو المعرفة الفكرية الواقعة ، بين الظاهر والحقيقة ويحصل بالبصر النافذ إلى الأشياء والحقيقة تحصل بالقلب»¹.

خامسا : تعارض و اختلاف التأويلات باختلاف الأئمة و دعواتهم

فالتأويل من عند الإمام و هو يوكل دعواته بنشر تأويلاته وتفسيراته لشيعته و للناس حتى ساد اعتقاد بأن التأويل من خصائص حجة الإمام أو دعواته لكون الأتباع لم يروا إمامهم بل سمعوا عنه و بلغتهم تأويلاتهم من دعواته عبر الجزائر المتعددة .

لذلك كان كبار الدعاة مختلفين في هذه التأويلات لأسباب منها ما ذكره الدكتور "محمد كامل حسين" حيث قال « اختلف التأويل الباطني عندهم باختلاف شخصية الداعي الذي إليه التأويل، و باختلاف مواطن الداعي وزمن وجوده »².

وعن هذا الاختلاف في تأويل الباطنية للنصوص الشرعية من قبل دعواته و أئمتها لا يجعلنا نتصور تناقضها بقدر ما يدل على ثرائها يظهر ذلك بوضوح في آراء "الكرماني" الذي يفسر سبب تعارض بعض التأويلات واختلافها إن « التأويل الباطني حسب الكرماني يكون بحسب ما يستمعن المتمعن الكلمة أو يتمثل تصريحها على وجه واحد كان أو على وجوه »³.

يضيف "الكرماني" ان الدعاة قد يقدمون عدة تأويلات مختلفة للنص الواحد بل « يمكن أن يختلف الدعاة في تأويل كلمة واحدة ». مما يؤكد على أن المرجع الوحيد في التأويل عند الباطنية هو الإمام الشيعي المعصوم الذي نشر دعواته في أقطاب الأرض للدعوة له و إظهار تأويلاته الباطنية للشريعة لكل أتباعه و الموالين له .

- وقد يحدث أن تعارض التأويلات ، فهل هذا التعارض و الاختلاف يدل على بطلانها ؟
الإجابة في هذه الحالة هي لا « فقد يكون تأويلان متعارضان ومع ذلك فهما صحيحان »⁴ فالمعنى الباطن مرهون بما أدركه كل داع من ذلك الظاهر ومرتبطة أيضا بالفئة التي يقدم لها التأويل . إذ يراعي الإمام أو الداعي طبيعة من يؤول لهم إن كانوا من العوام أو

1- عبد الجليل بن عبد الكريم سالم ، التأويل عند الغزالي ، 42

2 - المرجع نفسه ص 164

3 - المرجع نفسه ص 38

4 - المرجع نفسه ص 40

العلماء أو من ديانات مختلفة . فكان لابد على الداعي أن يخاطب كلا بما يفهم، و هذا من أهم أسباب الاختلاف والتعارض في التأويل بين الدعاة.

لذلك اختص بالتأويل الباطني فئة محددة من هذه الفرقة يسمون بأصحاب التأويل يذكرهم "إخوان الصفاء" في رسائلهم ويضعونهم في المرتبة الثامنة في تقسيمهم للطبقات إذ يقولون عنهم « والصنف الثامن هم علماء تأويل (أي الناموس) تزيله والراسخون في العلوم الإلهية والمعارف الربانية العارفون خفيات أسرار الناموس، الذين هم الأئمة المهديون والخلفاء الراشدون الذين يقضون بالعقل و به يحكمون»¹.

لطالما ارتبط التأويل الباطني بالإمام المخلص الكاشف عن أسرار النصوص الإلهية، مؤول الرموز مفسر القرآن وهذه الترجمة الرمزية « ليست مجرد تقنية لحل رموز الكتابة ستترك مستعملها سليم و حيادي على العكس، يتعلق الأمر للشيعي المخلص فهم المعنى المخفي للقرآن للخلق من أجل تعديل ذاته و الاهتمام و تصفية وجوده بهدف الموافقة على النموذج المثالي للإمام » . و عليه نلاحظ أن هذه « الترجمة الرمزية تنشط باطن الشيعة التي لا تفارق فكرة الرجل المثالي رجل الإله الذي تظهر عليه جميع الصفات الربانية »².

المطلب الثالث : الاستدلال بالأعداد و الحروف و النظام الكوني في تأويل الظواهر الجلية لتدعيم عقيدة الإمامة

لم يكتف الإسماعيلية من الباطنية التعليمية بتأويل أركان الشريعة بل استدلوها على تأويلاتهم بالأعداد والحروف بل أكثر من ذلك جعلوا من الأعداد والحروف ما هو مقدس أو خاص بهم و رمزوا للأئمة بمفردات اصطلاحوها و اتفقوا عليها .

أولاً : الاستدلال بالأعداد

سخر الباطنية الأعداد لتفيد معان باطنية لا تؤخذ إلا عن الإمام إذ « ترى الإسماعيلية الباطنية أن معرفة أسرار الأعداد وما ترمز إليه من شريعة أصبحت علماً تعليمياً أي يؤخذ من الإمام »³. وبهذا تسنى لهم التلاعب بالحروف و الأعداد واحتكارها لخدمة مذهبهم. ومن الأعداد المعروفة بها الإسماعيلية الباطنية نجد السبعة و الإثنا عشر اللذان يمثلان الكثير في الفكر الشيعي ففي العدد سبعة الذي أحاطوه بهالة من التقديس « قالوا إن الثقب على

1- إخوان الصفاء، رسائل إخوان الصفاء ، ج1، ص 440، 441

2) Mohammed –Ali Amir- Moezzi .Qu'est que le Shiisme.p140

3 - علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص 421

رأس الآدمي سبعة و السماوات سبعة والأرضون سبع و النجوم سبعة أعني السيارة
و أيام الأسبوع سبعة وهذا يدل على أن دور الأئمة يتم بسبعة»¹.

و يسوق "الشهرستاني" في "الملل والنحل" حديثا عن العدد سبعة وعلاقة بترتيب الأئمة
الإسماعيليين يقول فيه « إنهم قالوا إنما الأئمة تدور أحكامهم على سبعة كأيام الأسبوع والسماوات
السبع و الكواكب السبعة »². و لعلى اهتمام الإسماعيلية بالعدد سبعة في مذهبها هو سر
تلقبها بالسبعية فالمعروف عن السبعية أنها تقول بفكرة الساعات و الأدوار السبع ..
إذ جعلت المرسلين والأئمة سبعة كذلك « أولوا العزم عند هذه الطائفة سبعة: نوح وإبراهيم
وموسى وعيسى ومحمد ﷺ و علي- عليه السلام - و محمد بن إسماعيل وحتى فترات وأدوار
النبوّة »³. فكان بذلك العدد سبعة من الأعداد الشيعية الإسماعيلية المقدسة اتخذته « رمزا إلى
الساعات التي تتحكم في العقيدة »⁴.

و الإمامة عند الإسماعيلية ارتبطت بهذا العدد بمعنى « أن هناك سبعة فترات من فترات الأنبياء
والمرسلين وكل واحد من هؤلاء السبعة أعقبه سبعة من الأئمة » فإضافة إلى اعتقادهم أن السماوات
والأرضين سبع يقولون « بأن الإنسان سبع: بدنه ويده ورجلاه وظهره وبطنه وقلبه، وأن رأسه
سبع: عينان، وأذنان ومنخران وفمه وفيه لسانه كفمه و فيه قلبه و الأئمة كذلك وقلبهم
محمد بن إسماعيل »⁵.

و اعتبار العدد سبعة من الأعداد الشيعية المقدسة راجع إلى اقتران ذلك بظواهر كثيرة منها
« إن بدن الإنسان مركب على سبع مراتب هي اليد اليمنى واليد اليسرى والظهر والبطن والرجل
اليمنى والرجل اليسرى ثم الرأس سيدهم وذلك مقابل الأقاليم السبعة وعلى اثني عشر قطعة وهي
الرأس والعنق واليدان والظهر والبطن والفخذان والساقان والقدمان مقابل الجزائر الإثني عشر فمما
يلي الظهر خراب ومما يلي البطن عمران كذلك الدنيا نصفها خراب ونصفها عمران ثم إن في جسد
الإنسان اثني عشرة مخرجا هم : العينين والأذنين والمنخرين والفم والثديين والسييلان و الصرة
مقابل البروج الإثني عشر »⁶.

1 - أبو حامد الغزالي، فضائح الباطنية، ص 66، 67

2 - أبو الفتح الشهرستاني، الملل والنحل، ج1، ص 197

3 - كامل مصطفي الشيبلي، الصلة بين التصوف والتشيع، ص 197

4 - المرجع نفسه ص 200

5 - المرجع نفسه ص 197

6 - عبدان قرمط، شجرة اليقين، ص 66

ما سبق يتضح أن العدد سبعة لم يكن هو وحده المقدس لدى الشيعة الإسماعيلية من الباطنية بل كانت هناك أرقام أُخرُ صنفوا وفقها عدد الدعاة والحجج. و أبرزها بعد السبعة العدد اثنا عشرة و علي أساسه « زعموا أن البروج اثنا عشر، فتدل على الحجج الإثني عشرة »¹ كما تلقب فرقة الإثني عشرية بما اللقب تيمنا بالإمام الثاني عشرة المنتظر.

وينقل "الديلمي" عن الباطنية تقسيمهم لبعض الآيات و الصور بشكل عددي يتماشى وأعداد الأئمة مثل فعلهم بالشهادتين إذ أولوها تأويلات باطنية راعوا فيها ظهور العدد سبعة واثنا عشرة فهم « يقولون تتكون الشهادة من سبعة فصول: (لا إله إلا اله) دليل على الأئمة السبعة وهي اثنا عشر حرفا دليل على الحجج الإثني عشرة »².

وبذلك احتل الرقم اثنا عشرة مكانه هامة في الفكر الإسماعيلي ، كما كانت له أهمية عند الإثني عشرية وهي فرقة أخرى من فرق الشيعة تنسب إلى موسى الكاظم ابن جعفر الصادق وجعلت « الدنيا اثنا عشرة جزيرة في كل جزيرة حجه وأن الحجج اثنا عشر، ولكل حجة داعية، ولكل داعية يد، واليد هو رجل له دلائل وبراهين يقيمها »³.

لقد أكد الباحثون من خلال مقارنات لهم بين الفكر الإسلامي واليوناني خاصة وجود تأثيرات عديدة على المستوى الفكري الثقافي والحضاري فقد لعب المسلمون دورا بارزا في ترجمة الفكر الفلسفي اليوناني والاقتباس منه ومحاكاة كثير من نماذجه. ويكاد يجمع أغلب الدارسين للفكر الشيعي خاصة مع الفارابي والكندي والشيرازي .. تأثر الفكر الشيعي بنظريات كبار فلاسفة اليونان كالقول بنظرية الفيض والعقول وعالم المعقولات والمعرفة الباطنية وتأثيرات الأفلاك..

وكان تأثر الباطنية بفلسفتهم في الأعداد كبيرا، وهذا ما أثبتته الأستاذ مصطفى كامل الشيبني حين استشهد برأي " لبراون " في كتابه الصلة بين التصوف والتشيع بقوله « مذهبهم في جملته فلسفي باطني قد استمد كثيرا من أسسه من المذاهب الإيرانية والسامية القديمة، كما تطرقت إليه بعض تعاليم الأفلاطونية الحديثة والفيثاغورتي الحديثة وهو مبني في كل تفاصيله على العدد الخفي سبعة »⁴.

1 - أبو حامد الغزالي، فضائح الباطنية ، ص 67

2 - محمد بن الحسن الديلمي ، المرجع السابق ، ص 43

3 - علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص 388

4 - كامل مصطفى الشيبني ، الصلة بين التصوف والشيع ، ص 201

هذا التصور كونه عنهم أغلب الباحثين المتبعين لتطور مذهبهم و سيرتهم ، ومنهم الدكتور "محمد كامل حسين" في دراسته لطائفة الإسماعيلية حيث يرى تأثراً جلياً لهذه الفرقة بفلسفة الأعداد الفيثاغورية « والحقيقة أن الإسماعيلية اخذوا ما قاله الفلاسفة الفيثاغوريون القدماء الذين جعلوا كل الأعداد أصولاً لعقيدتهم وصبغوا آراء الفيثاغوريين بالصبغة الإسلامية على حسب العقيدة الإسماعيلية ومن ثمة ظهرت عندهم عقائدهم في الأعداد ما يقابلها من أصول دينية دون أن يقفوا على عدد بعينه».

ومن استعمالهم للأعداد ما جاء في تأويلهم « فالواحد هو العقل الكلي أو القلم ، والاثنان هما العقل الكلي والنفس الكلية أي القلم والروح، والثلاثة هم محمد وعلي وفاطمة والخمسة هم القلم واللوح و ميكائيل وإسرافيل وجبريل وهم محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين وهم الإمام والحجة والداعي والمأذون والمكاسر»¹ ورغم تأثرهم بالأفلاطونية المحدثة في فلسفة الفيض إلا أن فلسفتهم في الأعداد هي تحت تأثير الفيثاغورية .

ثانياً : الاستدلال بالحروف

كما سقت الإشارة من قبل تطرق الباطنية إلى الاستدلال بالحروف والرموز في مذهبهم إذ نجدهم قد وظفوا الحروف ورمزوا إلى مرموزات غريبة لخدمة عقيدتهم ، ويرجع حجة الإسلام الغزالي عملهم هذا في الحروف إلى استدلالهم بحديث النبي « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها » قيل وماحقها؟ قال ﷺ : معرفه حدودها، وزعموا أن حدودها معرفة أسرار حروفها»².

و من أمثلة تأويلاتهم للحروف قولهم « أن الآدمي على شكل حروف "محمد" فإن رأسه مثل ميم و يده ميسوطتان كالحاء وعجزه كالميم و رجلاه كالذال »³ هكذا كان دأبهم في تأويل حروف الآيات والسور وحتى الشهاداتتين .

* تأويل حروف الشهادة

يذكر " الغزالي" في فضائح الباطنية كيفية تأويلهم للشهادة ، حيث قالوا « لا إله إلا الله » أربعة كلمات وسبعة فصول وهي قطع « لا إله إلا الله » (لا) حرف (و) (إله إلا الله) ثلاثة جواهر، والجملة اثنا عشر حرفاً.

1 - محمد كامل حسين ، طائفة الإسماعيلية ، ص 174

2 - أبو حامد الغزالي، فضائح الباطنية ، ص 68

3 - المصدر نفسه ص 67

وزعم الباطنية أن الكلمات الأربعة دلالة على المدبرين العلويين « السابق والتالي "والمدبرين السلفيين « الناطق والأساس »¹ ومن المفكرين من اعتبر تأويلهم للشهادة هذا مبعثا على الكفر والإلحاد وتلاعبا بالشريعة كما ورد على لسان "الديلمي" « لقد تأولوا الشهادة على وجه يشهد بأن غرضهم الإلحاد والكفر برب العباد ».

ويضيف "الديلمي" مستدلا على مصدر هذه التأويلات الباطنية للشهادتين أن « منها ما ذكره صاحب كتاب تأويل الشريعة الملقب بالمعز لدين الله أي المذل - قال: (لا إله إلا الله) مركبة من ثلاثة أحرف الآم و الألف والهاء لا يدل عليها نقطة و لا يشير إليها علامة فهي تدل بنفسها على نفسها »².

كما يرد هذا التقسيم للشهادتين بحسب ما نقله عنهم الدارسون كما يلي « والشهادتان قسمان نفي وإثبات (لا إله نفي)، (إلا الله إثبات)، وأربعة أقسام بعدها (لا) (إله) (إلا) (الله) وسبعة أقسام بعدها (لا) (له) (إله) (لا) (أ) (الله) واثنان عشر بعدها (ل إ ل ه ل ل ل ه) « قد سبق و قلنا أن اعتماد الباطنية للتأويل كان لخدمة مذهبها و تدعيم تصورهما للإمامة وها هو الديلمي يوضح ذلك الاقتران بين التأويل و الإمامة و « لا إله إلا الله » جملة تعني « لا إمام إلا إمام العصر »³.

ثالثا : اعتماد النظام الكوني ودوراته في التأويل لتحديد أحوار الإمامة

ومراتب الخدمة

برع الإسماعيلية الباطنية في علم الفلك والسحر والتنجيم، و اهتموا بذلك كثيرا. و ذلك ما يظهر في رسائل إخوان الصفا و هم من الإسماعيلية ، إذ كانت رسائلهم بمثابة موسوعة علمية و معرفية، فيها من المعارف الكثير حل حركة الكواكب و تأثيراتها .. و الملاحظ أيضا أن الإسماعيلية راعت في تقسيمها للأئمة و الدعاة و الحجج و الأتباع ، ذلك النظام الكوني و الفلكي. و كان نظام الدعاية عندهم هو نفس نظام دورة الفلك « فقد جعلوا العالم الذي كان معروفا في عصرهم مثل السنة الزمنية ، فالسنة الزمنية مقسمة إلى اثني عشرة شهرا ، و إذن فيجب أن يقسم العالم إلى اثني عشر قسما ، و سمو كل قسم جزيرة »⁴.

1- أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 68

2 - محمد بن الحسن الديلمي ، مرجع سابق، ص 40

3 - المرجع نفسه ص 41

4 - محمد جلال شرف، دراسات في التصوف الإسلامي ص 359

و كان من أشهر هذه الجزر كما عرضت في تقسيم الشيعة الإسماعيلية « جزيرة مصر و تشمل بلاد الشام و مصر و المغرب و جزيرة العراق و بلوخرستان و جزيرة فارس و كرمان من إيران » و ما تزال بعض من تلك المناطق مراكزا لتواجد الشيعة و نشاطها. و استندوا إلى الحساب الزمني السائد في الكون و ما يجري من تعاقب الليل و النهار و الفصول و الأشهر في تقسيم دعواتهم و طبقاتهم مثلا « الشهر ثلاثون يوما و لذلك كان لكل داعي جزيرة ثلاثون داعيا نقيبا لمساعدته في نشر دعوته [...] و اليوم مقسم إلى أربع و عشرون ساعة اثنتي عشرة ساعة بالليل و اثنتي عشر ساعة بالنهار فجعل الإسماعيلية لكل " داع نقيب " أربع و عشرون داعيا منهم اثنا عشرة ظاهرا بظهور الشمس بالنهار. و كانوا يعرفون بالمكاسرين أو المكالين ، و اثنا عشرة داعيا محجوب مستترا استتار الشمس بالليل »¹.

و لم يكنف الباطنية بهذا بل أنكروا الفناء و المعاد « و قد اتفقوا عن آخرهم على إنكار القيامة [...] و أولوا القيامة و قالوا إنها رمز إلى خروج الإمام و قيام قائم الزمان » و هو السابع الناسخ للشيعة. كما قال هؤلاء في نظام الفلك « إن للفلك أدوار كلية تتبدل أحوال العالم تبديلا كلييا بطوفان عام أو سبب من الأسباب بمعنى القيامة انقضاء دورنا الذي نحن فيه ».

و منهم من أول الميعاد إلى ما يخالف حقيقته فأصبح « معنى المعاد عود كل شيء إلى أصله، و الإنسان متركب من العالم الروحاني و الجسماني أما الجسماني منه و هو جسده فمتركب من الأخلط الأربعة الصفراء و السوداء و البلغم و الدم فينحل الجسد و يعود كل خلط إلى الطبيعة العالية »² و بهذا خاض الشيعة الباطنية في أمور غيبية روحانية مزجوها بوجود الإنسان و ما عليه حاله و جسمه و أمرجته..

و يلجأ "الغزالي" إلى وصف العالم الروحاني الذي تبلغ فيه النفس كمالها بحسب ما تراه الشيعة فيقول عنه « أما الروحاني و هو النفس المدركة العاقلة من الإنسان فإنها إذا صفت بالمواظبة على العبادات و زكيت بمجانبة الهوى و الشهوات و عذبت بعذاب العلوم و المعارف المتلقاة من الأئمة الهداة، اتحدت عند مفارقة الجسم بالعالم الروحاني الذي منه انفصالها و تسعد بالعود إلى وطنها الأصلي و لذلك سمي رجوعا فقيلا ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً﴾³.

1- محمد جلال شرف، دراسات في التصوف الإسلامي ، ص 359، 360

2- أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 44

3- سورة الفجر آية 28

و عن النفوس العاصية يقول « فأما النفوس المنكوسة المغمورة في عالم الطبيعة المعرضة عن رشدها من الأئمة المعصومين فإنها تبقى أبدا الدهر في النار، على معنى أنها تبقى في العالم الجسماني تناسخها الأبدان فلا تزال تتعرض للألم و الأسقام فلا تفارق جسدا إلا ويتلقاها آخر و لذلك قال الله تعالى ﴿ كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلِّئَانِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾¹ »².

والملاحظ لتلك الأفكار و التصورات الشيعية الباطنية سيدرك مدى تأثر أتباعها و مفكرها بما ساد لدى الفلاسفة اليونانيين من تقسيم للعقول و تحديد لمراتب النفس « فالإمام الإسماعيلي إذن هو ممثل العقل الكلي فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد»³.

ومن اعتقاداتهم أيضا في النفس الكلية وزعمهم بانثاق سبعة عقول قائمة بالفعل عنه و قال الباطنية بالأدوار السبعة للكون و أسقطوا ذلك على تقسيمهم للأئمة و الدعاة فهم يزعمون أن هذا العالم له دورات متعاقبة تقوم على مبدأ الرقم سبعة و كل دور له نطقاء أو أنبياء سبعة و أسس أو أوصياء سبعة و أئمة سبعة .

فإذا انتهى أو تم دور العقل السابع و الأخير أتى من بعده دور جديد متمثل بناطق أو نبي جديد يدعو إلى شريعة جديدة ، ينسخ بها شريعة النبي الذي كان قبله لهذا كان الشيعة الباطنية الإسماعيلية « يزعمون أن محمد بن إسماعيل مؤسس فرقته هو الناطق الجديد الذي افتتح دورا جديدا في دورات هذا العالم هو دور القيامة بعد أن انتهى الدور السابق و الذي بدأ به محمد ﷺ و أساسه علي بن أبي طالب و تم به إسماعيل بن جعفر و سينتهي الدور الجدي د بظهور قائم القيامة »⁴ . كما رتبوا الدعاة على أساس مراتب العقول و ربطوها بحركة الأفلاك والكواكب و ما يطرأ على الكون من تغيرات.

المطلب الرابع : التأويل الباطني لأركان الإسلام و للعبادات

إذا كانت الإسماعيلية الباطنية قد اعتمدت لنشر دعوتها و تثبيت دعائم عقيدتها ذلك المنهج التأويلي الباطني للشريعة و للقرآن الكريم ، بهدف دعم مسألة الإمامة التي تمحور حولها الفكر الشيعي ككل خاصة الفكر الشيعي الإسماعيلي الباطني على وجه الخصوص . فإنها قد عممت هذا المنهج في مختلف مجالات نشاطها، حتى أنها قامت بتأويل العبادات و أركان الإسلام لخدمة

1 - سورة النساء أية 56

2 - أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 45 ، 46

3 - محمد أحمد الخطيب ، الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ، ص 88

4 - المرجع نفسه ص 92

مصالحها ، مستندة إلى تعاليم الأئمة متخذة منهم ذريعة تشرع و تسن بها مبادئ و تعاليم كان لها شأن عظيم في تطوير و استمرار هذه الحركة .

و ظل نظرية التأويل التي اعتمدها الحركة الباطنية الإسماعيلية انخرفت معاني العبادات و رمز للأركان الإسلامية بمرموزات غير معانيها و غاياتها و أحلت محلها أخرى من تأويل و وضع أئمة الحركة و دعواتها.

هذا ما يشير إليه كل من "حنا الفاخوري و خليل الجر" في كتاب "تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام" بقولهما « إن أركان الشريعة السبعة قد أخذت معاني معينة ، فالشهادة معناها الاعتراف بالله ، والطهارة معناها التحرر من الطقوس الدينية القديمة ، والصلاة معناها التبشير بمعرفة الله و الصيام معناه الانقطاع عن أهل الكفر بالتقية ، والزكاة معناه أن يقتسم الإنسان مع غيره ما أنعم الله عليه به ، و الحج معناه أن يعرض الإنسان عن الإقامة الزائلة و سعي إلى إقامة لا تزول ، و الجهاد معناه أن يفني الإنسان نفسه في ذاته الله»¹.

و "للبيهقي" في كتابه "أصول الدين" تعليق آخر على تأويلات الباطنيين للعبادات ولأركان الشريعة « إذ قالوا في تأويل الصلاة أنها الثناء على الإمام والزكاة دفع الخمس إليه والصوم الإمساك عن إفشاء أسرارهم عند مخالفيهم والزنا إفشاء أسرارهم بغير عهد»².

كما يضيف "البغدادي" إيضاحاً عن تأويلهم للعبادات يظهر من خلاله تماديهم في ذلك حتى أنهم « أسقطوا العبادات (والحدود) و أباحوا الخمر ونكاح ذوات المحارم و هذا هو التمجس بعينه ». و وصفوا أنفسهم بأهل الحق لاعتقادهم بأنهم أهل الباطن و التأويل أما أهل الظاهر وهم مخالفيهم فاعتبروهم من الشياطين إذ « تأولوا الشياطين على مخالفيهم وزعموا أن علماء مخالفيهم هم الأبالسة »³.

هكذا تأول الباطنية لكل ركن من أركان الشريعة معنى يخرجها عن حقيقته يخدم به أغراض هذه العقيدة الإسماعيلية الباطنية في الإمامة لما شاع بينهم الاعتقاد بأن لكل عبادة أو ركن من أركان الإسلام جانباً ظاهراً جلياً وآخر باطنياً خفياً و « زعموا أن من عرف معنى العبادة سقط عنه فرضها»⁴.

1- حنا الفاخوري، خليل الجر، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص220

2- عبد القاهر البغدادي ، أصول الدين ، ص330

3 - المرجع نفسه ص330

4 - على سامي النشار ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص463

فعمدوا إلى تأويل هذه العبادات تأويلا يتماشى مع عقيدتهم ومذهبهم خاصة أن هذه التأويلات تصب كلها في قالب الإمامة وتنساق لخدمتها. ويقول لذا أقدم هؤلاء القوم من الباطنة على التوسع في التأويلات حتى طالت الشهاداتان والعبادات والمحرمات الشرعية ، زد على ذلك تأويلهم الأحاديث النبوية والآيات ويمكن الإطلاع هذه التأويلات الباطنية للعبادات بالرجوع إلى ما ذكره "أبو حامد الغزالي" عنهم في كتابه فضائح الباطنية .

كما انتقدهم أيضا " الديلمي" في كتابه " بيان بطلان مذهب الباطنية" هذا الأخير اعتمد في بيان بطلان مذهبهم على كتبهم خاصة كتاب تأويل الشريعة لصاحبه المعز لدين الله الفاطمي ومن هذه التأويلات التي يوردها عنهم مثلا « دلالة المسجد في الباطن على الإمام موحد على الحجة وعلى الداعي ومثل الكعبة على الرسول، والمسجد الحرام على الوصي، والآذان خمس عشرة كلمة تدل على الأساس وستة متمين وسبعة خلفاء والخامس عشر دليل على القائم. و بسم الله الرحمن الرحيم سبعة عشر حرفا دليل على سبعة أئمة واثنى عشر حجة أربعة فصول دليل على الحدود الأربعة السابق والتالي والناطق والأساس.. الخ »¹.

ولم يكتف دعاة الباطنية بذلك التأويل للأعداد و الحروف وللشهادة بل زادوا عليه من لسانهم ما طال باقي أركان الإسلام والعبادات منها ما قالوه أن « آداب الوضوء المسواك دليل على أن الداعي يبين الحدود للمستجيبين بيت الخلاء مثل الظاهر الخالي من الحقيقة والباطن والحكمة. والغائط مثل نجاسة أهل الظاهر بالجهل، والماء مثل العلم الحقيقي الباطن الذي به طهارة كل جاهل من نجاسة الجهل »².

المطلب الخامس : الأصول الفلسفية للتأويل الباطني

إن التأويل بالمعنى الباطني أي كما تمارسه فرقة الباطنية التعليمية نجده في كثير من جوانبه ذا صبغة فلسفية « فالتأويل الإسماعيلي يمكن أن يدرج فيه الكثير من قضايا التأويل عند الغزالي و ابن سينا لاشتراكهما جميعا في التأويل الغنوصي الباطني " ³ أي كثير من التأويلات التي قدمتها "الباطنية" تحتوى على أصول فلسفية ، إما نجدها مستوحاة من الديانات الشرقية

1- محمد بن الحسن الديلمي ، المرجع السابق ، ص 43

2- المرجع نفسه ص 33، 44

3- عبد الجليل بن عبد الكريم سالم ، التأويل عند الغزالي ، ص 36

القديمة كفكرة النور و الظلام و السابق واللاحق والعلوي و السفلي و خاصة الزرادشتية المجوسية. و أحيانا أخرى من الفلاسفة الأفلاطونيين كفكرة الفيض والعقول والعقل الكلى.

مما يثبت أن أصل التأويل الباطني و مصدره هو امتزاج الأفكار الدينية الإسلامية بغيرها من الديانات الشرقية و حتى المسيحية و اليهودية « فنظرية التأويل الباطني نظرية دينية فلسفية تتلخص في أن الله سبحانه وتعالى جعل كل معاني الدين في المخلوقات التي تحيط بالإنسان فيجب إذن أن يستدل بما في الطبيعة وبما على وجه الأرض على فهم حقيقة الدين»¹.

فالتأويل الباطني في الغالب مستمد من تأثيرات الفلسفة فهاهو "دي بور" يؤكد أن إخوان الصفا الذين ينتمون إلى الشيعة الإسماعيلية و يهدف بلوغ أهدافها السياسية « صار أعضائها يؤولون القرآن لخاصتهم تأويلا مجازيا نعم لقد كانوا يردون هذه الحكمة السرية إلى أنبياء ممن وردت أسماؤهم في التوراة أو في القرآن و لكن وراء الحقيقة أشخاص الفلاسفة الوثنيين»².

حتى أن هذه التأويلات الباطنية كانت لفئة من الناس دون أخرى، أي لا يحيط بها إلا من له فكر متقد فالمعروف عن الباطنية و إخوان الصفا خاصة مخاطبتهم للناس بحسب ما يفهمون فالإخوان يرون « أن ظاهر الشريعة إنما يصلح للعامة فهو دواء النفوس المريضة الضعيفة أما العقول القوية فغذاؤها الحكمة العميقة المستمدة من الفلسفة »³ و هذا التأويل مصدره الإمام قائم القيامة و على الدعاة تليغه للناس..

- مما سبق نستنتج أن حركة التشيع التي شهد العالم الإسلامي انتشارا واسعا لها ، لا حدود له، في عهد من العهود لم تكن في أساسها إلا صدى وانعكاس لتلك السياسات المغتصبة-في نظر الشيعة الباطنية- فهي مجرد احتجاج واستنكار لتلك الممارسات السياسية من قبل الخلفاء المغتصبة للسلطة الشرعية من أهلها الحقيقيين الممثلين في "علي" وذريته.

و ما عاناه الشيعة من الظلم يشهد عليه التاريخ « و قد كان الشيعة على مر التاريخ أثقل المسلمين عناء وأجهدهم بلاء خلال العصور المظلمة إذ أن الخلفاء الأمويين و العباسيين كانوا ينظرون إليهم على أنهم حزب سياسي لا يعترف بحكوماتهم القائمة على أساس الملك والوراثة وليست على أساس الشورى والانتخاب ولهذا كانوا يتربصون بهم الدوائر ويتحينون

1- محمد كامل حسين ، طائفة الإسماعيلية ، ص 163

2- دي بور ، تاريخ الفلسفة في الإسلام ، ص 156

3- إخوان الصفاء ، رسائل إخوان الصفاء ، ج4، ص 436

الفرص لإبادتهم والقضاء عليهم ويلتمسون أثرهم للفتك بهم حتى ادخلوا عليهم الرعب والفرع من كل جانب»¹.

ومأساة الشيعة عموماً والعلوية خصوصاً معروفة مدونة أحداثها، تنفطر القلوب لذكرها الأمر الذي دفع بعض فرقها كفرقة الإسماعيلية الباطنية للتستر والتخفي، واحتجب أئمتها عن عيون الناس وحتى عن المقربين « والتاريخ يشهد كم لقي أهل البيت وشيعتهم من المحن والمصائب والخطوب والنوائب ما تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً سأمهم إياها أئمة الجور والفساد وآلوا الكبر والعناد من قتل وتعذيب ونفي وتشريد فألجؤوهم إلى المفاز السحيقة واضطروهم إلى الفجاج العميقة هرباً من البطش والتنكيل وفراراً من سياسة التعسف والإرهاب»².

هذا الأذى والضرر العظيمين الذين لحقا بالشيعة دفعهم إلى انتهاج سياسة التقية بمعنى اعتماد التخفي والتستر لتجنب البلاء وحماية مذهبهم. فإمن بذلك الشيعي على نفسه وأهله وماله فلا تتعرقل دعوته.. واستدلت الباطنية على وجوب اعتمادها مبدأ التقية بأحاديث وأخبار منقولة عن أئمتهم. كالحديث المروي عن الإمام أبي عبد الله الصادق - عليه السلام - أنه قال: التقية ديني ودين آبائي»³ أيضاً قوله في حديث آخر « من لا تقية له لا دين له»⁴ وهي أحاديث مؤكدة في المذهب الجعفري وأغلب رواة أحاديثه من الشيعة.

وحتى لا يتشتت الأشياع بسبب اختفاء الإمام وتستره نتيجة اعتماده لمبدأ التقية، قال الشيعة الباطنية بفكرة المهدي المنتظر وأحكمت تعاليمها السرية ونظمت قيادتها في انتظار ظهوره « وقد سمي المهدي لأنه يأتي بالهدى ودين الحق وشرع النبي الأكرم محمد ﷺ ليظهر على الدين كله وسمي المنتظر لأنه أهل الحق المستضعفين مازالوا ينتظرون خروجه حتى يجتمعوا على قيادته وينضوا تحت لوائه وسمي القائم لأنه يقوم بالمهمة الكبرى التي أوكلها الله إليه وهي سيادة الحق وإزهاق الباطل وسمي الحجة لأنه يسود الإسلام وترتفع رايته وتعلوا كلمته ويكون الدين كله لله وتظهر حجته على عباده»⁵.

1 - عاطف سلام ، الوحدة العقائدية ، ص 276

2 - المرجع نفسه ص 277

3 - المرجع نفسه ص 271 ، نقلاً عن الكافي ، باب التقية ، ج2، ص 219، أيضاً محب الدين الخطيب ، الخطوط العريضة

للأسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامية ص 55

4 - المرجع نفسه ص 271 ، أيضاً محب الدين الخطيب ص 55

5 - المرجع نفسه ص 312

إذن ليصير الأتباع ما دام النصر حتما قريب، بظهور الإمام ورجعته بعد غيبته ليملأ الأرض عدلا بعدما ملئت جورا وينصر شيعته المستضعفين فتزول شدتهم و يذهب عسرهم . وحينها فقط يتمكنون من الإفصاح عن آرائهم و تصوراتهم المختلفة دونما خوف أو تردد لا سيما نظرياتهم السياسية وموقفهم من عقيدة الإمامة .

إذ كان للشيعة الإسماعيلية الباطنية و هي إحدى أهم الفرق الشيعية على الساحة السياسية تصور مختلف لمسألة الإمامة، فقد أصبغت عليها صفة التقديس ومنحت للإمام سلطة مطلقة وهالة من التقديس ، فما دام لا بد لكل عصر من إمام يدبر شؤون الأمة « واختيار هذا الإمام لا يوكل إلى الأفراد وإنما إلى ترتيب العناية الإلهية واصطفاء الله سبحانه وتعالى ، فالله لا يحرم عصرا من إمام يتولى قيادته وتوجيهه و إرشاده ، لأن الغاية من الهداية الإلهية و التشريع السماوي لا يتحقق دون إمام مختار و بطريقة إلهية »¹.

فسلطة الإمام إذن مطلقة ، وعليه كانت سلطة الإمام الحاكم لا محدودة عند هذه الفرقة باعتباره منصوبا عليه لا مختارا من الشعب، استحق منصب الإمامة عن جدارة واستحقاق لنسبه الشريف المقدس وصلته الوثيقة بالأنبياء والمرسلين. فهو معصوم و مطاع لا مجال لمخالفته أو خلعه أو حتى التمرد عليه فهو حاكم بأمر الله لذلك جعلت الإمامة ركنا من الأركان يضاف إلى الأركان الخمسة للإسلام .

هذا التصور الشيعي الباطني للإمام هو ما جعل الدراسات العديدة التي تناولت التشيع من زوايا مختلفة تؤكد على استناده على فلسفات غيبية ميتافيزيقية إضافة إلى حضور جانب كبير من الأسطورة فيه بسبب انضواء العنصر الفارسي و الهنود بدياناتهم و خرافاتهم تحته . يقول "جولد تسيهر" (1850-1921م) واصفا حال التشيع « أما التشيع فقد ذهب إلى الطرف المقابل و جعل مفهوم الإمامة يرتكز على عناصر سماوية مسبغا عليه من المعاني الماورائية ما يجعله وثيق الارتباط بمصير الأمة في الآخرة »².

من خلال عرضنا لحقيقة الإمامة الباطنية ، لا يسعنا إلا الاعتراف بقوة هذه العقيدة والدعوة الشيعية الباطنية التي كان لها صداها و تأثيرها على الفكر السياسي و الاجتماعي منذ ظهورها ونشأتها الأولى خاصة تلك الفروع و الفرق التي جسدت دعوتها .

1- محمد سعيد العشماوي ، جوهر الإسلام ، ص 65

2- أجناس جولد تسيهر ، العقيدة والشريعة في الإسلام ، ص 210

حيث دافعت الفرق الإسماعيلية الباطنية عن تعاليمها وآرائها بقوة القلم و السلاح ونعني هنا بالحديث موقفها السياسي و الإمامة كركن أساسي تدور حوله كافة عقائدها و نظرياتها فما بذله أتباعها من أجل إعلاء و نشر تعاليم الأئمة الشيعيين سرا و جهرا خلال مراحل تطور التشيع الباطني و ما صاحب ذلك من جدالات مذهبية و فكرية و حروب و صراعات دموية و تصفيات جسدية للعلماء و المفكرين و خاصة للأئمة العلويين .

كل هذا كان له صدى عميق و واسع على انجازات الحركة الباطنية و إبداعاتها الفكرية التي امتد تأثيرها في الفكر الإسلامي لعهود و « مما لا شك فيه أن الشيعة كانوا من أكبر المساهمين في انطلاق الحضارات بشتى صورها وألوانها و في جميع ميادين العلم و الفكر في طول الأحقاب »¹ فالشدة تولد المهمة و قد تدفع بصاحبها إلى الإبداع و التغيير.

و الدليل على ذلك ما خلفه المفكرون و الشعراء المنسوبون إلى الشيعة أتباعا كانوا أو مجرد متعاطفين ، من كتب و مؤلفات غزيرة عدت تعبيرا خالدا عن مأساة آل البيت و انشغالاتهم و آمالهم و غزارة معارفهم و تنوعها باعتبارهم - ورثة علوم الأنبياء كما يدعون- و أشهر هذه المؤلفات رسائل "إخوان الصفاء" التي اعتبرت موسوعات معرفية عامة و شاملة، رسائل "الكرماني" و مؤلفات " نصر الدين الطوسي" و كتب و رسائل " الفارابي" وغيرهم كثيرون... رغم قلة ظهور تلك المؤلفات و غموض محتواها.. بسبب الحذر الذي انتهجته الشيعة الباطنية في مسيرتها من السرية و طابع التقية و الكتمان ، و أساليب التأويل و اعتماد الرموز.

فلم يسهل الأمر على الباحثين في الفرق الإطلاع عن كتب عن طبيعة هذه الفرق الشيعية إلا في القرون الأخيرة حيث بدأت تظهر بعض المؤلفات الإسماعيلية المستورة و المختفية بين بلاد الهند و الفرس.. و كانت هذه المؤلفات متنوعة المضامين تذكر الأئمة و تأويلاتهم للشريعة و دور الأنبياء و علومهم ، مستخدمة الأعداد و الحروف مستدلة بالأفلاك و أدوار الكواكب و النجوم .. و يصف المفكر "عبد الله نعمة" في كتابه " فلاسفة الشيعة" غزارة التأليف الشيعية في مجال الإمامة قائلا « أما موضوع الإمامة فقد كثرت فيه مؤلفاتهم كثرة هائلة منذ عصور الإسلام الأولى حتى عصرنا هذا »².

لكن رغم هذا الثراء الفكري و الفلسفي الذي خلفه الشيعة الباطنية على مر الأزمان و الذي مازالت تكافح لنشره حتى هذا القرن و إلى اليوم .. إلا أنه لنا عليهم مآخذ كثيرة فلا

1 - عبد الله نعمة ، فلاسفة الشيعة ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت لبنان ، [د ط] ، 1930 ، ص 30

2 - المرجع نفسه ص 53

نكاد نطلع على فكرة أو عقيدة من عقائدهم إلا و انتابنا شك و خوف عظيمان على الإسلام و وحدته وما ذلك إلا لكون الفكر الشيعي في كثير من جوانبه امتزج بفكر دخيل عن ديننا الإسلامي الحنيف و تعاليمه السامية .

فالفكر الشرقي و الديانات القديمة التي طالما انتشرت في آسيا .. اصطبغ بها الفكر الشيعي و نافست العقيدة الإسلامية في قلب المؤمنين و المعتنقين .. هذا ما يفسر الانتشار الواسع للتيار الشيعي في هذه الأوساط و كثرة الموالين لآل البيت و المتعاطفين معهم من الفرس .

الفرقة الإسماعيلية الباطنية خير مثال يبرز لنا بجلاء دخول عدد كبير من الفرس في أتباع الحركة بل احتل هؤلاء الفرس الصدارة في تمثيل الحركة و التصدي للأعداء و لا ننسى ما اشتهروا به من غزارة العلم و المعرفة و الاشتغال بالفلسفة اليونانية و وضع الكتب التي تحاكيها إلى الحد الذي أرجع فيه بعض الباحثون الفلسفة الإسلامية إلى أصول فارسية أكثر منها عربية إذ « ما لبثت الإسماعيلية أن خاضت الفلسفة الغنوصية كاملة فيها من فيثاغورية محدثة و أفلاطونية محدثة مختلطة بغنوص المذاهب الفارسية أخذة من كل مصدر»¹.

و أخذ هذا الفكر الشيعي الباطني يمزج التعاليم الإسلامية بغيرها ، تارة يحرف ، و تارة يؤول و أخرى بيدع .. حتى بلغ الأمر حد تشويه الشريعة و ذلك كله تسترا و احتجاجا بنصرة أهل بيت رسول الله من ذرية علي و فاطمة و « نرى حركات الفرس و الشيعة و محاولاتهم احتمت بآل البيت لهدم الإسلام من الداخل و ذلك عن طريق تقويض عقيدته الدينية »² هذا الأمر بارز في تعاليم الشيعة و تأويلاتهم المغرقة في الإلحاد و الزندقة .

فبان لفقهاء الأمة الإسلامية تعاضم خطر الفرق الشيعية لا سيما الفرق الباطنية التي تظهر عكس ما تبطن و تتستر لتحقيق أهدافها و غاياتها دون تعرضها للخطر و قد حكى الفقيه بن حزم حيلهم و مكرهم هذا في قوله « رأوا أن الكيد للمسلمين على الحيلة أنجح فأظهر قوم منهم الإسلام و استمالوا أهل التشيع بإظهار محبة آل بيت الرسول ﷺ مع استبشاع ظلم علي ابن أبي طالب و سلكوا بهم مسالك مختلفة حتى أخرجوهم عن الإسلام »³ .

والملاحظ أن الباطنية عمدت إلى التأويل فحرفت معاني الآيات و استبدلت فيها ما استبدلت « حكى بعض العلماء أن عبید الله الشيعي المسمى بالمهدي حين ملك إفريقية

1 - علي سامي النشار ، المرجع السابق ، ص 384

2 - محمد أمين بدوي ، الشيعة و نشاطهم السياسي ، ص 23

3 - المرجع نفسه ، ص 22، 23، نقلًا عن: ابن حزم ، الفصل في الملل و النحل ، ص 91

واستولى عليه كان له صاحبان من كتامة ينتصر بهما على أمره و كان أحدهما يسمى بنصر الله و الآخر بالفتح ، فكان يقول لهما أنتما اللذان ذكرهما الله في كتابه فقال ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾¹ قالوا و قد كان عمل ذلك في آيات من كتاب الله تعالى فبدل قوله ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾² بقوله «كتامة خير أمة أخرجت للناس» و من كان في عقله لا يقول مثل هذا لأن المتسميين بنصر الله و الفتح المذكورين إنما وجدا بعد مئتين من السنين من وفاة الرسول ﷺ»³.

فالباطنية الإسماعيلية هي أشهر الفرق الشيعية التي حاولت تحريف القرآن و تقويض تعاليمه لتحل محله عبادة النار كونها تقول بالهين النور والظلمة .. بشكل خفي مما جعلها عرضة لانتقادات أهل السنة والجماعة الدين ثاروا على عقائدها . إذ رأى كثير من علماء الأمة أن الباطنية تسترت بالإسلام و بمحبة آل بيت رسول الله وهي تخفي كرهاً و عداً لهم لغاية خططت لها بدقة و عناية أو كما يقال " الحاجة في نفس يعقوب " .

و بسبب آراء الباطنية الغريبة عن الإسلام استنكرهم جمهور الأمة الإسلامية و فقهاؤها ورأوا فيها خطراً متعاضماً يهدد الإسلام و المسلمين و يكيد لهم العداة . فصنف فيهم "الغزالي" كتاباً يكشف به بطلان آرائهم و كذا بن تيمية و قبلهما فقهاء كثر و بعدهم مفكرون شتى .

و هاهو "البغدادي" يحاول فضح حقيقتهم البشعة المخفية عن الخلق في قوله « اعلموا أسعدكم الله أن ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود و النصرارى و الجوس عليهم . بل أعظم من مضرة الدهرية و سائر أصناف الكفرة عليهم بل أعظم من ضرر الدجال الذي يظهر في آخر الزمان »⁴ و لما علم المسلمون من حقيقة حالهم ما تخوفوا به على دينهم عادوهم و وصفوهم على « أنهم دهرية زنادقة يقولون بقدم العالم و ينكرون الرسل و الشرائع كلها لميلهم إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع»⁵.

فإضافة إلى بدعهم و ما جاؤوا به من خزعبلات و إنكار للمعاد .. فقد بلغ بهم الحد أن تأولوا على الملائكة تأويلات لإنكار وجودها « و ينكرون نزول الملائكة من السماء بالوحي

1 - سورة النصر آية 01

2 - سورة آل عمران آية 110

3 - الشاطبي ، الموافقات في أصول الأحكام ، المجلد الثاني ، ج3، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع [د ط] ، [د ت] ص234

4 - عبد القاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص 250

5 - المرجع نفسه ص 260

و الأمر و النهي بل ينكرون أن يكون في السماء ملك و إنما يتأولون الملائكة على دعائهم إلى بدعتهم و يتأولون الشياطين على مخالفيهم والأبالسة على مخالفيهم « هذه بعض من معتقداهم التي أثارت سخط مفكري الإسلام فانمالت انتقاداتهم عليها بدافع الحرص على ما جاء به الإسلام من شريعة خيف أن تدنسها أباطيل الباطنية .

وما يزيد الأمر سوءا هو التأويلات الباطنية لأركان الشريعة و العبث بأحكامها فهي سر من أسرارهم و جزء من خفايا مذهبهم عمدوا من وراء تأويلاتهم التي أقحموها في أذهان العوام لغرض الإتياع إلى تحريف الشريعة مدعين أنها دنست بالجهالات و بدلت أحكامها من طرف الملوك المعتصين للخلافة و أوجبوا العمل بالباطن لبلوغ الحقيقة و ترك الظاهر لأنه زيف « فمن صار إلى تأويله الباطن فهو من الملائكة البررة و من عمل بالظاهر فهو من الشياطين الكفرة»¹.

فظهر لكل من اطلع على تأويلات الباطنية أنها وسيلة للفتك بقيم الدين السامية من خلال رفع العبادات عن الأشياع و تأويل النصوص لإباحة المحرمات .. و غيرها من الأباطيل التي انجر عنها التأويل الباطني و التي أساءت للدين و أحكامه التي أدخلها مبتدعة تحت تأثير نزعاتهم و ديانتهم القديمة المسترة بالإسلام « ثم إن الباطنية لما تأولت أصول الدين على الشرك احتالت أيضا لتأويل أحكام الشريعة على وجوه تؤدي إلى رفع الشريعة أو إلى مثل أحكام الجوس والذي يدل على أن هذا مرادهم بتأويل الشريعة أنهم قد أباحوا لأتباعهم نكاح البنات والأخوات و أباحوا شرب الخمر و جميع اللذات »². فكان هنالك انتقادات كثيرة للشريعة عموما و الباطنية التعليمية خصوصا ، سواء من قبل حجة الإسلام الغزالي أو من قبل غيره السابقين له أو اللاحقين به و ارتكزت جل انتقاداتهم على دعواهم في النص على الإمامة و حكمها و توارثها.

على سبيل الذكر لا الحصر انتقد رائد المعتزلة "عبد الجبار المعتزلي" مسألة النص على الإمامة كما أنه يبطل وجوبها العقلي لقوله « ثم إن العلم بالحاجة إلى الإمام لا يجوز أن يكون عقليا بل إنما نعلمه شرعا »³. و عليه يبطل رأي "الإمامية" و فرقها و يهدم دعواهم

1- عبد القاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق ص261

2 - المرجع نفسه ص 253 ، 254

3 - عبد الجبار المعتزلي ، شرح الأصول الخمسة ، ج2، ص 387

القائلة بالوجوب العقلي للإمامة « و الذي يدل على فساد مقالاتهم هو أنه لو كان العلم بوجوب وجود الإمام عقليا لكان لا بد من ان يكون الحاجة إلى الإمام في العقليات ومعلوم أن الإمام إنما يحتاج إليه لتنفيذ الأحكام الشرعية فكيف يصح أن تعلم الحاجة إليه عقلا»¹.

فظهر أن المعتزلة تنفي النص على الإمامة و تثبت كسائر علماء الأمة قيام الإمامة بالاختيار و بطلان النص و هذا تبريرها لذلك الأمر يرد على لسان المعتزلي « قالوا: طريق الإمامة بالاتفاق إما العقد والاختيار أو النص و قد بطل النص فلم يبقى إلا العقد والاختيار»² و بناء على هذا يبطل ما تدعيه الإمامية في مسألة النص على الإمامة وهذا تماشيا مع رأي فرقت المعتزلة التي يمثلها إذ « قالوا الذي يدل على أنه لا نص هو أنه لو كان كذلك لكان لا يخلو إما أن يكون نصا جليا أو خفيا »³ لكن لم يرد حسب المعتزلي لا هذا و لا ذاك فهذا الأمر غير قائم و لا دليل عليه .

فالإمامة لم تكن بالنص بل هي اختيار وتعاقد واتفاق بين أفراد الأمة على من يصلح للقيام بأمر دينهم ودنياهم ويؤكد الباجي ذلك أيضا حين يذكرنا بإمامة أبي بكر وبيعته « ذلك أنهم أجمعوا على إمامة أبي بكر بالرأي لقيام الدليل على بطلان القول بالنص على رجل بعينه وإنما ورد النص على أنهما في قريش ولذلك قال " أبو بكر" للأنصار: بايعوا أحد هذين الرجلين إما عمر بن الخطاب أو أبو بكر و لو كان منصوص عليه لم يقل ذلك »⁴.

فكل ما قام به الشيعة الباطنية لتأكيد إمامة حكامهم من العلويين أمر لا يؤكده واقع و لا يقبله منطق لأن المعروف لدى سائر الخلق أن الرسول ﷺ لم يوصي بخليفة بعينه و لم يرد عنه نص بذلك و المسلمون عقب وفاته اجتمعوا حول اسم أبي بكر ليكون إماما لنيابة عنه واختاروه لأنه أقرب الصحابة للنبي و هو من قريش التي اشترط النبي أن يكون الأئمة منها .

لكن الشيعة الباطنية أنكرت فضل " أبي بكر" و كثير من الصحابة لأنهم لم يبايعوا "علي" وأساءت إليهم ، حتى سمي بعض الشيعة روا فض الرفضهم إمامة الصحابة الكرام أبا بكر وعمر وعثمان . حيث عدّوهم مغتصبين لحق علي وآل بيته في خلافة قريتهم رسول الله ﷺ وهم أحق بإرثه وفي سبيل ذلك وضعوا الأحاديث الملققة المروية عن كبار أئمتهم وعلماء شيعتهم في مدح "علي" وآله وذم غيره من الخلفاء .

1 - عبد الجبار المعتزلي ، شرح الأصول الخمسة ، ج2 ، ص 388

2 - المرجع نفسه ص 390

3 - المرجع نفسه ص 391

4 - عبد المجيد توكي ، مناظرات في أصول الشريعة الإسلامية بين بن حزم و الباجي ، ص 284

رغم أن السنة حافلة بأخبار وأحاديث تبشر هؤلاء الجمع من الصحابة بالجنة ، و تشيد بأعمالهم وخصالهم كما ورد في الحديث المشهور عن الرسول ﷺ والذي يرويه انس ابن مالك عن النبي ﷺ حين صعد جبل أحد ومعه كل من أبو بكر وعمر وعثمان فرجف الجبل وحينها قال ﷺ : « أسكن أحد - أظنه ضربه برجله - فليس عليك إلا نبي وصدّيق وشهيدان »¹ و هذا الحديث هو من أبرز ما قيل للدلالة على فضل أولئك الصحابة الكرام .

كما ورد في أبي بكر الكثير من الإطراء والمدح فهو من أوائل من صدقه وحمّاه وهاجر معه فعن أبي سعد الخذري - رضي الله عنه- ان الرسول ﷺ قال : « إن من أمنّ الناس علياً في صحبته وماله أبا بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الإسلام ومودته لا يبقين في المسجد باب إلا سدّ ، إلا باب أبي بكر »² . و في رواية أخرى عن ابن عباس - رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال : « لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر ولكن أخي وصاحبي »³

و الملاحظ أن الشيعة الباطنية أقدمت على تزيف الأحاديث لنصرة مذهبها و قام بعض دعاثها بتأليف أحاديث ينسبونها إما إلى النبي الكريم أو إلى كبار أئمتهم كالإمام "علي" أو "الصادق" ليشبها بما آراءهم ، و هذا ما عرف في الشرع بالوضع في الحديث .

* الوضع في الحديث لنصرة آل البيت وإثبات الإمامة لعلّي وذرّيته

إن المغالاة في نصرة آل البيت النبوي وتفضيل علي وآله عن غيره، تسببت في مشكلة كبيرة في الفقه والحديث زعزعت الثقة بكثير من جوانب السنة وهذه المشكلة هي مشكلة الوضع في الحديث بمعنى الكذب على النبي ﷺ ونسب أحاديث وأخبار إليه تفيدهم في مسألة الإمامة، ونصرة عترتهم من آل البيت ، إذ يرجع أغلب الباحثين والعلماء ظهور هذه المشكلة -أي الوضع في الحديث- إلى الشيعة وأباطيلهم .

و من أشهر الأحاديث التي وضعوها واشتهروا بها ما يورده " محمد محدة " في كتابه "مختصر علم أصول الفقه الإسلامي" من أحاديث باطلة منسوبة إلى النبي منها " أن رسول الله ﷺ قال « خلقت أنا و علي من نور ، وكنا عن يمين العرش قبل أن يخلق آدم بألفي عام ثم خلق الله آدم فانقلبنا في أصلاب الرجال ثم جعلنا في صلب عبد المطلب ثم شق إسمانا من

1 - البخاري ، صحيح البخاري ، ج3، حديث رقم 3699 ، ص 16

2 - المرجع نفسه ، حديث رقم 3654 ، ص 5

3 - المرجع نفسه ، حديث رقم 3656 ، ص 5

اسمه ، فالله محمود، وأنا محمد والله الأعلى وعليُّ علي¹» كما وضعوا حديثاً آخر في مدح "علي" و بيان منزلته مروى عن النبي أنه قال « صلى عليَّ الملائكة وعليُّ علي بن أبي طالب " سبع سنين ولم يصعد أول م ترفع شهادة أن لا إله إلا الله من الأرض إلى السماء إلا مني و من علي بن أبي طالب »² ليظهر هذا الحديث فضل "علي" على غيره من الصحابة.

و حتى حديث " غدير خم " زيد فيه و هناك أحاديث أخر .. لا تحصى و أغلبها محرف من قبل متآمرين على الإسلام و وحدته أغلبها من وضع الروافض « و فرقة الرافضة كانت أسرع الفرق إلى الوضع وأكثرها حتى أنهم ركبوا الصعب و الذلول كما قال بن عباس من أجل تحقيق ما يريدون »³.

و الأسباب كثيرة هي تلك التي قادت إلى مثل هذه الظاهرة- الوضع في الحديث -منها نصرته مذهب دون آخر و تغليب رأي أو تهميم غيره .. بدافع التعصب و المغالاة . من ناحية أخرى كان الطمع في الجاه أو المال أو السلطة و حتى التقرب من الحكام إرضاء لشهوتهم في الملك .. باعثاً للوضع في الحديث . فبيعت ضمائر كثير من العلماء و رواة الحديث في سبيل حفنة من المال و قليل من الدنيا .

و تمكنت الباطنية بطريقة ما أو بأخرى من وضع أحاديث تنصر بها رأيها في الإمامة و ترفع بها شأن آل البيت العلويين كأحاديث النص على الإمامة و توارثها و العصمة ... الأمر الذي زاد من سخط فقهاء الأمة السنيين و تحاملهم عليها.

و ها هو شيخ الإسلام " بن تيمية" يضرب بدعواهم في النص على الإمام المعصوم عرض الحائط خاصة ما تدعيه الإمامية من قيام النص الصريح من النبي ﷺ على الإمام علي - كرم الله وجه - لذا يقول بن تيمية في منهاج السنة « و النبي ﷺ قد أخبر أمته بما سيكون و ما يقع بعده من التفرق فإذا نص لأئمة على إمامة شخص يعلم أنهم لا يولونه بل يعدلون عنه و يولون غيره ، و يحصل لهم بولايته مقاصد الولاية و انه إذا أفضت النوبة إلى المنصوص حصل من سفك دماء الأمة ما لم يحصل قبل ذلك ، و لم يحصل من مقاصد الولاية ما حصل لغير المنصوص كان الواجب العدول عن المنصوص »⁴.

1 - لا أثر له ، موضوع

2 - موضوع ، ذكره :محمد محمدا ، مختصر علم أصول الفقه الإسلامي ، ص 67 ، نقلا عن ابن الجوزي، الموضوعات ،

ج1 ، ص 340 ، 341

3 - المرجع نفسه ، ص 72 ، نقلا عن جواد مغنية ، معالم الفلسفة الإسلامية ، ص 161

4 - أحمد بن تيمية ، منهاج السنة ، ج 1 ، ص 384

و بالرغم من انتقادات أهل السنة للشيعة الباطنية ، نجد أن للقول بالباطن ، أي وجود باطن وراء الظاهر، أثره العظيم عند عدة فرق و طوائف أخرى من غير الشيعة ، مثل المتصوفة يقول "هنري كوربان" « و لقد أعطت الفكرة الباطنية التي هي أساس التشيع و أصل بنيانه أعطت أكلها و أثمرت لدى الفلاسفة فالتبطن الصوفي يتزع إلى عيش السر الأساسي لنطق القرآن و هذا العيش ليس بدعة من بدع الصوفية »¹ .

رغم الهجوم الشديد و العنيف الذي يشنه مفكروا و علماء السنة على الشيعة منذ شرع أتباعها في التطرف و الغلو إلا أنهم يميزون بين ما هو مغال منها و بين معتدل، و الغالب « أن الشيعة المعتدلين أو على حد قول أصحاب "التشيع المتوسط" الذي مضمونه تفضيل علي و تقديمه ، هم في تقديره خير من الغلاة كالإسماعيلية بكثير لأنهم مع فرط جهلهم و ضلالهم فهم خلق مسلمون باطنا و ظاهرا ليسوا زنادقة منافقين »² .

فأراء الزيدية في الإمامة و الصحابة تجعلها قريبة من أهل السنة في بعض تصوراتها « إن الزيدية من الشيعة خير منهم و اقرب إلى الصدق و العدل و العلم »³. أما الطرف المغالي الذي يخرج عن دائرة الإسلام و تنهال عليه انتقادات السنين و خاصة "الغزالي" هو فرقة الإسماعيلية الغلاة المتطرفة . فكان "أبو حامد الغزالي" أشهر متصدّ للباطنية كاشفا لتلبيساتهم ، مدافعا عن الإسلام حاميا للعقيدة . لأنه انتقدهم في عقيدتهم ضاربا بتأويلاتهم عرض الحائط ، و أظهر عداؤه لها في مؤلفاته العديدة التي ردّ فيها على تزيفاتهم و بدعهم ، أبرزها المستظهر المعروف ب: فضائح الباطنية، والقسطاس المستقيم و المنقذ من الضلال، و أوضح رأيه في مسألة الإمامة من خلال مؤلفه الاقتصاد في الاعتقاد، إضافة إلى ملفات أخرى غيرها..

و لم يكن "الغزالي" أول من رد على الشيعة و انتقدهم بل سبقه إلى ذلك كثير من الأشاعرة قبله كالقاضي أبو بكر الباقلاني (338-403هـ) الذي رد على الإمامية الإثني عشرية و ثم توالى الانتقادات و كان جلها منصبا على توارث الإمامة و وجوبها بالنص لكن رد حجة الإسلام على هذه الفرقة الباطنية الإسماعيلية كان له صدى كبير لأنه كان مدعما من الخلافة العباسية القائمة و اتخذ أبعاد هامة على صعيد العقيدة و الفكر انطلق من أساس التشيع الباطني ليهدم بنيانه و يدك أسس عقائده .

1 - هنري كوربان ، المرجع السابق ، ص 59

2 - عبد الفتاح أحمد فؤاد ، الفرق الإسلامية و أصولها الإيمانية ، ص 12

3 - أحمد بن تيمية ، منهاج السنة ، ج 2 ، ص 287 ، 360

الفصل الثالث

الإمامة و تداعياتها العقائدية عند الغزالي

المبحث الأول : الظروف التي دعت الغزالي للخوض في مسألة

الإمامة و الاهتمام بالسياسة

المبحث الثاني : تصور الغزالي السني الأشعري لمسألة الإمامة

المبحث الثالث: الإمامة و علاقتها بالنبوة عند الغزالي

المبحث الرابع : المنهج الشككي النقدي و اعتماده لإبطال التأويل الباطني

يعد الإمام الفقيه " أبو حامد الغزالي " أحد أبرز فقهاء الأمة الإسلامية السنيين الذين انضوا للدفاع عن العقيدة الإسلامية السمحاء و القيم الشرعية التي تضمنتها حفاظ منه على الدين الكريم و وحدة الأمة الإسلامية . لذلك اشتهر بانتقاداته اللاذعة و ردوده الصاخبة على كل من سوّلت له نفسه المساس بالشرعية و أحكامها ، داعيا إلى ضرورة الحفاظ على إيمان العوام من خلال العودة إلى سنة النبي الأكرم . فكان له من الآراء والمواقف ما خلّده له تاريخ الفكر، راسما بها معالم مذهبه، شاقا من خلالها طريق المجد و الشهرة بخوضه المستمر في دروب العلم و المعرفة لإدراك الحقيقة و تحديد طرق بلوغها .

ومن بين الفئات التي انتقدها " أبو حامد الغزالي " و تخوف من خطرهما المتعظم على الشريعة " فرقة الباطنية التعليمية " فهو كغيره من علماء الأمة و فقهاءها رأى في آرائها السياسة و لا سيما تصورهما لمسألة الإمامة كعقيدة أساسية مرتبطة أشد الارتباط بالإيمان .. ضربا من الفساد والإحلال بما شرّعه الله و سنّه الرسول .. فردّ " الغزالي " على هذه الفرقة الباطنية الإسماعيلية في عدة مؤلفات أحصى فيها ألقابها و آرائها ثم عمد إلى إبطال مزاعمها بالحجة القاطعة و البرهان الساطع .

و من خلال ردّ " الغزالي " على " الباطنية " تبلورت آراؤه السياسية و تحدد تصوره للمسألة الإمامة . فكان موقفه من الآراء السياسية للباطنية التعليمية المغالية هو ما دفعه إلى الخوض في مجال السياسة ، و ساقه إلى تحديد موقفه من الإمامة و الممارسات السياسية لها . فظهر تصوره لمفهوم الإمامة و حكمها و شروطها و ما تبعها من غايات و مقاصد من خلال كتبه التي أفردتها للرد على " الباطنية " .

و إذا كنا قد أحطنا فيما سبق بآراء فرقة " الباطنية " و موقفها من الإمامة فيجدر بنا في هذا المقام التطرق إلى الرأي المقابل لها المائل في حجة الإسلام " الغزالي " لنكشف عن أهم نقاط الخلاف بينهما مبرزين في الوقت ذاته رأيه في مسألة الإمامة و حقيقة موقفه من " الباطنية " .

- فما هو موقف الغزالي من الباطنية و لماذا ثار على آرائها السياسية في الإمامة ؟
- كيف كان تصور " أبي حامد الغزالي " للإمامة و حكمها ؟ وما الغاية من نصب الإمام ؟ - ترى ما هي الشروط التي بموجبها كان المتقدم للإمامة مستحقا نيل هذا المنصب ؟
- ما هو المنهج الذي اتبعه الغزالي لإثبات آرائه و دحض موقفه خصومه من الباطنية ؟
- ما الدافع الحقيقي الذي قاد الغزالي للخوض في مجال الممارسات السياسية و الرد على الباطنية ؟ و هل لموقفه السياسي من مسألة الإمامة و تداعياتها ما يبرره ؟

المبحث الأول : الظروف التي دعت الغزالي للخوض في مسألة الإمامة و الاهتمام بالسياسة

المطلب الأول : الجو السياسي والفكري لعصر الغزالي

عاش الإمام " أبو حامد الغزالي " عصر تدهور سياسي و صراع مذهبي اتسمت به بيئته وانعكس على فكره و آرائه حيث « كان العالم الإسلامي تنقسمه عدة دول مختلفة المذاهب فالدولة الفاطمية في مصر والشام والحسن ابن الصباح في فارس وقلعة ألموت في بلاد الديلم يثير الرعب بحركات الاغتيال التي عرفت بالحشاشين وكانت دولة المرابطين في شمال إفريقيا على وشك الانهيار و قد تداعت على المسلمين الأمم الأجنبية، إذ استولى النصارى على طليطلة عام (478هـ) واستولى الصليبيون على القدس عام (492 هـ) »¹ .

و طال الانقسام والصراع السياسي بغداد وبلاد فارس موطن "الغزالي" فالخلاف على السلطة و مراكز الحكم كان ميزة انطبع بها ذلك العصر . فلم تكن دولة تقوم برهة من الزمن إلا و ترصد بها الخصوم المنازعون لها على الملك سواء من داخلها أو خارجها. و قد حكمت دولة السلاجقة في عصر "الغزالي" وكانت موالية للخلافة العباسية وهي تنصر المذهب السني و تعمل بمقتضاه بعد أن تغلبت على دولة " بني بويه" الشيعية التي دخلت معها في صراع وحروب من أجل الحكم « كان السلاجقة قد دخلوا بغداد عام (447 هـ) وأزالوا دولة بني " بويه" ولكن " ألب أرسلان " قتل عام (465 هـ) و خلفه ملكشاه (465 - 485 هـ) »² .

و إلى جانب الانقسامات الجغرافية للحضارة الإسلامية في عهد بني العباس ظهرت تلك الحركات المتمردة الهادفة إلى الإطاحة والفتك بالدولة ونظام الحكم القائم فيها .. و يصف الفيومي ذلك الانقسام و الاضطراب قائلاً « لقد قامت حركات سياسية تبغي في صميمها أن توجه الضربات المتوالية في صميم دولة الإسلام مما يؤذن باستياء عام ، لأن مثل تلك

1 - أحمد محمود صبحي ، في علم الكلام ، الأشاعرة ، ج2، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت لبنان ، ط5، 1985

ص 165

2 - المرجع نفسه ص 165

الضربات وجهت و الخلافة تعاني مرضا يهددها بالانقراض لأن أمر الخلافة غدا رمزاً تقليدياً وليس لها من اسم إلا فوق المنابر كالسيف الخشبي الذي بيد الخطيب ، و ليس له من صفة السيوف إلا الرسم ¹ .

وفي ظل هذا الصراع والجو السياسي المشحون نشأ وترعرع " الغزالي " على أيدي مفكري وفقهاء عصره البارزين الذين نهل عنهم العلم و المعرفة « وقد واكب هذا التدهور السياسي صراع فكري بين المذاهب و لكن أشدها استفحالاً كانت طائفة الإسماعيلية « حيث كان صراع " الغزالي " مع هذه الطائفة وما اعتقدته من آراء ومذاهب شديدة مثل بشكل أو بآخر صورة من صراع السنيين مع الشيعة .

هكذا اتسعت دائرة الصراع بين المسلمين و اشتدت فمن الخلاف السياسي على الخلافة وإمامة المسلمين إلى الخلاف المذهبي والفكري العقائدي ليصبح لكل طرف متنازع مؤيدوه وأنصاره من العلماء و الفقهاء و حتى رواة الحديث الذين عصفت بهم فتنة الصراع و كان هذا شأن " الغزالي " « و انعكس الخلاف السياسي والصراع الفكري على نفسية الغزالي فتمثلت في ذاته أزمة العصر ، و كان قد قرأ واستوعب تيارات عصره جميعاً ملتصقاً بالحقيقة الدينية فيها ² « فلم يكن يصعب معرفة ما يدور من خلافات في تلك الفترة و إدراك أسبابها.

و نتيجة لكل هذه الظروف تداعت وحدة الأمة الإسلامية و بدأت في التفكك تدريجياً بسبب الصراع الداخلي والخارجي و الضربات الموجهة من الداخل : الصراع على السلطة من فئات مختلفة و الضربات الموجهة من خارج الأمة المتمثلة في الغزو الصليبي « هذه الضربات التي توالى على العالم الإسلامي كقيلة بأن توظف السياسة والعلماء فضلاً عن أنها مقوية للتراعات الدينية ³ .

هذه كانت أهم سمات العصر الذي نشأ و ترعرع فيه حجة الإسلام " الغزالي " الذي تأثر ببيئته و بدوامه الصراع بين التيارات و المذاهب المختلفة، فحاول من خلال كتبه نقدها و الرد على المغالين في الدين منها ، و قد أحصى فئات و طوائف شتى مما ساد في عصره ، ثم أبطل مزاعمها لاسيما فرقة الإسماعيلية الباطنية من الشيعة التي كانت آراؤها الخطيرة متفشية بين العوام و تحضى بترحيبهم.. فكيف كان موقفه منها ؟ وما هي دوافعه و مبرراته للرد عليهم؟

1- محمد إبراهيم الفيومي ، الإمام الغزالي وعلاقة اليقين بالعقل ، دار الفكر العربي ، القاهرة مصر ، [د ط] ، [د ت]

2 - أحمد محمود صبحي ، علم الكلام ، ج2 ، الأشاعرة ، ص 165

3 - محمد إبراهيم الفيومي ، المرجع نفسه ، ص 95

المطلب الثاني : مغالاة الباطنية في تصويرها للإمامة وموقفه فقهاء الأمة وأهل السنة من محيديتها وأرائها السياسية

عمدت الإسماعيلية إلى القول بأفكار فارسية الأصل كالقول بالرجعة والمهدية وتقديس الملوك (الأئمة) فقد شابتها مسحة الديانة الشرقية لا سيما المجوسية « وإن لم تكن أقوال الإسماعيلية هي نفس أقوال المجوس أو الثنوية لكنها لم تخل من تأثيرها الواضح »¹.

و ما يذكره عنهم الدارسون يؤكد تأثرهم الواضح بالمجوس و الفرس و الديانات الشرقية القديمة . و يظهر أن كثير من علماء الأمة الإسلامية حتى قبل "الغزالي" و بعده ، قد تفتنوا إلى ذلك الأمر و أدركوا خطر العقيدة الباطنية على الإسلام و المسلمين. يقول "البغدادي" «أنا لا نجد على ظهر الأرض مجوسيا إلا وهو مواد لهم منتظر لظهورهم على الديار يظنون أن الملك يعود إليهم بذلك وربما استدل أعمارهم على ذلك بما يرويه المجوس عن "زرادشت" أنه قال "لكشتاسف" : إن الملك يزول عن الفرس إلى الروم واليونانية ثم يعود إلى الفرس ثم يزول عن الفرس إلى العرب ثم يعود إلى الفرس »².

فظهر من ذلك ميلهم إلى دين المجوس و عبادة النار، و إن أظهروا للناس عكس ذلك وذلك أيضا بسبب إيمانهم كما سبق الذكر بمبدأ التوارث الذي ساد عند الفرس حتى أن العلماء اختلفوا حول هذه الفرقة « فذهب أكثرهم إلى أن غرض الباطنية الدعوة إلى دين المجوس بالتأويلات التي يتأولون عليها القرآن والسنة »³.

فلما كانت هذه هي حالهم قال عنهم « و الذي يصح عندي من دين الباطنية أنهم دهرية زنادقة يقولون بقدوم العالم و ينكرون الرسل و الشرائع كلها ، لميلها إلى استباحة كل ما يعيل إليه الطبع »⁴. و في معنى كلامهم إشارة إلى تسترهم وراء حب على وآل بيته وإظهار حقيقة ذلك المكر والخداع والتلبيس الذي احتالوا به على الناس .

فظهر خطرهم المتعظم على العقيدة الإسلامية مما أثار سخ ط علماء الأمة عليهم واندفعوا إلى نقدهم و الرد على أباطيلهم ، إلى الحد الذي اعتبرهم فيه بعض علماء الأمة من الكفرة الملحدون بينما رأى علماء آخرون أنهم شر و بلاء عظيم ابتليت به الأمة.

1 - علي عبد الفتاح المغربي ، الفكر الديني الشرقي القديم ، ص 86

2 - عبد القاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص 254

3 - المرجع نفسه ص 259

4 - المرجع نفسه ص 260

و لم يكن " الغزالي " سوى واحد من هؤلاء الفقهاء الحريصين على حماية الشريعة ، الذين ثاروا على معتقدات الشيعة الباطنية . و سبقه إلى ذلك كثيرون قبله « فقد كان مذهب التعليم أو الباطنية أكثر المذاهب الذين شن الغزالي هجومه عليهم رغم استباق عدد من المفكرين الغزالي في نقد هؤلاء أمثال أبو عبد الله بن محمد بن عثمان الغساني القيرواني والباقلاني (403هـ) في كشف الأسرار وهتك الأستار وبن سعيد الأصبخري المعتزلي الذي رد على الباطنية في كتاب أهداه إلى الخليفة القادر وغيرهم »¹ .

مما يظهر بوضوح أن معتقدات الفرقة الباطنية و آرائها تعرضت للنقد من قبل "الغزالي" وغيره من المفكرين لكونها لا تتماشى مع ما هو متعارف عليه منذ حياة النبي الكريم واحتوت مغالاة ظاهرة و خاضت في مسائل لم يعتدها المسلمون كالنبوة و الإمامة و صفات الله والميعاد.. لهذا السبب وغيره ثارت تائفة علماء الإسلام من أهل السنة عليهم و على بدعهم . و يعد شيخ الإسلام " أحمد بن تيمية" أحد هؤلاء الذين اعتبروا الباطنية من مدعي النبوة والتأليه والتقديس.. ووصفهم بالكذب لأنهم يظهرون غير ما يبطنون حيث جاء في حديث له عن مدعي النبوة أن « من أظهر موافقة الأنبياء و هو في الباطن من المنافقين كالملاحدة الباطنية الذين يظهرون الإسلام والتشيع ابتداء ، ثم إنهم يستحلون الشرك والفواحش والظلم ويسقطون الصلاة والصيام وغير ذلك مما جاءت به الشريعة » فوصفهم بالمنافقين وذلك دال على اعتناقهم الإسلام تظاهرا لضربه وتفكيك وحدته « فمن أظهر خلاف ما أبطن وكان مطاعا في الناس فلا بد أن يظهر من باطنه ما يناقض ما أظهره »² .

شيء آخر يتفق فيه جل العلماء مع الإمام " الغزالي " بخصوص الباطنية هو ما تدعيه من تفاضل بين الخلفاء الراشدين و أصحاب النبي ﷺ الأمر الذي أدى إلى وصفها بالكفر والزندقة فالشيعة ككل ترى في "علي" أفضل الصحابة و أقربهم للنبي و يقوم أتباعها بسب و شتم كل من أبي بكر وعمر - رضي الله عنهم جميعا - « و الذين يسبون أبا بكر وعمر - رضي الله عنهما - فيهم تزندق كالإسماعيلية والنصيرقي فهؤلاء يستحقون القتل بالاتفاق »³ .

1 - عبد الله محمد الفلاحى ، نقد العقل بين الغزالي و كانط ، المؤسسة الجامعية للدراسات و الطباعة و النشر، ط1

2003 ، ص 121

2 - أحمد بن تيمية ، النبوات ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ، [د ط] ، 2005 ، ص 124

3 - المرجع نفسه ، ص 143

و الملاحظ أن أتباع الإسماعيلية الباطنية قد تأثروا كثيرا بما ساد في بيئتهم الفارسية من تعدد للديانات و احتكاك بالفلسفة اليونانية . حتى أنهم مزجوا بين الإسلام و الديانات الشرقية القديمة ، بل إن « الإسماعيلية قد أخذت مادتها من الفلسفة اليونانية وأفلاطون وأرسطو وعناصر مسيحية ويهودية ومجوسية »¹ لذا أجمع أغلب علماء الأمة على تكفيرهم و زندقتهم فهم ملاحة بالدين الإسلامي و أرادوا تغليب دياناتهم القديمة عليه .

المطلب الثالث : رد الغزالي على الباطنية التعليمية و إبطال مزاعمهم في الإمامة

"الغزالي" كمفكر أشعري سني المذهب حاول جاهدا الدفاع عن عقيدة أهل السنة والجماعة ضد المبتدعة والمتطرفين عنها، وكان يرى في ظهور الإسماعيلية و عقيدتها المغالية من تقديس للإمام و إفراط في تأويل الشريعة والكذب على النبي ﷺ بما وضعته من الأحاديث.. كل ذلك كان يرى فيه خطرا متعظما على الإسلام والعقيدة ، اشتدت معه مخاوفه منها على وحدة الأمة لا سيما وخطر الإسماعيلية الباطنية يترصد بالخلافة التي هي ظل الله في أرضه.

فاتخذ منها موقفا نقديا عدائيا و ساندته " الخليفة المستظهري " و كثير من علماء عصره مما زاد في قوة عزيمته و اتجه للرد عليهم و إبطال تلبيساتهم و يمكن أن نحصي الأسباب والدوافع التي قادت "حجة الإسلام" إلى الرد على فرقة الباطنية فيما يلي .

أولا : أسباب و دوافع الرد على الباطنية

تعددت هي الدوافع و الأسباب التي جعلت "الغزالي" ينتقد آراء الباطنية و يرد عليها و يميز فيها بين دوافع هامة :

- أولها : كان ذاتيا تمثل في كرهه لما تدعيه هذه الفرقة الإسماعيلية من الشيعة الباطنية من آراء ومعتقدات خاف منها على إيمان العوام وعلى وحدة الإسلام خاصة وأنه « شاع بين الناس تحدث هذه الطائفة بمعرفة الأمور من جهة الإمام المعصوم »² و كونه أشعريا سنيا يدافع عن عقيدة الجماعة ضد الباطنية التعليمية الفرقة المغالية وهذا بعد ديني أيضا.
- و الثاني : كان دافع سياسيا « يظهر لنا أن الغزالي لم يكن مدفوعا إلى الرد على مذهب التعليم من تلقاء نفسه فقد كان هناك دافع سياسي»³ تمثل في ذلك التكليف الوارد عليه من

1 - علي سامي النشار ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ص 299

2 - المصدر نفسه ص 48

3- لطفى جمعة ، تاريخ فلاسفة الإسلام ، [د ط] ، [د ت] ، ص 77

الخليفة العباسي " المستظهر بالله " (توفي 512هـ) الذي ألح عليه كي يؤلف كتابا في الرد عليهم يبرز للخلق أجمعين تلبساتهم وحيلهم .. يظهر ذلك مما يحكي عن نفسه في "المنقذ من الضلال" لقوله « ثم اتفق أن ورد علي أمر جازم من حضرة الخلافة بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم فلم يسعني مدافعته وصار ذلك مستحشا من خارج ضميمة للباعث الأصلي من الباطن »¹ . فرد " الغزالي " على فرقة الإسماعيلية الباطنية كان مؤيدا من الخلافة العباسية القائمة التي رأت في انتشار مذهب الباطنية و تعاليمهم عدوا يحاول زعزعة كيان حكومتهم والإطاحة بخلافتهم السنية القائمة .

فقد كان خطر الباطنية على الصعيد الفكري والسياسي متزايدا مما جعل منها حركة إرهابية هدامة في عهد الخلافة العباسية ، بالنظر لما قام به أفرادها من قتل واختطاف للسلطة والعلماء . فلما تفتنت الخلافة السلجوقية بزعامة الوزير "نظام الملك" لخطر الإسماعيلية الباطنية حاولت مواجهتها بسلاح القلم و الفكر إضافة إلى قوة السلاح والسياسة من خلال إنشاء المعاهد وتشجيع العلماء للرد عليهم و إبطال بدعهم و عقائدهم الشاذة .

و من أهم تلك المعاهد و دور العلم التي ظهرت على يد الخلافة السلجوقية هي نظامية بغداد « وكانت المدرسة النظامية في بغداد التي أنشأها نظام الملك وسميت باسمه والمدارس المشابهة مراكز لدراسة المذهب السني الذي يعتمد على الرواية والحديث . وكانت الدراسة تهدف إلى الرد على بدع الإسماعيلية و الحركات الثورية »² و اتجه إلى هذه النظامية العلماء و طلبة العلم من شتى البقاع بغية التزود بالعلم و التعرف على العلوم الشرعية كما نقلت عن النبي و اتفق عليها جمهور الصحابة.

فكان " الغزالي " واحد من هؤلاء الذين ضمتهم النظامية و عمل بها مدرسا لفترة من الزمن ناشرا للمذهب السني و مدافعا عن رأي الجماعة . فأتاح له ذلك فرصة التصدي لبدع الإسماعيلية الباطنية ضمن علماء النظامية لا سيما بعدما شرعت هذه الفرقة في إغواء العوام والعلماء لإتباع عقيدتها ، و ما صاحب ذلك من قتل لكل معارض لها بدءا من رجال الدين والعلماء حتى طال ذلك الحكام والسياسة مما عرض الدولة للانقسامات و أضعف كاهلها.

و سبب ثالث : أثر في نفسية " الغزالي " و زاد من تحمسه للرد على هؤلاء المبتدعة تمثل في سخطه عليهم بسبب قتلهم العلماء و المفكرين الذين اقتدى بهم . و لا سيما قتلهم للوزير "نظام

1 - أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، [د ط] ، 1997 ص 48

2 - عبد المحسن عاطف سلام ، حيوات العرب ، ص 586

الملك* السلجوقي الذي يكنُّ له "الغزالي" الحب والتقدير الكبيرين . و حسب "بروكلمان" هذا الدافع العاطفي هو القطرة التي أفاضت الكأس لما قال « حتى إذا قتل وليه ونصيره نظام الملك بخر أحد الإسماعيلية المتعصبين ، عكف على دراسة العقائد الإسماعيلية ليكتب بعدها عددا من المباحث الجدلية في نقدها و تفنيدها »¹.

فلم ينس "الغزالي" فضل هذا الصديق الذي عاش في كنفه ورعاه وجعله قائما على التدريس بنظاميته في بغداد التي تشهد على مناقبه إذ « في ظل نظام الملك نعمت فارس والعراق من جديد بفترة من الرخاء إلى حد ما و إن يكن الوزير أو الأتابك - كما يدعى بوصفه وصيا على السلطان (ملكشاه) - مدينا بشهرته في المحل الأول لما أسبغه من عطف على الفقهاء والعلماء وما ضمنه لهم من موارد بإنشاء المدارس في جميع المدن الرئيسية في الإمبراطورية »². إذ عكف "نظام الملك" السلجوقي على نشر العلم وتشجيع العلماء وإقامة مجالس يتنافس فيها المتنافسون من طلبة العلم مما جعله محبوبا لدى رعيته.

فهذا الوزير أيد مذهب "الغزالي" الأشعري بمعنى ناصر تيار السنة وعارض من خلاله التيار الشيعي المغالي و سخر في سبيل ذلك ثلة من العلماء من أبرزهم صديقه "الغزالي" . فسخط عليه هؤلاء القوم من الشيعة الباطنية وقتلوه هو ثم ابنه من بعده ، كان هذا مصيره ومصير غيره أيضا ممن عارض مذهبهم حيث « اغتال الإسماعليون عددا من السياسيين المسلمين وعددا من كبار القواد منهم نظام الملك (1092م) و أشاعوا الرعب في بقاع كثيرة »³.

و إذا كانت أسباب و مبررات "الغزالي" للرد على الباطنية قد تعددت و اختلفت بين الذاتي و السياسي .. فإن أسلوبه في دحض دعواهم كان واحدا بل منظما و محكما حرص فيه على إظهار مدى فساد عقيدة الباطنية ليقرر من بعد ذلك ضرورة إبطالها و تركها.

ثانيا : أسلوبه و طريقته في الرد على الآراء السياسية للباطنية

أمام هذه المخاوف السياسية من تفاقم خطر الإسماعيلية الباطنية من قتل و تقتيل و تحريف لم يجد "الغزالي" بدا من الرد عليهم والكشف عن نواياهم السيئة اتجاه العالم الإسلامي محفوفاً

* السلاجقة: بنو سلجوق سلالة تركية حكمت في أفغانستان وإيران والأناضول وسوريا والعراق والجزيرة العربية. ما بين (1038-1157م)

1 - كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص 275

2 - المرجع نفسه ص 274

3 - عبد المحسن عاطف سلام ، حيوات العرب ، ص 586

بتأييد الخليفة العباسي ونصرة الحكومة السلجوقية المناوئة للشيعة متأثراً بموت صديقه و نصيره الوزير " نظام الملك " « فألف في الرد عليهم التأليف أهمها كتابه المستظهري الذي حمل عنوان الخليفة العباسي الذي كلفه بالرد عليهم وتأييد إمامته للمسلمين ونصرة خلافته كذلك حجة الحق ومفصل الخلاف وكتاب الدرج المرقوم بالجداول والقسطاس المستقيم »¹ وفي هذه الكتب انتقد " الغزالي " الإسماعيلية الباطنية وأبرز كثيرا من تلبساتهم و تلفيقاته م وحاول إبطال وإفساد ما يعتقدونه من القول بالإمام المعصوم ووجوب التعلم عنه والتأويل.

فكانت آراؤهم شائعة بين الناس مما سهل على الإمام " الغزالي " الإطلاع عليها وجمع مقالاتهم و« أخذ يدرس مبادئ الطائفة التعليمية فابتدأ يطلب كتبهم كما فعل في كتب الفلسفة وترتيب كلامهم ورتبه ترتيبا محكما مقارنة للتحقيق واستوفى الجواب عنه حتى أنكر بعض أهل زمانه من العلماء عليه مبالغته في تقرير حججهم » ومقالات الشيعة الباطنية كانت منتشرة بين الناس فلم يصعب على " الغزالي " الحصول عليها والإطلاع على محتوياتها .

وحين انتهى منها لم يجد في تعاليمهم ما يشفي غليله بل أغلبها متأثرين فيها بمعتقدات شرقية قديمة وبالفلسفة « إذ الظاهر من مذهب التعليمية أنه مزيج من السياسة والشريعة والسياسة فيه أظهر وقليل من الفلسفة اتخذه أربابه ترويجا لمذهبهم ليصبغوه بصبغة الحكمة فاقتدوا ببعض أقوال فيثاغورث فلم يكن هذا البحث يخلو من رائحة الفلسفة»².

أكثر من ذلك كله وجد أنهم يرددون نفس الكلام عن إمامهم المعصوم الغائب الواجب الطاعة فما يقولون به لا برهان عليه سوى ما وضعوه من الأحاديث المروية عن أئمتهم . حتى ضاق بهم علماء الدين و بدعهم ، و نشبت معارك نقاشية بين الفريقين . ومما يزيد من تحامل " الغزالي " على " الباطنية " هو إضافة إلى قولهم بالنص على الإمامة فقد عمدوا إلى تأويل النصوص الدينية لجلب الأتباع وتأكيد أباطيلهم .

رغم أن رد الفيلسوف " الغزالي " على فرقة الباطنية لم يكن الأول و لا الوحيد إلا أنه كان الأشهر والأكثر ذيوعا بالنظر إلى غيره من فقهاء الأمة نظرا للطريقة العبقورية التي عمد إليها في ذلك النقد و الإبطال . ويتصف رد " الغزالي " على الباطنية بصفتين هما :

- أولا : جمع مصنفااتهم ومقالاتهم وتقديم حججهم بشكل أفضل منهم حتى أنه اتهم بأنه يقرر شبهة خصومه إلى أبعد حد وهو نفسه حكى ذلك عن نفسه في المنقذ .

1 - أحمد توفيق عياد ، التصوف الإسلامي ، ص 124

2 - لطفي جمعة ، تاريخ فلاسفة الإسلام ، ص 76 ، 77

- أما الثاني فهو الانقياد والطاعة لأمر الخليفة العباسي "المستظهر بالله" الذي رغب "الغزالي" في نصرته على خصومه ، باعتباره الأحق و الأجدر لتولي منصب الإمامة. هكذا إذن «يظهر أن موقف الغزالي من الباطنية كان سياسيا و دينيا، فقد أراد أن ينتصر للخليفة العباسي ويثبت أنه الإمام الحق الأولي بالإتباع و أن غيره من الباطنية ليسوا على حق»¹.

و هذا ما يتضح من إطلاقه على " فضائح الباطنية " اسم " المستظهري " الذي استعرض فيه رأي الباطنية وحججهم و قام بالرد عليها لإبطال دعواهم في مسألة الإمامة و تداعياتها العقدية خاصة زعمهم في وجوب نصب الإمام المعصوم ، مبرزا في الوقت ذاته تصوره لحقيقة الإمامة فاصلا في ما نشأ حولها من خلاف .

المطلب الرابع : الغاية من البحث في الإمامة و مكانتها في فلسفة الغزالي

أولا : مركزية و مكانة السياسة في فلسفة الغزالي

لم يكن خوض الإمام " أبو حامد الغزالي" في غمار النظريات و الآراء السياسية ضربا من ضروب الشهرة أو طلبا للسلطة بل وضعاً أوجدته ظروف عصره ، و عكسه ذلك الصراع السياسي بين الشيعة والسنة حول المناصب السياسية و طرق بلوغ منصب الخلافة و ما ترتب عن ذلك من تداعيات و لوائح .

بل كان اهتمامه بالسياسة وليد ظروف عصره من تنافس و صراع على السلطة، إضافة لما تحتله هذه السياسة من مكانة و أهمية في حياة الأفراد و المجتمعات حتى أنه يقول عنها «أشرف أصول الصناعات : السياسة ، إذ لا قوام للعالم إلا بها» . و يحدد أصنافها وأنواعها قائلا «هي أربع أضرب : الأول سياسة الأنبياء والثاني الخلفاء والولاة والسلاطين وحكمهم على العامة والخاصة... والثالث العلماء والحكماء.. والرابع الوعاظ الفقهاء..»².

و أكثر هذه الأضرب تداولها و شيوخا بين الناس هي سياسة الخلفاء .. لأن هؤلاء معرفتهم أيسر من غيرهم و مهامهم مجلبة للأنظار ، لذلك وجد الغزالي في السياسة مجلبة للقواعد على الناس ومراعاة لنفعهم لذا قال « فاعلم أن مراعاة مصالح العباد من جملة العبادة بل هي أفضل العبادات لقوله ﷺ : الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله انفعهم لعياله»³.

1 - محمد علي أبو ريان ، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ، دار النهضة العربية ، بيروت لبنان ، ط2 ، [د ت] ص 349

2 - أبو حامد الغزالي ، ميزان العمل ، دار المعارف بمصر ، ط1 ، 1964 ، ص 329

3 - المصدر نفسه 383

وما كان اهتمام "الغزالي" بالسياسة و الخوض في غمارها إلا لجعلها في خدمة الصالح العام شيء و أن تكون محور اهتمامنا و وجودنا شيء آخر . فإذا كانت « الإمامة أو الخلافة » لها فوائد فلا يجب أن نجعل منها سبيلا يتجادل فيه المتجادلون وتقع فيه القلاقل والحروب .. يقول حجة الإسلام « النظر في الإمامة ليس بحثا مهما لا غنى عنه بل إنه مثار للتعصب وأن المعرض عن الخوض فيه أسلم من الخائض »¹ . حتى أنه قال في كتابه "الإحياء" أنه « مما يجب الهرب منه الولاية و الجاه و كثرة العلائق »² ففي الانشغال بما تشويش للقلب والدين.

فالرسول ﷺ حين بعث على أمته لم تكن الإمامة هي أول ما دعا إليه أو شرح كيفية حصولها بل كان مبشرا بدين جديد عمل من خلاله على إقرار السلام بنطق الشهادة التي هي إعلان رسمي عن دخول ذلك الدين الجديد.

هكذا نرى أن "الغزالي" لا يخرج عن سنة أهل عصره من فقهاء السنة خاصة الأشاعرة في موقفه السياسي و معالجته لمسألة الإمامة التي يراها بحثا فقهيا صرفا و ذلك ما أكده في مؤلفه الاقتصاد في الاعتقاد حيث قال « النظر في الإمامة ليس من المهمات وليس أيضا من فن المعقولات ، و لكن إذا جرى الرسم باختتام المعتقدات به أردنا أن نسلك المنهج المعتاد فإن القلوب عن المنهج المخالف شديدة النفار»³ .

و لا نفهم من ذلك إنكاره لأهمية الإمامة بل العكس هو الصحيح ، بمعنى قيامها أفضل في الأمة فهي نعمة من نعم الله على عباده ، و قد سلك الغزالي في بحثه لهذه المسألة طريق مذهب الأشاعرة إذ « سلم الغزالي بضرورة وجود إمام للمسلمين كافة، و حدد شروطا لصحة الإمامة و قال بأنها متحققة في الإمام المستظهر بالله»⁴ .

فلم يكن اهتمام "الغزالي" بالأمر السياسي غاية في حد ذاتها ، لكنه ما خاض في مجالها إلا ليكشف عن كيفية تسيير المجتمعات ، مطالبًا بضرورة احترام الدين و متعهدًا بذلك ، و هذا ما مثل زبدة آرائه السياسية . إذ « تحتل السياسة عنده مكانة مرموقة على المستوى النظري

1 - أبو حامد الغزالي ، الاقتصاد في الاعتقاد ، دار الأمانة، مطبعة دار الكتب بيروت لبنان ، ط1 ، 1969 ص 47

2 - أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج1، ص 694

3 - أبو حامد الغزالي ، الاقتصاد في الاعتقاد ، ص 105

4 - أحمد عبد المهيمن ، إشكالية التأويل بين كل من الغزالي و ابن رشد ، دار الوفاء لندنيا الطباعة و النشر، الإسكندرية مصر ،

ط1 ، 2001 ، ص 193

والتطبيقي» وهو يعتبر أن « المقصود بالسياسة عنده هو التعليم و التهذيب و الإرشاد والتعاون في أداء الأعمال التي لا بد من إنمائها لكفالة قيام المجتمع واستمراره »¹ .

و ما غاية السياسة إلا حفظ مصالح العباد و دفع المظالم و لن يتم ذلك إلا إذا كانت سياسة أخلاقية « فالسياسة عند الغزالي قائمة على الأخلاق و لا بد من وازع شرعي ومن هنا يرى أن وجوب نصب الإمام ليس مأخوذاً من العقل بل هو واجب شرعا »² أكد على ضرورة الوازع و الشوكة للإمام الحاكم التي تضمن أمن واستقرار حكمه و ضمان التسيير الجيد والحكم للبلاد.

و هذا ما يتضح في مؤلفه " الاقتصاد في الاعتقاد" حين يتحدث عن الإمامة ويؤكد على ضرورة وجود سلطان مطاع يجمع شمل الأمة و يوحد على كلمة الحق كما تكلم حجة الإسلام "الغزالي" عن الإمامة و تداعياتها في كتاب " التبر المسبوك في نصيحة الملوك وفضائح الباطنية " إذ «بالرغم من أن الغزالي كان كارها للخوض في هذه المسألة نظرا لحساسيتها إلا أنه أعطاها حقها من الدراسة والشرح »³ .

وقد تناول في دراسته وخوضه في مسألة الإمامة حكمها ، أي حكم وجوبها ليؤكد على شرعيتها ودورها في حفظ الدين و مصالح الرعية، مُنبّها إلى من هو أجدر و أحق و أولى بما من الناس و هو " المستظهر بالله العباسي". داحضا بذلك فكرة التوارث و الوصية والعصمة التي نادى بها الشيعة الباطنية لأئمتهم .

و حسب ما ألفه " الغزالي" في السياسة وشؤون الحكم يمكن أن نكشف عن الغاية من تأسيس الدول و ممارسة السياسة عنده فهو يؤكد على وجود تطور مستمر في حياة الإنسان « و أن هذا التطور فرض على الإنسان أن يخلق لنفسه دولا تنظم شؤونه و تحقق سعادته لأنها هي الغاية التي يسعى الفرد والجماعة إلى تحقيقها » بل حسبه أن يؤكد على « أن الهدف الأسمى لا يمكن تحقيقه إلا بواسطة السياسة »⁴ .

1 - نور الدين حاروش ، تاريخ الفكر السياسي ، دار الأمة للطباعة و النشر و التوزيع ، برج الكيفان الجزائر ، ط1 2004 ، ص 216

2 - محفوظ سماتي ، الفقهاء و السياسة ، ضمن أعمال المنتدى الدولي التفاهم بين المذاهب ، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى ، الجزائر، 2002 ، ص 256

3 - نور الدين حاروش ، المرجع نفسه ، ص 203

4 - إسماعيل زروخي ، الدولة في الفكر العربي الحديث ، ص 64

ثانيا : ربط السياسة بالأخلاق

حرص " الغزالي " في حوضه لمجال السياسة على التربية السياسية و اهتم بالجانب الأخلاقي للممارسات السياسية « فوظيفة التربية السياسية هي كوظيفة تالية لعمل النبوة » لأنها تعمل على تنظيم حياة الأفراد و علاقاتهم الاجتماعية باعتبار « أن المجتمع السياسي لا بد أن يرتبط بعلاقات تحدد وظيفة كل عضو في المجتمع ولا يتأتى له ذلك إلا بالتربية السياسية »¹ فالأخلاق عماد السياسة و متممها.

لذلك نلمح هنا أن السياسة عند " الغزالي " ارتبطت بالأخلاق و التربية والتعليم لتحقيق الغاية المنشودة منها ، كونها تعمل على توجيه الفرد والجماعة إلى تحقيق أهدافهم وغاياتهم و سد حاجاتهم في الدنيا والآخرة و « بهذه السياسة يتم إقامة نظام الدنيا كما يتم عنها كذلك إقامة نظام الآخرة »² .

فكأن الدولة التي دعا إليها " الغزالي " تجمع بين المصالح الدنية و الدنيوية « ويؤكد الغزالي على أن سياسة الدولة لا جدوى لها إذا لم تجمع بين الدين و الدنيا »³ لما يرد عنه من تأكيد للربط بينهما، في الكثير من الكتب و الرسائل التي ألفها حجة الإسلام ناصحا من ورائها حكماء الأمة و خلفاءها بضرورة مراعاة القيم و المبادئ الأخلاقية الفاضلة في سياسة الدولة ورعاية شؤون الخلق أجمعين . وما دام الهدف المنشود من تأسيس الحكومات و تنصيب الأئمة هو تحقيق أكبر قدر من السعادة للأفراد في ظل طاعة الله- عز و جل- و الانقياد لأوامره فإن ذلك كله مرتبط بوجود سياسة حكيمة تراعى فيها مصالح الدنيا و الدين و تحتكم إلى معايير أخلاقية سامية.

يقول الإمام " أبو حامد الغزالي " في هذا الصدد « إن مقاصد الخلق مجموعة في الدين و الدنيا و لا نظام للدين إلا بنظام الدنيا ، فإنها مزرعة الآخرة ، و هي الآلة الموصلة إلى الله تعالى لمن اتخذها آلة و ممرا و لم يتخذها وطنا و مستقرا و ليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الأدميين .. و لا بد لها من سياسة و أعني بالسياسة استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المستقيم المنجي في الدنيا والآخرة »⁴ .

1 - إسماعيل زروخي ، الدولة في الفكر العربي الحديث ، ص 64

2 - المرجع نفسه ، ص 64 ، نقلا عن فاضل زكي محمد ، الفكر السياسي العربي الإسلامي ص 287

3 - محفوظ سماتي ، الفقهاء و السياسة ، ص 256

4 - المرجع نفسه ص 256 ، نقلا عن الغزالي ، فاتحة العلوم، القاهرة، 1924 ، ص 4

مما سلف تظهر أهمية السياسة في فكر الفيلسوف " الغزالي " و دورها في تنظيم حياة الأفراد و ربطهم بخالقهم ، فمن خلالها تحقق مصالحهم الدينية و الدنيوية . و الواضح أن " الغزالي " في نظريته السياسية و تصوره للعلاقات بين الأفراد قد « ربط الأخلاق بالسياسة و علا من شأن وظيفة التربية السياسية »¹ .

و عليه ينبغي أن تراعى في ممارسة السياسة الأخلاق و الضوابط الأخلاقية حتى لا تكون الإمامة غاية الخلق في الحياة بل وسيلة يعتمد عليها في تحصيل الخيرات لذا لا بد من مراعاتها و حفظها فهي أمانة ينبغي أن تؤدي على أكمل وجه حتى تتحقق الغاية المنشودة من نصبها و عقدها و لن يتأتى ذلك إلا احتكم الأئمة و ولاة أمور المسلمين إلى الضوابط الأخلاقية.

و لن تقوم إمامة أو تدوم سياسة الملوك إذا لم تهدف إلى تحقيق سعادة الإنسان و اعتباره غاية نصبت الخلافة لأجلها فكانت « الولاية نعمة من الله - عز وجل - من قام بحققها نال من السعادة مالا نهاية له ، و لا سعادة بعده و من قصر عن النهوض بحققها حصل في شقاوة لا شقاوة بعدها إلا الكفر بالله تعالى »² .

و في مؤلفاته العديد يذهب الإمام " الغزالي " إلى تأكيد أهمية الإمامة في نظام الدين و سياسة الدنيا . مبرزاً فضلها قيام في الأمة لحاجة في الشرع قبل العقل من حفظ الدين و إقامة الحدود .. و الإمامة تكليف أكثر منها تشريف.

و بالنظر إلى ما خلفه " للغزالي " من آراء فيما يتعلق بالولاية و إمامة المسلمين ندرك أنه لم تكن له نظريات سياسية بارزة و منفردة ، لكنه ما خاض في هذا المجال إلا ليوضح ما كان سائداً من سياسات في عصره ، و يصحح بعض المعتقدات السياسية الشائعة . لذلك ثار الإمام " أبو حامد " على النظريات السياسية المبتدعة و المنحرفة.

و حاول في كل ذلك الاحتكام إلى الشرع و الأخلاق حتى قال بعض المفكرين أن « ليس للغزالي رأي خاص في الحكومة و لا نظرية معينة في السلطان . ولكنه قد وضع آداباً بسيطة و نص على جملة من الشرائط تكاد في جوهرها تميل إلى الديمقراطية »³ .

1 - نور الدين حاروش ، تاريخ الفكر السياسي ، ص 216

2 - زكي محمود عدل الدين سالم ، الإنسان في فلسفة الغزالي و تصوفه ، دار الفكر العربي ، القاهرة مصر ، [د ط] ، [د ت] ص 149 ، نقلاً عن أبي حامد الغزالي التبر المسبوك في نصيحة الملوك ، ص 18 ، 19

3 - المرجع نفسه ، ص 154

- و نتيجة لتلك الظروف التي اتسم بها عصر " الغزالي " لاسيما مغالاة بعض الفرق في شرح كيفية نصب الإمام وتحديد شروطه وجد نفسه وجها لوجه مع التيار الشيعي المتجسد في فرقة الباطنية التعليمية من الإسماعيلية فبالنظر إلى آرائها المغالية المرتكزة على مسألة الإمامة فلم يجد حجة الإسلام بدا من الرد عليهم لإبطال مزاعمهم. فكانت آراؤه السياسية مخالفة لتلك التي سادت لدى الشيعة الباطنية الذين طالبوا بإمامة متوارثة في الأعقاب ووصاية لا تنقطع وهدف منها إلى إقامة آراء جديدة - نوعا ما- عما كان سائدا قبله من غلو وتزمت مستفيدا مما حققه سلفه من أهل السنة والجماعة في المجال السياسي .

فالإمام الفقيه لم ينفرد برأي خاص أو نظرية سياسية مميزة ، بل إنه لم يخرج عن نطاق مذهبه السني الأشعري ، حين دعا إلى وجوب نصب الإمامة في الأمة و ربطها بالأخلاق وحرص على التربية لتنظيم شؤون الرعية و سياسة أمورهم وخاض في الفكر السياسي لضبط حقيقة مسألة الإمامة و تحديد شروطها حتى لا يختلط أمرها على الخلق بسبب كثرة الآراء فيها و مغالاة الفرق لا سيما الباطنية في تصورها لها.

لذا نلمح في دراستنا لموقفه من الإمامة شقان أحدهما يرد به على الباطنية في الإمامة والثاني يؤسس به موقفه من هذه الإمامة أيضا.فموقفه كان نقديا تأسيسيا . وسنعرض فيما يأتي خلاصة آرائه السياسية حول مسألة الإمامة وتداعياتها بالتفصيل متناولين بذلك موقفه من الباطنية فيما ذهب إلىه من المعتقدات المتمحورة حول الإمامة، كاشفين عن جوهر عقيدته فيها باعتباره ممثل التيار السني الذي يقف وجها لوجه للتيار الشيعي المتمثل في فرقة الإسماعيلية الباطنية أو كما يطلق عليه " الغزالي " التعليمية أو مذهب التعليم .

المبحث الثاني : تصور الغزالي السني الأشعري لمسألة الإمامة

المطلب الأول : تصور الغزالي لمفهوم الإمامة

أولاً : وجوب نصب الإمامة

يوافق حكم " الغزالي " على الإمامة رأي غيره من فقهاء الأمة الذين رأوا أن وجوبها لا يكون إلا بمقتضى الشرع لأن الإمامة تكليف شرعي لحماية مصالح العباد اعتبر أبو حامد الغزالي الإمارة « من أفضل من العبادات إذا كان ذلك مع العدل والإخلاص »¹.

و ما دام للإمامة كل هذه الأهمية فمن الضروري قيامها في الأمة بل أوجبها " الغزالي " كما أوجبها سابقوه لتلك المبررات و غيرها « و إذا نظرت سر الله في الخلافة لم تعد هذا لأنه سبحانه إنما جعل الخليفة نائباً عنه في القيام بأمور عباده ليحملهم على مصالحهم ويردهم عن مضارهم وهو مخاطب بذلك ولا يخاطب بالأمر إلا من له القدرة عليه »².

و يكاد يتفق رأي " الغزالي " في وجوب نصب الإمامة و ضرورتها مع رأي غالبية مفكري الأمة الإسلامية . إذ أجمع أهل السنة على ذلك الوجوب بناء على ما قام به الصحابة عند وفاة النبي ﷺ حين عجلوا بنصب " أبي بكر " كخلف له . مما يدل على « إن الإمامة فرض واجب على الأمة لإقامة الإمام ينصب القضاة والأمناء ويضبط ثغورهم ويغزي جيوشهم ويقسم الفيء بينهم ويتنصف للمظلومين من ظالمهم »³.

و بغض النظر عن المخالفين لجمهور الأمة في وجوب نصب الإمامة ، فإن حكم الغزالي عليها كان واضحاً ومحدداً من خلال ما خلف لنا من مؤلفات تتعلق بالإمام الحاكم ووظائفه الشرعية. و هذا الحكم بوجوب نصب الإمامة متفق عليه لدى غالبية فقهاء الأمة الإسلامية و علمائها . كشيخ الإسلام " أحمد بن تيمية " الذي جعل الإمامة أمر أساس في الدين لقوله « فيجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين بل لا قيام

1- أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج 1 ، ص 401

2- عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص 209

3- عبد القاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص 308

للدين إلا بها»¹. ويرد على لسانه تأكيد آخر لمكانة وأهمية نصب الإمامة في مؤلفه "منهاج السنة" إذ رأى أنه «لا بد للناس من إمامة برّة كانت أو فاجرة»².

فالغزالي متفق مع فرقة "الباطنية" وسائر أصناف المسلمين والفقهاء في مسألة وجوب الإمامة باعتبار أن هذا الأمر ضروري لحفظ الإسلام وحماية الأمة ماعدا بعض المخالفين لذلك الأمر "كعبد الرحمان بن كيسان والأصم". كما رفض القول بإمامين لنفس الأمة «و برهانا على ذلك أنه إذا كان إمامان فلا بد أن يكون أحدهما كاذبا والآخر صادق ومن شروط الإمامة صحة العقيدة وسلامة الدين»³.

أما ما تدّعيه "الإسماعيلية الباطنية" من معتقدات في وجوب نصب الإمام من الطائفة الشيعية، لكونه معصوماً و يتوارث منصب الولاية بالنص.. فهي إدّعاءات باطلة من أساسها و عليهم العودة إلى مبايعة إمام الزمان "المستظهر بالله" العباسي، ينطبق هذا الأمر عليهم هم و حتى على غيرهم من المخالفين المطالبين بمنصب الإمامة «فالإمام من انعقدت له البيعة من أكثر الخلق، و المخالف للأكثر باغ يجب رده إلى الانقياد إلى الحق»⁴. هذه ما البيعة قد تحققت للخليفة القائم "المستظهر بالله العباسي" و لا يجوز التشكيك فيها لخلعه.

و قد لجأ حجة الإسلام "الغزالي" إلى بيان فساد العقيدة الباطنية ليؤكد على عدم صحة إمامة خليفة سواه ممن تدّعيهم الباطنية، مطالباً بوجوب طاعته، مُركّزاً على مصلحة الأمة حريصاً على صيانة الدين و حمايته لذا «إن الأهم عند الغزالي هو وجود إمام مطاع وهذا الإمام واجب لأن الدين واجب و لا يحصل نظام الدين إلا بنظام الدنيا الذي يتكفل ببقاء الحياة وسلامة الحاجات الضرورية وتوفرها»⁵.

و لا ينبغي أن يتبادر إلى ذهننا عند ذكر الكلام السالف عدم أهمية الإمامة في نظر "الغزالي" بل على العكس من ذلك إن المراد بما سبق أنه لم يجعلها أصلاً من أصول الدين كما ادعت الإسماعيلية الباطنية، حتى لا يصبح الاقتتال حولها حقاً و واجب مبرراً. فعلى الرغم من أن

1 - أحمد بن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، دار الجيل، بيروت لبنان، ط1، 1993، ص 191

2 - أحمد بن تيمية، منهاج السنة، ج1، ص 146

3 - حنا الفاخوري و خليل الجر، مرجع سابق ص 659

4 - أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج1، ص 136

5 - نور الدين حاروش، تاريخ الفكر السياسي 203

" الغزالي " لم يفرض لها بحثا خاصا إلا انه يوجبها لحماية الأمة وتسيير وتنظيم شؤونها وهو نفس الرأي الذي اجمع عليه سائر فقهاء الأمة عدا فئة قليلة منهم (الخوارج والأصم) .
هكذا إذن أكد حجة الإسلام على أهمية الإمامة في حياة الأمم وارتباط تحقيقها بسعادة الأفراد لقوله « فبان أن السلطان ضروري في نظام الدين وضروري في الفوز بسعادة الآخرة وهو مقصود الأشياء قطعاً »¹ . و دليل هذا الوجوب والضرورة هو الشرع لا العقل فحسب ما يراه " أبو حامد الغزالي " « كان وجوباً نصب الإمام من ضروريات الشرع الذي لا سبيل له إلى تركه فاعلم ذلك »² .

فلم يختلف حجة الإسلام عن غيره من فقهاء الأمة الإسلامية حين أقر بوجوب نصب الإمام للأمة فهو يرى أن ذلك ضروري لحفظ الدين والعباد. لكن هذا الوجوب يقتضيه الشرع لا العقل لأن غرضه حفظ أمن واستقرار الأمة وتوحيدها لتعم الألفة والمحبة بين أفرادها، فبدونها ينعدم كل ذلك .

فلو لم ترتبط الإمارة بالقيم والمبادئ الأخلاقية الفاضلة لما حققت الغاية المنشودة من نصبها وقيامها في الأمة « و معلوم أن السلطنة و الإمارة لو تعطلت لبطل الدين و الدنيا جميعاً و ثار القتال بين الخلق و زال الأمن و خربت البلاد و تعطلت المعاش »³ .

بل يذهب الإمام " الغزالي " إلى أكثر من هذا الحد فيقرّ بوجوب طاعة الأئمة و الملوك و إن كانوا ظالمين ، لأن إمامتهم صحيحة و واجبة الطاعة و يوضح ذلك في قواعد العقائد قائلاً « ونحن نقضي بنفوذ قضاء أهل البغي لبلادهم لمسيس حاجتهم فكيف لا نقضي بصحة الإمامة عند الحاجة و الضرورة »⁴ فكما لا يُتوقع خلو البلاد من القضاة لا يُتوقع أيضاً خلوها مما هو أكبر وهم الأئمة الذين يأتهم بهم القضاة ...

فكان نصب الإمام واجبا بعد خلو هذا المنصب كما حدث بعد وفاة رسول الله ﷺ لما يمكن أن يلحق بالدين وبالعباد جراء خلو هذا المنصب لأن « الدولة أساسها الدين وهو المبرر لوجودها ومن ثمة فإن عليها حراسته والحفاظ عليه »⁵ .

1 - أبو حامد الغزالي ، الاقتصاد في الاعتقاد ، ص 105 ، 106

2 - محفوظ سماتي ، الفقهاء و السياسة ، ص 256

3 - أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج1، ص 404

4 - أبو حامد الغزالي ، قواعد العقائد ، ص 98

5 - راشد لبراي ، قادة الفكر الإسلامي في ضوء الفكر الحديث ، مكتبة النهضة المصرية للطباعة والنشر ، القاهرة مصر ،

ط1، 1969 ، ص 240

فالدولة (أو الإمارة) لا تقوم لها قائمة ولا أمر مطاع إلا إذا عملت على نشر الدين وإقامة أركانها فهما متكاملان ولا يتصور قيام ملك بلا نزعة أو اعتقاد ديني . يظهر هذا الارتباط بين الملك والدين فيما أورده الغزالي من حديثا عن ذلك في ميزان العمل جاء نصه كالتالي « قيل الدين والسلطان توأمان وقيل الدين أس والسلطان حارس ، وما لا أس له فمهذوم وما لا حارس له فضائع »¹.

لكن الإمام " الغزالي " يربط وجوبها بالدين حرصا على وحدة الأمة والتزاما بما أنزل الله تعالى من شرائع وأحكام تحتاج إلى من يقيم حدود الله في الخلق و ينوب عن نبيه في سياسة المؤمنين لأن « السلطان ظل الله في أرضه فينبغي أن يعلم أن من أعطاه الله درجة الملوك وجعله ظله في الأرض فإنه يجب على الخلق محبته و يلزمهم متابعتة و طاعته »².

و من هنا كانت فكرة « السلطان خليفة الله » تؤكد الاعتقاد الجازم في أن « الحاكم هو الخليفة أو السلطان أو الملك أو الأمير إنما يحكمم بتفويض من الله »³ . فالدولة الإسلامية أساسها نظرية التفويض والحق الإلهي التي لا يجوز مخالفة الإمام فيها خوفا على الدين والدولة وعلى الشؤون الدنيوية « فالمراعي للدين والدنيا كما يجب و على ما يجب جامعا بينهما خليفة الله في أرضه فهو السابق عند قوم »⁴.

فكان بذلك نصب الإمام عند " الغزالي " واجبا وجوبا شرعيا بمعنى أقره الشرع و حتمه وليس وجوبه عقليا كما تعتقد " الباطنية " . و نفس هذا الرأي ذهب إليه " بن خلدون " وأقره في " مقدمته " اتفاقا مع رأي أهل السنة و نقلا عنهم.

حيث أظهر استقراره لتاريخ الحكومات في البلاد الإسلامية و طرق تولي الخلافة و نصب الإمامة « إن نصب الإمام واجب قد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين لأن أصحاب رسول الله ﷺ عند وفاته بادروا إلى بيعه أبي بكر - رضي الله عنه - وتسليم النظر إليه في أمورهم وكذا في كل عصر من بعد ذلك ولم يترك الناس فوضى في عصر من الأعصار واستقر ذلك إجماعا دالا على وجوب نصب الإمام »⁵.

1 - أبو حامد الغزالي ، ميزان العمل ، ص 297 ، 298

2 - راشد لبروي ، قادة الفكر الإسلامي في ضوء الفكر الحديث ، ص 340 ، نقلا عن الغزالي ، التبر المسبوك

3 - المرجع نفسه ص 341

4 - أبو حامد الغزالي ، ميزان العمل ، ص 383

5 - عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص 205

ثانيا : تقسيم المجتمع (و طبقات الدولة) و ترتيبه أجزاءه

كان المجتمع الإسلامي في نظر الغزالي ذا تنظيم خاص ، منقسم إلى طبقات وفئات يكمل بعضهما بعضا كترتيب أعضاء البدن و تكامل وظائفه . و قد ورد رأيه هذا في ميزان العمل إذ يقول الإمام الغزالي « والعدل في السياسة أن ترتب أجزاء المدينة الترتيب المشاكل لترتيب أجزاء النفس حتى تكون أجزاء المدينة في ائتلافها وتناسب أجزائها ، وتعاون أركانها على الغرض المطلوب من الاجتماع كالشخص الواحد فيوضع كل شيء في موضعه » .

وحسب تصور " الغزالي " لهذا المجتمع و فئاته رأى أنه « ينقسم سكانه إلى مخدوم لا يخدم وإلى خادم ليس بمخدوم وإلى طبقة يخدمون من وجه ويخدمون من وجه آخر ¹ . وهذا التقسيم كان على أساس العمل والوظيفة ، لكنه يتخذ صورة أوضح في كتابه " الإحياء " والذي يقول فيه « إن الناس ينقسمون إلى خواص و عوام ² هؤلاء الخواص هم أهل العلم و المعرفة والراسخون في العلم أما العامة فهم باقي فئات المجتمع .

كان المفكر الأشعري الفذ " أبو حامد الغزالي " يراعي في تقسيمه لطبقات وفئات الدولة ترتيب أعضاء البدن لحكمة بالغة . حتى انه يبرر ذلك التشابه بين ترتيب فئات الدولة على منوال ترتيب عناصر البدن في كتابه " إحياء علوم الدين " قائلا « اعلم أن البدن كالمدينة والعقل - أي من المدرك من الإنسان - كملك مدبر لها وقواه المدركة من الحواس الظاهرة و الباطنة كجنوده و أعوانه ، و أعضاءه كرعيتيه والنفس الأمانة بالسوء التي هي الشهوة والغضب كعدو ينازعه في مملكته و يسعى في إهلاك رعيتيه ، فصار بدنه كرباط و ثغر و نفسه كمقيم فيه مرابط ³ .

نستنتج من ذلك أن المجتمع الذي تصوره " الغزالي " ونظر له « هو مجتمع طبقي فيه المخدوم الذي لا يخدم و الخادم الذي يخدم ومن ثمة ففيه العديد من المصالح المتلبسة بل والمتناقضة » هنا تظهر فكرة المساواة بين الناس على أساس هذه الطبقية والفوارق «و واضح أن الغزالي لا يؤمن بالمساواة المطلقة بين الناس لا من حيث الحظوظ المادية ولا من ناحية الملكات العقلية أو الصفات الأخلاقية ⁴ » فالدولة التي دعا إليها متفاوتة الطبقات متميزة الأدوار و المهام .

1 - أبو حامد الغزالي ، ميزان العمل ، ص 273

2 - أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج1، ص 294

3 - المصدر نفسه ص 862

4 - راشد لبراي ، قادة الفكر الإسلامي في ضوء الفكر الحديث ، ص 338

ونعتقد أن إقرار " الغزالي " بمبدأ التفاوت في تقسيم طبقات الدولة لم يكن جزافاً بل مرده نظريته الواقعية لمجتمعهم و ظروف عصره « لأنه واقعي يرى الانقسامات في المجتمع حقيقة واقعة لا سبيل لإنكارها أو حتى تجاهلها » فلم يكن تصوره للدولة تصوراً مثالياً بل واقعياً .
لكن لا ينبغي أن نفهم من ذلك التصور لتقسيم المجتمع أن الإمام " الغزالي " يشجع الفوارق والطبقية و اللامساواة ، إنما على العكس من ذلك كان ينادي بالعدل « و قد عمل على استنكار الفوارق الصارخة و من ثم فهو يدعو إلى التقريب من الطبقات أو إلى العدل الاجتماعي بمعنى آخر »¹ .

المطلب الثاني : شروط انعقاد الإمامة

اتفق جمهور فقهاء الأمة الإسلامية و علمائها على جملة من الشروط بما يتم عقد الإمامة منها ما يتعلق بعقد البيعة الذي يتم من خلاله نصب الإمامة ، ومنها ما يتعلق بالإمام و خصاله و قد سبق الحديث في الفصل الأول عن الشرط الأول أي شرط البيعة و أولي العزم القائمين بها .
ولا يختلف فيها رأي الإمام " الغزالي " عن غيره من أهل السنة حيث يذهب إلى تأكيد مبدأ الاختيار و التشاور لمبايعة الخليفة و نصب الإمامة ، مخالفاً فكرة النص و التوارث التي جاء بها الشيعة " الباطنية " . و سنقدم فيما يلي تفصيلاً لرأيه في شروط الإمامة .

أولاً : إبطال النص على الإمامة و إثبات قيامها بالبيعة و الاختيار

1* إبطال النص على الإمامة

لاقت فكرة النص على الإمامة تدمر من قبل جمهور الأمة و فقهاء من أهل السنة و الجماعة فقد رفض الجمهور مسألة النص للتدليل على وجوب الإمامة ، من كل آفك مفتر يتجرأ على الإسلام و تعاليمه . و عمد " أبو حامد الغزالي " بدوره إبطال ذلك الأمر لما ثار على الباطنية و بدعها التي ابتدعتها في سياق الإمامة . و كان القول بالنص أشهرها ذيوها و انتشاراً فهو أحد مزاعمهم التي احتجوا بها للتدليل على صحة إمامة من يدعون من آل البيت العلوي من ذرية إسماعيل الإمام السابع ، و تأكيداً لقداستهم و ضمان لطاعة مطلقة لهم .
و كما قلنا أراد " أبو حامد الغزالي " تنفيذ زعم الباطنية السابق و إبطاله حفاظاً على العقيدة و إيمان العوام فلم تكن دعوى تلك الفرقة الشيعية مما ورد إلزام شرعي به ، وإذا افترضنا صدق زعم الباطنية في أن الإمامة هي أهم مسائل الدين ، لكان من الجدير أن يوضحها الكتاب ، و لا

1 - راشد لبراوي ، قادة الفكر الإسلامي في ضوء الفكر الحديث ، ص 338

أظهرها النبي ﷺ . فإن القرآن يتضمن عدة مواضيع عدة تناول ذكر الخالق تعالى وصفاته وملائكته و مختلف مسائل العبادات و الطاعات و حتى المعاملات .. لكن « لم يحدث أن ذكر الرسول ﷺ مسألة الإمامة حين كان يدعو الناس للإسلام وإن ما دعا إلى الشهادة فحسب كما لم يظهر حاجة المسلمين حال حياته لأنه صلوات الله عليه كان إماما للمسلمين »¹ .

و هو نفس ما استدل به غالبية فقهاء الأمة السنيين لدحض فكرة النص من الله و رسوله على وجوب الإمامة « و دليل الجمهور أن النص على الإمام لو كان واجبا على الرسول ﷺ لبينه على وجه تعلمه الأمة علما ظاهرا لا يختلفون فيه . لأن فرض الإمامة يعم الكافة معرفته كعرفة القبلة و أعداد الركعات ولو وجد النص منه هكذا لنقلته الأمة بالتواتر و لعلموا صحته بالضرورة كما اضطروا إلى سائر ما تواتر الخبر فيه »² .

جاء تأكيد " الغزالي " لما سبق في كتابه " الإحياء " الذي ورد فيه موقفه واضحا جليا مبطلا من خلاله مسألة النص ، مصرحا على البيعة و الاختيار كما هو رأي جل علماء السنة . يقول " الغزالي " « أن الإمام الحق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم- و لم يكن نص رسول الله ﷺ على إمام أصلا ، إذ لو كان أولى بالظهور من نصبه آحاد الولاة و الأمراء على الجنود في البلاد ، و لم يخف ذلك فكيف خفي هذا ؟ و إن ظهر فكيف اندس حتى لم ينقل إلينا ؟ » .

و لاحظ " الغزالي " أن الخلفاء الراشدين تولوا إمامة المسلمين عندما اختارهم جمهور الأمة فبطلت بذلك دعوة النص « فلم يكن أبو بكر إماما بالاختيار و البيعة، أما تقدير النص على غيره فهو نسبة للصحابة كلهم إلى مخالفة رسول الله ﷺ و حرق الإجماع و ذلك مما لا يستحري علي اختراعه إلا الروافض »³ . فالبيعة أساس نصب الإمامة و هو أمر تعارف عليه المسلمون منذ عهدهم الأولى و طبقوه في اختيار خليفة رسول الله ﷺ بدأ من الخليفة الأول "أبو بكر الصديق" و تعاقبت الحكومات فيما بعد على هذا المنوال عاملة بمبدأ الاختيار أما فكرة النص فلم يقل بها غير أئمة الشيعة وخلفائها .

1- مصطفى حلمي، نظام الخلافة ، ص 237

2- عبد القاهر البغدادي، أصول الدين ، ص 280

3- أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج1، ص 135

*2 بطلان التوارث

حين أنكر " أبو حامد الغزالي " فكرة التنصيب في مجال سياسة الدولة الإسلامية ، لزم عن ذلك البرهان على عدم جدوى التوارث أيضا إذ لا مبرر للقول به . و لو كانت الإمامة مما تورث لكان أحق بها أبناء الأنبياء و الرسل السابقين و لامتازوا بها على الناس لكن الملاحظ هو خلاف ذلك كله .

فلتنظر مثلا إلى ابني آدم -عليهما السلام- ماذا كان حالهما ووالدهما أب الخلق كله وكيف حكى الله عنهما قائلا ﴿ وَاثُلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾¹ .

و نفس الشيء حدث مع ابن نوح-عليه السلام- فلم يرثه ولده في حكمه بل عصاه وكان من الضالين . و في القرآن الكريم ذكر لهذه الواقعة قال الله تعالى يواسي نبيه ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾² .

فلم يرث أبناء الأنبياء الحكم عن آبائهم وذويهم . وما ذلك إلا لأنهم كغيرهم من سائر البشر عرضة للخطأ والمعصية وحتى الرسول ﷺ أكد أن التمايز بين البشر يكون على أساس ما كسبه كل واحد من حسنات جراء عمله الصالح وليس على أساس ما يرثه عن أهله .. و لنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة لأنه أكد في سنته أن الأنبياء لا يرثهم أهلهم و ابنته فاطمة لم تعط شيئا من ميراث والدها و هو الرسول الكريم حتى أنه ﷺ كان يقول لها و هو يعظها « يا فاطمة اعلمي فلن أغني عنك من الله شيئا »³ .

هكذا صار لا أساس للقول بالتوارث في الخلافة كتوارث النبوة « فدعوى أن الإمامة إرث وأن الإمام معصوم، وأن الإيمان بالإمام يجنب المعاصي قلب لنظام الإسلام وهدم لأهم مبادئه»⁴ لأن النظام الإسلامي أقر مبدأ التشاور في حياة المسلمين مراعاة لمصالحهم . و الواضح أن الاعتقاد بالتقديس و القول بالتوارث في الإمامة ما هو إلا طريقة من طرق التمويه لإخضاع الناس للإمام والخليفة خضوعا مطلقا ، لا يجروون فيه على نقده أو معارضته باعتباره السلطة الأولى و اللامحدودة..

1 - سورة المائدة آية 27

2 - سورة هود آية 46

3 - أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ص 222

4 - المرجع نفسه ص 222

يتفق رأي كل من "بن تيمية" و "بن حزم" مع رأي الإمام "الغزالي" فيما ذهب إليه من نفي للنص و إبطال لبدعة التوارث ، يقول "بن حزم" « و لا خلاف بين أحد من المسلمين في انه لا يجوز التوارث فيها (أي الإمامة) ولا في أنها لا تجوز لمن لم يبلغ حاشا الروافض فإنهم أجازوا كلا الأمرين »¹ إذ رأى غالبية علماء السنة أن دعوة الغلاة باطلة و شاذة عن المعهود.

فوحدهم هم الشيعة المغالية من الباطنية من أجازوا النص و التوارث خلافا لما أجمع عليه المسلمون وهو « أن الإمامة لا تكون بالوارثة بل هي خلافة نبوية كل من استوفى شروطها هو أهل لها »².

و ليس في الشروط ما يؤكد انحدار الإمام من ذرية "علي".

فبان للعيان أن دعوى النص و التوارث اللتان ادّعتهما الشيعة الباطنية كانتا تهدفان من خلالهما إلى تبرير أعمال أئمتها و ضمان لعدم رفع راية العصيان عليهم، وهذا "الحكم التيقراطي" يشبه ما ساد لاحقا في أوروبا خلال العصور الوسطى حين دعت الكنيسة إلى طاعة الحكام و الأباطرة مستخدمة نظرية الحق الإلهي.

يؤكد الدكتور "علي سامي النشار" من خلال دراسته لتاريخ التشيع لا سيما التشيع الإسماعيلي الباطني أن أهم النتائج التي انجرت عن دعوى النص و التوارث التي قال بها الشيعة كانت رفع التكليف و الأحكام و إباحة المحرمات فقد « ذهبت مجموعة من الإسماعيلية إلى أنهم لا يخضعون للتكليف الشرعية فإذا ارتكب واحد منهم معصية فلا ضرر ولا ضرار ولا جناح عليهم فيما فعلوا »³.

فهم معصومون و ما يظهر لنا على أنه فاحشة و ساء سبيلا لا ينطبق عليهم ، فالأئمة الوارثون لحق الإمامة هم فوق أحكام الشريعة و تكاليفها .

وبناء على ما سبق صار لا أساس للاعتقاد بفكرة توارث الخلافة كتوارث النبوة وبالعودة إلى الحياة السياسية كما سادت في حياة الخلفاء الراشدين نتأكد من أن نصيب الخليفة كان عن طريق التشاور مع أهل العزم و ذوي العلم من فضلاء الأمة . فلا ينال هذا الشرف في ولاية أمر المسلمين و تسيير شؤونهم إلا من استحقه عن جدارة .

فليس هو إرث من أب صالح إلى ذرية فاسدة بعيدة عن الإسلام و إقامة الحدود و الإقبال على الخيرات .. وبهذا الموقف خالف حجة الإسلام فرقة الباطنية في تصورها للإمامة و ما تبعها من معتقدات شيعية مزعومة كالنص و دعوى التوارث ..

1 - محمد أبو زهرة ، الإمام بن حزم ، ص 237 ، نقلا عن :بن حزم ، الفصل في الملل و النحل ، ص 16

2 - المرجع نفسه ص 237

3 - علي سامي النشار ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص 526

فإمامتهم بهذا المعنى الذي تصوره ما هي إلا تقديس وتأليه لشخص غائب عن الأبصار تناصره أقلية ممتحنة للفلسفة متأثرة بالديانات الشرقية القديمة .. لا تعبر عن مبدأ الشورى ولا عن رأي الجماعة .. زاعمة للتوارث و التنصيص.. لتلك الأسباب نفر منهم كثير من الفقهاء والعلماء السنيين و ثاروا للرد على أباطيلهم كما هو حال حجة الإسلام " الغزالي " ولما اشتد سخط أهل السنة عليهم اعتبروهم ملاحدة و مبتدعة ينبغي ردهم عن بغيهم ومغالاتهم حتى لا تنتشر مقالاتهم بين الناس و تفسد إيمانهم .

3* البيعة و الاختيار أساس اعتقاد الإمامة

الملاحظ أن أغلب فقهاء الأمة السنيين أجمعوا على وجوب الإمامة بالاختيار و الاتفاق لا بالنص أو التوارث كما ادّعت فرقة الباطنية . إذ ينكر أهل السنة ورود أي نص من النبي ﷺ على إمام بعينه سواء كان "عليا" أو غيره . و"الباقلائي" أحد هؤلاء المفكرين الذين سبقوا "الغزالي" إلى ذلك الأمر العظيم الخطر « فهو يبطل أن تكون الإمامة بالنص و يثبت أنها تصح بالاختيار للأمة إذا لو نص النبي ﷺ على إمام بعينه وفرض طاعته على الأمة دون غيره وقال لهم هذا خليفتي والإمام من بعدي فاسمعوا وأطيعوا لكان لا يخلو أن يكون قال ذلك وفرضه بمحضر من الصحابة أو الجمهور منهم أو بحضور الواحد أو الاثنين»¹.

لأن كل ما نصّ عليه الله تعالى و الرسول قد وصل إلينا ، و هو ما نقل إلينا حتما متواترا عبر الصحابة و كان محل إجماع و اتفاق لدى الجمهور . و ينطبق ذلك على القول بالنص من النبي ﷺ « فإن كان قد أعلن ذلك وأظهره وقاله قولاً ذاتاً فيهم و جب أن ينتقل ذلك مما شاع وذاع من العبادات التي لا اختلاف بين الأمة أنها مشروعة مفروضة إذا النص من النبي ﷺ أمر عظيم لا ينكتم ولا يستتر عن الناس علمه»².

لكن نحن لم يصلنا نص من النبي يؤكد انه استخلف من بعده أحد لا صحابيا و لا قريبا له لذلك « إن الأخبار التي تدعيها الشيعة في النص على "علي بن أبي طالب" قد عارضها إجماع المسلمين في الصدر الأول على إبطالها وتركها لأن الأمة كلها انقادت لأبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - ودانت بوجوب طاعتهما والسكون تحت رايتهما وفيهم علي والعباس وعمار بن ياسر والمقداد وأبو ذر»³ و أما ما أورده من أدلة ونصوص فأغلبها زائف ملفق.

1 - عبد الفتاح أحمد فؤاد ، الفرق الإسلامية وأصولها الإيمانية ، ص 114

2 - المرجع نفسه ص 115

3 - أبو حامد الغزالي، سر العالين وكشف ما بين الدارين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، [د ط]، [د ت] ص 10

وما يتضح لنا أنه كبديل عن القول بالنص على الإمام الذي ادعته الشيعة "الإسماعيلية الباطنية" يقول "الغزالي" بمبدأ الاختيار والشورى في نصب الإمام ، بحيث تنعقد إمامته بالبيعة وحدها ، كما هي سنة الخلفاء الأولين فإمامتهم شرعية لم تقم لها قائمة إلا بالبيعة التي جعلها فقهاء الأمة الإسلامية شرطاً لانعقاد الإمامة و كما سبق و قلنا « فلم يكن أبو بكر إماماً إلا بالاختيار والبيعة »¹ .
فلا تصح الإمامة للمطالب بها إلا بالاختيار من الكافة (من أفراد الأمة) وإجماعهم على مبايعته ليتولى الحكم وخلافة النبي ﷺ في أمته و عليه يكون « الإمام من انعقدت له البيعة من أكثر الخلق و المخالف للأكثر باغ يجب رده إلى الانقياد إلى الحق »² .

و في اعتقاد "الغزالي" تنطبق هذه الشروط بيعة الإمام المستظهري كما سبق إن توافرت في بيعة الخلفاء الراشدين لأن هذا الخليفة العباسي انعقدت بيعته من أغلب أقطار الأمة الإسلامية المترامية الأطراف فهو الأحق بالإمامة وبالإتباع لأن إمامته كانت عن شورى واختيار من أولي العزم .

فلا أساس لفكرة النص على الإمامة التي قالت بها الباطنية، و عارضها إجماع غالبية فقهاء الأمة السنيين ما زعمته هذه الفرقة المغالية إذ « كان يعارض هذا الرأي رأي آخر كان يرى أن النبي ﷺ لم ينص على من يخلفه، وترك الأمر للناس يرون ما يصلح لهم ومن يصلح بهم فكل ما يتطلبه النبي أن يحافظ علي الدين و ترعى تعاليمه و مبادئه »³ .
بل أكثر من ذلك لا تقع الإمامة إلا بالبيعة و الاختيار و الرسول ﷺ ترك شأن اختيار خليفته شورى بين الصحابة « ليختار الناس بعده من يرون أنه أقدر على حمل هذا العبء والقيام بتكاليفه »⁴ .

يذهب الإمام "الغزالي" مذهب سابقيه من أهل السنة و الجماعة ، في إبطال دعوى النص على الإمامة و إثبات قيامها بالاختيار و التشاور فقط كما هو معمول به منذ وفاة النبي ﷺ لأن أهل السنة « قالوا أن طريق عقد الإمامة للإمام في هذه الأمة الاختيار بالاجتهاد وقالوا : ليس من النبي ﷺ نص على إمامة واحد بعينه على خلاف قول من زعم من الرفضة

1 - أبو حامد الغزالي، سر العالمين وكشف ما بين الدارين ، ص 96

2 - أبو حامد الغزالي ، قواعد العقائد ، ص 97

3 - أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ص 208

4 - المرجع نفسه ص 208

أنه نص على إمامة "علي" - رضي الله عنه - نصا مقطوعا بصحته و لو كان كما قالوه لنقل ذلك نقل ثلثة»¹ . و الظاهر من الفكرة السابقة أن ما أتت به فرقة "الباطنية" من دعاوي لا أساس لها من الصحة ، فجلها متهافت يستنكره إجماع أهل السنة .

إضافة إلى تأييد "الغزالي" للفكرة السابقة الراضة و المنكرة لقيام الإمامة بالنص فقد تصدى لها من خلال مؤلفاته العديدة التي تناولت جوانب من الحياة السياسية خاصة "المستظهري" و"الاقتصاد في الاعتقاد" مبرزا أن أساس كل إمامة هو الاختيار. فمن خلاله تتم مبايعة الخليفة من قبل أولي الفضل في الأمة ، كما سبق و أن أشرنا إلى ذلك في الفصل الأول .

فلو كان هناك نص على الإمامة لكان أكد ذلك أصدق خلق الله محمد ﷺ ولسارت الأمة على نهجه هذا وسنته لكن البيعة هي أساس الإمامة و هذا لا يحدث إلا بوجود شوكة للمتصدي للإمامة . و قد سارت الأمة الإسلامية على مبدأ "البيعة" منذ أول عهودها وذلك باجتماع نفر من فضلاء الأمة وفقهائها للتشاور حول من يخلف النبي ﷺ ثم أبو بكر وهكذا تعاقبت الخلافات بيعة بعد بيعة بهذا الشكل تنفيذا لأمره تعالى الذي أزم به النبي ﷺ في قوله ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾² أيضا قوله تعالى ﴿ وَأْمُرْهُمْ بِشُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾³ .

ثانيا : شروط الإمامة و خصاله

يقصد بها مجموعة الخصال التي إذا توافرت في طالب الإمامة و الراغب فيها استحقها بموجبه وفي مجملها لا تخرج عما ذكره "محمد السيد رضا" عن عمدة المتكلمين *السعد التفتازاني (توفي: 791 هـ) « أنه لا بد للأمة من إمام يحيي الدين و يقيم السنة و ينتصف للمظلومين و يستوفي الحقوق و يضعها مواضعها و يشترط أن يكون مكلفا، مسلما عدلا، حرا، ذكرا، مجتهدا، شجاعا ذا رأي و كفاية، سميعا بصيرا، ناطقا قريشيا.. »⁴ هذا ما يتفق عليه غالبية جمهور فقهاء الأمة مع الإشارة إلى أن هذا الاتفاق تشوبه شوائب و تعرض له حالات من التعارض ، أي كان هناك من خالف بعض هذه الشروط أو استغنى عنها.

1 - عبد القاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص 308

2 - سورة آل عمران آية 159

3 - سورة الشورى آية 38

* السعد التفتازاني: هو سعد الدين التفتازاني توفي 791 هـ عمدة علماء الكلام من العرب والأترك وغيرهم

4 - محمد السيد رضا ، الخلافة ، ص 25

ذهب " أبو حامد الغزالي " في تحديده لشروط الإمامة مذهب الجماعة والجمهور فقد حددها في كتبه المختلفة التي تناولت مجال السياسة و شؤون الحكم ، دون الخروج عن كونه سني أشعري المذهب، فقد جاء في كتاب "إحياء علوم الدين" ذكر لصفات الإمام و شروطه بمجمله يقول حجة الإسلام « إن شرائط الإمامة بعد الإسلام و التكليف خمسة : الذكورة والورع و العلم و الكفاية و نسبة قريش »¹.

لكن تفصيل تلك الشروط و أدلتها موجود في كتابه الذي خصصه للرد على "الباطنية" وإمامتهم المزعومة. بما يتفق مع ما سار عليه السلف الصالح و أجمع عليه رأي الجماعة واجتهادهم . فيصر " الغزالي " شروط الإمامة كما يلي « إن الذي عده علماء الإسلام من صفات الأئمة و شروط الإمامة تحصرها عشر صفات : ست منها خلقية لا تكتسب، و أربع منها تكتسب أو يفيد الاكتساب فيها مزيدا »².

إن صفات الإمام المذكورة في " فضائح الباطنية " هي ما اتفق عليه غالبية علماء الأمة وفقهائها و إن شدّ عمهم بعض المبتدعة.. بل و الأكثر قبولا عندهم و إن كان " للغزالي " فيها مقالات و تفصيلات و حتى إضافات ميزته عن غيره من أتباع المذهب السني كونه ميز بين ما يكون منها خلقيا و ما يكون مكتسبا.

أ * الصفات الخلقية :

لا بد من توفرها لمن يتقدم لمنصب الخلافة إذ هي أساسية و لا غنى عنها لأنها لا تكتسب وقد حصرها " الغزالي " في ست لقوله « فأما الست الخلقية فلا شك في حضورها ولا تصور المجاهدة في وجودها: الأولى البلوغ فلا تنعقد الإمامة لصبي لم يبلغ الثانية العقل فلا تنعقد لمجنون فإن التكليف ملاك الأمر وعصامه، ولا تكليف على صبي ومجنون.. »³.

فشروط الإمامة هذه هي شروط التكليف الشرعي الذي تستوجبه العبادات والتي تتطلب من الفرد أن يميز بين الخطأ والصواب، وتستدعي منه إدراكا وتميز الأسباب والعواقب فلا يصلح الحكم إلا بما لقوله ﷺ « رفع القلم عن ثلاث عن النائم حتى يستيقظ وعن المجنون حتى يعقل وعن الصبي حتى يحتلم »⁴ و هذا الحديث معروف و معمول به في شتى الأحكام.

1 - أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج1، 136

2 - أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 180

3 - المصدر نفسه ص 180

4 - صحيح أبو داود

كما لا تجب الإمامة لعبد مسترق أو للمكره .. فهي تشریف عظیم إضافة إلى كونها تكليفاً
وعليه اشترط فيها الحرية فكانت الصفة « الثالثة: الحرية فلا تنعقد الإمامة لرقيق، فإن منصب الإمامة
يستدعي استغراق الأوقات في مهمات الخلق فكيف ينتدب لها من هو كالمفقود في حق نفسه
الموجود للمالك يتصرف تحت تدبيره وتسخيره » وقد جعلت الحرية حكراً على عبادات معينة
كالزكاة فالعبد لا يقدم زكاة لأنه هو وما يملكه ملك لسيده.. فكيف جاز لهذا العبد إمامة
أمة، أسيحكمها بأمره أم بأمر سيده..

وشرط آخر للإمامة هو محل اشتراك بينها وبين إمامة الصلاة ألا وهو شرط الذكورة التي
يشرحها " الغزالي " و يفصلها بقوله « أما الصفة الرابعة: الذكورية فلا تنعقد الإمامة لامرأة وإن
اتصفت بجميع خلال الكمال وصفات الاستقلال وكيف تترشح امرأة لمنصب الإمامة وليس لها
منصب القضاء ولا منصب الشهادة في أكثر الحكومات ¹ . و قد ورد هذا الموقف مؤيداً لقوله
ﷺ « لعن الله قوماً تقودهم امرأة » ² .

والصفة الأخرى التي أكد عليها " الغزالي " فهي نسب قريش ، " فالغزالي " كغيره من فقهاء الأمة
السنين يجعل صفة القرشية من أهم صفات الإمام لما فيها من فضل عظيم يتأكد لنا من حديث
الرسول ﷺ « الأئمة من قريش » ³ . و قد تحدث " أبو بكر " - رضي الله عنه - عن فضل قريش
وامتيازها عن غيرها « و أشار إلى ضرورة سياسية تجعل من وضع الإمارة في قريش عاملاً توحيداً
للعرب أكثر مما لو وضعت الإمارة في غير قريش » .

حتى أن " أبا بكر الصديق " احتجّ بنسب قريش ليحل مشكلة الخلافة بين المهاجرين والأنصار
كما هو معروف في التاريخ الإسلامي مستدلة بحديث النبي ﷺ السابق . ويرد في " موسوعة
الأديان " قول للصحابي الجليل " أبي بكر الصديق " يفسر من خلاله فضل قريش ونسبهم وأولويتهم
على غيرهم في خلافة النبي ﷺ « قال : لأننا نحن أوسط العرب أنساباً ليست قبيلة من قبائل
العرب إلا و لقريش فيها ولادة » ⁴ .

1 - أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 180

2 - لا أثر له ، موضوع

3 - صحيح ، رواية متواترة عن أنس بن مالك

4 - مجموعة من الباحثين ، موسوعة الأديان في العالم، ج4 ، ص 08

و أغلب فقهاء الأمة و مفكري السياسة متفقون عل هذا ضرورة توفر هذا الشرط في المتقدم لتولي منصب الإمامة . فحسب "بن حزم" « لا تعتقد الإمامة إلا إذا تحققت أن يكون الإمام قريشياً لأن الأنصار لما اختلفوا مع المهاجرين احتجّ أبو بكر عليهم بالقريشية فافتنعوا إذ قال: لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش »¹ .

حتى أن " أحمد أمين" ذكر ذلك في ضحى الإسلام حين أشار إلى أن الناس ترك لهم الأمر لاختيار الخليفة بعد وفاة الرسول ﷺ لما ورد عنه ﷺ في حياته من الحث على ترك الحرية للناس كي يختاروا من يرعى شؤونهم . بناء على تلك الحرية و مبدأ التشاور و ما ذلك إلا ليختار الناس بعد وفاته من يرونه أقدر على حمل عبء الخلافة و بتكاليفها.

لكن لا ينبغي أن يخرج اختيار الناس عن القريشيين لما رأى فيه الرسول من حفاوة و جسارة و قدرة على أداء متطلبات الإمامة، إضافة إلى ما تتميز به قريش عن سائر قبائل العرب من عصبية جعلت الناس ينساقون إلى إمرتهم و اختيار الخلفاء منهم لأن « من هؤلاء من رأوا أن تكون دائرة الاختيار محصورة في قريش لأن العرب أطوع للقريشيين ولأن الخليفة ينبغي أن يكون ذا عصبية تشد أزره و تحمي ظهره ولا قبيلة في العرب أعز من قريش»² .

و في تحديد شروط الإمامة وضع مفكروا الإسلام على اختلاف مذاهبهم النسب القريشي في الحسبان . و يذكر " الماوردي" في الأحكام السلطانية فضل قريش و أحقيتهم بالخلافة معتبراً بالأحاديث المتواترة عن الرسول ﷺ كقوله « الأئمة من قريش »... و أيضاً قوله ﷺ « قدّموا قريش ولا تقدّموها »³ و من المسلم به أن تلك الأحاديث خير برهان على ضرورة نصب الأئمة من قريش دون سواهم « وليس مع هذا النص المسلم شبهة لمنازع فيه ولا قول لمخالف له»⁴ .

ومن أهم الأسباب الدافعة لاشتراط صفة القريشية في الإمام ، هو ما يتعلق بضمان استمرار الحكم و استقرار الدولة ، هذه الأشياء لا يتيحها إلا الانتماء لقريش، بعصبيتها وشوكتها ، التي تساعد الخليفة على أن يكون قاهراً غالباً في رأيه مطاع . فالغلبة وغيرها

1 - محمد أبو زهرة، الإمام بن حزم ، ص 235 ، نقلا عن بن حزم ، الفصل في الملل والنحل ، ص 89

2 - أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ص 208 ، 209

3 - صحيح ، متفق عليه

4 - الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص 33

من طرق الدفاع توفرها قريش لكل من انتمى إليها . يتأكد اعتقادنا هذا من موقف العلامة "بن خلدون" الذي يقول في هذا الشأن ميرزا الحكمة من حصر الإمامة في النسب القرشي « ونحن إذا بحثنا عن الحكمة في اشتراط النسب القرشي ومقصد الشارع منه لم يقتصر فيه على التبرك بوصله النبي ﷺ »¹ .

من ناحية أخرى كان لقريش شرف ومكانة هامة بين العرب وقبائلهم فإذا أقدمت على حرب تمافت عليها الأنصار من كل حدب و ندب « و ذلك أن قريشا كانوا عصابة مضرَ وأصل الغلب منهم وكان لهم على سائر مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف، فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك و يستكينون لغلبهم » .

معنى ذلك أن لها من ينجدها و ينحاز إلى جانبها في الحرب و التجارة و الحكم .. فتكون لقريش الغلبة ربما لذلك السبب جعلت الإمامة فيهم ، و اشترطت صفة القرشية في خليفة رسول الله ﷺ ، بل « لو جعل الأمر في سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادهم»² . و قد أخذ الإمام "الغزالي" يطعن بهذه الصفة في أولئك المعتدين المطالبين بالإمامة من الشيعة الفاطميين ومن والاهم من بعد في بلاد فارس ، الذين انتسبوا إلى قريش على غير عهد بهم و ما ذلك إلا ليحل لهم المطالبة بالإمامة و حكم القوم . وقد حكى الإمام "الغزالي" في كتابه "المستظهر" الفاضح لبدعهم إقدامهم على الانتساب إلى قريش فقال « لما همّ المخالفون بمصر لطلب هذا الأمر (الإمامة) ادعوا أولا لأنفسهم الإعتزاز إلى هذا النسب علما منهم بأن الخلق متطابقون على اعتقادهم لانحصار الإمامة فيهم »³ .

و ما ذلك التلفيق و التزييف إلا لبلوغ هدفهم الديني المتمحور حول " الإمامة " علما منهم بأحقية القرشيين فقط في ذلك. « ولذلك لم يتصدى لطلب الإمامة غير قريشي في عصر من الأعصار مع شغف الناس بالإستلاء و الاستعلاء وبذلهم غاية الجهد والطاقة في الترقى إلى منصب العلاء »⁴ .

1 - عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص 208

2- المرجع نفسه ص 208 ، 209

3- أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 181

4- المصدر نفسه ص 180 ، 181

و من الأدلة الأخرى المؤكدة لفضل قريش ، وشرف الانتساب إليهم أن الخليفة "معاوية" -رضي الله عنه- غضب لما بلغه حديث " لعمر بن العاص" من أنه سيكون ملك من قحطان فكان من جملة ما قاله « فإنه بلغني أن رجالاً منكم يحدّثون أحاديث ليست في كتاب الله ولا تؤثر عن رسول الله وأولئك جهالكم فإياكم والأمانى التي تضل أهلها فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهما أحد إلا كبه الله في النار على وجهه ما أقاموا الدين ¹ «
فالقريشيون كانوا و لازالوا الأحق بتولي منصب الخلافة.

نختم كلامنا في شرط القريشية بتأكيد ضرورة توفرها في الخليفة لما روي عن النبي ﷺ أنه قال « لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان ² . فكان النسب القريشي دافع للاعتزاز والفخر من ناحية ومن ناحية أخرى دافع وحام وصائن للإمامة من كل معتد ، فهي تضمن دوام الخلافة و استقرار حك الحاكم.

إضافة إلى ما سبق من الصفات الخلقية يؤكد " أبو حامد الغزالي" كسائر العلماء على سلامة الأعضاء البدنية فلا يعتلي عرش الملك من هو غير مكتمل الأعضاء، بمعنى من شروط الإمامة والملك سلام الأعضاء خاصة السمع والبصر « إذ لا يتمكن الأعمى و الأصم من تدبير نفسه، فكيف يتقلد عهدة العالم ! ولذلك لم يستصلحاً لمنصب القضاء ³ .

فإن كان الإمام سليماً وقعت إمامته وإن طرأ أثناء إمامته عطب فيهما استحق العزل لما ثبت عند مفكري السياسة من اتفاق حول أهمية سلامة تلك الأعضاء لمن يتولى منصب الإمامة و إلا اختلت و بطلت إمامته « وأما ذهاب البصر فيمنع من عقد الإمامة واستدامتها فإذا طرأ بطلب من الإمامة لأنه أبطل ولاية القضاء ومنع من جواز الشهادة فأولى أن يمنع من صحة الإمامة ⁴ . و يقاس ما قيل عن البصر على غيره من سائر الأعضاء التي ذكرها "الغزالي" في شرائط الإمامة و اتفق فيها مع غيره من علماء الأمة .

فبرز بوضوح انتفاء عقد الإمامة وبطلان البيعة لمن لا يرى وحتى لا يميز بين الأشياء ولا يدركها. وحتى الصمم والخرس هما من معوقات الإمامة و قيامها إذ « الصم و الخرس فيمنعان من ابتداء عقد الإمامة لأن كمال الأوصاف بوجودهما مفقود ⁵ .

1 - البخاري ، صحيح البخاري ، ج4 ، حديث رقم 7139 ، ص 382

2- المرجع نفسه ، حديث رقم 7140 ، ص 383

3- أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 181

4- الماوردي ، الأحكام السلطانية ص 55 ، 56

5- المرجع نفسه ص 56

في حين يبقى الحرس صفة محل اختلاف بين منظري السياسة ، لأنه يمكن فهم مقصود الإمام بطريقة أخرى غير النطق كالإشارة والكتابة و غيرهما من سبل التعبير.

ما سبق يتبين أن هذه الصفات الخلقية كانت في غالبيتها محل إجماع بين أئمة الأمة وفقهائها و تبقى الصفات البدنية متفاوتة عند البعض دون أن ننسى تأكيد "الغزالي" على توفرها عند وليه المستظهري لقوله في هذا الشأن « أن هذه الصفات الستة غزيرة لا يمكن اكتسابها وهي: بجملتها حاضرة حاصلة فلا تثور منها شبهة المعاندة »¹ أي حاصلة لنصيره الخليفة العباسي القائم بالحق .

ولا يكفي حجة الإسلام بهذه الصفات الخلقية الستة التي يرى وجودها ضروري لانعقاد الإمامة بل إنه يضيف أخرى تتعلق بالاكتساب ، إذ هي تمثل المزايا التي لأجلها يتم التفضيل بين المتقدمين الطالبين للإمامة، « وأما الصفات الأربعة المكتسبة وهي النجدة والكفاية والعلم والورع »² وما هدف " الغزالي " من إيرادها على هذا الترتيب إلا لإثبات توافرها بالقدر الكافي لدى الإمام العباسي القائم بالحق "المستظهر بالله العباسي " ثم يأتي الغزالي على تفضلها الواحدة تلوى الأخرى...

بـ* الصفات المكتسبة

ليست خلقية بل منوطة بالاكتساب، و حددها "أبو حامد" في فضائح الباطنية و رتبها وهي:

1* النجدة:

لا بد أن يتصف المتصدّي للإمامة بهذه الصفة حتى يكون أهلا لها و « مراد الأئمة بالنجدة ظهور الشوكة ، وموفور العدة ، والاستظهار بالجنود وعقد الأولوية(الولاية) والبنود والإستمكان- بتضافر الأشياء والأتباع- من قمع البغاة والطغاة ومجاهدة الكفرة والعتاة وتطفئة نائرة الفتنة وحسم مواد المحن قبل أن يستظهر شررها وينتشر ضررها »³ يمكننا شرح و تبسيط مضمون صفة النجدة فنقول أن معناها وجود شوكة للحاكم إذ بها يأمر و بها يطاع. وقد أدركنا من قبل دور الشوكة في انعقاد البيعة.

1 - أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 181

2 - المصدر نفسه ص 181

3 - أبو حامد الغزالي ، ميزان العمل ، ص 182

و لو عدنا إلى إمامة " المستظهر بالله " لوجدناها مستوفية لهذا الشرط يقول " الغزالي " أنها « حاصلة لهذه الجهة المقدسة » موضحا ذلك كما يلي «فالشوكة في عصرنا هذا من أصناف الخلائق للترك وقد أسعدهم الله تعالى بمولاته ومحبه حتى إنهم يتقربون من الله بنصرته وقمع أعداء دولته ، ويتدينون باعتقاد خلافته وإمامته ووجوب طاعته كما يتدينون بوجوب أوامر الله وبتصديق رسله في رسالته» .

ورأى " الغزالي " عظم نجدة إمام الأمة العباسي التي أنكرها أعداؤه وأعداء الإسلام من الشيعة الباطنية فقال « فهذه نجدة لم يثبت مثلها لغيره فكيف يتمارى في نجاته »¹ . رغم أن الباطنية لا تعترف بنجده وإمامته في ظل وجود مخالفي له و متمردين عليه من الترك والفرس، محاربي له من أقطار الأمة بمصر وغيرها وكل مطالب بالإمامة له.

مع أن وجود المخالفين للإمام القائم لا يضر بإمامته شيئا ولا يبطل أحقيته بها، ويذكرنا " الغزالي " هنا بحكاية ما جرى لعلي-رضي الله عنه-حين عقدت له الإمامة في جو من الصراع و اضطراب للأحوال بسبب مقتل عثمان و خروج معاوية زيادة على ذلك « تخلف أشياعه عنه في القتال ومخالفتهم لاستصوابه في أكثر الأقوال والأفعال »².

ليبرهن الإمام " الغزالي " من خلال تلك الواقعة أن المخالفين للحكم هم موجودون في كل مكان وكل زمان في عهد "علي" وأيضا "المستظهر بالله" و حتى يومنا هذا لكننا صرنا نطلق عليهم مصطلح "المعارضة" أو اليساريين.. و غيره من الألقاب التي أظهرها التنافس والصراع السياسي على الملك. و الباطنية طائفة من المناوئين لخلافة الإمام العباسي " المستظهر بالله " و لا تؤخذ القلة المخالفة بالكثرة الموالية « فإذا كانت تقوم شوكته بإتباع الأكثر من أتباعه من انتصاب من انتصب لمخالفته فكيف لا تقوم الشوكة في زماننا هذا » لذلك لم يبطل تمرد شرذمة الباطنية صحة إمامة الخليفة العباسي لأنه كما جاء على لسان "الغزالي" « لم يشترط في صحة الإمامة أن تصفوا الدنيا عن مدى المخالفة »³ بل المخالفة تظهر دائما ، و على الحاكم إخمادها بعون من شوكته أو عصبية التي تآزره . فلا رادع لكل مخالفة و لا حافظ للإمامة منها إلا النجدة و وجود شوكة للإمام.

1- أبو حامد الغزالي ، ميزان العمل ، ص 182

2 - المصدر نفسه ص 183

3- المصدر نفسه ص 184

الشوكة:

لمل تنعقد به الإمامة عند البيعة قيام الشوكة و معنى الشوكة القوم الذي ينصرون ويشايعون الإمام أو الشخص، و يتردد هذا المصطلح كثيرا في مقدمة "بن خلدون" تأكيدا منه على أهميته لدى مفكري السياسة في التنظير للحكم الإسلامي، فقد تكون الشوكة هي السبب في استمرار الحضارات والدول وفي الوقت ذاته قد تكون سببا في انحطاطها تدهورها.

وجعل "الغزالي" من الشوكة شرطا ضروريا لانعقاد الإمامة فيها تتحقق نجدة الخليفة وهي التي تنصره و تنتصر له « فإن شرط ابتداء الانعقاد قيام الشوكة وانصراف القلوب إلى المشايعة و مطابقة البواطن والظواهر على المبايعة¹ » و بهذه الشوكة يكون الإمام مطاعا لأنها تضمن نجده و تقف معه في وجه البغاة و المنشقين عنه لأن معنى الشوكة شدة البأس.

و بالنظر إلى ما حدث في حياة الرسول ﷺ حين بدأ بتأسيس بنية الدولة الإسلامية يتضح ارتباط الشوكة بعقد البيعة يؤكد "الغزالي" ذلك الارتباط بقوله « فإن الإمامة عندنا (رأي الغزالي و أهل السنة) تنعقد بالشوكة و الشوكة تقوم بالمبايعة و المبايعة لا تحصل إلا بصرف الله تعالى القلوب قهرا إلى الطاعة و الموالاتة² ». فالخليفة هو من كان له أنصار وعصبية شديدة تأخذ بيده و يتغلب بها على غيره ، فيبلغ بفضل اتفاقها منصب الخلافة .

و كان في إجماع الأمة على اختيار الخليفة القائم بشؤونها الساهر على تطبيق الأحكام الشرعية تقديرا و اختيارا إلهيا لقوله ﷺ « لا تجتمع أمي لا ضلالة³ ». فلو ظهر أنه اختيار بشري ، إلا أنه في الحقيقة عناية إلهية و لطف رباني « فكأن في الظاهر رددنا تعيين الإمامة إلى اختيار شخص واحد وفي الحقيقة رددناها إلى اختيار الله تعالى و نصبه⁴ ».

و يشدد "الغزالي" على ضرورة وجود الشوكة للقائم المتصدي للإمامة لتعيينه على ولاية أمر المسلمين « بل الولاية الآن لا تتسع إلا لصاحب الشوكة فمن بايعه صاحب الشوكة فهو الخليفة و من استبعد الشوكة وهو مطيع للخليفة في أصل الخطبة و السكة ، فهو نافذ الحكم والقضاء في أقطار الأرض ولاية نافذة الأحكام⁵ ».

1 - أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 177

2- المصدر نفسه ص 179

3 - ضعيف بهذا اللفظ

4 - المصدر نفسه ص 178

5 - أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج 1 ، ص 581

و للاشتراط وجود "الشوكة" ضمن شرائط انعقاد الإمامة ما يبرره فهي كما سبقت الإشارة من قبل تُؤمّن للحاكم الأمن و تجنبه التمرد أو الثورة عليه، لأنهما تمثل قوته في الأتباع والأنصار. و بما أن لكل شرط غايته و حكمة من اشتراطه في المتقدم لمنصب الخليفة فكذلك هو شأن الشوكة ، يقول حجة الإسلام « إنما الغرض قيام شوكة الإمام بالأتباع و الأشياع وذلك يحصل بكل مستول مطاع »¹.

فالشوكة تنصر الإمام كما ينصر الأتباع بعضهم بعضا وعليه تقاس قوة الحاكم بقوة شوكته « و لا تقوم الشوكة إلا بموافقة الأكثرين من معتبري كل زمان »². إذن الإمامة تصبح واجبة و تثبت لصاحبها إذا أجمعت عليه الأمة وهنا وردت بلفظ الغزالي " الشوكة " . هذه هي نفسها الفكرة التي جاءت فيما بعد عند "بن خلدون" و بنا عليها جل دراساته لتاريخ الأمم و الحضارات في تطورها ثم انحطاطها . فكثير من المفكرين يعولون على "الشوكة" في نصب الخليفة و يربطونها كما حال "بن خلدون". بمصطلح "العصبية" و ما اختار الخليفة إلا بيد أنصاره و أشياعه .

حتى أن " الغزالي " يظهر أهمية الشوكة و تأثيرها على استمرار الحكم من خلال هذا المثال الذي يورده في " الإحياء " إذ يقول « السلطان الظالم الجاهل إذا ساعدته الشوكة و عسر خلعه و كان في الاستبدال به فتنة ثائرة لا تطاق و وجب تركه و وجبت الطاعة له »³. و يسوقنا الحديث عن الشوكة إلى الصفة الثانية التي يضعها " الغزالي " كشرط ضروري لنصب الإمامة لكل طالب لها ألا و هي صفة الكفاية .

*2 الكفاية:

من شروط الإمامة الكفاية، و هي أن يكون للحاكم من ينصره ليتغلب على أعدائه فيخافه كل من تسول له نفسه التربص بخلافته ، فله من الأنصار ما يكفي لتدعيم إمامته، أي أن تكون له عصبية تكفيه إذا « الكفاية فهو أن يكون جريئا على إقامة الحدود و اقتحام الحروب ، بصيرا بما كفيلا ليحمل الناس عليها عارفا بالعصبية و أحوال الدهاء قويا على معاناة السياسة ليصح له بذلك ما جعل إليه من حماية الدين و جهاد العدو و إقامة الأحكام و تدبير المصالح »⁴ لذا عدّ شرط الكفاية من أبرز شروط الإمامة .

1 - أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 177

2 - المصدر نفسه ص 177

3 - أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج1، ص 570

4 - عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص 207

و يؤكد العلامة "بن خلدون" على ارتباط دوام الحكم بشرط الكفاية و لن يتم ذلك إلا بوجود عصبية لقوله « إن الرئاسة لا تكون إلا بالغلب و الغلب إنما يكون بالعصبية » يضيف قائلاً « فلا بد في الرئاسة على القوم أن تكون من عصبية غالبية لعصبياتهم ، واحدة واحدة لأن كل عصبية منهم إذا أحست بغلب عصبية الرئيس لهم أقر بالإذعان والإتباع»¹ .

- لكن لماذا شرط الكفاية ؟ وكيف تتأتى مثل هذه العصبية ؟

يمكننا إدراك جواب شافي على السؤال السالف لو عدنا إلى شرط " القريشية " و ما قلناه عن قوة عصبية قريش وشوكتها . فما اشتراط الرسول ﷺ لها في قوله « الأئمة من قريش » إلا برهان قاطع يؤكد ويبرز دور العصبية و الشوكة في الدفاع عن الأهل والأعراض ، إذ أن نسب قريش وعصبيتهم كفيلاان بتحقيق شرط الكفاية.

و يوضح الإمام " الغزالي " معنى الكفاية بقوله « ومعناها التصدي لحق المصالح في معضلات الأمور والإطلاع على المسلك المقتصد عند تعارض الشرور كالعقل الذي يميز الخير عن الشر »² فهي تتيح معرفة الأمر المناسب وتهدى إلى حسن الاختيار.

و هذا يستوجب وجود تدبير و تفكير منظم للوصول إلى الرأي السديد فإن «مقصودها إقامة تنظم الأمور الدينية والدنيوية »³ و يرى الإمام " الغزالي " أن الكفاية تعرف بحسن التدبير و التفكير لقوله « و هل يستدل على كفاية الملوك بشيء سوى انتظام التدبير و حسن الرأي في اختيار المشير والوزير »⁴ لذلك عدت صفة مكتسبة بالجد والمواظبة على الإطلاع لتحصيل خبرة كافية يسترشد بها الخليفة.

فلا يبلغ شرط الكفاية بالعصبية و لا الشوكة و لا حتى بقربى قريش ، لذلك احتيج فيها إلى شيئين هما ركيزتين للإمامة « أحدهما الفكر و التدبير و شروطه الفطنة والذكاء »⁵ فلا بد من عقل وهاج ثاقب ، و حنكة و سرعة بدهاءة للخروج من أي مأزق أو طارئ يطرأ على الخليفة إن تولى منصبه . فاقترضى ذلك منه اعتماده على ذاته و استنفاد قدراته لبلوغ هدفه «وهذه خصلة تميز فيها المنصور إمامته و المفروض طاعته عن النظراء بمزيد النفاذ و المضاء

1 - عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص 146

2 - أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 185

3 - المصدر نفسه ، ص 186

4 - المصدر نفسه ، ص 187

5 - المصدر نفسه ، ص 185

حتى صار أكابر العقلاء يتعجبون في معضلات الوقائع مع رأيه الصائب وعقله الثاقب وبفطنة للدقائق¹ « لينتقل إلى الركيزة الثانية المكتسبة للكفاية وهي « الاستضاءة بخاطر ذوي البصائر واستطلاع رأي أولي التجارب على طريق المشاورة »² .

و عليه يدعو " الغزالي " إمام الأمة و حاكم زمام أمورها إلى استشارة ذوي العلم والراسخين في الدين ، عملا بقوله تعالى ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾³ فيتخذ من العلماء منارة يسترشد بضياؤها إلى طريق الحق .

كما يمكن أن يكون المستشار " وزيرا " على قدر كبير من العلم والحنكة ، لما للوزير من حسن التدبير و التأثير على الخليفة ، فلا ينفرد الخليفة برأيه وحده . و هذا الشرط حاصل في خلافة " المستظهر " إذ « قد وفق الله الإمام بتفويض مقاليد أمره إلى وزيره الذي لم يقطع ثوب الوزارة إلا على قده حتى استظهر بآرائه السديدة في نوائب الزمان ومعضلات الحداث و مراعاة مصالح الخلق في حفظ نظام الدين والملك » .

مما سلف يتبين أن وجود الكفاية من ضروريات الحكم ، و هي تحصل للإمام إما بغزارة عقله أو بعون مستشاريه ، و يلزم عن ذلك القول بأهمية وجود " المشير " للحاكم ، لأنه يساعده على تدبير شؤون الأمة بما يملكه من خبرة و علم إذ « هو الجامع للصفات التي شرطها الشرع والعقل في المدبر والمشير »⁴ .

*3 الورع :

هو الصفة الثالثة من صفات الإمام و التي يوردها " الغزالي " في " فضائح الباطنية " حيث يقول في وصفها « أما الورع فهو وسط بين الرياء و الهتك و هو تزيين النفس بالأعمال الصالحة الفاضلة طلبا لكمال النفس و تقربا إلى الله دون الرياء و السمعة »⁵ . فكانت هذه الصفة مما هو ضروري للإمام الحاكم المستخلف في الأمة فلا يكون شديد البخل والإفراط ولا يكون خلاف ذلك بمعنى لا يقبل على الدنيا إقبالا شديدا ينهمك خلاله في إرضاء شهواته وتحقيق لذاته لأنها مفسدة للدين و طلب للدنيا .

1 - أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 185

2 - المصدر نفسه ص 185

3 - سورة آل عمران آية 153

4 - المصدر نفسه ، ص 186

5 - أبو حامد الغزالي ، ميزان العمل ، ص 283

فارتبط معنى الورع بالزهد و التعفف عن مغريات حياة الدنيا و ترك كل ما من شأنه أن يوقع الحاكم في المعاصي و الفتن ، لذا ينصح " الغزالي " إمام الأمة بأن يكون ورعا في قوله « اعلم أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وأن الدنيا مزرعة للآخرة ففيها الخير النافع وفيها السم النافع ومثلها مثل حية »¹ .

و قد بلغنا الكثير من الأخبار في ذم الدنيا و ملذاتها من القرآن و السنة جسدها الرسول الأكرم ﷺ و سار على نهجه الخلفاء الراشدون من بعده، ولنا في الإمام علي-رضي الله عنه- أوضح دليل على سيرة الخلفاء ، حيث يستشهد حجة الإسلام بما قاله في ذم الدنيا « أوصيبك بتقوى الله والترك للدنيا التاركة لكم وإن كنتم لا تحبون تركها، المبلية أجسامكم وانتم تريدون تجديدها » و يضيف قائلا « ولا تفرحوا بمتاعها ونعمائها فإنه إلى زوال عجت لطالب الدنيا و الموت يطلبه وغافل ليس بمغفول عنه »² ليثبت " الغزالي " من وراء تلك المواعظ تتره الإمام العباسي القائم بالحق عن شهوات الدنيا و اقتدائه بالخلفاء الراشدين في الحكم .

ومع ذلك لا يكف " الغزالي " عن نصح أمامه و توجيهه كما هو واجب العلماء اتجاه ملوكهم . فيعضه بما وعظ به سابقوه من علماء الدين خلفاءهم ، من نهي عن الإقبال على الدنيا ودعوة إلى العدل و الإحسان مقتديا في ذلك بما فعله الإمام البصري إذ « كتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز أما بعد ، إن الدنيا دار ظغن ليست بدار إقامة وإنما أنزل آدم - عليه السلام - من الجنة إليها عقوبة فاحذروها يا أمير المؤمنين ، فإن الزاد منها تركها والغنى منها فقرها ، لها من كل حين قتيل تذلل من أعزها وتفقر من جمعها هي كالسم يأكله من لا يعرفه ، وفيه حتفه فكن فيها المداوي جراحه يحتمي قليلا، مخافة ما يكن به طويلا ويصبر على شدة الدواء ، مخافة طول الداء ، فاحذر هذه الدار الغدارة الختالة والخداعة التي تزينت بخدعها و فتنت بغرورها و حلت بآمالها .. فاحذروها يا أمير المؤمنين وكن أسرَ ما تكون فيه ، أحذر ما يكون فيها أحذر ما يكون لها ، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور شخصته إلى مكروه الضار في أهلها غار و النافع فيها غدار ضار »³ .

1 - أبو حامد الغزالي ، ميزان العمل ، ص 372

2 - أبو حامد الغزالي ، مكاشفة القلوب ، المكتبة العصرية ، صيدا بيروت ، [د ط] ، 2005 ، ص 115

3 - المصدر نفسه ص 112

و الورع أفضل صفة من صفات الإمام لقيمتها في حد ذاتها إذ هي خصلة لا تكتسب بالغير أو بعونهم بقدر ما تكون ذاتية وأساس كل تقوى و « هي أعز الصفات وأجلها وأولها بالرعايات وأجدرها » حتى بلغت من الأهمية عند "الغزالي" حدا اعتبر فيه « الورع هو الأساس و الأصل و عليه يدور الأمر كله و لا يغني عنه ورع العسر وهو رأس المال ومصدر جملة الخصال »¹.

إن افتقاد الحاكم لصفة الورع يعيب إمامته، إذ يترتب عن غيابها إخلال بالأمانات وتقصير في الوجبات والحقوق و ينعكس ذلك سلبا على الإمامة حيث يرى حجة الإسلام أنه لو « اختل هذا - والعياذ بالله- لم يبق معتصم في تحقيق الإمامة »².

فلا بد من اتصاف الإمام بهذه الصفة من البر و التقوى و الإحسان إلى ذوي الحاجة وتجنب الملذات والشهوات المفرطة والمعاصي، وأن يعمل على نشر الخير ورعايته بالقول والفعل فيكون قدوة للأمة وشعبه. و هذه الخصلة ملازمة للإمام العباسي "المستظهر بالله" حيث يظهر ذلك من مدح "الغزالي" في قوله « فالحمد لله الذي زين أحوال الإمام الحق المنصور إمامته بالورع والتقوى حتى أوفي فيه على الغاية القصوى فتميز بمثانة الدين و صفاء العقل واليقين في جماهير الخلفاء »³.

لكن "الغزالي" لم يكتف بوصف خليفة رسول الله - أي المستظهر بالله- بصفة الورع بل بينها في فعله وعمله الصالح و إنجازاته فذكر بعضها مثل « إفاضة الخيرات والعطف على الرعايا وذوي الحاجات وقطع العمارات التي كانت العادة جارية بالمواظبة عليها- كل ذلك إضرابا عن عمارة الدنيا و إنكبابا على ما ظهر من عمارة الدين » إضافة إلى ما عرف عنه من زهد وتقية و كثرة عبادات و « هذا مع ما ظهر من سيرته خاصة حالته من لبس الخشنه واجتناب الترفه والدعة والمواظبة على العبادات ومهاجرة الشهوات واللذات استحقاقا لرخارف الدنيا وتوقيا من ورطات الهوى والتفتاتا إلى حسن المآب في العقبى »⁴.

و الورع غير العصمة فهو يختلف في معناه عنها ، لذا ينكر حجة الإسلام ما يشترطه "شردمة الباطنية" من إدعاء العصمة كشرط لقيام الإمامة لأن العصمة من صفات الأنبياء التي

1 - أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 187

2 - المصدر نفسه ص 187

3 - المصدر السابق ص 187

4 - المصدر نفسه ص 188

ما تزال مثار جدل بين الفقهاء ، فكيف سيتفقون حولها في مجال الإمامة ما داموا لم يجمعوا عليها في مسألة النبوة وهنا يقول " الغزالي " « لا يظن ظان أننا نشترط في الإمامة العصمة فإن العلماء اختلفوا في حصولها للأنبياء والأكثرين على لأهم لم يعصموا من الصغائر و لو اعتبرت العصمة من كل زلة لتعذرت الولايات و انزلت القضاة و بطلت الإمامة»¹.

فإذا كان الأنبياء أنفسهم عرضة للوقوع في الخطأ فما بالك بالأئمة و هم بشر من هذه الأمة « إذ لا عصمة للصحابة فضلا عن دونهم ، والأنبياء - عليهم السلام- قد اختلف في عصمتهم عن الخطايا والقرآن العزيز دال على نسبة آدم عليه السلام إلى المعصية ، و كذا جماعة من الأنبياء »².

والمشهور أن نبي الله محمد ﷺ كان يستغفر لذنوبه و هو المختار من الله البشير المصطفى الطاهر حيث قال ﷺ « إني لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة » مع أنه ﷺ غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر وله حديث آخر كما قال النبي ﷺ « إنه ليغان على قلبي حتى إني لأستغفر الله تعالى في كل يوم مائة مرة»³.

كان هذا حال النبي ﷺ و مترلته أعلى منزلة من الإمام ومن كل إنسان آخر، و قد أجمع العلماء على أن العصمة له في أشياء هي الكبائر دون أخرى و هي الصغائر في حين « الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم و لا هو مهبط الوحي و لا من حقه الاستثثار بتفسير الكتاب و السنة »⁴. لكن يبدو هذا الكلام نقيضا لما سبق و قلناه عن الشيعة فالإمام عندها معصوم يتولى تفسير و تأويل الشريعة و بالتالي لا يخضع للتكاليف و هو فوق أحكام الشرع..

الأمر الذي استفز " الغزالي " و استنكره و دفعه لإبطاله ، مؤكدا أنه لم يرد نص ولا حتى تأكيد لهذه العصمة إلا لدى الشيعة " الباطنية" لما ثبت عنه من القول « أما دعوى عصمة الأئمة فلم تقم حجة تدعمها إلا ما يراه الشيعة من ضرورة عدم خلو العالم من أئمة معصومين وهم علة اللطف والمصلحة »⁵ و ذلك مناف لما أجمع عليه سابقا سلف الأمة وفقهاؤها الراسخون في العلم في كل عصر من العصور.

1 - أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 19

2 - أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج1، ص 766

3 - المصدر نفسه ص 356، أحاديث صحيحة أوردها بن ماجه و أبو داوود

4 - السيد رشيد رضا ، الخلافة ، ص 140

5 - مصطفى حلمي ، نظام الخلافة ، ص 240

فالرسول المعصوم واجب الطاعة بعد الله تعالى لقوله تعالى ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾¹.

وما ادعاء الشيعة لعصمة الأئمة إلا للإلزام الخلق بطاعتهم « فخطأ المذهب الشيعي ناجم عن مساواة هذا الإمام من حيث الطاعة بالرسول ﷺ مع وجود هذا الفارق الجوهرى فإن الرسول ﷺ له أقواله وأفعاله المعلومة المنقولة للمسلمين كافة وطاعته هي مدار السعادة، بينما الإمام المختفي مجهول الأفعال والأفعال إلا في مخيلة الشيعة المروجين لما ليس له أساس من الأسانيد الصحيحة »² فبان بطلان دعوى الباطنية و تهاافت آرائهم ليظهر الحق في إمامة "المستظهر" الورع المتقي المجد في إحقاق الحق و المجتهد في طلب العلم و صحبة العلماء.

و ترتب عن الشروط و الصفات التي حددها " الغزالي " في الإمامة من ورع و تقوى وكفاية.. اتصاف الإمام بصفات أخرى طالما لازمت خلفاء الإسلام و حاولوا تطبيقها في رئاسة الناس و سياسة الدولة أهم تلك الخصال "العدل" كفضيلة أخلاقية سامية و "العلم" كمطلب إنساني هام و ضروري.

*4 محل الإمام

شدد الإمام " الغزالي " على عدالة الحاكم فحسب ما حكى في "التبر المسبوك" أن جلّ « الأماكن تخرب إذا استولى عليها الظالمون ويتفوق أهل الولايات ويهربون في ولايات غيرها ويقع النقص في الملك و يقل في البلاد الدخل وتخلو الخزائن من الأموال و ينكدر عيش الرعايا »³ فحيثما حلّ العدل يحلّ السلام و يتبعه الأمن و الاستقرار .

فكان العدل مطلباً يسعى وراءه الحكام و رغبة يتمناها المحكومين من الرعية ، وتشيد كتب التاريخ بالأمراء و الملوك العادلين و تخلد ذكرهم . ولقد اعتبر عدل الحاكم من أسباب العمران و من عوامل التقدم ، ما اتصف به الحكام « أما ترى انه إذا وصف بعض البلاد بالعمارة وان أهله في أمان و راحة ودعة وغبطة فإن ذلك دليل على عدل الملك وعقله وسداده وحسن نيته في رعيته»⁴.

1 - سورة النساء آية 69

2 - أحمد بن تيمية ، منهاج السنة، ج1، ص 150

3 - راشد لبراي ، قادة الفكر الإسلامي في ضوء الفكر الحديث ، ص 346 ، نقلا عن الغزالي ، التبر المسبوك ، ص 58 ، 59

4 - المرجع نفسه ص 346

وكان من مستلزمات العدل أن يتصف الحاكم بالهيبة والرغبة ليتمكن من تطبيقه على الكافة « والهيبة من مستلزمات الحاكم وضعفه يؤدي إلى اختلال الأمور وفي هذا يقول يجب أن تكون هيئته (أي السلطان) بحيث إذا رأته الرعية خافوا ولو كان بعيدا .. وإذا كان السلطان ضعيفا أو غير ذي سياسة أو هيبة فلا شك أن ذلك يكون سبب خراب البلاد «¹ فلم يكن يوما معنى العدل دالا على الضعف بقدر ما هو مرتبط بقدرة و استطاعة لإنفاذ أمر الحاكم و ورهبة تدفع للامتثال له .

يقدم " الغزالي " في كتابه " التبر المسبوك " بيانا بما يدعوه الأصول العشرة للعدل والإنصاف و هي أشبه بوصايا ينصح الحاكم بإتباعها لصالح حكمه ومن أبرزها « أن يعرف قدر الولاية ويعلم خطرها فإنها نعمة من نعم الله من قام بحققها نال من السعادة ما لا نهاية له ولا سعادة بعده ، ومن قصر عن النهوض بحققها فضل في شقاوة لا شقاوة بعدها إلا الكفر بالله »² فالعدل في الحكم فضيلة و تكليف لمن تولى أمر المسلمين بل تكاد تكون الغاية المنشودة من نصب الإمامة هي تطبيق العدل و دفع الظلم لتعم السعادة بين الناس .

والدليل على عظم قدر صفة العدل و فضلها ما يقدمه " الغزالي " في كتبه لا سيما " التبر المسبوك " من أحاديث مروية عن الرسول ﷺ يحث فيها على إتيانه و العمل به فقد قال ﷺ « عدل السلطان يوما واحدا أحب إلى الله من عبادة سبعين سنة » وأيضا قول النبي في موضع آخر « أحب الناس إلى الله تعالى وأقربهم إليه السلطان العادل و أبغضهم إليه وأبعدهم منه السلطان الجائر »³.

فلا بد إذن من الالتزام بإقامة العدل وتجنب الجور و هذا لدوام الحكم ، واستقرار أحوال الرعية فعلى الحاكم يجلب حب الناس فيقبلون على طاعته وتذلل له الصعوبات ويعده " الغزالي " العدل من أهم الفضائل التي ينبغي للحاكم الاتصاف بها يتحدث عن ذلك في كتاب " ميزان العمل " حاكيا عن قيمة العدل فيقول « أما العدل .. فليس هو من الفضائل بل هو عبارة عن جملة الفضائل ، فإنه مهما كان بين الملك وجنده ورعيته ترتيب محمود يكون الملك

1 - راشد لبراي ، قادة الفكر الإسلامي في ضوء الفكر الحديث ، ص 346

2 - المرجع نفسه 350 ، نقلا عن التبر المسبوك ، ص 16 ، 17

3 - راشد لبراي ، قادة الفكر الإسلامي في ضوء الفكر الحديث ص 350 ، نقلا عن التبر المسبوك ، ص 16 ، 17 (أحاديث

ضعيفة)

بصيرا قاهرا وكون الجند ذوي قوة وطاعة وكون الرعية ضعفاء سلسي الانقياد، قيل إن العدل قائم في البلد»¹.

حتى أن حجة الإسلام " الغزالي " يربط بين ذلك العدل في الحكم و العدل في ترتيب البدن و وظائفه لقوله « و العدل في السياسة : أن ترتب أجزاء المدينة الترتيب المشاكل لترتيب أجزاء النفس »² و هي ميزة دأب عليها مفكروا الإسلام بالنظر إلى ما كان يوصي به النبي من أن المجتمع الإسلامي كل متكامل يشبه أعضاء البدن في وحدته و بنيته.

هكذا جعل المفكر الأشعري من العدل إحدى الفضائل اللازمة لمن يتولى منصب الإمامة تماما كمن يتولى منصب القضاء عملا بقول الله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾³ حيث أمر الحكام بذلك لما فيه من الخير الكثير للرعية ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾⁴ وهذا أهم دور من الأدوار الموكلة إلى الإمام حين يتولى منصبه.

*5 العلم:

ورد الحث على طلب العلم في القرآن و السنة النبوية الشريفة للخلق أجمعين و أولي الأمر على وجه التحديد لما له من فضل عظيم في حياة الأفراد و المجتمعات يقول الله تعالى في شأن العلم ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾⁵. و أيضا قال تعالى في منزلة العلماء ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾⁶ كما قال المولى -عز وجل- مادحا العلماء باعتبارهم أكثر الناس دراية بأمور الدين و أشدهم خشية لله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾⁷.

1 - أبو حامد الغزالي ، ميزان العمل ص 272

2- المصدر نفسه ، ص 273

3- سورة النحل آية 90

4- سورة النساء آية 58

5 - سورة المجادلة الآية 11

6- سورة الزمر الآية 09

7- سورة فاطر الآية 28

و يؤكد حجة الإسلام " الغزالي " على أهمية العلم و فضله فيه تشيّد الحضارات و تتطور فهو عماد الدولة و العلماء أساسها لأن « بالعلماء حراسة الدين و بالأجناد حراسة الدنيا والدين و الملك توأمان فلا يستغني أحدهما عن الآخر »¹ فكان بذلك طلب العلم فريضة على كل مسلم و مسلمة. و قد ورد « في الصحيحين من حديث معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين »².

و قد فضل الرسول الكريم ﷺ العبد العالم على العبد العابد لما للأول من نفع عام ، فعن أبي أمامه - رضي الله عنه - قال ذكر رسول الله رجلا ن أحدهما عابد و الآخر عالم فقال: رسول الله ﷺ « فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم »³.

و في حديث آخر قال النبي ﷺ « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب و أن العلماء ورثة الأنبياء و أن الأنبياء لم يرثوا دينارا واحدا و لا درهما و إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر »⁴. و المغزى من تلك الأحاديث أن دور العلماء في شرح الشريعة و استنباط أحكامها .. لا غنى عنه إذ هم متممي عمل النبي ﷺ .

و قد أدرك الإمام " الغزالي " فضل العلم و ضرورة ملازمته للخلافة و حصوله للحاكم فجعل من شروط الإمام أن يكون شخصا مشجعا للعلم طالب له، ساعي لتحصيله ، لما في ذلك من فائدة للأمة و لدوام الحكم .فإن لم يكن العلم شرطا من شروط الإمامة لازما عند الغزالي - للمتصدي لها- فهو على الأقل مطلب ضروري يصاحبها.

فإن لم يكن الإمام مالك علم في ذاته ، و جب عليه أن يصاحب العلماء لينتفع بهم وينفع بهم دولته « قال معاذ بن جبل - رضي الله عنه- تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، و طلبه عبادة و مدارسته تسبيح ، و البحث عليه جهاد و تعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، و بذله لأهله قرابة ، وهو الأنس في الوحدة والصاحب في الخلوة »⁵. و من الجلي أن " الغزالي " لم ييطل

1- أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج1، ص570

2- صحيح متفق عليه لدى البخاري و مسلم و رواه الترمذي أيضا

3- الترمذي

4- أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج 1، ص14، 15 (رواه أبو داود و الترمذي و بن ماجه)

5- ابن قدامة المقدسي ، مختصر منهج القاصدين ، الشركة الجزائرية اللبنانية ، ط1، 2006 ، ص 13، و أبو حامد الغزالي ،

الإحياء ، ج1، ص 21

إمامة من لم يكن عالماً في ذاته ومتفقها في الدين ما دام يمكنه بلوغ تلك الخصلة بعون غيره من العلماء والراسخين في الدين عن طريق مشاورتهم و العودة إلى اجتهادهم .
فلا يقصر العالم في نصح خليفة الأمة و لا يتوانى عن خدمته و بذل الجهد في سبيل وعظه و تقويمه فإن تخاذل العلماء عن أداء واجبهم اتجاه حكامهم يعود بالبلاء على الأمة فتفوت مصلحة الانتفاع منهم . و قد روي عن الرسول ﷺ أنه قال: « أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه»¹ .

لكن العلم المستحب المرغّب فيه للأئمة هو ذلك الذين يقصدون من ورائه إصلاح الأحوال و تطبيق العدل و إرساء قواعد الشرع و ليس بغرض المباهاة و لا التفاخر. فعن النبي ﷺ أنه قال « من تعلم علماً ينتغي به وجه الله - عز و جل- لا يتعلمه إلا ليصيب به عرض من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة » و قال ﷺ أيضاً « من تعلم العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه فهو في النار»² .

ومع ذلك يحذر " الغزالي " العلماء من الإكثار من طرق أبواب الأمراء إن كانوا ظلمة حتى لا يؤثر ذلك على إيمانهم أو تغريهم أموالهم.. فيلينون لهم و ينصروهم على الظلم و في حديث دار بين النبي وأحد الصحابة حول تزايد الفتن و حال الناس معها أنه ﷺ « قال لحذيفة- رضي الله عنه- إياكم و مواقف الفتن، قيل: و ما هي؟ قال أبواب الأمراء يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب و يقول ما ليس فيه »

و قد تسبب التقرب إلى الملوك في ظهور نوع من العلماء كان خطرهم على الأمة أشدّ من نفعهم . حيث اتصف ثلّة من العلماء المتملقين للسلطة و طلباً للشهرة و الجاه بصفات رذيلة أحدثت فتن و قلاقل و سولت لهم أنفسهم بإصدار أحكام و فتاوى تماشياً مع أهواء السلطة فلم يقيم هؤلاء العلماء بواجبهم من النصح و التوجيه في حين « من صفات علماء الآخرة أن يكونوا منقبضين على السلاطين محترزين من مخالطتهم»³ .

1 - ابن قدامه المقدسي ، مختصر منهج القاصدين ، ص 21

2 - المرجع نفسه ص 26 (أوردتها الدرامي)

3 - أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج 1 ، ص 572 ، 573

وكان تخويف " الغزالي " للعلماء من قرب باب الملوك رغم حاجتهم الملحة إلى المشورة والنصح بسبب ما شهدته عصره من تنافس على مخالطتهم و تزييف للأحكام على أهوائهم حتى صارت بدعة الحاكم مبررة و سلطته مطلقة .. كحال أئمة الشيعة الباطنية وغيرهم.

وفي مثل تلك الأحوال و الظروف نصح الغزالي العلماء بعدم مخالطة الملوك الظلمة والفجرة كي لا يؤثر ذلك على دينهم ، كما حكى بعض السلف « أنك لا تصيب من دنياهم شيئا إلا أصابوا من دينك أفضل منه » و السبب في ذلك « أن الداخِل على السلطان متعرض لأن يعصي الله تعالى إما بفعله أو بسكوته و إما بقوله و إما باعتقاده فلا ينفك عن أحد هذه الأمور»¹.

فبعض العلماء كانوا بلاء على الحكام و الأمة ، لذا يربط " الغزالي " صلاح البلاد بصلاحهم و خرابها بفسادهم يقول مؤكدا هذا الأمر في " الإحياء " « و بالجملة إنما فسدت الرعية بفساد الملوك فساد الملوك بفساد العلماء فولوا القضاة السوء و العلماء السوء لقل فساد الملوك خوفا من إنكارهم » و بذلك قال ﷺ « لا تزال هذه الأمة تحت يد الله و كنفه ما لم يمالي قراؤها أمراؤها »².

فإذا كانت مهمة العالم نصح الحاكم و إرشاده إلى طريق الحق، و في حالة عجزه عن أداء وظيفته مع الملوك الظلمة ، فيستحسن أن يكون بعيدا عن مجالسهم التي تفوح بالضلال والمعصية من أن يكون معينا لهم على ظلمهم سواء بسكوته أو بكلامه .

و لتفادي كل ذلك و غيره رأى " الغزالي " أن يجعل من العلم صفة هامة يتطلبه منصب الولاية ، سواء تحققت للخليفة في ذاته أو بمشورة العلماء . معنى ذلك أن " الغزالي " لا يشترط في الحاكم و إمام الأمة العلم الوفير، و لكن على الأقل أن يكون طالبا له ساعيا وراءه حريصا على إقامة حدود الله بما تأتي له من علم . فينصح حجة الإسلام الحكام بمصاحبة العلماء بغرض مصلحة الخاصة والعامة « فالدين النصيحة »³ لكن في المعروف و الخير..

الملاحظ أن الفيلسوف " الغزالي " في هذه الصفة غير جازم ولا حازم في أمرها، ولا نفهم من ذلك رفضه لها أو نكرانها كشرط لازم لقيام الإمامة، بل بالعكس من ذلك يراها مهمة

1 - أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج 1 ، ص 572 ، 573

2 - المصدر نفسه ، ص 518

3 - أورده مسلم

كغيره من علماء الأمة، لكن تردده كان في مسألة توفرها للإمام الحاكم في ذاته أو إمكان حصولها له من مستشاريه وغيرهم .

لكننا نلاحظ " الغزالي " في مسألة العلم مترددا حازم غير جازم . فهو من ناحية يرى أن العلم من ضروريات الإمامة حيث « اتفق رأي العلماء على أن الإمامة لا تنعقد إلا لمن نال رتبة الاجتهاد والفتوى في علوم الشرع »¹ . لذلك نراه يرغب في العلم ويحث على طلبه كما فرض ذلك رسول الله ﷺ مبرزاً فضل العلم والتعلم في كتاب " الإحياء " من خلال نصوص شرعية عديدة منها قوله تعالى ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾² وغيرها من الآيات والأحاديث المشهورة في الحث على طلب العلم والسعي في سبيل تحصيله وإبراز فضل العلماء ومكائنتهم .

و من ناحية أخرى يتردد في أمر توفرها في ذات الحاكم و شخصه . فرغم أهمية العلم وجعله من مقتضيات الحياة السياسية إلا أن الغزالي لا يجعله صفة وشرطاً لازماً لشخص الإمام، فلو تعذر حصوله له جاز الاستعانة بغيره من ذوي العلم والرأي.. تماماً كالشروط الأخرى السابقة (الكفاية و النجدة..) . ربما يجسد هذا مبدأ التشاور مع أولي الرأي و أهل الحكمة لدفع التباغض و الأنانية والاستبداد بالرأي « فإن الاستبداد بالرأي و إن كان من ذوي البصائر مذموم ومخذور »³ .

و قد حث " أبو حامد الغزالي " على ضرورة مصاحبة الحكام للعلماء و العودة إليهم في كل أمر جليل أو هين ، إذ يتعين على الحاكم أن يقرب إليه العلماء في الدين ليعلموه أحكام الشرع و يوضحوا له مسالك تطبيق طريق العدل . و من هنا يوجه حجة الإسلام دعوة الحاكم ينصحه فيها برفقة العلماء الراسخين في الدين و اتخاذهم بمثابة مشيرين و معينين له على تدبير شؤون الرعية، فيقول له « و ليكن لك جماعة من أرباب العلم و العقل و التجارب في الرأي و المشورة و وزراء خير لا فسقة »⁴ .

فالعلم و الاجتهاد لدى الحاكم ليس مما تنعقد به الإمامة « و ليست رتبة الاجتهاد مما لا بد منه في الإمامة ضرورة بل الورع الداعي إلى مراجعة أهل العلم فيه كاف ، فإذا كان المقصود

1 - أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 191

2 - سورة المجادلة ، آية 11

3 - أبو حامد الغزالي ، المصدر نفسه ، ص 186

4 - أبو حامد الغزالي ، سر العالمين و كشف ما بين الدارين ، ص 08

ترتيب الإمامة على وفق الشرع ، فأى فرق بين أن يعرف حكم الشرع بنظره أو يعرفه بإتباع أفضل أهل زمانه «¹ فالغاية من اشتراط العلم بلوغ الأحكام الصحيحة و هذا مقدور عليه إذا ما رجع الخليفة إلى رأي جماعة علماء الأمة وتشاور معهم ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾² .

ولا يجوز خلع الإمام أو عزله لنقص هذه الخصلة في ذاته و عدم تحققها في شخصه، ما دام يكمل نقصها بمشاوره غيره من أهل العلم والرأي لسبيين : أولهما الخوف من قيام الفتن والثاني أن العلم ليس من الشروط الضرورية لانعقاد الإمامة . و في هذه الحالة « لم يجز خلعه و الاستبدال به بل تجب عليهم الطاعة له و الحكم بنفوذ ولايته و صحة إمامته».

و في اعتقاد الإمام " الغزالي " تفسير ذلك بسيط و فيه حكمة بالغة « لأننا نعلم بأن العلم مزية روعيت في الإمامة تحسينا للأمر و تحصيلا لمزيد المصلحة في الاستقلال بالنظر والاستغناء عن التقليد »³ .

وحتى الورع نقصانه مع العلم لا يضران بالإمامة حسب نص " للغزالي " ورد عنه في قواعد العقائد قال فيه « إنه لو تعذر وجود الورع و العلم فيمن يتصدى للإمامة و كان في صرفه إثارة فتنة لا تطاق حكمنا بانعقاد إمامته، لأننا بين أن نحرك فتنة بالاستبدال فما يلقي المسلمون فيه من الضرر يزيد على ما يفوتهم من نقصان هذه الشروط التي أثبتت لمزيد المصلحة فلا يهدم أصل المصلحة شغفا بمزاياها »⁴ . لذا أكد على ضرورة صحبة العلماء حيث جاء في " الإحياء " الذي نصح فيه الحاكم بالإقتداء بالعلماء العادلين « عليك بالأئمة الأعلام المرشدين. وقال من هم ؟ قال العلماء »⁵ .

فالعلم مطلوب للكافة لما فيه من فضائل و لحجة الإسلام " الغزالي " في هذا الموقف تقدير لفضله و بيان لدوره ، حتى أنه يقول فيه كلاما خالدا و حكما مأثورة منها « لأن العلم حياة القلوب من العمى، و نور الأبصار من الظلم، و قوة الأبدان من الضعف يبلغ به العبد منازل الأبرار و الدرجات العلى و التفكير فيه يعدل بالصيام و مدارسته بالقيام ».

1 - أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 191

2 - سورة الشورى أية 38

3 - المصدر نفسه ، ص 193

4 - أبو حامد الغزالي ، قواعد العقائد ، ص 97 ، 98 (أيضا في الإحياء ص 136)

5 - أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج 1 ، ص 812

فلم يتوان مشجعوا العلم من أمثال " الغزالي " لحظة عن الإشادة بفضل العلم و تقدير العلماء حتى اعتبره البعض إرثا نبويا وسييلا موصلا إلى نبيل رضا الخالق إذ « به يطاع الله -عز وجل- و به يعبد و به يوعد و به يوجد و به يمجد و به يتورع و به يوصل الأرحام و به يعرف الحلال والحرام وهو إمام والعمل تابعه »¹.

فعلى الحاكم طلب العلم وتشجيعه فهو عماد مملكته، ولا يشترط أن يكون عالما مجتهدا فإن تعذر ذلك فيه استعان بمن هو حاصل على هذه الصفة في حكمه من العلماء في تعليمه وإعانتته على التدبير والتنظيم لقوله ﷺ « خيار الأمراء الذين يأتون العلماء »² « فإن العلم إذا كان أفضل الأمور كان تعلمه طلبا للأفضل فكان تعليمه إفادة للأفضل »³.

وهناك مبررات و أسباب علل بها مفكروا الإسلام اشتراط العلم للمتقدم للإمامة كالتى يذكرها العلامة " بن خلدون " حيث يقول « فأما اشتراط العلم فظاهر لأنه إنما يكون منفذ الأحكام تعالى ، إذا كان عالما بها و ما لم يعلمها لا يصح تقديمه لها ولا يكتفي العلم إلا أن يكون مجتهدا لأن التقليد تقص و الإمامة تستدعي الكمال في الأوصاف و الأحوال »⁴.

و هؤلاء العلماء هم الناصحون في أمور الدنيا والدين المتبعون لطريق الحق.. لا تغريهم شهوات الدنيا ولا ملذاتها، كما استشهد " الغزالي " لتأكيد فضلهم بهذا الحديث المنقول عن أحد ذرية الإمام "علي" - رضي الله عنه- « قال محمد بن الحسين : لما علم أهل الفضل والعلم والمعرفة والأدب ، أن الله- عز وجل - قد أهان الدنيا وأنه لم يرضها لأولياءه و أنها عنده حقيرة ذليلة و أن رسول الله زهد فيها وحذر أصحابها من فتنتها أكلوا منها قصدوا وقدموا فضلا وأخذوا منها ما يكفي وتركوا ما يلهي ولبسوا من الثياب ما يستر العورة و أكلوا من الطعام أذناه ، مما سدّ الجوعة ونظروا إلى الدنيا بعين أنها فانية و إلى الآخرة أنها باقية فتزودوا من الدنيا كزاد الراكب ، فخرّبوا الدنيا و عمروا الآخرة »⁵.

1 - أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج1 ص 21

2 - المصدر نفسه ، ص 84

3 - المصدر نفسه 22

4 - عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص 206

5 - أبو حامد الغزالي ، مكاشفة القلوب ، ص 115

مما سبق يتبين أن "الغزالي" كان يعتمد في نظريته السياسية على جملة من الشروط الهامة من شأنها أن تحفظ دولة الإسلام و سدّد خطى الحاكم اتفق رأيه فيها مع رأي غيره من علماء الإسلام السنيين و أغلب تلك الصفات محددة في كتابه "فضائح الباطنية" و سبق أن تطرقنا إليها بالتفصيل و التحليل من قبل .

و الملاحظ أن "الغزالي" كان يدعو إلى تأسيس دولة قوامها التقوى و الورع و يشارك في تسيير شؤونها العلماء و الراسخون في الدين « فمست الحاجة إلى سلطان يسوسهم و احتاج السلطان إلى قانون يسوسهم به ، فالفقيه هو العالم بقانون السياسة و طريق التوسط بين الخلق [...] فكان الفقيه معلم السلطان و مرشده إلى طريق سياسة الخلق »¹ .

لذا ينبغي لعلماء الدين ألاّ يمتنعوا عن نصح الولاة فهؤلاء الأقوياء الراسخون في الدين هم العلماء و « إن العالم هو وارث النبي ﷺ و إنما ورث العلم ليتجمل بعمله و يحل فيه كمثل »² .
ومع ذلك القدر كله من النصح بالعودة إلى رأي العلماء لا يهمل "الغزالي" ضرورة وجود العلم للحاكم ذاته إذ عليه تحصيله لذاته حتى يبلغ درجة الكمال و يغلق الباب في وجه المتربصين به و خلا فيه، إذ عليه « أن يسعى لتحصيل العلم و حيازة رتبة الاستقلال بعلوم الشرع فإن الإمامة وإن كانت صحيحة منعقدة في الحال فخطاب الله تعالى قائم بإيجاب العلم و افتراض تحصيله و إذا ساعدت القدرة عليه لم يكن للتواني فيه »³ .

وهنا نقف على حقيقة هذه الدولة التي دعا إلى تأسيسها حجة الإسلام و نبرز طابعها الديني فهي دولة يسودها الدين و تسيير بأحكامه ، و يختار فيها الحاكم بإرادة و عناية إلهية و ما هو إلا حاكم بإذن الله و اختياره.. لذا ستكون سلطته مطلقة و الدولة أيضا سلطتها مطلقة و عليه لا مبرر لعصيانه أو الثورة عليه ما دام حكمه و إمامته بهداية من الله ، و يستخر الله العلماء لخدمة هذه الإمارة عن طريق التشاور و أخذ الرأي و عدم الإستبداد برأي واحد.

1 - أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج 1 ، ص 27

2 - المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 1986

3 - أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 194

فيظهر اختلاف " الغزالي " عن غيره من حيث طابع الدولة التي دعا إليها « وإذا كان الفلاسفة يدعون إلى دولة علمانية ويحكمها أو يشارك في حكمها الفلاسفة أو الحكماء فإن الغزالي يدعوا إلى دولة تيوقراطية يحكمها أو يشارك في حكمها العلماء الأقوياء في الدين »¹.

وقد أثبت " أبو حامد الغزالي " في نهاية المطاف صفات الإمامة وشرائطها وأوضح أن الإمام " المستظهر بالله " هو إمام العصر المجمع على خلافته من أولي العزم في الأمة، المستجمع لشتى صفات و شروط الإمامة . أما ما يشاع عنه من المخالفين و المتدعة كالباطنية الشيعة الفاطمية فما هو إلا مكر و دسائس تحاك للإطاحة به و خلعه و لإثارة الفتن في الدولة الإسلامية الزاهرة فليس لهم منا إلا التبديع و التحقير و الرد بالفضح و التشهير.

وفي الختام انتهى " الغزالي " إلى إقرار صحة إمامة "المستظهر بالله" داعيا له بوجوب الطاعة واستمرار البيعة والعهد له « و أنه يجب على كل مفت من علماء الدهر أن يفتي على القطع بوجوب طاعته على الخلق ونفوذ أفضيته بالحق وبصحة توليته للولاية وتقليده للقضاء»².

المطلب الثالث : وظائف الإمام العلمية و العملية التي بالمواظبة عليهما يدوم

استحقاقه للإمامة

يؤكد حجة الإسلام " الغزالي " على نصب الإمام في الأمة إذا كان مستوفيا لشروطها وعقدت له البيعة من الكافة ، و يترتب عن ذلك الوضع تحمل مسؤولية الحكم و كافة أعبائه باعتبار أن الإمامة تكليف أكثر منها تشريفا . لذا كان على متوليها أداء وظائف و مهام تكتمل بها إمامته « وهذه الوظائف بعضها علمية و بعضها عملية فتقدم العلمية على العملية فإن العلم هو الأصيل و العمل فرع له « و تفصيل هذه الوظائف كما يلي:

أولا : الوظائف العلمية

أولها: التي يدرك فيها أن حياته فانية لا محالة و أن يسعى لكسب الخيرات و التقوى لذا لا بد « أن يعرف أن الإنسان في هذا العالم لما خلق و إلى أي مقصد وجه و لأي مطلب رشح و ليس يخفى على ذي بصيرة أن هذه الدار ليست دار مقر و إنما هي دار ممر و الناس فيها على صورة المسافرين »³ فكان على الإمام التزود بالتقوى إذا كان يرجو لقاء ربه.

1 - راشد لبراوي ، مرجع سابق ، ص 240

2 - أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص 181 ، 182

3 - أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 195

ثانيهما: أن يجتهد في إصلاح جوارحه وقلبه من شهوات الدنيا والإقبال على ملذاتها وتطهير نفسه من الذنوب والخطايا وذاك « أنه مهما عرف أن زاد السفر إلى الآخرة التقوى محلها و منبعها القلب لقوله ﷺ : التقوى ها هنا و أشار إلى صدره ¹ « ² و ترتبط هذه الوظيفة بصفة الورع ، فعلى الإمام السعي إلى تجسيدها بتقوى الله تعالى في أقواله و أفعاله بدءاً بقلبه و ذلك باستحقار الدنيا و مغرياتها « و ما لم يظهر للإنسان حقارة الدنيا لا يتصور منه أن يسعى للدائرة الأخرى « ³ .

و أما الوظيفة **الثالثة:** فهي ترتبط بإصلاح الخليفة لذاته حتى يكون قدوة للرعية فما يحبه لنفسه يحبه لهم ، فيسهل عليه فيما بعد العمل على سياستهم وتقويمهم. ويعتقد "الغزالي" « أن معنى خلافة الله على الخلق إصلاح الخلق و لن يقدر على إصلاح أهل الدنيا من لا يقدر على إصلاح أهل بلده، و لن يقدر على إصلاح أهل البلد من لا يقدر على إصلاح أهل منزله ، و لا يقدر على إصلاح أهل منزله من لا يقدر على إصلاح نفسه ، و من لا يقدر على إصلاح نفسه فينبغي أن تقع البداية بإصلاح القلب و سياسة النفس و من لم يصلح نفسه وطمع في إصلاح غيره كان مغرورا « ⁴ .

وقد استنكر الله تعالى مثل تلك الأفعال في قوله- عز و جل- ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تُلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ⁵ و تذكر في هذا الموضع قول الشاعر:
 انتهى عن خلق و تأتي بمثله
 عار عليك إذا فعلت عظيم

فكان على الخليفة القائم على سياسة الأمة و تنظيم أمر الرعية أن يبدأ بنصح و إصلاح نفسه قبل نصح غيره ، فإن صلح حاله صلح حال رعيته ، و لا يكون ذلك إلا بالعبادة للنجاة من الهلاك و الغرور.

و من الوظائف العلمية الأخرى الموكلة للإمام ما يتعلق بوجوب سعيه إلى السمو عن مرتبة الحيوانية من إتباع للغرائز و لهث وراء الشهوات إلى بلوغ مرتبة الكمال و الشرف حيث التعفف و الفضائل من علم و عدل .. و هي صفات الأنبياء و الملائكة الذين ينبغي للناس

1 -متفق عليه أورده مسلم و أحمد و الترمذي

2 - أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 196 ، 197

3 - المصدر نفسه ص 198

4 - المصدر نفسه ص 198 ، 199

5 - سورة البقرة الآية 44

كافة الإقتداء بهم و إتباع سبلهم ، يصف الإمام " أبو حامد الغزالي " عن حال تلك الوظيفة فيقول « **الوظيفة الرابعة** : أن يعرف أن الإنسان مركب من صفات ملكية وصفات بهيمية¹ » بمعنى هذه الصفات تجعله مشابه للملك وأخرى للحيوانات و الأنعام « فمشابته للملك بالعلم و العبادة والعفة و العدالة و الصفات الحمودة، و مشابته للبهائم بالشهوة والغضب و الحقد و الصفات المدمومة » .

و على خليفة الله على أرضه أن يسعى لتحصيل صفات الملائكة و بذل الجهد للاتصاف بها لأن « من صرف همته إلى العلم و العمل و العبادة فخليق أن يلحق بالملائكة فيسمى ملكا و ربانيا كما قال تعالى ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾² أما من أفرط في الصفات الشهوانية وإرضاء ملذاته الدنيوية فينطبق عليه قول الغزالي « و من صرف همته إلى إتباع الشهوات و اللذات البدنية يأكل كما تأكل البهائم فخليق أن يلحق بالبهائم »³ .

فإذا كانت الوظائف السابقة الذكر علمية يجد الحاكم في طلبها و السهر على تحققها فإن الأخذ بها واجب في كل إمارة لما لها من الإيجابيات فهي أدوار ينبغي للقائم على الخلافة أدائها متى تولى منصبه و استحق الطاعة .

ثانيا : الوظائف العملية

إن الوظائف العملية هي الأخرى لا تقل أهمية عن الوظائف العلمية و « أولها أن كل من تولى عملا على المسلمين فينبغي أن يحكم نفسه في كل قضية يبرمها فما لا يرتضيه لنفسه لا يرتضيه لغيره » بمعنى أن يحب لأخيه كما يحب لنفسه فلا يظلمه ولا يأخذ حقه و يراعي العدل في معاملته و سياسته « و منها أن يكون والي الأمر متعظشا إلى نصيحة العلماء و متبجحا بها إذا سمعها و شاكرا عليها »⁴ و قد سبقت الإشارة من قبل إلى أهمية العلم و دور العلماء في تسديد حكم الخليفة عن طريق التشاور معهم و العودة إلى اجتهادهم .

و هناك وظيفة أخرى جعلت الإمام أقرب إلى رعيته و أكثر احتراما و طاعة من قبلهم ترتكز أساسا على حسن المعاملة ، و مفادها « ألا يستحقر الوالي انتظار أرباب الحاجات

1 - أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 200 ، 201

2 - سورة يوسف الآية 31

3 - المصدر نفسه ، ص 201

4 - المصدر نفسه ، ص 202

ووقوفهم بالباب في لحظة واحدة ، فإن الاهتمام بأمر المسلمين أهم له وأعود عليه مما هو متشاغل به من نوافل العبادات فضلا على إتباع الشهوات»¹.

ومن مهام الخليفة العملية أيضا ما يتعلق بعدم المبالغة في الترف و البذخ حتى لا يتلف ذلك الإمارة ، فإذا انشغل الحاكم بالدنيا دون التقوى ، و زين له الشيطان حبه لن يعبا بحال رعيته فهالك هو و من ولي أمرهم . و عليه يتجه " الغزالي " إلى الحاكم ناصحا إياه في قوله « أن يترك الوالي للأمر الترف و التلذذ بالشهوات في المأكولات و الملبوسات »². و في هذا الدور إقتداء بالخلفاء الراشدين وخاصة عمر بن الخطاب و الإمام علي-رضي الله عنهما- .

و هذه الوظيفة تشير إلى شرط الورع و التقوى الذي لا نكف نصادفه في أغلب وظائف الإمام ، بل إن فكر " الغزالي " الصوفي كله قائم على مبدأ الورع و الزهد و تحاشي زينة الحياة الدنيا و متاع الغرور ، لبلوغ رضا الخالق المعبود . مما يبرز بوضوح بداية تأثير التزعة الصوفية على معتقدات " الغزالي " و آرائه .

إضافة إلى ما سبق تحديده من وظائف و أدوار إمامة هنالك وظيفة أخرى تدعم حكم الحاكم و لها فضل في استقراره و من ثمة استمراره و دوامه ، إذ من خلالها يمكن الحكم على إمامته الخليفة و مصداقيتها . و نقصد من وراء كلامنا صفة العدل .

فالعدل أهم وظائف الإمام ، لأنه إذا ما اتصف بالعدل تمكن من العمل على تجسيده بين الرعية فتتحقق الغاية من الخلافة الإلهية . أما إذا ما قصر في القيام بها لم تستقر أحوال الأمة وعمّ الظلم و الفساد . فقد ذكر " الغزالي " في مؤلفاته تلك الأوضاع المزرية التي يعيشها الرعية في كنف الملوك الظلمة و ظلم الساسة و جورهم و دعا الخلق إلى اعتزالهم خوفا على عقيدتهم .

لذلك اتجه " الغزالي " في عدد من مؤلفاته الهامة كالإحياء و التبر المسبوك وغيرهما .. إلى نصح الملوك بالعدل و الاعتدال إلى درجة تخويف الناس من الاقتراب إلى هؤلاء الحكام خوفا على دينهم و إيمانهم لما ورد عنه من النهي في " التبر المسبوك " و " الإحياء " من التحذير من ذلك الأمر لا سيما إذا كان الملوك ظلمة و عليه دعا إلى عدم مخالطة الأمراء و السلاطين بل نهي عن رؤيتهم و مجالستهم و الدخول عليهم ..

1 - أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 203

2 - المصدر نفسه ص 203

و في نظر الإمام " الغزالي " لا ينبغي للخلق لا سيما العلماء أ، يستحسنوا ظلم الحاكم أو يزينوه له خوف على أنفسهم بل على العكس من ذلك يجب عليهم ردّهم عن ظلمهم وتذكيرهم بدورهم الموكل إليهم و هو تحقيق العدل و نشره بين الرعية ، و إن حدث خلاف ذلك اختلف الموازين و أحل الباطل محل الحق .

و الملاحظ أن " الغزالي " يحدد للإمام أدوارا و وظائف من شأنها أن تقوم إمامته و تحقق في الدولة الأمن و الاستقرار . لكن فقيه الأمة السني لا يكف في أغلب آرائه عن التنويه بدور العلماء و عظم تأثيرهم على أمر السياسة ، إذ يجعل " الغزالي " صلاح الإمام و الأمة متوقف على مدى صلاح العلماء « فالعلماء أمناء الرسل على عباد الله »¹ و التخويف من هذه المخالطة سببها التحذير من موافقتهم على ظلمهم ، و الطمع في ما لهم دون نصيحة الحق الواجبة لأن « من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه »² .

المطلب الرابع : وجود طاعة الإمام القائم بالحق "المستظهري"

و عدم الخروج عليه

أولا : طاعة الإمام

بما أن وجوب نصب الإمام من الضروريات ، لذا كانت طاعة ولاة الأمور واجبة ومستحثة فقد وجبت طاعتهم حتى لا يقع الشقاق وتعم الفتن لقوله تعالى ﴿ وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾³ . لذا أمرنا الله - عز وجل - بطاعة من يرعى شؤون الرعية في قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾⁴ .

وجاء في السنة أن الرسول ﷺ أمر بطاعة ولاة أمور المؤمنين في السراء ، والضراء ، في العدل و الظلم ما لم يعصوا الله ، فعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال « من كره من أميره شيئا فليصبر فإنه من خرج من السلطان شبرا مات ميتة جاهلية »⁵ . و في حديث آخر قال النبي - صلوات الله وسلامه عليه - فيما أوصى به عباد الله الصالحين « إنكم سترون بعدي أثره

1 - أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج 1 ، ص 572

2- المصدر نفسه ، 574

3- سورة الأنفال آية 25

4- سورة النساء آية 59

5- متفق عليه ، أورده البخاري و مسلم

وأمرنا بتكرونها « قالوا « يا رسول الله كيف تأمر من أدرك من أدرك منا ذلك ؟ قال
«تؤدّون الحق الذي لديكم وتسالون الله الذي لكم»¹.

وكان مما أوصى به النبي ﷺ في مرض موته حين أتاه القوم .. فدعاهم إلى البيعة وكان من
ضمن ما بايعه به القوم وذكره " حنادة بني أمية " فقال فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة
في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثره علينا وأن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحا
عندكم من الله فيه برهان»².

لذا يؤكد " الغزالي " على ضرورة طاعة الخليفة و عدم التمرد عليه أو خلعه مستدلا بأدلة
شرعية ونصوص متواترة تثبت صحة موقفه السياسي و تدعمه منها حديث النبي ﷺ مع حذيفة
بن اليمان حين أخبره عن ما سيحدث بعده من الفتن فسأله حذيفة « ماذا تأمرني إن أدركني
ذلك ؟ قال النبي ﷺ : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم . قلت-أي حذيفة- فإن لم يكن جماعة
ولا إمام ؟ قال النبي ﷺ " فاعتزل تلك الفرق كلها و لو أن تعصّ بأصل شجرة حتى يدركك
الموت و أنت على ذلك»³.

وربما بسبب هذه الأحاديث النبوية الناهية عن الفتن لم يشارك عدد من الصحابة في حرب "علي"
و"معاوية" وفضلوا المكوث في بيوتهم حتى يدركهم الموت و يحل بهم قضاء الله.
إذا بلغت طاعة الحكام و الخلفاء من الأهمية حداً شبهها فيها الرسول الكريم بطاعته هو
بل أكثر من ذلك احتوت مصلحة عظيمة اعتبرت فيها طاعة الله تعالى، لما نقله الشيخ
الجليل أبو هريرة - رضي الله عنه- عن النبي ﷺ أنه قال في هذا الصدد « من أطاعني فقد
أطاع الله و من عصاني فقد عصى الله و من أطاع أميرى فقد أطاعني و من عصى أميرى
فقد عصاني»⁴ وروى مالك ابن أنس عن النبي ﷺ أنه قال « اسمعوا واطيعوا وإن استعمل
عليكم عبد حبشي كان رأسه زبيبه»⁵.

1 - صحيح، متفق عليه، رواه البخاري في كتاب الفتن و مسلم في كتاب الإمارة و الترمذي في كتاب الفتن و أحمد..

2 - البخاري ، صحيح البخاري ، ج4، حديث رقم 7053 ، 7052 ، 7056 ، ص 364

3 - المرجع نفسه ، ص 370

4 - المرجع نفسه ، حديث رقم 7137 ، ص 382

5 - متفق عليه لدى البخاري في كتاب الأحكام وبن ماجة في كتاب الجهاد و في مسند أحمد

بناء على ذلك الأمر كان الخضوع لحكم الأمراء و طاعتهم من واجبات الرعية لما في ذلك من المصلحة لقول النبي ﷺ « السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة ¹ » وقال أيضا نبي الله محمد ﷺ محمداً مجال الطاعة «إنما الطاعة في المعروف» ² .

لكن لا ينبغي أن يتبادر إلى أذهاننا أن واجب الطاعة والخضوع الذي يؤديه الرعية في حق ملوكهم و أحكامهم لا يقابله نيل للحقوق والكرامات ، بل على الحاكم أن يقابل تلك الطاعة بأن يكون عادلاً مع الرعية قائماً ساهراً على أمورهم حريصاً على مصالحهم راعياً للدين مطبقاً للأحكام الشرعية ناصحاً لهم آخذاً بالنصيحة مستشيراً مواظباً على مشورة ذوي الرأي والعلم لقوله ﷺ « ما من عبد استرعاه الله رعية فلم يحطها بنصيحة لم يجد رائحة الجنة» ³ و في حديث آخر منقول عن النبي ﷺ أنه قال في زجر ولاة أمور المسلمين « ما من وال يلي رعية من المسلمين فيموت و هو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة» ⁴ .

و لولا هذا الحث الشديد على طاعة الأمراء و الخضوع لسلطتهم ، لكان حال الناس أسوأ و أسوأ ، فالأمر بالطاعة إذا من باب اللطف بهم ، فأن يخضع الناس لشخص واحد يأتمرون به خير من أن تكون حياتهم فوضى لا راعي لهم ولا سانس لها إلى درجة شبهت فيها طاعة الأمير بطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ .

لذلك اعتبر "الغزالي" طاعة الأئمة القائمين على شؤون الأمة من أوجب الواجبات عملاً بما نصّ عليه القرآن الكريم والسنة المحمدية الشريفة و اقتداء بما سار عليه خلفاء الأمة ووافقهم إجماع أهل السنة و الجماعة .

لأن أهل السنة و الجماعة لا يبيح أغلبهم الثورة على الخلافة القائمة مادامت تستوفي شروطها و تحرص على أداء واجباتها لما في المخالفة من ضرر عظيم على الإمامة و الرعية معا . لذا « قد رفض علماء السلف الخروج عن الإمام ولو كان جائراً ، فلا بد من طاعته لما يترتب على الثورة على الحكام من فتن و محن و اضطراب و فساد» ⁵ .

1 - متفق عليه و أورده البخاري و غيره

2 - البخاري ، صحيح البخاري ، ج 4 ، حديث رقم 7142 ، 7144 ، 7145 ، ص 383

3 - مسلم و الدرامي

4 - البخاري ، صحيح البخاري ، ج 4 ، حديث رقم 7150 ، ص 385

5 - عبد الفتاح أحمد فؤاد ، الفرق الإسلامية و أصولها الإيمانية ، ص 317

فتعالت صيحات العلماء السنيين الراضة لكل تمرد على السلطة الحاكمة خوفا على ضياع الأمانات و هدر الحقوق مثل ما فعل " أبو حامد الغزالي" و غيره من الفقهاء السنيين مع شرذمة الباطنية المناوئة للخلافة العباسية الراضة لإمامة بني العباس المطالبة بخلعهم معلنة عن عصيائها للخلافات القائمة ، و كان القول بالطاعة و استنكار الثورة أهم وسيلة لتفادي دعوات الفرق لباطنية و تثبيت إمامة العباسيين .

فبدلا من الثورة على الحكم ينبغي الصبر عليه والدعاء له بصلاح الأحوال و نصحه ، فعن ابن عباس- رضي الله عنه - عن الرسول ﷺ انه قال « من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شرا فيموت إلا ميتة جاهلية »¹ .

و " الغزالي" يكره كغيره من فقهاء السنة وقوع فتن بين المسلمين حول الخلافة لذا ينصح الرعية بتجنب كل ما من شأنه إحداث شقاق في صفوف المسلمين سواء بالقول أو الفعل ما دام هذا الإمام أو الحاكم يقيم حدود الله فلا يجوز الثورة عليه لأن هذه الثورة ليس لها ما يبرره . ا . و ينهى حجة الإسلام عن كل ما من شأنه أن يحدثها فحال الرعية مع السلطان أشد كحالة من يجترس في معاملة الولد فليس لها معه إلا التعريف بالنصح و الموعدة.

فإذا كانت درجات الأمر بالمعروف مرتبة ترتيبا شرعيا تراعى فيها أولويات حدها الرسول الكريم ﷺ « أن أوله التعريف و ثانيه الوعظ ، و ثالثه التخشين في القول و رابعه المنع بالقهر بالضرب و العقوبة و الجائز من جملة ذلك مع السلاطين الرتبتان الأوليان التعريف و الوعظ و أما المنع بالقهر فليس ذلك لآحاد الرعية مع السلطان ، فإن ذلك يحرك الفتنة و يهيج الشر..»² فالثورة و التمرد على الخليفة لا أساس لهما " عند الغزالي" و لا مبرر لاعتمادهما معه ما دام يمكن توجيهه للحكام بسلك سبل أخرى.

و هنا نقف على بعض من ملامح النظرية السياسية " للغزالي" التي تتأسس على ضرورة وجود الإمام و الحاجة إلى قيام الدول لسياسة للمجتمع و حفظ الدين و من زاوية أخرى تكفل استمرارها بتقديم الطاعة للحاكم و موالاته و النصح له ، بدلا من التفكير في خلعه فلا يجوز بأي حال مخالفة الإمام أو معارضته تحاشيا للفتنة.

1 - البخاري ، مرجع سابق ، حديث رقم 7054 ، ص 364

2- أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج 1، ص 800 ، 801

فالطاعة للإمام واجبة مادام لم يتورط في الفتن أو الحروب الأهلية فهو ظل الله في أرضه وهو المطبق للناموس والعامل بالشرعية الإلهية... كل هذا يحتم طاعته من قبل الخلق أجمعين فكيف يتصور الثورة على نائب وخليفة رسول الله .

و من هذا المنطلق أيضا يجعل " الغزالي " مبدأ الثورة والتمرد على الحاكم أو أي محاولة لخلعه تقوم بها الرعية بعضهم أو كلهم غير مشروعة باعتبار أن ظلمه وجوره أقل شرا من الفتنة وانهيار المجتمع ولذلك كان نصبه واجب شرعا لا عقلا.. لكن الطاعة التي تكون في حق الأئمة ليس مطلقة بل مقيدة بالشرع وأحكامه ، فلا بد من طاعة الحكام ما لم يأمروا بمعصيته لقوله تعالى ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾¹ .

و لأن الرسول ﷺ حث على طاعة ولاة أمور المسلمين ما لم يأمروا بمعصية تخالف شرع الله تعالى يقول النبي - صلوات الله وسلامه عليه- « لا طاعة في معصية الله إنما الطاعة في المعروف »² كما روي عنه أيضا انه قال « السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة »³.

و من مستلزمات الطاعة عد إهانة الحاكم لما ينجر عن ذلك من ذهاب هيئته بين الناس وقد نهى نبي الله عن القذف و السب عموما و قال ﷺ فيمن تناول على السلطان « من أهان السلطان أهانه الله »⁴ .

ومن ناحية أخرى كان للحكام على الرعية واجب النصح بعبارة أوضح استلزمت طاعة الملوك نصحهم إن أخطئوا فالدين يستوجب ذلك ، لقول الرسول ﷺ « الدين النصيحة قلنا لمن ؟ قال : لله ولكتبه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم »⁵ . و حتى الجهاد مع أئمة المسلمين والخروج معهم هو من أبواب الطاعة ، و الدعاء لهم و الصلاة خلفهم من أهم مظاهر الطاعة. و في حديث للرسول ﷺ أوجب فيه طاعة الأمراء لقوله ﷺ لمن يسأله عن طاعة أمراء السوء « اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حُمِّلُوا وعليكم ما حُمِّلْتُمْ »⁶ .

1 - سورة الممتحنة آية 12

2 - متفق عليه أورده البخاري و مسلم و أبو داوود و النسائي وأحمد

3 - صحيح و قد أورده البخاري

4 - الترمذي

5 - مسلم ، كتاب الإمارة

6 - مسلم ، كتاب الإمارة ، و الترمذي كتاب الفتن ، و اعتمده :أبو بكر جابر الجزائري ، منهاج المسلم ، ص 57

فالإسلام دين تسامح و سلام أتى لخير البشرية و لم يدعو إلى الثورة و الجهاد في أول أمر بل تبع طرق الدعوة السلمية ، و راع حرمان الناس . و ما تضمنه ديننا من أحكام و قيم يؤكد لنا أنه « يرى حرمة الخروج عليهم أو إعلان معصيتهم لما في ذلك من شق عصا الطاعة على سلطان المسلمين »¹ لما يجلبه ذلك من البلاء على الواحد و الكل معا.

لكن ليس المراد بالكلام السابق الخضوع و السكوت على الظلم وإن كان فاعله خليفة البلاد ، بل ينبغي مقابله بالنصح و الوعظ بالتي هي أحسن، و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر لقوله ﷺ عندما سئل من أفضل الجهاد فقال : « كلمة حق عند سلطان جائر »².

لذلك كان " الغزالي " ينصح إمام الأمة دائما و يعين أهل السلطة و يوجههم نحو الصواب كما فعل سلفه من العلماء مع خلفائهم. ففي مشاورة الحكام العلماء و صحبتهم تقليل لشهرهم و ظلمهم في الأمة إذ يرد في الخبر أن « خير الأمراء الذين يأتون العلماء »³.

و كعادته ينصح حجة الإسلام الحاكم بصحبة العلماء و أخذ العلم عمهم و يصرح بذلك الموقف في " الإحياء " مستعينا بعدد من الآيات و الأحاديث و مستدلا بما نصح به علماء السلف خلفاءهم مثل القول التالي « عليك بالأئمة الأعلام المرشدين، و قال: من هم ؟ قال: العلماء »⁴. و في ذلك كله تأكيد من " الغزالي " على أهمية العلم و حيازته في نصب الإمامة فالعلم من شروط و صفات الشخص المتقدم للإمامة، إما في نفسه فإن انتفى ففي أتباعه و صحبه من العلماء وقد ذكرنا ذلك من قبل في شروط الإمام.

ثانيا : عدم خلع الإمام والخروج عليه:

إن من مستلزمات طاعة الإمام عند " الغزالي " عدم الخروج عليه أو معارضته أو حتى المشاركة في خلعه. و ليس في تبني " الغزالي " لهذا الموقف أي تأييد للظلم أو مطاوعة لاستبداد الحكام-إن كانوا ظلمة مستبدين- وإنما شر الواحد أقل ضررا من شر المجموع. ولولا حرص الإمام " الغزالي " على أمتة و خوفه من اشتداد الفتن و الحروب لما قال بهذا الرأي.

1 - أبو بكر جابر الجزائري ، منهاج المسلم ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت لبنان ، ط1، 2003 ، ص 57

2 - النسائي و أحمد ، و أورده أبو بكر جابر الجزائري ، في : منهاج المسلم ، ص 50

3 - أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج1، ص 573

4 - المصدر نفسه 449

حتى وإن جار الحاكم وظلم تجب في حقه الطاعة، لما ورد عن " الغزالي " في كتاب " إحياء علوم الدين " « إن السلطان الظالم الجاهل مهما ساعدته الشوكة و عسر خلعه وكان في الاستبدال به فتنة نائرة لا تطاق وجب تركه ووجبت الطاعة له»¹.

فطاعة الخليفة أشد رحمة من معارضته أو خلعه لما يترتب عن تلك المعارضة من قلاقل وحروب وسفك للدماء... « كما تجب طاعة الأمراء إذ ورد في الأمر بطاعة الأمراء والمنع عن سل اليد عن مساعدتهم أوامر و زواجر»².

و يستشهد " أبو حامد " في هذا السياق بما روي عن الرسول ﷺ من حديث عن الأمر بطاعة الأمراء أخرجه البخاري من حديث أنس، جاء فيه « اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشي كان رأسه زبيبة»³.

وقد ذهب الشيخ الفقيه " بن تيمية " إلى نفس الرأي في " منهاج السنة " حين أوجب الطاعة لمن انعقدت له البيعة مستدلاً لقوله ﷺ المروي في الصحيحين و الذي نصه « من أطاعني فقد أطاع الله و من عصاني فقد عصى الله و من أطاع أميرى فقد أطاعني و من عصى أميرى فقد عصاني»⁴.

و عليه كان خلع الإمام الخليفة من أصعب الأمور ففيه من الشر و البلاء الذي يلحق بالأمة الكثير و هذا محل اتفاق لدى علماء الأمة الذين يتفقون مع " الغزالي " في رفض مسألة الخروج على الإمام لخلعه . فمثلاً قرر شيخ الإسلام " بن تيمية " « أنه ينبغي طاعة الأئمة في جميع الأحوال اللهم إلا إذا أمروا بمعصية الله لأن الرسول ﷺ قد أمرنا بذلك و نهى عن رفع راية العصيان في وجوههم أو مقاتلتهم إلا إذا امتنعوا عن تأدية الصلاة و أمروا بمعصيته»⁵.

و ما قول " الغزالي " بوجوب طاعة الإمام القائم بالحق إلا لسببين هامين، أولهما: نصره للحق و إظهار لما يترتب عن القول بخلعه من مفسد تفتك بالأمة و وحدتها، و في هذا تأييد لما ورد في الشريعة من نصوص مؤكدة لوجوب التزام الجماعة لإمام الأمة ، تداولها الرواة و سار عليها الناس .

1 - أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج1 ، ص 570

2 - المصدر نفسه ، ص 570

3 - متفق عليه لدى البخاري في كتاب الأحكام و بن ماجه في كتاب الجهاد و في مسند أحمد . و أورده الغزالي في الإحياء ج1 ، ص 570

4 - البخاري ، أورده أحمد بن تيمية ، في : منهاج السنة ، ج1 ، ص 149

5 - أحمد بن تيمية ، المرجع نفسه ص 150

فالسبب في توجه " الغزالي " وأغلب مفكري السياسة الإسلامية في تلك العهود إلى رفض مبدأ الثورة على الخليفة لخلعه، يتمثل في الزواجر و النواهي الواردة من الله و رسوله الكريم في حق من يخرج عن طاعة الملك، منها قول الرسول ﷺ « من خلع يدا (ربما من طاعة إمام) لقي الله يوم القيامة ولا حجة له، ومن مات و ليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية »¹.

لذا فلا أحد يؤيد تناول الأفراد على الجماعات، ولا تربص الشيعة بالخلافة العباسية. وما كان فقهاء الأمة بأشد حرصا على الأمة و على العقيدة من أنبياء الله عز وجل ورسله الذين حثوا على الطاعات لأهلها...

أما السبب الثاني الذي لأجله رفض الغزالي مسألة خلع الإمام وحث على طاعته في السراء و الضراء هو حفظ خلافة أمير المؤمنين "المستظهر بالله العباسي" فمادام هذا الإمام الحاكم قائما بالحق مؤد لواجباته و وظائفه رافعا لراية الإسلام مقيما لحدوده..توجبت طاعته.

فلا تتبع أولئك القلة من المبتدعة و هم الشيعة الباطنية التعليمية ، الذين أعلنوا العصيان وحق في حقهم التكفير و هم مرتدون عصاة و قد « نهى الرسول الكريم عن شق عصا الطاعة وتفريق شمل الأمة بمثل قوله: من أتاكم وأمركم على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه »².

فالإسلام لم يحرض الناس على معارضة حكاهم والتربص بهم ، بل هو دين رحمة وسلام وهذا اقتضى أن تكون تعاليمه داعية للصبر على الأذى و العفو عن الخطأ و الإساءة ومقابلة السيئة بالحسنة و المجادلة بالتي هي أحسن ... و الدعاء بالهداية.. و هذا يدخل فيما يسميه "الغزالي" « باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ». أما خلع الإمام و الثورة عليه فلم ترد قط في الشرع و لم يجمع حولها الفقهاء لقوله ﷺ « سيليكم بعدي ولاة فيليكم البر بيره و يليكم الفاجر بفجوره فاسمعوا لهم و أطيعوا في كل ما وافق الحق فإن أحسنوا فلكم و لهم وإن أساؤا فلكم وعليهم »³ ..

و الناس على سنة رسول الله يهتدون بهديه و يكفون عما نهاهم ، و إذا كان رسول الله قد نهي عن الخروج عن قائد الأمة و سائس شؤونها لما في ذلك من عظم المصلحة، فإن من واجب الخلق لزوم أمره و حفظ سنته فهو ﷺ أمرنا بطاعة الولاة كما أمره الله تعالى بذلك .

1 - مسلم ، كتاب الإمارة ، أورده أحمد بن تيمية ، منهاج السنة ص 149 ، وفي الخلافة و الملك ص 18

2 - أحمد بن تيمية ، منهاج السنة ، ج 1 ، ص 150

3 - رواه أحمد ، وذكره الماوردي ، في : الأحكام السلطانية ، ص 30 ، وقال الألباني في صحيح الجامع أنه : صحيح

فالأولى بالرعية نصح الحاكم والدعاء له وإرشاده إلى السبيل الأقوم ، و هذه المهمة يتولاها العلماء في الأمة ، لذا فالغزالي ما نهي عن التمرد والثورة على الإمام والخلافة إلا حرصا منه على الدين و الرعية حتى أنه يرى في حالة ظلم الحاكم أن يبادر إليه ذووا العلم و الرأي عملا بمبدأ « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لنصحه وتوجيهه.

ليحدد حجة الإسلام بعد ذلك درجات الأمر والنهي و ما يجوز اعتماده منها في معاملة السلاطين إذ يقول « قد ذكرنا درجات الأمر بالمعروف: و أن أوله التعريف وثانيه الوعظ وثالثه التخشين في القول و رابعه المنع بالقهر في الحمل على الحق بالضرب والعقوبة»¹.

و بعدما يحدد " الغزالي" هذه المراتب يستثني السلطان في بعضها، خوفا من الفتنة وتطاول المتطاولين قائلا في ذلك « والجائز من جملة ذلك مع السلاطين الرتبتان الأوليان وهما التعريف والوعظ وأما المنع بالقهر فليس ذلك لآحاد الرعية مع السلطان فإن ذلك يحرك الفتنة و يهيج الشر ويكون من المحذور أكثر أما التخشين في القول كقوله يا ظالم يا من لا يخاف الله.. وما يجري مجراه فذلك إن كان يحرك فتنة يتعدى شرها إلى غيره لم يجز»².

فلا بد من الاحتراس في معاملة الخليفة خوفا من غضبه أو إثارة الناس عليه يقول "أبو حامد الغزالي" موضحا ما يجب من الرعية في معاملة الحاكم « أما الرعية مع السلطان فالأمر فيها أشد من الولد فليس لها منه إلا التعريف و النصح »³ و ربما حرص "الغزالي" على سلامة الرعية و اعتقادهم و خوفه من أن تعم الفتن هو ما يبرر ذلك الموقف الذي أظهره و دعا إليه.

وهو موقف يؤكد على مبدأ هام من مبادئ الشريعة الإسلامية السمحاء ألا وهو « الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر » الذي ينبغي اعتماده مع الناس ككل لردع كل من أقدم منهم على ظلم أو معصية، ويعامل به الملوك أيضا والساسة لأن فيه صلاحهم و صلاح الأمة.

أهمية النظرية السياسية للغزالي

من خلال ما سبق ذكره يتبين أن النظرية السياسية التي قدمها " الغزالي" في مؤلفاته قصد منها جانبان: الأول هدم النظرية السياسية التي نادي بها الشيعة الباطنية خاصة القول بوجوب إمامة العلويين نصا، وبعصمة الأئمة وضرورة الإقتداء بهم والتعلم عنهم..

1 - أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين ، ج 1 ، ص 800

2 - المصدر نفسه ص 800 ، 801

3 - المصدر نفسه ص 772

ومن جانب آخر تقديم البديل عن هذه النظرية المغالية و المتمردة على الخلافة العباسية بالدعوة إلى ضرورة نصب الإمام شرعا لتوفر الصفات الضرورية فيه من ورع وعلم .. وغيرها من الشروط التي تمنحه استحقاق الإمامة بالقدرة والاختيار والعمل، لا بالنص والتوارث وبهذا تتم مبايعة الإمام .

و يرى " الغزالي " إمكانية انعقاد إمامته حتى وإن لم يتوفر فيه الورع والعلم في ذاته مع ضرورة سعيه في تحصيلهما من غيره . و لا يكون ذلك مبررا لخلعه « فما يلقي المسلمون فيه من الضرر يزيد على ما يفوتهم من نقصان هذه الشروط التي أثبتت لمزية المصلحة فلا يهدم أصل المصلحة شغفا بمزاياها كالذي يبني قصرا و يهدم مصرا »¹.

و عليه أوجب " الغزالي " نصب الإمامة في الأمة ، وأفتى بصحة إمامة الخليفة المستظهري العباسي القائم بالحق ورفض الثورة عليه لما في ذلك من خطر على الأمة يقول في هذا الشأن «إن الخلق على اختلاف طبقاتهم وما هم عليه من تشتت الأهواء وتباين الآراء لو تركوا وشأنهم ولم يكن لهم رأي مطاع جمع شتاتهم لهلكوا عن آخرهم ... »².

" فالغزالي " يؤكد على طاعة الإمام و عدم الثورة عليه حتى لا يسوء وضع الأمة ، بل إنه يوجب على الحاكم استخدام القوة والقهر لتحقيق أمن الدولة « فالقهر الذي يكفل الطاعة هو خاصية الدولة عند الغزالي و هو في ذلك يؤكد مثل المحدثين على السيادة كركن جوهرى من أركان الدولة »³.

و حتى الإمام " أحمد بن تيمية " يؤيد تلك المسألة ويؤكد على وجوب طاعة الإمام ولو كان جائرا وفي هذا تأكيد لصحة الموقف السياسي للغزالي وقد ظهر هذا في قوله « لأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة »⁴.

معنى ذلك أن من أهم وظائف الإمامة و موجباتها و العمل على إحقاق الحق و إبطال الباطل لأن « إقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة و الإمارة »⁵. فكان من الضروري إذن نصب الإمام في الأمة ليسوس الناس ويمنع اعتداء على بعضهم البعض .

1 - أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج 1 ، ص 136

2 - أبو حامد الغزالي ، الاقتصاد في الاعتقاد ، ص 105

3 - إسماعيل زروخي ، الدولة في الفكر العربي الحديث ، ص 112

4 - أحمد بن تيمية ، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ، ص 191

5 - المرجع نفسه ص 192

و تذكر في هذا الموضوع ما استشهد به بعض فقهاء الإسلام لإبراز دور الإمامة و الحاجة الملحة إلى قيامها في الأمة ، فهاهو مثلا شيخ الإسلام " أحمد بن تيمية " يؤكد على ضرورة نصب الإمامة مستدلا بما بتناقله العرب إذ « يقال: ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة بلا سلطان»¹. و قد سبق و أشرنا فيما سبق إلى أن غالبية المسلمين و علمائهم يتفقون على وجوب نصب الإمامة و إن شدَّ عنهم القلة، رغم اختلافهم حول كفييتها و حكمها بحسب اختلاف الفرق و المذاهب و تعددها.

وما نلاحظه من خلال تحليل تصور الإمام " الغزالي " لمسألة " الإمامة " أن موقفه منها تأسس بناء على نقده للباطنية و رده عليها . فلم يكن له رأي خاص فيها بل تبين ملامح نظريته السياسية و تبلورت حين استنكر ما تدَّعيه الفرق الشيعية الإسماعيلية الباطنية من أباطيل في تصورهما لمسألة الإمامة من القول بالنص و التوارث و العصمة و الغيبة ...

الأمر الذي دفع حجة الإسلام إلى إنكار ما تزعمه هذه الفرق و إبطاله مقدما البديل عنه مما سنه الله و رسوله و تعارف عليه السلف و كان محل إجماع و اتفاق أهل السنة. فأنكر النص و التوارث في الحكم (الإمارة) و ربط قيامه بمبايعة أهل الشوكة ، بعبارة أخرى جعل الحكم السياسي في الدولة الإسلامية نابعا من إرادة الشعب و أفراد الأمة « و الغزالي هنا يرجع الشوكة إلى المبايعة أي الاختيار الشعبي الحر للحكم و هذا مبدأ هام في نظام الحكم الديمقراطي وإرادته سبحانه »².

و حسب ما ذكر الأستاذ " زكي عدل الدين سالم " أحد الباحثين المعاصرين في دراسة له أجراها عن فلسفة " الغزالي " اعتباره أن « الحكم رزق يؤتاه لمن يشاء »³ و ذلك عملا بقوله تعالى ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ﴾⁴.

فلا أساس إذن لدعوى الإرث المزعوم للإمامة كما تبنتها الفرق الباطنية ما دام الملك لله تعالى وحده و ما الإمام إلا عبد مستخلف على الأرض أتاه الله من فضله و رزقه ملكا عليه أن يحسن التصرف فيما استأمنه الله عليه، فلا تشغله بشهوة الملك عن أداء واجباته اتجاه الله والرعية ، فالإمام خليفة للنبي ﷺ في أمته و هو متمم لعمله ومهامه، لذلك طالما ارتبطت الإمامة بالنبوة و اشتركت معها في عدة نواح .

1 - أحمد بن تيمية ، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ، ص 192

2 - زكي محمود عدل الدين سالم ، الإنسان في فلسفة الغزالي و تصوفه ، ص 154

3 - المرجع نفسه ص 154

4 - سورة آل عمران آية 26

المبحث الثالث : علاقة الإمامة بالنبوة عند الغزالي

إن الكثير من الناس يقعون في الخلط بين مفهومي نبي و رسول ، فأحيانا يستعملهما بعض الناس كمصطلحين مترادفين فيما يقع أحيانا أخرى الفصل و التمييز بينهما . و يجعل البعض الآخر من الناس من الإمام خليفة للنبي ، إلى الحد الذي غال فيه البعض منهم - ونقصد هنا الشيعة الباطنية - و جعل الإمامة مكملة للنبوة و الإمام وريث النبي ، و كانت النبوة في نظرهم عقيدة ملازمة لعقيدة الإمامة .

فإذا كان هذا هو التصور الشيعي الباطني للنبوة المرتبطة بالإمامة كما سبق وعرضناه من قبل فما هو موقف الغزالي من النبوة ؟ و كيف تصور طبيعة العلاقة بين النبوة بالإمامة ؟ و من هو النبي و ما الذي يميزه عن الرسول و الإمام ؟ أين تكمن أهمية النبوة ؟ و هل يرتقي الأئمة إلى درجة الأنبياء ؟ ترى هل يوافق الغزالي على الرأي الشيعي الباطني القائل أن الإمام معصوم مثل النبي و هو وريثه و وصيه .. ؟

المطلب الأول : معنى النبوة و ختمها مع محمد ﷺ

أولا : معنى النبوة

لو أردنا الإحاطة بمعنى ومدلول هذه الكلمة " نبوة" التي وردت في الذكر الحكيم مرارا لذكره تعالى أنبيائه و ما جرى معهم من حوادث و ما حكاه عنهم من قصص لوجدناها تعني «الإخبار عن الحقائق الإلهية أي عن معرفة ذات الحق و أسمائه وصفاته و أحكامه »¹ . فالنبي هو المبلغ للحقائق الربانية عن المولى- عز وجل- لعباده .

و " الغزالي" يحدد تصوره للنبوة من خلال بعض مؤلفاته التي احتوت رأيه فيها لا سيما كتاب " المنقذ من الضلال" الذي كان غنيا بنصوص عبرت عن موقفه من مشكلة النبوة الذي يظهر انتماءه للمذهب السني الأشعري .

يوضح الأستاذ " إبراهيم مذكور" رأي هذا المذهب في النبوة بقوله « أما الأشاعرة فقد أخذوا بما أخذ به أهل السنة من قبل ، وقرروا أن النبوة مجرد اصطفاء واختيار من الله تعالى يُمْنُ بها على من يشاء من عباده فليست صفة راجعة إلى النبي ولا درجة يبلغ إليها أحد بعلمه و كسبه وإنما هي محض ابتداء ورحمة من الله تعالى»² .

1 - ممدوح الزوي ، معجم الصوفية ، ص 402

2 - إبراهيم مذكور ، في الفلسفة الإسلامية ، ج 1 ، مرجع سابق ، ص 106

و عليه كانت النبوة كما اتفق أهل السنة اختياراً من الله وهذا تعبير عن الإرادة و العناية الإلهية فما الأنبياء إلا لطف من الخالق بعباده و إرشاد لهم إلى طريق الحق و الصلاح فهي لا تكتسب و لا تباع أو تشتري .

و رأى الإمام " الغزالي " أن الله تعالى « بعث الرسل ولأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة فبلغوا أمره و نهيه و وعده و وعيده ، فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاءوا به »¹ . مما يجعل للنبي مميزات الخاصة التي ينفرد بها عن غيره من سائر الخلق ذلك « أن جنس الأنبياء متميزون عن غيرهم بالآيات و الدلائل الدالة على صدقهم التي يعلم العقلاء أنها لم توجد لغيرهم »² .

فيتسلح النبي بالمعجزات التي منحها له الله ليستخدمها في إقناع الخلق بصدق نبوته و رسالته و تفيده في الحجاج و غيره .. بناء على ذلك يتمكن النبي من إرشاد الخلق و هاديتهم إلى عبادة الله و إخبارهم بعجائب قدرته و علمه .. فكانت النبوة تحمل دائماً معنى « الإخبار عن الحقائق الإلهية أي معرفة ذات الحق و أسمائه و صفاته و أحكامه »³ .

فللنبوة دور هام في هداية الخلق إلى عبادة الله ، باعتبار العقل الإنساني عاجز لوحده عن بلوغ اليقين و درك الحقيقة ، و هذا « خلافاً للبراهمة حيث قالوا : لا فائدة في بعثهم إذ في العقل مندوحة عنهم »⁴ . يعني أن العقل في نظر بعض منكري دور النبوة قادر على هداية صاحبه إلى سبيل الحق ، دون الحاجة إلى ظهور أنبياء .

في مقابل منكري أهمية النبوة نرى طائفة أخرى تقول باستمرار نزول الأنبياء بعد محمد ﷺ و هم مدعي النبوة . لأن المعروف لدى الخلق أجمعين أن النبوة قد ختمت مع نبي الله محمد و هذا ما أكده المولى - غز وجل - في قوله ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾⁵ .

ثانياً : الفرق بين النبي و الرسول

إن النبي من حيث الدور و المعنى يختلف عن الرسول من وجهة نظر فقهاء الأمة فبينهما فروق عديدة ، و يشير الإمام " أبو حامد الغزالي " إلى آراء العلماء في مسألة الفرق بين النبي

1 - أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج1 ، ص 109

2 - أحمد بن تيمية ، النبوات ، ص 122

3 - ممدوح الزوي ، المرجع نفسه ، ص 402

4 - أبو حامد الغزالي ، المصدر نفسه ، ص 166

5 - سورة الأحزاب آية 40

و الرسول فيقول « وقد ذكروا فروقا بين النبي والرسول أحسنها أن من نبأه الله بخبر السماء إن أمره أن يبلغ غيره فهو نبي رسول، وإن لم يأمره أن يبلغ غيره فهو نبي وليس برسول فالرسول أخص من النبي فكل رسول نبي و ليس كل نبي رسول ولكن الرسالة أعم من جهة نفسها فالنبوة جزءا من الرسالة إذ الرسالة تتناول النبوة وغيرها ¹ . و لا يمكن لأحد مهما بلغت جرأته أن يساوي بين النبوة و الرسالة في المعنى رغم ما بينهما من الاشتراك و التقارب » فالنبوة أعم من الرسالة ² .

و يتفق كثير من الفقهاء السنيين مع " الغزالي " في تمييزه بين النبي و الرسول ، مثل شيخ الإسلام " أحمد بن تيمية " الذي يشير في كتابه عن " النبوات " إلى هذا الفارق و الاختلاف القائم بين النبي و الرسول قائلا « فالنبي هو الذي ينبئ بما أنبأ الله به ، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليلغيه رسالة من الله إليه فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشرعية قبله و لم يرسل هو أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول » ³ .

لكن ما نصادفه من تفسير لقوله تعالى ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ ⁴ . يظهر بجلاء دلالة هذه الآية الكريمة على انتهاء دور النبوة حيث فسرها العالم الجليل " ابن كثير " بما جاء نصه « فهذه الآية نص في انه لا نبي بعده وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده ، بالطريق الأولى والأخرى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة فإن كل رسول نبي ولا ينعكس » ⁵ . علاوة على ما سبق يظهر التمييز بين النبوة و الرسالة من زاوية العموم و الشمولية والخصوصية فالنبوة أعم و أشمل من الرسالة.

و بذلك تغلق تلك الآية الكريمة الباب أمام مدعي النبوة بعد النبي محمد ﷺ فهي إيضاح من الله و لطف بعباده " فمحمد " خاتم الأنبياء معنى خاتم النبيين لغويا نجد « كلمة خاتم من الناحية اللغوية نرى أن (معناها) عاصما يقرؤها ويفتح التاء و الجمهور بكسر التاء والأول

1- عبد الفتاح أحمد فؤاد ، الفرق الإسلامية و أصولها الإيمانية ، ص 157 ، نقلا عن التو يجري ، الشرح والإبانة

465/1

2- محسن عبد الحميد ، حقيقة البابية و البهائية ، ص 86

3- أحمد بن تيمية ، النبوات ، ص 185

4- سورة الأحزاب آية 40

5- ابن كثير، تفسير القرآن ، ج 3 ، ص 493

يعني انه كالحلقة المحيطة بهم (و الثاني) تدل على أنه أخرهم وكلتا القراءتان تكذبان دعوى إدعاء النبوة بعد رسول الله «¹» .

ثالثا : الإمامة و النبوة

و إذا كان الشيعة الباطنية قد ربطوا عقيدتهم في الإمامة بمفهومهم للنبوة مؤكدين من وراء ذلك على كون الإمام هو وريث النبي و وصيه و متمم دوره ... فإن الفيلسوف "الغزالي" خالفهم في تلك المعتقدات التي أخرجوا بها الناس عن دين الحق ، رغم أنه لا ينكر الصلة الوثيقة القائمة بينهما .

فقد جعل " الغزالي " مرتبة الإمامة قريبة من مرتبة النبوة بل إنها مكملة لها ، وأعمال الإمام متممة لمهام و أعمال النبي إذ يحدثنا الغزالي في " التبر المسبوك " « أن الله سبحانه وتعالى اختار من بني آدم طائفتين ، و هم الأنبياء ليعينوا للعباد على عبادته الدليل ويوضحوا لهم إلى معرفته السبيل " أما الملوك " لحفظ العباد من اعتداء بعضهم على بعض وملكهم أزمنة الإبرام و النقض «²» .

و هناك صلة بين وجوب الإمامة ووجوب النبوة باعتبار العلاقة بينهما وثيقة فكما أن النبوة وجبت لتنير طريق البشر وتهيئهم السبل الأقوم لعبادة الخالق الواحد و تدلل على قدراته و معجزاته . كذلك وجبت الإمامة لحفظ الدين ومراعاة مصالح العباد و إكمال الرسائل النبوية في سياسة الأمة و شريعة الحق.

المطلب الثاني : أهمية النبوة عند الغزالي و مكانتها

أولا : مكانة النبوة و الحاجة إليها

إن "الغزالي" كغيره من فقهاء الأمة لا ينكر النبوة و لا يحدد بوجودها ، بل العكس من ذلك قاده اتجاهه الأشعري السني إلى الدفاع عن نبوة محمد ﷺ ، و إثباتها بالبرهان القاطع و الدليل الساطع و ذلك لإبراز أن الإيمان بها ركن من أركان الدين و بيان لدورها وأهميتها و من ناحية أخرى لإسقاط كل ما تعلق بها من شوائب و زيف افتعله بعض المتطرفين أو حرّض عليه أعداء الإسلام و الحاقدين على وحدته و تماسك بنيانه.

1 - محسن عبد الحميد ، حقيقة الباطنية و البهائية ، ص 86

2 - راشد لبراي ، قادة الفكر الإسلامي في ضوء الفكر الحديث ، ص 339 ، نقلا عن أبي حامد الغزالي ، التبر المسبوك ص 54

و رأى في نزول الأنبياء ضرورة إنسانية ملحّة ولدتها الحاجة إلى معرفة الخالق و فهم رسائله في ظل وجود عقل قاصر عن إدراك كثير من الأحوال التي تعترى الوجود الإنساني وفي غياب الوسيلة المحققة لذلك . و عليه « كانت الحاجة إلى الوحي أو النبوة بنظر الغزالي ضرورة ملحّة لأن وراء ما يتصوره العقلاء أمور ورد الشرع بها ولا يعلم حقائقها إلا الله تعالى ، و الأنبياء هم وسائط بين الله تعالى و عباده »¹ .

فالنبوة مسألة هامة و من الضروري الإحاطة بفضائلها و الاعتقاد بضرورة وجودها لكن العقل في نظر " الغزالي " عاجز يعتره النقص و التقصير ولا تدرك منه حقيقة النبوة « لأن العقل لا يهدي إلى الأفعال المنجية في الآخرة ، كما لا يهدى إلى الأدوية المفيدة للصحة فحاجة الخلق إلى الأنبياء كحاجتهم إلى الأطباء و صدق الطبيب بالتجربة ، و صدق النبي بالمعجزة »² فهي - أي النبوة - اختيار و تكليف من الله يخص بها من يشاء من عبادة الصالحين ليحرص على تبليغ رسالاته كما ينبغي .

فكأن الإمام " الغزالي " كان يهدف من وراء حوضه في مسألة النبوة الردّ على كل مبتدع تسوّّل له نفسه تشويه حقيقتها ، كما أراد إزالة كل ما علق بها من أفكار شيعية ساوت بينها وبين الإمامة أو ربطت النبوة بالولاية . مثلما فعل كثير من الفلاسفة " كالفارابي و ابن سينا " اللذان اعتبراهما في مرتبة واحدة « و خلافاً للفارابي و ابن سينا اللذان ساويا بين النبوة و الفلسفة فإن الغزالي وضع كلا منهما في مرتبة أعلى وفق ترتيب خلق الإنسان [...] فكانت الولاية طورا أعلى من طور العقل و كانت النبوة طورا أعلى من طور الولاية ، و بين العقل و الكشف درجة مثلما بين النبوة و الكشف درجة »³ .

ثانياً : عصمة الأنبياء و بطلان القول بعصمة الأئمة و تقديسهم

يُعلي حجة الإسلام من دور الأنبياء و قيمتهم فإضافة إلى تبليغهم الرسالات و إرشاد الأمة أكد أن « الأنبياء أطباء القلوب و العلماء بأسباب الحياة الأخروية »⁴ و العصمة لهم من الكبراء فلا يتوقع منهم الخطأ و لا الخطيئة حتى « إن أهل السنة متفقون على عصمة الأنبياء في تبليغ الرسالات و كل ما يبلغونه عن الله تعالى من أمر و نهي فهم مصدقون .. ماعدا

1 - عبد الله محمد الفلاحى ، نقد العقل بين الغزالي و كانط ، ص 165

2 - أبو حامد الغزالي إحياء علوم الدين ، ج3 ، ص 166

3 - عبد الله الفلاحى ، المرجع نفسه ، ص 165 ، 166

4 - أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج1 ، ص 42

طائفة من الخوارج التي اعتبرت العصمة للنبي قاصرة على ما يبلغه عن الله لا فيما يأمر أو ينهي عنه»¹. و بحسب ما اتفقت عليه تصورات بعض الفقهاء السنيين يكون « النبي قد علمه الله من الغيب الذي عصمه به نبيه عن الخطأ م ا لم يعلمه إلا نبي مثله »². فيمكن ولو جزئياً قبول فكرة عصمة الأنبياء رغم ما فيها من اختلاف و جدل.

أما مسألة عصمة الأئمة فهي غير مؤكدة إلا عند الباطنية ، فهي تدّعيها وتسلم بها تسليماً مطلقاً لأئمتهم ، و ما ذلك إلا لتبرير تصرفاتهم الباطلة و دفع لكل تمرد، عنهم خاصة في عهد الفاطميين. و المعروف أن العصمة لم تثبت للأنبياء و لا الخلفاء « و قد كان عمر يخطئ و أبو بكر يخطئ ، ولو كان لعلي كل هذا الذي يدعونه للإمام من عصمة و علم ببواطن الأمور و خفاياها و نتائجها لتغير وجه التاريخ و لما قبل التحكيم و لدبر الحروب خيراً مما دبر » بمعنى توفر العصمة سيجعله يختار أفضل مما فعله فيجنب نفسه كل تلك المحن.

بينما الحقيقة الواضحة هي أن الناس سواسية كأسنان المشط لا فرق بينهم إلا في التقوى والعمل الصالح . فحتى نبي الله محمد - صلى الله عليه وسلم - يخطئ لأنه هو ذاته لا يعلم الغيب ولا يحيط بخفايا الأمور « و النبي يقول عن نفسه: ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء »³.

فإذا كان ذلك حال النبي و هو أكثر قربي منّا إلى الله تعالى فكيف جاز لهذه الفئة الباطنية أن تفترض عصمة الإمام المنتظر و تقدسه بل و توجب غيبته و رجعته و مع ذلك تجعل التعلم عنه أمراً لازماً للأمة .. فهذا تناقض واضح لا يقبله عاقل لذا « يري الغزالي أن انتشار الجهل بين عوام الناس هو الذي جعل لأراء الباطنية قبولاً عند الناس »⁴.

فتقليد أفراد الباطنية الأعمى لإمامهم حسب "الغزالي" دون علم أو حجة واقتناع، يذكرنا بما قاله تعالى في أولئك القوم الذين على شاكلتهم ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾⁵.

1 - مصطفى حلمي ، نظام الخلافة ، ص 240

2 - أحمد بن تيمية ، النبوات ص 21

3 - أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ص 222 ، 223

4 - أحمد فروخ ، المنهاج الجديد ، الفلسفة العربية ، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان ، ط1 ، 1970 ، ص 229

5 - سورة البقرة آية ص 170

فهم شيعة تموج في الضلال بسبب إتباعهم إماما ينسون له العصمة عن الخطأ و الخطيئة فإذا نصحتهم أو حاجيتهم فيما هم يعتقدونه احتجوا عليك بتعاليم إمامهم و معجزاته و تأويلاته، رغم أنه شخص لم تدركه أبصارهم بل كل ما نقل عنه مجرد أخباره .. فلا هم مقتنعون بغير ذلك من عجزه وجهله كغيره من سائر خلق الله ، فلا مجال إذن لمجادلتهم ما داموا لا يهتدون إلا بخطى غائب معصوم ، و هنا ينطبق عليهم قول الله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَٰئِكَ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾¹ فظهر بطلان رأي أولئك الباطنية على جميع الأصعدة.

ثالثاً : ضرورة تقليد الأنبياء و التعلم عندهم و رفض التعلم من الإمام الشيعي

لذا وجبت طاعة الأنبياء و الإقتداء بهم « ففي القدوة بصاحب الشرع - صلوات الله عليه وسلامه- النجاة ، وفي إتباعه الفوز بحب الله »² . لأن سبب بعث الرسل و الأنبياء بيان شريعة الله لخلقه و توحيدهم ، لهذا « أيدت الرسل بالمعجزات والأولياء والأنبياء بالكرامات لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل »³.

فواجب الأنبياء تبليغ رسالات ربهم كما عاهدوه على ذلك لقوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾⁴ و أيضا قوله - عز وجل- ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾⁵ فالنبي مكلف من الله تعالى لإخبار الخلق برسائله فهو واسطة بين الخالق والخلق.

و للنبي دور هام في شرح العقيدة و نشرها فهو مكلف بتبيين أصول الدين وأحكام الشريعة للناس لأنه « من أعظم أصول الضلال الإعراض عن بيان الرسول للأدلة وللآيات والبراهين والحجج »⁶ ولأجل هذه كلف النبي بإبلاغ رسائل ربه وبالنظر إلى غايات النبوة وأدوار الأنبياء احتلت النبوة مكانة ودرجة رفيعة وجعلت إحدى أركان الإيمان .

1 - سورة المائدة آية 104

2 - أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج2 ، ص 1986

3 - المصدر نفسه ص 1970

4 - سورة آل عمران آية 187

5 - سورة المائدة آية 67

6 - أحمد بن تيمية ، النبوات ، ص 47

فالنبوة من أركان العقيدة الإسلامية التي يسأل عنها المرء يوم الحساب « والإيمان بالنبوة أصل النجاة والسعادة فمن لم يحقق هذا الباب اضطرب عليه باب الهدى و الظلام والإيمان والكفر ولم يميز بين الخطأ والصواب »¹ .

لذلك نلاحظ " الغزالي " في نقده لفرقة الباطنية يقر معهم بضرورة أخذ العلم عن إمام معصوم استفاد علمه عن الله تعالى لكن لا يصلح أي إمام كمعلم عدا النبي الكريم لعصمته وشرف معارفه . أمام هذه الحالة من التششت التي خلقتها الباطنية بسبب دعوتهم الناس للتعلم من الإمام المعصوم - حسبهم - انتقدهم " الغزالي " نقدا شديدا مبطلا دعواهم هذه ، محاولا تقديم البديل عن هذا الوضع المشتت للأذهان .

مستفيدا مما تدّعيه الباطنية من آراء و كان رده عليها متمحورا في شقين أحدهم أوردته الباطنية والآخر زيفته فأما الشق الأول فهو اعتراف الإمام " الغزالي " بضرورة وجود معلم معصوم للمسلمين يأخذون عنه أساسيات دينهم كما ترى الباطنية .. أما الشق الثاني الذي غيرته الباطنية فهو من يكون هذا الإمام ؟

و هنا يرى " الغزالي " كما رأأت فرقة الباطنية ضرورة وجود إمام للأمة « بل الصواب الاعتراف بالحاجة إلى المعلم و أنه لا بد و أن يكون المعلم معصوما »² لكن الباطنيين أخطؤوا في تعيين الإمام المعصوم ، فليس هو الإمام الشيعي بل محمد ﷺ و عليه يثني عليه فقهاء زمانه الذين تفوق عليهم ، و حسبه أن النبي وحده هو ذلك الإمام المعصوم و المعلم الأجدر بالتعليم . يقول " أبو حامد الغزالي " موضحا رأيه في الإمامة « لست أدعو إلى إمام سوى محمد - عليه السلام- و إلى كتاب سوى القرآن منه استخراج جميع أسرار العلوم و برهاني على ذلك لساني وبياني »³ .

بذلك أكد " الغزالي " على أهمية الإقتداء بالأنبياء مبطلا بذلك نظرية التعلم عن الإمام الشيعي، موجبا في الوقت عينه ضرورة اقتداء أئمة الأمة المستخلفين في الأرض بالنبي الكريم ﷺ فهو الإمام الأول للأمة الإسلامية و معلم الخلق و مرشدهم .

1 - أحمد بن تيمية ، النبوات ، ص 118

2 - أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ص 50

3 - أبو حامد الغزالي ، القسطاس المستقيم ، ص 93

فكان أثر آراء حجة الإسلام عظيماً في علم الكلام ، لأنه جاء بعد خروج الفكر من نطاق الاعتزال إلى حقل الفلسفة ، فخرج هو بالأشعرية من حدود القضايا الكلامية إلى المسائل الفلسفية على اختلافها و ناقش هذه المسائل على أساس العقل المتأدب بالشرع»¹ و بهذا الموقف أبطل "الغزالي" الفقيه الأشعري دعوة الباطنية الشيعية في عصمة الأئمة ، الموجبة لطاعتهم محمداً في رده عليهم بعض مواقفه في الإمامة و النبوة لتتضح في هذه الأخيرة نزعته الصوفية . وفيما يلي تفصيل لذلك.

المطلب الثالث : تأثير النزعة الصوفية على تصور الغزالي لحقيقة النبوة أولاً : اختلاف النبوة عن الإمامة والملك

لا ننسى أبداً التزعة الصوفية لدى الغزالي في حديثنا عن مسألة النبوة خاصة و أن للمتصوفة فيها خوض كبير .. و ليكن تركيزنا هنا على معنى النبوة لتوضيح معنى ارتباطها بالإمامة والإمام "الغزالي" « يطل أن تكون النبوة بمعنى الملك فإن الأنبياء بالغيب معنى آخر خلاف السياسة »² فالنبي غير الملك والخليفة كمراتب سياسية.

كذلك النبي يختلف عن الإمام من حيث العصمة فهي له وحدة حيث جاء في رسالة "روضة الطالبين" للغزالي إعلام بذلك جاء فيه « و اعلم أن الأمة مجتمعة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان وكفايته منه ، فلا يصل إلى ظاهره بشيء من أنواع الأذى ولا إلى باطنه بشيء من الوسواس وكذا عصمته عن الجهل بالله تعالى وصفاته ... »³.

وفي نظر "الغزالي" انفراد النبي بميزة العصمة عن الإمام ، هو خلافاً لما ادعته الشيعة الباطنية من اعتقاد بعصمة الأئمة الشيعيين وتربيتهم من الكبائر ومن الخطأ والخطيئة . فالنبي كما أوضح حجة الإسلام له ما يميزه و يجعله مختلفاً عن الإمام ، فالأول يتلقى الوحي من ربه فيكون من الضروري له تبليغه بصدق و أمانة ، لذا لا بد من عصمته من الكذب وخلف العهد منذ نبأه الله تعالى وغيرها من الكبائر و الصغائر المحرمات و المكروهات التي وردت بالتفصيل في هذه الرسالة مما كان النبي معصوماً عنها .

1 - كمال اليازجي ، معالم الفكر العربي ، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان ، [د ط] ، [د ت] ، ص 247

2 - أبو حامد الغزالي ، معراج السالكين ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط 1 ، 1994 ، ص 99

3 - أبو حامد الغزالي ، روضة الطالبين و عمدة السالكين ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان [د ط] ، [د ت] ص 57

ثانيا : خواص النبوة و تأثيرات الصوفية

يؤكد الفقيه " أبو حامد الغزالي " على أن النبوة مدركة و مسلم بها و لا مجال لإنكارها رغم « أن بعض العقلاء أبواً مُدركات النبوة واستبعدوها وذلك عين الجهل »¹ فزعموا أنها درجة لم يبلغها الإنسان بسبب عجزه إذ هي لا تتوفر فيه في حين يبرهن الغزالي على وجودها وإمكانها من خلال استشهاده بما يحدث أثناء النوم فيقول « وقد قرب الله تعالى على خلقه بأن أعطاهم نموذجا من خاصية النبوة وهو النوم إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب ، إما صريحا وإما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير »² .

وهكذا كانت النبوة من الأمور التي يمكن للإنسان إدراكها والتصديق بها لما فيها من خصائص قد يتوافر بعضها لديه كما هو في مثال الغزالي السابق فمعرفة أحوال النبوة تساعد على معرفة من يكون النبي « فإن وقع لك شك في شخص معين انه نبي أم لا ، فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله إما بالمشاهدة أو بالتواتر و التسامع »³ أي للنبي صفات تخصه يعرف من خلالها و يتميز بها عن غيره.

فللنبي أدوار ومهام كلفه به الله - عز وجل - لذا نجده -تعالى- قد اصطفى لهذا المنصب أفضل خلقه خلقا ، ليؤدوا أمانته ، وليقنعوا الناس بأحكامه. وكذا ليرشدوهم إلى طريق الحق والنجاة بما تميزوا به من خواص وسمات « و على الجملة فالأنبياء عليهم السلام أطباء أمراض القلوب »⁴ .

و ما علينا نحن البشر العاديين سوى « تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة لا ببضاعة العقل »⁵ . فوسيلة إدراك النبوة ليست الحواس و لا حتى العقل . فنحن نعلم ثوره الشك التي قادها الغزالي ضدهما فإنما تدرك بالذوق « فإن من بحث عنها علم بالضرورة أنها لا تدرك إلا بإلهام إلهي و توفيق من جهة الله تعالى »⁶ هذه هي الطريقة الصوفية طريقة الكشف الباطني كما نسميها الحدس والذوق .

1 - أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص 92

2 - المصدر نفسه ، ص 93

3- المصدر نفسه ، ص 94

4- المصدر نفسه ص 99

5- المصدر نفسه ص 99

6- المصدر نفسه ص 93 ، 94

فالأنبياء في اعتقاد " الغزالي " نمط متميز من الناس لهم مزاياهم وخواصهم التي ينفردون بها عن غيرهم « و إنا نجد هذا الصنف من البشر نعتريه حالة إلهية خارجة عن منازع البشر و أحوالهم . فتغلب الوجهة الربانية فيهم على البشرية في القوى الإدراكية و التروعي ة من الشهوة و الغضب و سائر الأحوال البدنية فنجدهم متزهين عن الأحوال البدنية فنجدهم متزهين عن الأحوال البدنية فنجدهم متزهين عن الأحوال البدنية من العبادة و الذكر لله بما يقتضي معرفتهم به مخبرين عنه بما يوحي إليهم في تلك الحالة من هداية الأمة على طريقة واحدة و سنن معهودة منهم لا يتبدل فيهم كأنه جبلة فطرهم الله عليها»¹.

و من صفات الأنبياء أيضا التي لم تتح لبشر سواهم اطلاعهم على بعض الأمور الغيبية تلك التي تتجاوز حدود العقل البشري « فيرى النبي الله و الملائكة و يسمع كلام الله منه أو من الملائكة ، و يرى الجنة و النار و العرش و الكرسي و يخترق السموات السبع .. »².
و من نال منزلة النبي انكشف له سر الملكوت و رفع عنه الحجاب فأدرك بفضل النبوة ما لم يحيط به عقل ، و هذا ما يقوله " الغزالي " « فالأنبياء و الأولياء انكشف لهم الأمر و فاض على صدورهم النور لا بالتعلم و الدراسة و الكتابة للكتب ، بل بالزهد في الدنيا و التبري من علائقها و تفريغ القلب من شواغلها و الإقبال بكنه المهمة على الله تعالى»³.

من خلال ما سبق عرضه في مسألة " النبوة " تتضح مواقف حجة الإسلام " الغزالي " منها و يظهر الفرق لديه بين النبي و الرسول و الإمام ، إذ كانت نظريته في " النبوة " دليلا هاما على نزعته الصوفية التي تركت بصماتها على كثير من أراء " الغزالي " . من ناحية أخرى أظهر لنا رأي " الغزالي " في " النبوة " موقفه من فرق الباطنية ، حيث يثور على معتقداها فيما يتعلق بالإمامة و النبوة و يستنكر ما تدعيه من بدع شأنه شأن غيره من المفكرين السنيين .

المطلب الرابع : نقد الغزالي للنبوة بالمفهوم الشيعي الباطني

رغم أن " الغزالي " هدف من خلال معالجة مسألة النبوة إبطال مزاعم المدعين لها و بالأخص الرد على الفلاسفة المتناولين لها بمنظور فلسفي أكثر منه إسلامي عقائدي خاصة نظريات الشيعة فيها و ربطهم لها بعقيدتهم في الإمامة.

1 - عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص 493

2- المرجع نفسه ، ص 500

3- أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج1، ص 875

فوجد "الغزالي" أن حاصل رأيهم فيها يعود إلى نظرية النبوة الفارابية وبما انه تحامل على الفلاسفة كالفارابي و بن سينا في كثير من آرائهم ، فقد اعتبرت النبوة إحدى هذه المسائل الخلافية بين " الغزالي" وهؤلاء الفلاسفة ولاسيما "الفارابي".

حيث يؤكد الدكتور " إبراهيم مذكور" موقف "الغزالي" من نظرية "الفارابي" الممزوجة بتعاليم الفلاسفة قائلا « ولم يغفل الغزالي نظرية الفارابي في النبوة وتحامل عليها كما تحامل على الآراء الفلسفية الأخرى لكنه في تحامله لم يستطع أن يرد عليها ردا مقنعا أو ينقضها بشكل واضح على انه هو نفسه بالرغم من خصومته لها ، لم ينج من أثرها »¹ .

و نجده يصفها في مؤلفه تمأفت الفلاسفة بشكل مختلف عن ما كتبه بعد ذلك في مؤلفه "المنقذ من الضلال" حين اعتنق التزعة الصوفية وانكشف له حال النبوة فيقول في " المنقذ" أن النبوة طور فوق طور العقل « ووراء العقل طور آخر تنفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل وأدوار أخرى العقل معزول عنها »² .

ويضيف قولا آخر يوضح من ورائه كيفية إدراك أمر النبوة و عدم إنكارها لأن المنامات التي تحدث للمرء أثناء نومه تؤكد وجودها و حدوثها فيقول « قد قرب الله تعالى على خلقه بأن أعطاهم نموذجا من خاصية النبوة و هو النوم ، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب إما صريحا وإما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه.. لأنكره وأقام البرهان على استحالته »³ .

و يعترف " الغزالي" بأن للعقل دورا فعالا في إدراك النبوة إذ يقول « فالأنبياء أطباء أمراض القلوب و إنما فائدة العقل و تصرفه أن عرفنا ذلك ، و يشهد للنبوة بالتصديق ولنفسه بالعجز عن درك ما يدرك يعين النبوة »⁴ . و ليست النبوة إيمانا بوجود الخوارق والمعجزات لأن هذا جزء منها فقط «بل الإيمان بالنبوة أن يقر بإثبات طور وراء العقل تنفتح فيه عينٌ يدرك بها مدركات خاصة »⁵ .

1- إبراهيم مذكور ، في الفلسفة الإسلامية ، ص 107

2- أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص 92

3- المصدر نفسه ص 93

4- المصدر نفسه ص 99 ، 100

5- المصدر نفسه ص 107

وردّ الإمام " الغزالي " على الفلاسفة في مسألة النبوة اعتمد على وجود خواص الأدوية والنجوم باعتبارها من أصناف علم النبوة ، كما أضح ضرورة التصديق بها و الاعتقاد الجازم بأهميتها لأنها مرتبة أعلى من مرتبة الإمامة .

مع أن الظاهر من تصوره لها لم يخل من تأثر بنظرية "الفارابي" و تصوراته حتى « أن اعتراضه على نظرية الفارابي في النبوة لم يكن شديدا ولا قاطعا ولهذا لم يتردد في أن يعتنقها في مكان آخر ، محاولا دعمها على أساس من الفيض و الإستشراق وهكذا كانت النبوة عنده حيث اطمأن لها بهذا المفهوم دون سواه ¹». و قد رأى نقّاده أن نقده للنبوة بالتصور "الفارابي" يظهر فيه تأثره بها و بما حوته من حديث عن الفيض و غيره ..

1 - إبراهيم مذكور ، المرجع سابق ، ص 108

المبحث الرابع : منهج الغزالي النقدي الشكّي و إبطاله للتأويل الباطني

المطلب الأول : المنهج النقدي الشكّي مفهومه قواعده و أسبابه

اعتماد الغزالي له

أولاً : أسباب اعتماد الغزالي للمنهج الشكّي و دوره في بلوغ العلم اليقيني

لقب "الغزالي" بحجة الإسلام لأنه اجتهد في الدفاع عن السنة و أصول العقائد ، فهو محي الدين . و اعتمد في ذلك على منهج عرف به و أشتهر فيه و كان من السّباقيين إلى اعتماده ألا وهو المنهج النقدي الشكّي ، الهادف من ورائه إلى البحث عن الحقيقة . و كان للغزالي أسبابه التي ساقته إلى اعتماد المنهج الشكّي منها:

1 * كثرة الفرق و تخارب آرائها:

فتلك الظروف القاسية التي اتسم بها عصره من تعدد للآراء وتكاثر للفرق والمذاهب المتضاربة الآراء الباعثة على الحيرة و التساؤل . دفعته إلى الإطلاع عليها و نقد ما ابتدعته من آراء و الرد عليها. حيث تاه الخلق عن بلوغ الحقيقة و تتبعها بسبب كثرة الآراء و انتشار التقليد و التلقين على غير اقتناع أو بحث أو تمحيص . فأراد "الغزالي" الكشف عن الفرقة المعتدلة الآراء ، تلك الفرقة الناجية ، التي ذكرها النبي في الحديث « ستفترق أمّي نيفا و سبعينا فرقة الناجية منها واحدة ، فقيل من هم ؟ فقال : أهل السنة و الجماعة . فقيل : و ما السنة و الجماعة ؟ قال : ما أنا الآن عليه و أصحابي »¹ .

2 * البحث عن العلم اليقيني :

شرع "الغزالي" في البحث عن العلم اليقيني بالإحاطة بآراء عصره و مذاهبه و ما ساد فيه من فرق حتى يتوضح له المسلك إلى هذا اليقين ، وهذه المسيرة الفكرية هي التي ألف لأجلها كتابه " المنقذ من الضلال " كسيرة ذاتية يحكي فيها اعتماده على منهج الشك و النقد للخلاص من الأوهام و الضلال و كيفية بلوغ الحقيقة « إن اختلاف الخلق في الأديان و الملل ثم اختلاف الأئمة في المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق بحر عميق غرق فيه الأكثرون و ما نجا منهم إلا الأقلون و كل فريق يزعم أنه الناجي »² .

1 - ذكره الترمذي و أبو داود

2 - أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص 78

فكأنه قصد من كلامه أن يظهر لنا ما عاشه في عصره من اضطراب سياسي و آخر فكري عقائدي مبرزاً لنا تعدد الفرق و اختلاف دعواتها فكل طائفة تدعي أنها الناجية وواجبة الإتياع تماماً كما ورد في قول الله تعالى ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾¹.
 فالحقيقة و الكشف عن الزيف و الأباطيل كان مطلب الإمام "الغزالي" لقوله « و قد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي و ديدني من أول أمري و ريعان عمري، غريزة و فطرة من الله و وضعها في جبلي لا باختيار و حيلتي »².
 كانت غاية "أبي حامد الغزالي" من اعتماد الشك و النقد ، تمييز الحق عن الباطل و إرشاد الناس إلى السبيل الأقوم، إذ لم يكن يثق في المعارف المحصل عليها من التقليد و إتباع العقائد الموروثة ، فثار عليها حتى بان له بطلان مسلك التقليد و التلقين لقوله « حتى انحلت عني رابطة التقليد و انكسرت على العقائد الموروثة »³. و نفس الشيء قابل به "الغزالي" تلك المعارف المحصل عليها بالحواس و العقل بهدف بلوغ العلم اليقيني .

***3 الشك في قيمة العقل و الحواس**

و لم يكتف في مسيرته الشكلية بهذا الأمر، بل طال شكه طرق و وسائل المعرفة الأخرى كالعقل و الحواس ، فنجده يثور على المعارف المحصلة بمذنب السيلين، يظهر ذلك مما يروي لنا في المنقذ عن عدم ثقته بالحواس و أيضاً العقل لقوله « فأقبلت بجد بليغ أتأمل المحسوسات و الضروريات و أنظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها ، فانتهي بي طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضاً »⁴. فما يصلنا بما لا يكون دائماً صواباً بل العيب في الحواس أنها تنقل لنا مظاهر الأجسام في غير صورتها الحقيقية .
 أما بالنسبة للعقل فرغم كونه أفضل من الحواس عند "الغزالي" إلا أنه يراه قابلاً للتكذيب إذا ما ظهر حاكم آخر يكذبه كما كذب هو - أي العقل - الحواس من قبل . لذلك يكشف في "المنقذ" عن النقصان و العجز الذي يعترى العقل قائلاً « أن العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب و لا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات فهذا »⁵.

1- سورة الروم آية 32

2- أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص 25

3- المصدر نفسه ص 25

4- المصدر نفسه ص 27

5- المصدر نفسه ص 48

مؤكداً مما سلف أن العقل غير واف بجميع المعارف و لا كاف لدرك الحقائق . و مع ذلك كان سبيلاً للمعرفة حتى يظهر ما يكذبها. إذ يقدم العقل على النص في حالة التعارض أو التناقض بين المعقول والمنقول و يولي له أهمية بالغة مع الحذر و الحرص الشديدين.

4* التأكيد على سلك طريق الصوفية

و انتهى به طول الشك و النقد إلى أن أفضل مسلك لبلوغ العلم اليقيني هو طريق الزهاد العابدين من المتصوفة و لا يتأتى إلا بالحدس و الإلهام . و هو نوع من الكشف الباطني أو كما يقول عنه " الغزالي " « هو نور يقذفه الله تعالى في القلب » مستشهداً بما قاله نبي الله محمد ﷺ « إن الله تعالى خلق الخلق في ظله ثم رشّ عليهم من نوره » ليؤكد " الغزالي " بعدها أن « من ذلك النور ينبغي أن يطلب الكشف »¹.

و هذا الطريق نحو الحقيقة لا يتأتى إلا بالتعبد لينكشف عن صاحبها الحجاب و يجب المعبود و يعيشه فيحسن عبادته. و بلغ تقدير " الغزالي " للمتصوفة و طريقتهم في إدراك الحقائق ، أن لم يتوان عن الإشادة بخصالهم و الحث على إتباعهم فقال « إني علمت يقين أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة و أن سيرتهم أحسن السير و طريقتهم أصوب الطريق وأخلاقهم أزكى الأخلاق »².

و يضيف " الغزالي " فكرة أخرى عن الصوفية رأى فيها أنهم و حدهم ذوي البصيرة والرأي ظهرت لنا من خلال قوله « بل لو جمع عقل العقلاء و حكمة الحكماء و علم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم و أخلاقهم و يبذلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلاً »³.

ويرتب الإمام " الغزالي " مرتبة التصوف في أعلى درجات المعرفة فهي طور وراء العقل لقوله « و وراء العقل طور آخر تنفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب و ما سيكون في المستقبل و أمور أخرى العقل معزول عنها »⁴ و لا ينال هذه المرتبة إلا من تطلع إلى معرفة الله تعالى و سعى لنيل رضاه بالورع و التعبد كأحوال الصوفية فينكشف لهم العلم و المعرفة بطريق الحدس و الكشف الباطني .

1- أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ص 29 ، 30

2- المصدر نفسه ، ص 62

3- المصدر نفسه ص 62

4- المصدر نفسه ص 66

و عن طريق الذوق و الإلهام تحدث المعرفة الحق و تنكشف للمرء و لا يتم ذلك إلا بعد جهد جهيد في طلب العلم و نهل المعرفة ، و إقبال على الزهد و التقوى و فرار من الدنيا وزينتها . و يخبرنا فقيه الإسلام و رائد الصوفية عن هذا المسلك فيقول « وأما الذوق فهو كالمشاهدة و الأخذ باليد و لا يوجد إلا في طريق الصوفية »¹ ليثبت بعد ذلك حقيقة النبوة التي لا مجال للشك فيها .

و لم يصل " الغزالي " إلى حقيقة اعتماد الذوق و الحدس أو الكشف الباطني بمحض الصدفة بل حين طبق منهجه النقدي بالتشكيك فيما حوله من آراء ومذاهب بدءاً من آراء المتكلمين والفلاسفة ثم الباطنية حتى بلغ فرقة المتصوفة و « تقرر عنده أن وسائل المعرفة حس فتميز فإدراك فحدس فكشف فنبوة »² .

لذلك انتهى به الأمر بعد طول شكه إلى اعتبار طريق الصوفية هو طريق من يرغب في النجاة ، بعيداً عن زخرف الدنيا و خداع الحواس و قصور العقل لأنه يعتمد أساساً على الكشف و الذوق و المعرفة الحدسية الباطنية من خلال ما يعرف بالوحي و الإلهام والإشراق . ويصف " هنري سيرويا " هذا الطريق الأخير الذي اختاره الغزالي بعد رحلة شكه الطويلة انه حين « وصل إلى مرتبة الشك المطلق في كل شيء ثم ترك مبدأ الشك هذا و بدأ في البحث عن الحقيقة بشوق و نهم بتعمقه من جديد في مذاهب المتكلمين و لم تلق روحه بغيتها إلا في الحياة التأملية للصوفيين »³ .

ثانياً : قواعد المنهج الشكّي

لقد أبدع " الغزالي " طوال حياته و حاول إحياء علوم الدين و تجديد الإيمان حتى وصف بحجة الإسلام و محي الإيمان ، و إنهج لأجل بلوغ أهدافه طرقاً و مناهج ساعدته على تحقيق مسعاه و يمكن الكشف عنها من خلال كتاب " المنقذ " الذي يمثل سيرة ذاتية لما عرفه الإمام " الغزالي " في حياته و لطريقة تعامله مع مختلف الفرق و الإشكاليات التي اعترضته .

1 - أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص 70

2 - كمال اليازجي ، معالم الفكر العربي ، ص 244

3 - هنري سيرويا ، فلسفة الفكر الإسلامي ، ترجمة : محمد إبراهيم ، دار الثقافة العربية للطباعة و النشر ، القاهرة مصر [د ط] ، 1961 ، ص 96 ، 97

و تتضح قواعد منهجه من خلال كتاب " المنقذ من الضلال " الذي يعد نوعا من التأريخ الذاتي الذي يكشف بحق التطور العقلي و الروحي لحياة الغزالي الخصبه «¹ حيث اعتمد "أبو حامد الغزالي" على المنهج النقدي و الشكي « فبدأ الغزالي كما بدأ العقليون النقديون إذ رفض جميع المعلومات السابقة التي تلقاها عن المجتمع و عن الوالدين و المعلمين و التي أرجعها إلى التقليد «².

فقد أبطل " الغزالي " التقليد السائد بين العوام و أبرز سلبياته ومضاره وكشف عن مساوئه ثم جعل الفطرة الأصلية نقطة انطلاق في طلب المعرفة و التماس اليقين و الفطرة الأصلية هي حالة الإنسان مجردا عن العقائد والوراثة والتقليد ، لما يحكي عن نفسه في المنقذ « و قد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي و ديدني من أول أمري و ريعان شبابي غريزة و فطرة من الله وضعتا في جبلي لا باختيارى و حيلتي حتى انحلت عني رابطة التقليد وانكسرت علي العقائد الموروثة «³ و يستشهد " الغزالي " بقول الرسول الكريم ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة .. »⁴ و هذه الفطرة أصيلة في العبد.

- ومن الخطوات الهامة لمنهجه التي يكشف عنها في المنقذ من الضلال:

- 1 - رفض التقليد وإثارة طريق النظر العقلي (الاستدلال)
- 2 - الفطرة الأصلية نقطة الارتكاز الضرورية في منهجه
- 3 - أسلوبه النقدي في استعراضه للعقائد والمذاهب
- 4 - معيار اليقين والشك: التشكيك في المحسوسات والمقولات الشك الفلسفي (الأزمة الشكية الأولى)
- 5 - الرجوع إلى اليقين: النور الإلهي سند المعرفة المباشرة ومضمونها.
- 6 - مناقشة مواقف الفرق طلبا للحق على ضوء موقف الصوفي الأول (النظري)

المطلب الثاني : الغزالي رائد الأشعرية والتوفيق بين العقل و النقل

لقد عمل الإمام " الغزالي " كغيره من علماء ومفكري أهل السنة على الدفاع عن الشريعة و السنة و إعلاء كلمة و عقيدة أهل الجماعة التي سبقه في الدفاع عنها الباقلاني و الجويني

1 - محمد علي أبو ريان ، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص341

2 - المرجع نفسه ص 341

3 - أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص25

4 - متفق عليه و ذكره البخاري

وغيرهم كثيرون ضد المبتدعة و أهل التأويل أيضا . فكان منهجه وسطا بين العقل و النقل وهو الموقف الذي ظهر متجليا من خلال عدد من مؤلفاته التي يربط فيها بينهما ، مثل كتابه "الاقتصاد في الاعتقاد" بما نصه « تحققوا أن لا معاندة بين الشرع و المنقول و الحق والمعقول » كما يضيف قائلا « أن الواجب المحتوم في قواعد الاعتقاد ملازمة الاقتصاد والاعتماد على الطريق المستقيم »¹ و الطريق المستقيم مشروط بالربط بين الشرع و العقل .

نلاحظ أن "أبا حامد الغزالي" شك في مقدرة الحواس على المعرفة، وأيضا في قدرة العقل ليزر مدى الحاجة الملحة للعودة إلى الشرع، باعتبار أن كلا من العقل والحواس وإن كانا يساعدان على بلوغ المعرفة إلا أنهما لا يخلوان من القصور و العجز، حيث يرى حجة الإسلام أن العقل بالتحديد غي كاف لجعل الإنسان محيطا بجميع المعارف، فهو مثل الحواس يعتريه العجز و النقصان « أو لا يعلم أن العقل قاصر و أن مجاله ضيق منحصر ».

إذا يتبين مما سبق أن قيمة العقل عند الغزالي نسبية وقدرته محدودة فلا ثقة به ولا بما يأتي عنه من معارف ما لم يساندها الشرع ، وتخضع لموازينه ، فالعقل الشرع متكاملان لقول "الغزالي" في الاقتصاد في الاعتقاد « اعلم أن العقل لن يهتدي إلا بالشرع » . و يضرب لنا هذا المثال يؤكد علاقة العقل بالقران بما ورد في قوله « فالعرض عن العقل مكتفيا بنور القران مثاله المعارض لنور الشمس مغمضا للأجفان فلا فرق بينه وبين العميان والعقل مع الشرع نور على نور »² . فكان حجة الإسلام يخاف على العوام من إفراط المفرطين و نهج المغالين ، فاعتدل في رأيه بين المنقول و المعقول لتأكيد ذلك في كثير من مؤلفاته « فالوقوف عند ظاهر النص طريق الحشوية المقلدين والاكتفاء بالعقل وحده سبيل المعتزلة و الفلاسفة »³ . فنهى عن التأويل إلا لذوي العلم الراسخين في الدين حتى لا يكثر الجدل حول مسائل الدين و أكد على ضرورة الاحتكام إلى كتاب الله و سنة رسوله.

لكن في كثير من المسائل يقع التعارض بين الأصلين العقل و النقل فما العمل في مثل هذه الحالة ؟ أيهما نرجع إليه و أيهما نرجح ؟ ترى كيف قام الإمام "الغزالي" بفك التباس هذه المعضلة ؟ هل عاد إلى النص أم فضّل سلطان العقل؟

1 - أبو حامد الغزالي ، الاقتصاد في الاعتقاد ، ص 69

2 - المصدر نفسه ص 70

3 - جلال محمد عبد الحميد موسى ، نشأة الأشعرية و تطورها ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت لبنان ، [د ط] ، 1982 ص

كإجابة عن تلك التساؤلات يمكننا القول بأن الفيلسوف "الغزالي" حاول تحديد مجال كل من العقل و النص مع إبراز دورهما في تحقيق الفهم مع إظهار الأولى بالرجوع إليه في حالة التعارض . فيرى ضرورة اعتبار « العقل و النص أصلا » فحسب اعتقاده « العقل له مجاله و حدوده وكذلك النص و لا تعارض بين الاثنين »¹ فحل الخلاف بين المسلمين يكون بالرجوع إليهما و لا يكون بمجرد تغليب طرف على آخر.

فلا تقاس الأمور إلا بالعودة إلى الشرع و العقل أما في الآيات المتشابهات فإن تعارض النص مع مدلولات العقل ، فإننا نرجح العقل ، بمعنى إعمال التأويل لكن في موضعه و لذوي الاختصاص . فلا يفهم من هذا جعل العقل أصلا و أساسا وحده .. حتى لا يتناول على الدين و نصوصه المبطله و المشبهة من الفرق.

و الملاحظ أن " الغزالي " لا يعطي سلطة مطلقة للعقل بل يقيدده بالشرع باعتباره رائدا من رواد المذهب الأشعري فيذهب مذهب الأشعرية في مناقشة مسائل العقيدة . و مع ذلك لا يمكننا الجزم باتفاق "الغزالي" مع شيخه الأشعري و غيره من رواد فرقته في مسألة تعارض النص العقل .

حيث تظهر مواقفه الخاصة كمبدع مجدد في الدين حين يقدم العقل على الشرع في حالة تعارضهما « إذ يرى أن العقل هو الحكم فيما يأتي به النقل و كان الأشعري يجعل النص المكان الأسمى الذي يحتتم على العقل أن يتبعه في أمور الاتفاق والاختلاف »² .

ففرقة الأشعرية تقدم الشرع على العقل و تؤكد « أن سبيل معرفة الحسن والقبح هو الشرع وليس العقل »³ . و ترى فيمن يقدمون العقل على الشرع ضربا من الفساد فليس هو مما يقدر على التمييز بين الحسن و القبح « يرد الأشاعرة على القول بأن في العقل غنى عن الرسالة بأن الموجب هو الله تعالى و ليس العقل ، فالعقل لا يوجب شيئا أو يحظره وأن أحكام الإيجاب الإباحية و الحظر طريقها السمع لا العقل »⁴ .

و ما سبب القول بمثل هذا الموقف إلا لكون العقل يعتربه العجز و يتردد في إصدار الأحكام خاصة حين تقع مواقف متعارضة لأنه « ليس بوسع العقل الحكم بالحسن و القبح لأنه يتردد في الأحكام فما من معنى إلا و يعارضه معنى آخر يساويه في الدرجة أو يفضل عليه

1 - جلال محمد عبد الحميد موسى ، نشأة الأشعرية و تطورها ، 431

2 - المرجع نفسه ص 432

3 - عبد الفتاح المغربي ، الفكر الدين الشرقي القديم ، ص 191

4 - المرجع نفسه ص 175

في المرتبة فيتحيز العقل في الاختيار إلى أن يرد شرع يختار أحدهما . فحينئذ يجب على العاقل اعتباره و اختياره ، و العقل بذلك لا يوجب أمرا تكليفيا ¹ .

أما " الغزالي " فقد اعتبر الشرع و العقل متكاملان لتحقيق غرض الشارع و أظهر من ناحية أخرى أهمية نظر العقل و إعمال الرأي و الاجتهاد في حالة تعارضهما و اعتبر بذلك معتدلا في رأيه لا مغاليا و لا متحيزا .

و إعمال العقل في إزالة غموض النص و درأ ما تعارض من الشرع مع المعقول أفضل من الوقوف عن حدود النص . يتأكد لنا أن موقف " الغزالي " الأشعري لم يكن أمرا جزافيا أو تطاولا على الشرع و « إنما قال الغزالي هذا القول ردا على الباطنية الذين التزموا تعاليم الإمام الصادرة عن عقله هو و هجروا الكتاب و السنة من أجل تعاليم الإمام » ² . و كعادته فضل حجة الإسلام الاعتدال و كره التأويل حتى لا يسمح بتجويزه ، بإحداث القلاقل و أيضا لسد الطريق أمام كل من سولت له نفسه تغيير معنى النص و ظاهره .

و بهذا الموقف ثار " الغزالي " على ما اتجهت إليه الفرق الباطنية الإسماعيلية من تغليب للتأويل و تلاعب بالنص دون مراعاة لمقاصد الشرع . فقد حرفت الفرق الباطنية الظاهر وأولته تأويلات باطنية بعيدة لتشويه الدين و تحريفه « فالإسماعيلية و الفرق الباطنية الهدامة الأخرى لم يكونوا يتظاهرون بتكذيب آيات القرآن المجيد وإنما اكتفوا بصرفها عن معانيها بتأويلات باطلة ليتوصلوا عن طريق ذلك إلى نبذ المعتقدات الإسلامية التي اجتمعت عليها الأمة على مدى الدهور » ³ . لذلك شكك " الغزالي " في قيمة التأويل الباطني معتمدا على منهجه النقدي الذي اعتبر فيما بعد أداة فعالة لتقويم المعرفة مع "ديكارت و كانط" .

المطلب الثالث : موقفه من التأويل الباطني

أولا : فساد تأويلات الباطنية

و كان للباطنية في التأويل ضروب من المبالغة و التزييف أخرجوا بها نصوص الشرع عن ظاهرها إلى ما هو أبعد عن حقيقتها حتى نالهم من العلماء و الفقهاء تعزيز شديد و نقد كثير .

1 - عبد الفتاح المغربي ، الفكر الدين الشرقي القديم ، ص 175

2 - جلال محمد عبد الحميد موسى ، نشأة الأشعرية و تطورها ص 433

3 - محسن عبد الحميد ، حقيقة الباطنية و البهائية ، ص 146 ، نقلا عن برنارد لويس ، أصول الإسماعيلية ، ص 14 (المقدمة)

فكما سبق و أشرنا من قبل عند تعرضنا لمعتقدات الباطنية و منهجها التأويلي، أن اهتمام أتباعها بإثبات توارث الإمامة والنص عليها دفعهم إلى اعتماد المنهج التأويلي الباطني لتدعيمها مما أوقعهم في المغالاة من ناحية و إفساد معاني الشرع من ناحية أخرى .

و كان هناك أسباب كثيرة كافية لإدانة تأويلاتهم منها « المبالغة في التأويل المجازي الذي لا قرينة مطلقا عليه من القرآن في طلب ما زعموه من المعاني الخفية فيه حتى خرجوا به عن معانيه الحققة الواضحة التي لا ريب فيها» ضف إلى ذلك « إسناد هذا التأويل للإمام علي بلا دليل صحيح »¹ لأن المهتم لديهم إرجاع الفضل كله في العلم و المعرفة و العصمة و سائر الأمور إلى الإمام علي و ذريته من بعده .

و من تأويلاتهم الفاسدة ما ذكره عنهم الأستاذ "علي سامي النشار" في تفسيرهم للآية الكريمة ﴿ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾² إذ «أعلنت هذه الطائفة الإسماعيلية أن الله جعل لمحمد بن إسماعيل جنة آدم ومعناها الإباحة للمحارم وجميع ما خلق في الدنيا»³ . و هذا التأويل ليبرروا من خلاله إقبال بعض أتباعهم و أتباعهم على المحرمات والشهوات مما نهى الله عنه كشرب الخمر إذ عرف به الإمام إسماعيل و يبيحوا من ورائه المحرمات .

و بنفس الأسلوب - أي التأويل الباطني- منعوا غيرهم من آل البيت من غير الذرية العلوية الإسماعيلية من المطالبة بالإمامة حيث اتخذت شطر الآية نفسها ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ لتدل على أعدائهم « موسى بن جعفر وولده من بعده من ادعى منهم الإمامة »⁴ .

هذا يبرز مدى قدرتهم على التلاعب بالنصوص بحسب أغراضهم وغاياتهم حيث يجعلون التأويل من مهام الإمام فبيده علم كل شيء لذا زعم الإسماعيلية « أن محمد بن إسماعيل عنده أيضا علم المستورات و بواطن المعلومات التي لا يمكن أن توجد عند أحد غيره » كذلك زعم هؤلاء الشيعة من الباطنية و الإسماعيلية أن إمامهم « عنده سر الله تعالى في وجه تدبيره المكتوم وإتقان دلالاته في كل أمر يسأل عنه في جميع المعلومات و تفسير المشكلات و بواطن الظاهر كله و التأويلات و تأويل التأويلات »⁵ وهذا مما لا يعقل..

1 - محمد يوسف موسى ، بين الدين والفلسفة في رأى بن رشد و فلاسفة العصر الوسيط ، العصر الحديث للنشر و التوزيع ، بيروت لبنان ، ط2 ، 1988 ، ص135

2 - سورة الأعراف آية 19

3 - علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص 388

4 - المرجع نفسه ص 388

5 - مصطفى كامل الشيبى، الصلة بين التصوف و التشيع ، ص 205 ، نقلا عن المقرئزي ، الخطط ، ص 230

ثانيا : نقد الغزالي للتأويل الباطني

ركز الإمام " الغزالي " في نقده لآراء الباطنية في الإمامة على طبيعة منهجها، فإذا بطلت الطريقة المنتهجة أو كانت فاسدة صار بالضرورة الحصول عنه بما فاسدا لا دليل له . وكذلك هو وضع المنهج التأويلي الباطني في نظر " الغزالي " . فإذا بطل المنهج المعتمد تبعه بطلان الحجج والدعوى القائمة .

فالباطنية كفرقة ضالة و مبتدعة - حسب الفقيه " لغزالي " وكثير من فقهاء الأمة السنيين- « لما عجزوا عن صرف الخلق عن القرآن والسنة صرفوهم عن المراد بهما إلى مخاريق زخرفوها واستفادوا - بما انتزعوه من نفوسهم من مقتضى الألفاظ-إبطال معاني الشرع وبما زخرفوه من التأويلات تنفيذ انقيادهم للمبايعة والمولاة»¹ .

و مما يظهر سبب سخط " الغزالي " عليهم هو أن هذا المنهج التأويلي لم يكن شريف المقصد بمعنى أن غرضه تقديم أركان الإسلام والعبث والتلاعب بألفاظ القرآن . ففتح بذلك فرصة لكل عابث أن يشتغل بالنصوص الشرعية و تأويلها و تفسيرها ، مدعيا العلم و القدرة والمعرفة ... لذلك نراه - أي الغزالي- حاد اللهجة معهم ساخرا بتأويلاتهم ضاربا بما عرض الحائط ، وحاول إبطالها وإفسادها ليظهر حماقتها وخطرها المحقق بالإسلام .

أسلوبه وطريقته في الرد عليهم :

يظهر أسلوب الفيلسوف " الغزالي " في الرد عليهم فيما يصرح به الغزالي من القول كما يلي « ولسنا نسلك في الرد عليهم إلا بمسالك ثلاث: إبطال ومعارضة وتحقيق »² . وهذه الطريق التي سلكها " الغزالي " تنطلق من إبطال التأويلات من ناحية ومن ثمة معارضة الفاسد منها وإنكاره ثم التحقيق ويفصل هذه المسالك الثلاث كالاتي :

- « أما الإبطال فهو أن يقال بما عرفتم أن المراد من هذه الألفاظ ما ذكرتم ؟ فإن أخذتموه من نظر العقل فهو عندكم باطل وإن سمعتموه من لفظ الإمام المعصوم فلفظه ليس بأشد تصريحا من هذه الألفاظ التي أولتموها»³ .

فهو يبطل التأويل الباطني للآيات و ألفاظ القرآن فهو لا أساس له مادام لا يدعمه نظرا العقل باعتباره مرفوضا عند الباطنية كذلك حسب ما ورد في قول " الغزالي " الإمام المعصوم

1 - أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 55

2- المصدر نفسه ، ص 58

3 - المصدر نفسه ، ص 59

الذي تؤخذ عنه التأويلات غالبا ما تكون هذه الأخيرة أشد غموضا من النصوص والآيات وألفاظها هذا إن كانوا فعلا معصومين كما تدعي الباطنية.

فيورد "الغزالي" بعض هذه التأويلات التي قام بإبطالها في "فضائح الباطنية" كاشفا من ورائها تلييساتهم مثل «تسييح الجبال معناه تسييح رجال شداد في الدين راسخين في اليقين» وكذلك «الجن الذي ملكهم سليمان بن داود باطنية ذلك الزمان والشياطين هم الظاهرية الذين أكلفوه بالأعمال الشاقة»¹.

وحتى العلم اتخذوا له رموزا باطنية ليجعلوه حكرا على ذويهم و أتباعهم ، و قاموا بتأويله بعض الآيات التي ذكر فيها كما يلي «أهأار من لبن : أي معادن الدين : العلم الباطن يرتضع بها أهلها و يتغذى بها تغذيا تدوم به حياته اللطيفة» و عليه هنا «فغذاء الروح اللطيفة يارتضاع العلم من المعلم كما أن حياة الجسم الكنف يارتضاع اللبن من ثدي الأم»².

- لكن كيف تسنى "للغزالي" إبطالها وهي ترمز إلى مرموزات عليها الحجة عند الباطنية؟

يقول "الغزالي" مبطلا بعضا من تأويلاتهم «فرعم أن المراد بالجبال الرجال فما المراد بالرجال؟ لعل المراد شيء آخر. و المراد بالشياطين أهل الظاهر فما أهل الظاهر؟ والمراد باللبن العلم فما معنى العلم؟» .

ثم يضيف الإمام "الغزالي" توضيحا لذلك التأويل يظهر فيه استهزاء منه و من بتلك التأويلات الباطنية الغربية المضمون فنجده يقول «فإن قلت العلم والرجال وأهل الظاهر صريحة في مقتضياتها بوضع اللغة إن كنت ناظرا بالعين العوراء إلى أحد الجانبين».

وعليه فإن "الغزالي" يصف تارك ظاهر النص والمنشغل بباطنه بقوله «فأنت المراد إذا بالدجال فإنه أعور لأنك أبصرت بإحدى العينين فإن الرجال ظاهر ، وعميت بالعين الأخرى الناظرة إلى الجبال وإها أيضا ظاهر»³. فكأنهم يلقون تأويلاتهم على غير هدى.

لزيد "الغزالي" من حدة سخريته بالباطنية و تأويلاتهم حين يستشهد بقوله تعالى ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾⁴ معنى ذلك اختلاف الرجال عن لفظ الجبال التي ربط بينهما الباطنية وأسقطوا كلا منهما على الآخر في حين أن لكل معنى منفرد .

1 - أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ص 57 ، 58

2 - المصدر نفسه ، ص 57

3 - المصدر نفسه ، ص 59

4 - سورة النور آية 37

– أما المسلك الثاني الذي يأتي بعد الإبطال فكان « معارضة الفاسد بالفاسد وهو أن يتناول جميع الأخبار على نقيض مذهبهم »¹ و يمكننا توضيح طريقته هذه في معارضة الفاسد من تأويلات الباطنية و إبراز تهافته كما يلي :

إذ يعتمد إلى توظيف بعض أحاديث النبي ﷺ ليتمكن من خلالها من التأكيد على أنه يمكنه تأويل النصوص و التلاعب بظواهر و إيرادها بمعان مختلفة عن ما أتت به الباطنية بل إنه سيفيد حتما في إبطال و إفساد تأويلاتهم و من ثمة دعوتهم ككل مثلما فعل " أبو حامد الغزالي " بكثير من أحاديث النبي ﷺ التي خالف بها ما ذهبت إليه الباطنية من حيث تأويلاتها كقوله في الحديث النبوي « لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة » « أي لا يدخل العقل دماغا فيه التصديق بالمعصوم »² مبطلا من خلال تأويله لظاهر الحديث مسألة الإمام المعصوم الشيعية .

و كذا يقول في معنى حديث آخر منقول عن النبي ﷺ أنه قال « إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعا » فاتخذ عند " الغزالي " معنى يدل على دنس الباطنيين و سوء عقيدتهم فهم لا يصلحون للزواج بالمسلمات الطاهرات « أي إذا نكح الباطني بنت أحدكم فليغسلها عن درن الصحبة بماء العلم و صفاء العمل بعد أن يعفرها بتراب الإذلال » .

بل ذهب حجة الإسلام إلى التأكيد على مكانة الخلفاء الراشدين مثنيا عليهم و على سيرتهم و حسن عقيدتهم خلافا لما قام به الشيعة من سب و قذف و حتى إنكار لأحقيتهم بالولاية فيتخذ من حديث الرسول الكريم « كل نكاح لا يحضره أربع فهو سفاح » تأكيدا على صحة خلافتهم و سلامة عقيدتهم فيقول أن « معناه أن كل اعتقاد لم يشهد له الخلفاء الأربعة فهو سفاح »³ . و هناك العديد من نماذج تلك الأحاديث التي أقدم " الغزالي " من خلالها على إبطالها تأويلات فرقة الباطنية من خلال إفسادها و التلاعب بظواهرها ..

و يعتمد الفيلسوف " الغزالي " في مؤلفه فضائح الباطنية إلى مثال « العقل والصورة » ليهدم من خلاله فكرة الإمام المعصوم التي نادى بها دعاة فرقة " الباطنية " و دعمتها بنصوص تأولتها على غير حقيقتها الظاهرة فيقول « فإننا نزلنا الصورة على الإمام لأن الصورة مثال لا روح فيه

1 – أبو حامد الغزالي، فضائح الباطنية ص 60

2 – المصدر نفسه ، ص 60

3 – المصدر نفسه ، ص 60

كما أن الإمام عندكم معصوم ولا معجزة له والدماغ مسكن العقل كما أن البيت مسكن العاقل»¹ فكانت دعوة عصمة الإمام باطلة لا أساس لها.

و "للغزالي" مزيد من التوضيح و التحليل لذلك الأمر فنراه يقول «والمملك شيء روحاني كما أن العقل كذلك» أي علة الاقتران وإسقاط التشبيه بينهما هو اشتراكهما في كونهما روحانيان اعتباريان ، فثبت أن المراد بقوله « لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة معناه لا يدخل دماغا فيه اعتقاد عصمة الإمام»².

هكذا إذن كان غرض "الغزالي" في المسلك الثاني إفساد تأويلاتهم بإعطاء مثيلات لها في المنهج مخالفات لها في المعنى والباطن ويتضح أن ما عمدوا إليه في التأويل بقدر عليه كل امرئ. - أما «التحقيق»: أن نقول: هذه البواطن والتأويلات التي ذكرتموها ، لو سألناكم أنها صحيحة فما حكمها في الشرع ، أيجب إخفاؤها أم يجب إفشاءها»³.

نستنتج مما سبق أن الطريقة المتبعة من قبل فقيه الإسلام "الغزالي" للردّ على بدع فرقة الباطنية ارتكزت أساسا على هدم منهجها التأويلي الذي مثل قاعدة هامة دعمت بها جل عقائدها ، فانطلق "الغزالي" من هدم الوسيلة لينتهي إلى إبطال الدعوة الباطنية ككل، متدرجا من الإبطال و الإفساد فالتحقيق ، مستهدفا من ورائها إبطاله للتأويل الباطني بيان خطره على الشريعة و ذم الخائضين فيه .

و من ناحية التأكيد على أمر آخر مرتبط به أشد الارتباط بهذا المنهج التأويلي ألا وهو مسألة الإمامة فلا مجال لقيامها بالنص مهما كان نوعه وخاصة تلك النصوص المؤولة التي عمدت إليها الباطنية .

- فهل يفهم من نقد الغزالي للتأويل الباطني الذي أقدمت عليه الباطنية ، رفض التام للتأويل ؟

ثالثا : شروط قبول التأويل و العمل به : التأويل للراسخين

في العلم دون سواهم

إن موقف "الغزالي" من التأويل الباطني لا يفهم منه رفضه التام للتأويل جملة وتفصيلا، بل إنه ما أقدم على التحذير من الخوض فيه ، و رفضه للتأويلات الباطنية تحديدا إلا ليؤكد على

1 - أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 61

2 - المصدر نفسه ص 61

3 - المصدر نفسه ص 62

فكرة جوهرية هامة تمثلت فيمن يجوز لهم التأويل ، شروطه والحالات الملحة التي يجوز فيها اعتمادها .. بعبارة أخرى : هل يجوز التأويل لأي كان ؟ وهل يحق لهذا المؤول إفشاء تأويلاته لغيره وللعوام ؟ أم يجب كتمانها فهي حكر عليه هو فقط ؟

نجد حجة الإسلام صريحا في هذا الأمر البالغ الأهمية، حين رفض إفشاء التأويل في غير أهله وما ذلك إلا للحفاظ على الشريعة من علماء الكلام وتأويلاتهم وأيضا لحماية إيمان العوام فالتأويل لذوي العلم مع وجود الدليل اللازم مرغوب فيه . بمعنى يمكن الخروج عن المعنى الظاهر إلى المعنى الباطن إذ توفر الدليل.

و لكنه جعل للتأويل شروطا وقوانين حيث يقول "الغزالي" في ذلك « فأسمع الآن قانون التأويل » إذا ثبت أن جميع الفرق والمذاهب تقريبا « اتفقوا على أن جواز ذلك موقوف على قيام البرهان على استحالة الظاهر » إذ بدون البرهان والحجة التي تدفعنا إلى الخروج عن ظاهر النص إلى باطنه يصبح لا مجال للتأويل فهو بذلك باطل من أساسه لانتفاء الحاجة إليه. فهو هنا « بدعة أو يؤدي إلى البدع و محدثات الأمور » و بحسب ما هو معروف عند السلف « و البدعة عبارة عن إحداث مقالة غير مأثورة عن السلف »¹.

ولأجل ذلك نجد "الغزالي" يجعل للتأويل مقامين « أحدهما مقام عوام الخلق والحق فيه الإتيان والكف عن تغيير الظواهر رأسا والحذر من إبداع التصريح بتأويل لم يصرح به الصحابة وحسم باب السؤال »² فلا يجوز لهم التأويل أو إتيان ما يؤول من نصوص الشرع إلا ما نقل و تواتر عن السلف الصالح من ضرورة تمسك بكتاب الله و سنة رسوله الكريم .

يذكرنا "الغزالي" في هذا الموضوع بما « روي عن مالك رحمه الله أنه سئل عن الاستواء فقال : الاستواء معلوم والإيمان به واجب والكيفية مجهولة والسؤال عنه بدعة»³ . لقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ ﴾⁴ .

فالسؤال عن ما نهى الله و رسوله عنه يؤدي إلى الخوض فيه بإعمال التأويل و الحكم بما لم يرد فيه حكم.

1- أبو حامد الغزالي ، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، [د ط] ، [د ت] ، ص 85

2 - المصدر نفسه ص 85

3 - أبو حامد الغزالي ، قانون التأويل ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، [د ط] ، [د ت] ، ص 128 (يوجد الحديث في عدة مؤلفات أخرى للغزالي)

4 - سورة المائدة آية 101

أما المقام الثاني فجعله الإمام " الغزالي " لأهل العلم والنظر والتمكين في دينهم حيث يقول « المقام الثاني بين النظائر الذين اضطربت عقائدهم المأثورة المروية فينبغي أن يكون بحثهم بقدر الضرورة وتركهم الظاهر بصورة البرهان القاطع »¹.

وهو نفس ما أكد عليه من قبل ، أي جواز التأويل شرط وجود السبب والحجة الكافية لفعل ذلك . رغم علمه بقيام الاختلاف في ذلك ما لم يحتكم أهل النظر إلى قانون التأويل حيث يقول « فإن ذلك ليس هينا سهل المدرك وليكن للبرهان بينهم قانون متفق عليه يعترف كلهم به فإنهم إذا لم يتفقوا في الميزان لم يمكنهم رفع الخلاف بالوزن »².

لذلك نلاحظ " أبا حامد الغزالي " يرفض التأويلات الباطنية الغريبة التي عمد إليها هؤلاء القوم منت الباطنية لنصرة عقيدتهم وتنصيب إمامهم الغائب المزعوم وما ذلك إلا بدعة لأنهم من أولئك الناس الذين وصفهم " الغزالي " بما جاء نصه « و من الناس من يبادر إلى التأويل بغلبان الظنون من غير برهان قاطع »³.

وإذا كان رواد الباطنية و أتباعها من هذا الصنف فقد نالوا واستحقوا ما نالوه من نقد وتنكيل من قبل " الغزالي " وغيره من فقهاء الأمة « فيجب تكفير من يغير الظاهر بغير برهان قاطع كالذي ينكر حشر الأجساد وينكر العقوبات الحسية في الآخرة بظنون وأوهام واستبعادات من غير برهان قاطع »⁴ وهذا التكفير ليس في كل مسألة بل إذا خاض المرء في المسائل الإعتقادية وأصول العقائد فقط لما في ذلك من خطورة على الدين وحرمة .

فقد أفشوا التأويل في غير أهله وعملوا على نشر البلبلة . مدعين غموض الشرع و وجود مسكوت عنه فيه ، مهملين بذلك دور النبي في تفصيل الشرع بسنته . فما من آية في القرآن إلا و لها في السنة شرح سواء ورد ذلك في أحاديث النبي ﷺ وفي أفعاله .

لذا أكد " الغزالي " على ضرورة الكف عن التأويل الباطني مبرزا خطورته على إيمان العوام في عدة مؤلفات منها ما جاء في الاقتصاد في الاعتقاد حيث حدد القواعد التي ينبغي على العامي مراعاتها وكان من بينها « التصديق وهو الإيمان بما قاله الرسول ، فالاعتراف بالعجز

1 - أبو حامد الغزالي ، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ، ص 85

2 - المصدر نفسه ، ص 85

3 - المصدر نفسه ، ص 86

4 - المصدر نفسه ، ص 87

في حالة عدم الفهم فالسكوت عن السؤال فالإمساك عن التأويل، فالكف عن التفكير بالمعاني الباطنية فالتسليم بمعرفة أهل الاختصاص «¹ فإن لم يكن الخائض في التأويل من العارفين وجب عليه الكف عن ذلك الفعل كما هي حال عوام الخلق .

بناء على ما سبق ننتهي إلى الحكم الجازم المؤكد لموقف " الغزالي " من قضية التأويل عموماً و الباطني على وجه التحديد إذ يقول «² فالتأويل حرام على العامي وحرام على العارف مع العامي وحلال للعارف شرط ألا يطلق أحكاماً جازمة إلا عن نفسه وضميره فيقول : أنا أظن أنه كذا... »² . لأن العقل محدودة قدرته وهذا يجعل الوثوق به أمر نسيي ونجد هذا الشك في قدرة العقل على المعرفة وبلوغ اليقين مؤكدة في " المنقذ من الضلال " وغيره من مؤلفات الإمام " الغزالي " الغزيرة .

وما كان تقليل "أبي حامد" من شأن العقل ودوره إلا ليطل قدرته على تأويل ظاهر النص وإدراك باطنه وبذلك يمنع إفشاءه بين العوام كما منعه من قبل خاتم الأنبياء -عليه السلام- ويورد " الغزالي " هذا الكلام من خلال حوار له مع أحد الإسماعيليين جاء فيه عن التأويلات الباطنية ما يلي «³ فإن قلت: يجب إفشاؤها إلى كل أحد قلنا فلما كتبتها محمد ﷺ فلم يذكر شيئاً من ذلك للصحابة ولعمامة الخلق حتى درج ذلك العصر ولم يكن لأحد من هذا الجنس خبر. وكيف استجاز كتمان دين الله وإخفاء أوامره وأحكامه؟».

ويستدل " الغزالي " في هذا الموضوع بما قاله المولى - عزّ وجل - لنبيه الكريم ﴿لَتَبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾³ لأن الله قد أخذ ميثاق كل الأنبياء ليبلغوا عنه ما أمرهم . و المعروف أن نبي الله "محمد" هو أعلم الناس بكتاب الله ، و المكلف بتبليغ رسالته بل هو المفسر و الشارح الأول للشريعة الإسلامية حتى يفهمها الخلق أجمعون «⁴ فالرسول أولى بالتأويل للناس من غيره باعتباره الأعلم من الخلق به وبيواطنه ومع ذلك لم يقدم على تأويله كما فعلت الباطنية « ولم يفش أسراراً الربوبية أو يتناول على الدين و يتجرأ على الخوض فيما لم يسمح له به.

أما إذا كان الجواب عكسياً بمعنى «⁴ و إن زعموا أنه يجب إخفاؤها ، فنقول : ما أوجب على الرسول ﷺ إخفاؤه من سر الدين ، كيف حل لكم إفشاؤه والجناية في السر بالإفشاء ممن اطلع عليه من أعظم الجنايات «⁴ .

1 - أبو حامد الغزالي ، إجماع العوام عن علم الكلام ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، [د ط] ، [د ت] ، ص 18

2 - المصدر نفسه ص 31

3 - سورة آل عمران آية 187

4 - أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 61 ، 62

كما يستشهد "الغزالي" لإنكار ما قامت به فرق "الباطنية" من إقدام على تأويل ظاهر النصوص الشرعية و بثها بين الناس ، بما تناقله أهل العلم و المعرفة من دلالات بارزة على تستهجن ذلك الفعل المشين فقد « قال بعض العارفين : إفشاء سر الربوبية كفر، و معنى هذا أن في أسرار الربوبية أشياء لا تتحملها أكثر الأفهام و لذلك لا يطبق المستمع ذلك الحق و يكون الحق في شأنه باطلاً »¹ .
فالعقل الإنساني محدود لا يمكننا بواسطته بلوغ اليقين ولا إدراك الخفايا و لا حتى الإحاطة بالأسرار الإلهية . و الله تعالى علم أشياء فأخفاها لحكمة عنده و حسن تقدير منه للأمر، إذ أن فهمها يتجاوز الأذهان أو قد يحصل بغير العقل . لذلك يقول المولى - عز وجل - ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾² ليظهر من ذلك محدودية العقل الإنساني و قصوره عن بلوغ اليقين ، لولا فضل الله و رحمته التي تجلت في بعث الأنبياء المبلغين لرسائله.

و لأن في الدين مسائل تتجاوز الفهم الإنساني المحدود كلف الأنبياء بإخبار الخلق ما من شأنه أن يسمح لهم بمعرفة الخالق و توحيده دون خوض في متاهات و ضروب من الغموض هذا ما أكده لنا " الغزالي " في " فضائل الأنام " من خلال حديث الرسول ﷺ « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم »³ .

ليبين لنا من وراء ذلك أن هناك أسرار إلهية لا مجال لإفشائها أو الخوض فيها وتأويلها والعبث بها مع العوام إذ لا بد دائما من الالتزام بكتاب الله و سنة رسوله الكريم ، كما أوصانا بذلك النبي ﷺ في قوله « تركت فيكم واعظين ناطق و صامت ، فالناطق هو القرآن و الصامت هو الموت و فيهما كفاية لكل متعظ ، و من لا يتعظ بهما فكيف يعظ غيره »⁴ .

و عدم الفهم أو الاقتناع بظاهر النص يجرّ إلى تأويله و السؤال عن معناها ، فانتهاوا إلى تأويله بحثا عن حقيقته و معناه ، فإذا شاع ذلك الأمر بين الخلق ساءت حالهم و خيف على إيمانهم . و يذكر الفيلسوف "الغزالي" أن سبب ذلك الخوض في التأويل هو علاقة المنقول بالمعقول إذ بين « المعقول و المنقول تصادم في أول النظر و ظاهر الفكر و الخائضون فيه تحزبوا إلى

1 - أبو حامد الغزالي ، فضائل الأنام من رسائل حجة الإسلام ، ترجمة (عن الفارسية) : نور الدين آل علي ، الدار

التونسية للنشر [د ط] ، 1972 ص 57

2 - سورة الإسراء آية 85

3 - المصدر نفسه ، ص 57

4 - أبو حامد الغزالي ، الرسالة الوعظية ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، [د ط] ، [د ت] ، ص 37

مفرط بتجريد النظر إلى المعقول وإلى متوسط طمع في الجمع و التلفيق»¹.
لكن الفئة المسماة عوام : تشمل علماء الفقه و النحو والعاديين هؤلاء ليسوا أهل نظر
بينما المتصوفة وأصحاب الذوق والكشف هم فقط العارفون وذوي العلم الصحيح ، إذ أنهم سمو
أهل النظر لبلوغهم المعرفة برياضة النفس والزهد وطلب العلم اليقيني وليس بمجرد التقليد للإمام
أو حتى إتباع عقائد موروثه عن الآباء .

و الملاحظ أن الإمام " الغزالي " سمح بالتأويل لمن كان راسخا في العلم وقصد هنا المتصوفة
لذلك الأمر لانه كثير من الفقهاء و المفكرين و أهمهم « بن تيمية و بن رشد » لأنه أثبت
جواز التأويل في مؤلفاته فذاعت بين الناس كما أن " الغزالي " في رأي " بن رشد " « أخطأ
على الشريعة والحكمة بإثباته التأويل في غير كتب البرهان فذاعت بين الجمهور » .
كذلك المتكلمون وبخاصة المعتزلة، لأن الغزالي و أمثاله قد صرحوا بتأويلاتهم للعامة
وللجمهور في غير كتب البرهان و النتيجة كانت وخيمة إذ « أوقعوا الناس في شتآن وتباغض
وحروب ومزقوا الشرع »² و هكذا صار بالإمكان الناس خواصهم و عوامهم الإطلاع على ما
شاع من تأويلات و التجادل بشأنها .

إذن مادام النبي قد كلف بتبليغ رسائل ربه إلى الخلق أجمعين فقد كلف مع ذلك الأمر الإلهي
بتفسيره لهم حتى لا يكون هناك غموض في الدين أي في الرسائل الإلهية . أما ما احتواه من
أمور متشابهات وأخر: هي أسرار و ألغاز من وضع الحكيم الجبار فذلك لحكمة في نفسه
تعالى ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾³ « فلولا أن صاحب الشرع عرف سرا عظيما
ومصلحة كلية في إخفاء هذه الأسرار لما أخفاها »⁴ و ما دام التأويل الباطني للشريعة سرا
من أسرار الخالق « فكيف انتهى إلى هؤلاء الجهال من العوام حتى تناطقوا به و سحنت
التصانيف بحكايته وداولته الألسنة »⁵.

و عليه يتهم الفقيه السني " أبو حامد الغزالي " فرق " الباطنية الإسماعيلية " بخرق أحكام
الشرع و مخالفتهم للمقصود الإلهي. فيوجه لهم " الغزالي " اتهاما وتنديدا جاء فيه « فلما

1 - أبو حامد الغزالي ، قانون التأويل ، ص 123

2 - الوليد بن رشد ، فصل المقال ، ص 23 ، 24

3 - سورة الإسراء الآية 85

4 - أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 62

5 - المصدر نفسه ص 63

أفشيتم هذا السر وخرقتم هذا الحجاب و هل هذا إلا خروج عن الدين ومخالفة لصاحب الشرع و هدم لجميع ما أسسه ¹ .

ذلك لأن جل ما جاؤوا به من دعاوي تبطل العبادات و الأركان الشرعية كالصلاة والصوم و غيرها ، لا أساس لها تدور في حلقة فارغة، مفادها التلاعب بالإسلام وتشتيت وحدة الأمة سعياً وراء باطن لا يدركه إلا إمام غائب يسمح بإسقاط الحدود والأحكام .

لذلك أنكر الإمام "الغزالي" كل تلك الأوهام الباطلة التي تأولها دعاة و أئمة الفرق الباطنية معتبراً أن « هذه الأسرار و التأويلات إن كان لها حقيقة فقد أقفل أسماعهم عنها وأجلم أفواه الناطقين عن اللهج بها ولنا في رسول الله أسوة حسنة في قوله وفعله فلا نقول إلا ما قاله ولا نظهر إلا ما يظهر ونسكت عما سكت عنه » ² .

إن حجة الإسلام "الغزالي" يذكرنا بالسنة المطلوب إتباعها و البدعة المحدثة المطلوب تجنبها من خلال قوله « ونعلم أن ما لم يستغن عنه صاحب الشرع فنحن لا نستغني عنه ولا ننخدع بقول الحمقى : إن نفوسنا إذا صفت بعلم الباطن استغينا عن الأعمال الظاهرة » ³ .

وهنا يتجلى إبداع حجة الإسلام "الغزالي" سيف المذهب السني ، الذي عمد إلى نفس طريقة الباطنية ليثبت أنه بإمكانه تأويل الظاهر والتلاعب بالألفاظ بل وبممكن له من هذا المنطق الدفاع عن هذا المعنى المؤول.. ولو كان عكس ما ذهبت إليه الباطنية. وما ذلك إلا ليؤكد أن كل شخص من موقعه إذا عمد إلى التأويل الباطني ، و غاص في باطن النص لأمكنه مثل الباطنية تأويل الشريعة ، و هذا هو الفساد عينه الذي يفتح المجال للناس عوامهم وعلمائهم للاشتغال بالآيات القرآنية و الأحاديث النبوية .

لذلك استخدم في هذا المسلك نفس منهج الباطنية للرد عليهم لسببين: الأول الدفاع عن الإسلام و وحدته، و الثاني ليبطل هذا المنهج الذي اعتمده الباطنية للدفاع عن عقيدتها في الإمامة وبالتالي هدم فكرة الإمام المعصوم الذي تقوم عليه جل عقائدهم. فلما انتقدهم ظهر له فساد قولهم على جميع الأصعدة وبان للعيان بطلانه ..

فكانت خلاصة رأي "الغزالي" في التأويل أن أجاز العمل به بشروط و قوانين، لأن القرآن ورد فيه متشابهات . فلا بد من الاجتهاد في تفسيره و إعمال للفكر و الرأي لقول النبي الكريم

1 - أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ص 62

2 - المصدر نفسه ، ص 64 ، 65

3 - المصدر نفسه ص 65

﴿ من اجتهد وأخطأ فله أجر ومن اجتهد وأصاب فله أجران ﴾¹ فالبحث في معاني الشرع ضروري لفهم مقاصده و إعمال العقل لفهم مقاصد الشارع من الضروريات لأنه ومن خلال اجتهاد الفقهاء و الراسخين في العلم أمكن الحكم على كثير من غوامض الدين ومستجدات .. بدلا من تعطيل المصالح و ضياع المنافع و تعطيلها.

لكن هذا التأويل مرتبط بشروط وقواعد حددها حجة الإسلام حتى لا يكون الدين ألعوبة للخائضين في التأويل بغلبان الظن و ابتغاء إتياع ما تشابه منها لإفساد الإيمان لقول الله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾².

وهكذا إذن أنكر الفيلسوف "الغزالي" التأويل الباطني المأخوذ عن الإمام وحذر من إتياعه والعمل به حرصا منه على العقيدة و إيمان العوام . و في الوقت عينه أجاز التأويل وسمح به لإدراك أقرب لمضامين النصوص الشرعية ، لكن بشروط ينبغي مراعاتها فالتأويل لذوي الاختصاص و الراسخين في الدين، ليظهر مما سبق موقفه المؤكد لضرورة الاجتهاد و إعمال العقل لفهم الشريعة بدلا من إتياع تعاليم إمام معصوم و تقليده..على غير هدى.

المطلب الرابع: أهمية النظر و الاجتهاد العقلي و بطلان التعلو عن الإمام

أولا : معنى الاجتهاد

يطلق مصطلح الاجتهاد على ما يقوم به الفقهاء من استنباط للأحكام الشرعية باعتماد العقل إذ وصف إعمال العقل على أنه اجتهاد و نظر لحل ما استعصى عن الإجماع و قياس ما استجد من الأمور بما ورد فيه حكم شرعي « و الاجتهاد بذل الجهد في استخراج الأحكام من شواهد الدالة عليها بالنظر المؤدي إليها استنادا إلى قوله تعالى ، قياسا و استصلاحا واستحسانا »³ يعتبر بهذا الوصف « الاجتهاد مرادفا للقياس و مرادفا للرأي»⁴.

أما الاجتهاد في معناه اللغوي فهو « عبارة عن استفراغ الوسع في تحقيق أمر من الأمور مستلزم للكلفة والمشقة »⁵ إذ هو إعمال للعقل في طلب الحق و إبراز لما استعصى من المسائل التي لم يرد فيها نص واضح صريح أو كانت مما استجدت من أمور الدين و الدنيا .

1 - صحيح و متفق عليه لدى البخاري و مسلم و غيرهما

2 - سورة آل عمران آية 07

3 - رفيف العجم ، الأصول الإسلامية ، ص 135

4 - المرجع نفسه 136

5 - المرجع نفسه ، ص 137 ، نقلا عن الأمدى ، الإحكام ، ج 4 ، ص 218

ثانيا : حكم إعمال الرأي و الاجتهاد

إن إعمال الرأي و الاجتهاد جائز شرعا لحل وفك ما يكتنف الشرع من غموض لم يرد فيه نص أو ترك مبهما غامض مستعصيا عن الفهم . ففاس الفقهاء ما استجد في الدين من مسائل فقهية بما ورد مشابها له في الحكم أو الضرر .. « لقد ذهب الجمهور إلى أن القياس حجة وجائز العمل به مستندين في ذلك إلى حجج من الكتاب و السنة و الإجماع منها قوله الله تعالى ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾¹ »² .

و كذا احتوت الشريعة دعوات عدة لإعمال العقل و الرأي للنظر في أمور الدين و الدنيا مثل قوله تعالى ﴿ إن في خلق السماوات و الأرض و اختلاف الليل و النهار لآيات لأولي الأبصار ﴾³ . أيضا حديث الرسول ﷺ لمعاذ لما بعث إلى اليمن و كلفه الرسول ﷺ بتولي منصب القضاء فحين سأله النبي الكريم عما يفعله إذا ما طرأ له أمر لم يرد فيه نص فأكد الصحابي على الاجتهاد بالرأي .

مما جعل " الغزالي " يتخذ من ذلك قاعدة لتجوز الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص و لم يكن محل إجماع و اتفاق عند الجماعة . ظهر ذلك الموقف على لسان " الغزالي " في " المنقذ من الضلال " « فنقول نعمل ما فعله معاذ إذ بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن أن يحكم بالنص عند وجود النص و بالاجتهاد عند عدمه »⁴ و في الحديث دلالة واضحة على إعمال الرأي و العقل و الاجتهاد و القياس .

وقد ورد في صحيح " البخاري " تأكيد للاجتهاد من خلال حديث الرسول ﷺ عن عمر بن العاص - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر »⁵ .

و ذكر أن عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - كان يدعو إلى الرأي و يبحث عليه فعن عبد الله بن مسعود قال : " من عرض له منكم قضاء فليقض بما في كتاب الله فإن لم يكن في كتاب الله فليقض بما قضى فيه نبيه ﷺ فإن جاء أمر ليس في كتاب الله و لم يقض به الصالحون فليجتهد

1 - سورة الحشر آية 02

2 - محمد محدة ، مختصر أصول الفقه ، ص 190

3 - سورة آل عمران 190

4 - أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص 50

5 - البخاري ، صحيح البخاري ، حديث رقم 7352 ، ص 427

رأيه فإن لم يحسن فليقم ولا يستحي «¹ لكن ينبغي أن لا يخرج الرأي عن مقصود الشرع ولا يتجاوز الأحكام المؤكدة الواردة فيه بل إنما قيل بتجويز الاجتهاد ونظر العقل لما فيه من المصلحة ، لذا كان على المجتهد الكد في طلب الحكم وكشف الحق في مختلف الأمور.

ثالثا : أهمية النظر العقلي و دوره في بناء المعرفة عند الغزالي

لقد دعا الإمام " أبو حامد الغزالي " الناس إلى اعتماد سبيل الرأي والاجتهاد وأكد ذلك صراحة في كثير من مؤلفاته العديدة و أبرزها " المنقذ من الضلال " و الذي جاء فيه رد على الباطنية المنكرة لكل رأي و اجتهاد عقلي زاعمين قيام الحق من طرف الإمام المعصوم فيستهزئ بهم قائلا لهم « كيف تحكمون فيما لم تسمعه بالنص ولم تسمعوه ، أم بالاجتهاد و الرأي وهو مظنة الخلاف ؟ ».

و يشير بذلك حجة الإسلام إلى أهمية الاجتهاد حين يستشهد بحديث الرسول الكريم مع معاذ الصحابي الذين كلفه النبي ﷺ بتولي منصب القضاء، و الذي فهم منه جواز اعتماد الرأي و نظر العقل في غياب النص. و في هذه الحالة يضرب لنا مثلا كثير الذبوع بين الناس ليؤكد من خلاله أهمية الحاجة إلى الاجتهاد في قوله « فمن أشكلت عليه القبلة ليس له طريق إلا أن يصلي بالاجتهاد » .

معنى ذلك أن يطلب المجتهد الحق بإعمال العقل حتى لا يفوت عليه أمر القبلة فريضة الصلاة فالمجتهد « له مع نفسه اجتهاد في معرفة الأفضل بدلائل القبلة فيتبع ذلك الاجتهاد فكذلك في المذاهب »² و يسري حكم النظر في القبلة على غيرها من الأمور التي وقع فيها لبس و تطلبت إعمالا للعقل .

فلم يكتفي " الغزالي " برفض التقليد بل دعا إلى حرية الفكر و إعمال الرأي . و لم يقف عند حد التمهيد المقيد للرأي والاجتهاد ، و بهذا أكد " الغزالي " على أهمية العقل و دوره كوسيلة مساعدة على فهم الشرع و تفسيره . لقوله أن العقل لن يهتدي إلا بالشرع ويسخر من المكتفي بأحدهما دون الآخر « هيهات قد خاب على القطع و البتات و تعثر بأذيال الضلالات من لم يجمع بتأليف الشرع و العقل هذا الشتات »³ .

1 - رفيق العجم ، المرجع السابق ، ص 28 ، 29 ، نقلا عن ابن قيم الجوزية ، أعلام الموقعين عن رب العالمين ، ج1 ، ص 72

2 - أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ص 50 ، 51

3 - أبو حامد الغزالي ، الاقتصاد في الاعتقاد ، ص 70

رابعاً : إعمال الرأي مع الحذر و الذم لدى بعض الصحابة و الفقهاء

رغم الأهمية الكبيرة التي يوليها " الغزالي " للاجتهاد بالنظر إلى دوره في الكشف عن كثير من الغوامض و فك الالتباس عن قضايا عدة .. إلا أن التحذير منه و التخويف من اللجوء إليه هو أمر يقرّه غيره من علماء الأمة .

فها هو أيضا الإمام العلامة " الشاطبي " في كتابه " الموافقات " يؤكد على أهمية الاجتهاد وفي الوقت نفسه يبرز خطره محذرا من الإفراط في إعمال الرأي فيقول « إعمال الرأي في القرآن جاء ذمه وجاء أيضا ما يقتضي إعماله وحسبك من ذلك ما نقل عن الصديق - رضي الله عنه- فإنه نقل عنه أنه قال و قد سئل في شيء من القرآن (و هو معنى كلمة: فأكهه وأبا) فقال : أي سماء تظلي و أي أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم. وربما روي فيه : إذا قلت في كتاب الله برأيي »¹ .

فإذا كان الاجتهاد أمرا مستحسنا لدرء الاختلاف و استخراج الأحكام الشرعية فإن التحذير منه و التخويف من الخوض فيه أمر قائم لدى بعض علماء الأمة كما أبرز لنا ذلك الشاطبي . فقد نقل إلينا عن بعض الصحابة و السلف الصالح تحذيرهم من الاجتهاد بالرأي « و عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قوله : إنما أخاف عليكم رجلين ، رجل يتأول القرآن على غير تأويله و رجل ينافس الملك على أخيه» .

فالرأي يجر إلى تأويلات منها ما قد يكون باطلا أو على غير الصواب ، و هذا يفتح المجال أمام كل شخص بأن يخوض في الأمور برأيه كيفما شاء ، و يسمح بحدوث القلاقل فيكثر الكذب و يخرج الدين عن غاياته المنشودة .

وهذا حديث أخر للخليفة " عمر بن الخطاب " في ذم الرأي و التأويل يدعم الموقف المحذر من الاجتهاد يقول فيه « ما أخاف على هذه الأمة من مؤمن ينهأه إيمانه ، و لا فاسق يبين فسقه ولكني أخاف عليها رجل قد قرأ القرآن حتى أذلقه بلسانه ثم تأوله على غير تأويله »² .

فاعتماد الرأي و الاجتهاد في استنباط الأحكام قد يتسبب في اختلاف الأحكام نظرا لتشعب الآراء في و تباينها في المسألة الواحدة و قد يجر إلى الخوض في التأويل أيضا . لكون الرأي و الاجتهاد يعتمدان على نظر العقل و هو شبيه بالقياس إذ هو اجتهاد عقلي « لأن المقصود من الاجتهاد إنما هو العلم بالموضوع على ما هو عليه ، و إنما يفتقر فيه إلى العلم بما لا

1 - الشاطبي ، الموافقات في أصول الأحكام ، مجلد 2، ج 3 ، ص 254

2 - المرجع نفسه ، ص 255 ، 256

يعرف ذلك الموضوع إلا أنه من حيث قصدت المعرفة به فلا بد أن يكون المجتهد عارفاً ومجتهداً من تلك الجهة التي ينظر فيها ليتترل الحكم الشرعي على وفق ذلك المقتضى¹. وحرص على سلامة الإيمان كلف بالاجتهاد صاحب العلم والراسخ في الدين العارف بالشرع وأحكامه.

اتفاق الغزالي مع المالكية في حكم الاجتهاد و نظر العقل

و الإمام " الغزالي " يذهب مذهب المالكية في مسألة الاجتهاد حيث يؤكد المالكية على الاجتهاد و دوره في كشف خفايا الشرع بينما المذهب الظاهري بزعامه " بن حزم " يفرق ويميز من الاجتهاد الذي ورد الحث عليه في الحديث الشريف السابق « من اجتهد و أصاب فله أجران و من اجتهد و أخطأ فله أجر » و بين غيره من الطرق و السبل الأخرى . مؤكداً على « أنه ليس في هذا الحديث أثر القياس لا بدليل و لا بنص و لا للرأي أيضاً »².

و يفسر الفقيه " بن حزم " ذلك الموقف الذي انحاز إليه بقوله « و إنما الاجتهاد اجتهاد النفس و استفراغ الوسع في طلب حكم النازلة في القرآن و السنة فمن طلب القرآن و تقرأ آياته و من طلب في السنة و تقرأ الأحاديث في طلب ما نزل به فقد اجتهد فإن وجدها منصوصة فقد أصاب فله أجران أجر الطالب و اجر الإصابة و أن طلبها في القرآن و السنة فلم يفهم موضعها و لا وقف عليه و فاته إدراكه فقد اجتهد فأخطأ فله أجر »³.

كما سبق وقلنا ، خالف " الغزالي " الباطنية التعليمية التي تبطل الرأي و عمل العقل، لتحل محله القول بالتعلم من الإمام الشيعي المنصوص عليه و أخذ تأويل الشرع عنه وحده دون سواه إذ حث حجة الإسلام على اعتماد الاجتهاد والرأي وإعمال العقل لفهم معاني الشرع رغم أنه في الوقت ذاته لا يعطي لهذا العقل قدرة فائقة في كشف المستور « و أن العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب و لا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات »⁴ . و مع ذلك نعتمد عليه في البحث عن الحقيقة والاجتهاد في طلب اليقين . عكس ما تنادي به التعليمية من أن الحق يعرف من الإمام المعصوم دون سواه.

فإذا لم يرد نص منه فماذا يفعل الخلق هل ينتظرون ورود نص منه ، أم يعطلون أمورهم في طلب الحق من الإمام ؟ إن الحل الأفضل هنا هو ما يذكره " الغزالي " في " المنقذ من الضلال "

1- الشاطبي ، الموافقات في أصول الأحكام ، المجلد 2 ، ج 4 ، ص 92

2- عبد المجيد تركي ، مناظرات في أصول الشريعة الإسلامية بين بن حزم و الباجي ، ص 374

3- المرجع نفسه ص 374 ، نقلاً عن ابن حزم ، الإحكام ج 7 ، ص 113 ، 114

4- أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ص 48

ميرزا من خلاله كيفية الخروج من المشكل « فنقول : نفعل ما فعله معاذ إذ بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن : أن نحكم بالنص عند وجود النص وبالاجتهاد عند عدمه ¹ . لأن أهمية الاجتهاد تكمن في غياب النص الأكيد و الصريح وافتقار الناس إلى الحكم الجازم . و حينها فقط يكون علينا إتباع قوله النبي ﷺ « من اجتهد وأصاب فله أجران ومن اجتهد وأخطأ فله اجر» .

و بهذا نكون أحسن حالا من التعليمية التي يختار دعايتها عن درك الحقيقة إذا طرأ لهم طارئ ما أثناء نشر دعوتهم ، وكانوا بعيدين عن الإمام و لم يبلغهم نص يفيدهم فيما أشكل عليهم . و السبب في ذلك حسب "الغزالي" « أن النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع غير المتناهية ولا يمكن الرجوع في كل واقعة إلى بلدة الإمام » .

و يقدم لنا " الغزالي" مثلا عن ذلك الوضع و صعوبة العودة فيه على المعلم لتعطل أو ضياع المصلحة منه « فمن أشكلت عليه القبلة ليس له طريق إلا أن يصلي بالاجتهاد » و في ذلك حكمة « إذ لو سافر إلى بلدة الإمام لمعرفة القبلة فيفوت وقت الصلاة » . كذلك سبب آخر يذكره الغزالي خاصة إذا كانت بلدة الإمام بعيدة أنه « و إلى أن يقطع المسافة ويرجع فيكون قد مات و فات الانتفاع بالرجوع » ² .

لذا جاز الاجتهاد بالرأي والعمل بأقرب الظن في غياب النص لحفظ المصلحة لما ورد من الآيات الحاتة على ذلك مثل قول المولى -عز و جل- ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ ³ و أيضا قوله تعالى ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ ⁴ .

فهذا المعلم غائب عن الأبصار و ما يصل عنه إلا مجرد أخبار.. لم نر فعله و لم يظهر للعيان.. فهو لا يضر و لا ينفع رغم ادعاء أتباعه أن له علما غزيرا و معرفة مطلقة تستوجب التعلم منه ، و السفر إليه « و العجب أنهم ضيعوا عمرهم في طلب المعلم وفي التبجح بالظفر به و لم يتعلموا منه شيئا أصلا» ⁵ .

فكانت هذه الحال من الخيبة هي عاقبة كل من سعى للمعرفة بتقليد إمام معصوم ظنا منه أنه صاحب علم لديني و معرف ربانية ، فإذا ما لقيه لم يجد عنده شيئا يشف غليله فأضاع

1- أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص 50

2- المصدر نفسه ص 50

3- سورة البقرة آية 185

4- سورة الشرح آية 06

5- أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 37

على نفسه حصول المعرفة الحقة كما أضع عمره .. و يصف "الغزالي" حال ذلك الطالب من الخيبة بأنه « كالتضخم بالنجاسة يتعب في طلب الماء حتى إذا وجده لم يستعمله وبقي متضمخا بالخبثات » لأن علم هذا المعلم الذي شاع في البلدان عظمته ودقته وتنوعه يصفه حين تصفحه بقوله « ذلك العلم الركيك المستغيث »¹.

وخلاصة كلامنا عن موقف " أبي حامد الغزالي" من فرقة "الباطنية" أنه قد انتقدها و ردّ على أرائها و تصوراتها . مركزا على مسألة الإمام المعصوم وما انجر عنها من مسائل عقديّة ناقشها و أبطلها ، مؤكدا على قهات حججهم و عجزهم عن توضيحها بأنفسهم . فإذا ما جادلهم العلماء احتجوا بالتنصيص خوفا من انكشاف أمرهم « إذ علم أنه لو زاد على ذلك لافتضح ولعجز عن حل أدنى الإشكالات ».

فلما جمع ما انتشر حولهم من معارف ومعلومات سواء مما احتوته كتبهم أو مما شاع لدى أتباعهم فلما اطلع على ما فيها ومحصه لم يجد عندهم من العلم ما ينتفع به قال « فهذه حقيقة حالهم فاخبرهم تقلهم فلما خبرناهم نفضنا اليد عنهم أيضا »².

وانتهى " الغزالي" بعد تحصيله لمذهب الباطنية « أنه مذهب ظاهره الرفض ، وباطنه الكفر الحض و مفتتحة حصر مدارك العلوم في قول الإمام المعصوم ، وعزل العقول عن أن تكون مدركة للحق لما يعتريها من الشبهات، و يتطرق إلى النظائر من الاختلافات وإيجاب لطلب الحق بطريق التعليم و التعلم » .

فظلوا بسعيهم وأظفوا غيرهم بما ابتدعوه وحرفوه أو زيفوه من القول فيظن كل من خاطبوه بأنهم على حق لأنهم يعرضون له مذهبهم على حسب ما يميل و يهوى « بل يخاطبون كل فريق بما يوافق رأيه بعد أن يظفروا منهم بالانقياد لهم والموالاتة لإمامهم . فيوافقون اليهود والنصارى والمجوس على جملة معتقداتهم ويقرونهم عليها »³.

المطلب الخامس : إبطال التعلو والعودة إلى الإمام المعصوم

و " الغزالي" حين يرفض أراء الباطنية و ينتقد حججها يركز على مسألة التعلم عن الإمام المعصوم هذه المسألة التي جعلت الباطنية توصف بالتعليمية لاعتمادها مبدأ التعليم كما سن

1 - أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 37

2 - المصدر نفسه ، ص 37

3 - المصدر نفسه ، ص 37

ذلك " الحسن بن الصباح " فهم حسب حجة الإسلام يصفون مذهبهم بمذهب الحق لأن الحقيقة تؤخذ من مصدر واحد لا متكرر متعدد يسمح بالاختلاف ..

ويقيمون هذه الآراء على موازين الشيطان أي موازين للتزييف حيث يقولون « إن الحق مع الوحدة و الباطل مع الكثرة ومذهب الرأي يفضي إلى الكثرة ومذهب التعلم يفضي إلى الوحدة . فليزم منه أن يكون الحق في مذهب التعليم »¹ . وهذا ميزان شيطاني يعتمد على تكثير الكلام وتشويش الأفكار حتى تضطرب الحقيقة فلا تعلم أين موضعها و يبررون قولهم السابق بما يلي « فيلزم منه أن مذهب التعليم يوصف بالحق لأن الوحدة في شيء واحد واتصف به شيئا فيجب اتصاف أحد الشئيين بالآخر »² .

لذلك رفض هذا المذهب لأنه اعتمد على التلاعب بالألفاظ وتأويلها لخدمة عقيدتهم وينكر الغزالي ضرورة العودة إلى الإمام في حل المشاكل ويؤكد على التمسك بالقرآن وعدم إتباع مسالك وموازن الشيطان عملا بقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾³ ولم يقل الله « سافروا فإذا هم مبصرون ».

فإن الله تعالى أكد على ضرورة الاحتكام إلى الشرع (كتاب الله وسنة نبيه) لفهم الشريعة وتطبيقها في الحياة وليس ترك هذين السبيلين والاحتكام إلى ما يقول إمام واحد لا يعرف حتى مدى صدقه «فلو ابتدأت في كل مشكلة سفرا إلى الإمام المعصوم بزعمك (يخاطب الباطني) طال عناؤك وقل علمك لكن طريقك أن تتعلم مني كيفية الوزن وتستوفي شروطه فإن أشكل عليك شيء عرضته على الميزان وتذكرت شروطه بفكر صاف وجد واف فإذا أنت مبصر »⁴ وأحاديث النبي ﷺ تظهر فضل المجتهد لذا لا ينبغي العودة إلى ذلك الإمام المنتظر .

و في مقابل جمود هؤلاء الباطنية عند آراء معلمهم و الإمام المعصوم ، وخوفا من أن يختلط الأمر على الناس و تتذبذب عقيدتهم ، أكد الغزالي على ضرورة العودة إلى الرأي والاجتهاد إذ أن « الفقهيّات لا بد فيها من إتباع الظن فهو ضروري كما في التجارات والسياسات وفصل الخصومات للمصالح ، فإن كل الأمور المصلحية تبني على الظن. والمعصوم كيف يعني هذا عن هذا الظن و صاحب الشريعة لم يغن عنه ولم يقدر عليه بل أذن في الاجتهاد وفي الاعتماد على

1 - أبو حامد الغزالي ، القسطاس المستقيم ، ص 73

2 - المصدر نفسه ص 74

3 - سورة الأعراف آية 201

4 - المصدر نفسه ص 79

قول أحاد الرواة عنه وفي التمسك بعموميات الألفاظ و لكل ذلك ظن عمل به في عصره مع وجوده فكيف يستقيح ذلك بعد وفاته»¹.

وأمر آخر جعل " الغزالي " يثور على مسألة الإمام المعصوم الذي يجب أخذ العلم عنه هو تفاوت درجات الفهم لدى الناس فبالنسبة له صنف الناس إلى مراتب قائلا « الناس ثلاثة أصناف : عوام هم أهل السلامة ، و هم البله أهل الجنة ، وخواص هم أهل البصيرة وخواص الذكاء ، و يتولد بينهم طائفة هم أهل الجدل و الشغب »² فلا بد من مخاطبة هؤلاء الناس بحسب قدراتهم العقلية مع مراعاة خصوصية كل فئة منهم .

إذ يرى حجة الإسلام أن كل فئة يجب التعامل معها بطريقة خاصة ، اتبعها هو ذاته في تدريس الخلق نظرا لتفاوتهم . و هذا ما يحكي عن نفسه في قوله « فدعوت العامي بالموعظة الحسنة بالإحالة على الكتاب والاختصار على ما فيه من صفات الله تعالى، ودعوت أهل الجدل بالمجادلة التي هي أحسن ، فإن أبي أعرضت عن مخاطبته وكففت شره ببأس السلطان والحديد المتزل مع الميزان .. » أما الخواص الذين ينبغي معاملتهم بشكل مختلف عن غيرهم فهو يقول في شأنهم « دعوت الخواص بالحكمة وذلك بتعليم الميزان " .

لذلك يتساءل " الغزالي " عن الكيفية التي يستطيع من خلالها هذا الإمام المعصوم - كما يزعم أتباعه - التعامل مع هذه الأصناف حتى أنه يسأل أحد الإسماعيليين مستهزئا « بماذا يعالج إمامك هؤلاء الأصناف الثلاثة : أيعلم العوام فيكلفهم ما لا يفهمون ، ويخالف رسول الله ﷺ ؟ أو يخرج الجدل من دماغ المجالين بالمحاجة ولم يقدر على ذلك رسول الله ﷺ مع كثرة محاجة الله تعالى في القرآن مع الكفار ؟ فما أعظم قدرة إمامك ، إذا صار اقدر من الله تعالى ورسوله أو يدعوا أهل عوامل البصيرة تقليده وهم لا يقبلون قول الرسول بالتقليد»³.

و قد عجز الرسول ﷺ والخلفاء من بعده عن إقناع الكل دفعة واحدة رغم ما أتاه الله من المعجزات ولم يتحقق له ذلك إلا بعد زمن من النشر والتعليم وهو الرسول المؤيد من ربه أفهنا الإمام أقوى وأقدر من الرسل والأنبياء .. و إذا كان كذلك فما الذي يتعلمه هؤلاء الأتباع منه و هل تمكن من حل جميع مشكلاتهم وهل كشف لهم عن الغوامض و الأسرار الإلهية ؟ هل للإمام المزعوم معجزات أو بركات تسانده فتدل عليه و تعصمه؟..

1 - مصطفى النشار ، فلاسفة أيقظوا العالم ، دار الثقافة للنشر و التوزيع ، القاهرة مصر ، [د ط] ، 1988 ، ص 164

2 - أبو حامد الغزالي ، القسطاس المستقيم ، ص 85

3 - المصدر نفسه ص 91

وما يزال الإمام " الغزالي " يستهزأ بالباطنية و يسخر من تصورهما المؤسس على فكرة أخذ العلم عن المعلم المعصوم و الكف عن الاجتهاد ما دام هذا المعلم موجودا و يظهر ذلك في قوله لهم « إني أراكم تدعون الناس إلى الإمام ثم أرى المستجيب بعد الاستجابة على جهله الذي كان عليه قبله لم يحل الإمام له عقدا ، بل ربما عقد له حلا و لم تفده استجابته له علما بل ربما ازداد به طغيانا و جهلا »¹.

فكان الطالب للعلم من الإمام الشيعي - بحسب ما تزعمه الباطنية- مجرد ساع وراء طبل فارغ لا يضر ولا ينفع فيتكلف عناء السفر إليه فإن تمكن بعد الجهد والعناء من مقابلته لم يجد عنده ضالته و لم يحل له معصلته.. فيكون « كالمتمضمخ بالنجاسة يتعب في طلب الماء حتى إذا وجده لم يستعمله وبقى متضمخا بالخبثا »² لذا أكد حجة الإسلام " الغزالي " على أهمية الاجتهاد و النظر العقلي مبطلا بذلك نظرية التعلم عن الإمام.

- و في ختام هذا الفصل يمكن أن نقف على حقائق هامة فيما يتعلق بموقف " أبي حامد الغزالي " من مسألة الإمامة و تداعياتها العقدية . والخلفيات التي قادته إلى البحث و الخوض في مجال السياسة ، و التي دفعته بشكل أو بآخر إلى التصدي لفرق الباطنية الشيعية ، و الوقوف في وجه دعايتها و مروجي دعوتها مبطلا عقيدتها و كاشفا عن حقيقتهم المعادية للإسلام .

فكان " الغزالي " بحق حجة الإسلام و محيي الإيمان و الدين فهو من ناحية جدد في طرق المعارف و صحح الإيمان و رفض طرق التقليد الأعمى و التلقين على غير اقتناع أو برهنة . مؤكدا على ضرورة التعلم الحق والبحث عن الحقيقة، باعتماد الشك و النقد كمنهج لتحقيق ذلك الهدف و تلك الغاية . و يؤكد كل من " حنا الفاخوري و خليل الجر " على الدور الذي لعبه الغزالي في الفكر الإسلامي بقولهما « لا نعرف مفكرا من مفكري الإسلام احدث الدور الذي أحدثه هو ، و ترك الأثر العميق الذي تركه »³ .

و قد انقسم المفكرون و الخلق حوله إلى أقسام ، بين مؤيد لما احتوته كتبه من آراء و أفكار معتبرا إياه محيي الإيمان و مجدد علوم الدين في القرن الخامس الهجري . و بين ثائر عليه منتقد

1 - أبو حامد الغزالي ، القسطاس المستقيم ، ص 91 ، 92

2 - أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص 54

3 - حنا الفاخوري و خليل الجر ، مرجع سابق ، ص 718

له ، بل إن « فئة أخرى كفرته ونهت عن مطالعة كتبه و نسبت إليه الضلال و الإضلال حتى رأى نفسه مجبرا على الدفاع عن نفسه »¹ .

و تذكر بعض الكتب التي تتناول تاريخ الفلسفة في مراحلها المختلفة أن أعظم حملة شنت على الإمام " الغزالي " واضطهدت خلالها مؤلفاته، بل وضربت فيها آراؤه بعرض الحائط كانت تلك التي حدثت في المغرب جراء دسائس و مؤامرات أحيكت ضده وشوهت آراءه عند الخليفة " يوسف بن تاشفين " .

و رغم ذلك كان معجبه أكثر من أعدائه ومؤيدوه و مناصروه أزيد من منكريه ومن المتربصين به " و قد اخذ المعجبون به حديثا أسنوده إلى أبي هريرة قال « إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها »² وجاء في شرح هذا الحديث معان منها أن الله « يفيض لها على رأس كل مائة من الهجرة أو غيرها رجلا كان أو أكثر يبين السنة من البدعة ويكثر العلم وينصر أهله ويذل أهل البدعة »³ .

وبذلك كان الإمام " الغزالي " احد هؤلاء الأئمة ، الذين أحيوا أصول الدين وحاربوا البدعة ، فهو بحق إمام زمانه و حجة عصره ، لما جادت به قريحته من أفضل العلوم و المعارف ذلك « أنه كان يلوذ بالشرع باعتباره صمام الأمان و منطقة النجاة حينما يعرض لإشكالات دقيقة أو مستعصية وقد اجمع المسلمون على قبول آرائه واعتبروه مجددا و حافظا للشريعة »⁴ . و من أهم ما ساعده على انتشار آراء " الغزالي " عموما ، و السياسية خصوصا ، لاسيما ردّه على فرقة الباطنية و إبطاله لآرائها السياسية في مسألة الإمامة ، هو ما وجدده لدى صديقه " نظام الملك " من تشجيع في عهد الخلافة السلجوقية للدولة العباسية إذ « كان لاستئثار السلاجقة بالحكم في بغداد أثر كبير في تحرير الخلافة العباسية من الحركات الباطنية »⁵ .

إذ عمل السلاجقة على نصرته مذهب السنة ضد الشيعيين والفاطميين حتى أن تأسيس المدارس النظامية لنصرة مذهب السنة كان بمثابة رد على تأسيس الجامع الأزهر لنصرة مذهب

1 - المرجع نفسه ص 718

2 - رواه أبو داود

3 - حنا الفاخوري و خليل الجر ، مرجع سابق ، ص 720

4 - محمد علي أبو ريان ، مرجع سابق ، ص 374

5 - جميل صليبا ، تاريخ الفلسفة العربية ، الشركة العالمية للكتاب ، ط 3 ، 1995 ، ص 409

الفاطميين»¹. كما لا ننس ما بذله الفقيه الأشعري السني "الغزالي" من جهود للرد على ما قامت به فرق الشيعة المغالية و نقصد بالتحديد فرقة الإسماعيلية الباطنية المعروفة بالتعليمية أو كما عرفت أيضا الحشاشين مع مؤسسها "حسن الصباح" من قتل و اغتيال وتشويه لأركان الدين .. وكيف تصدى حجة الإسلام لها بفضل تشجيع وتأييد من الخلافة العباسية القائمة فكان نقده لها لاذعا استهدف من ورائه حماية الإسلام و الحرص على سلامة إيمان العوام وكشف تلبساتها التي روجت لها باعتمادها للتأويل الباطني ، فكان الشك في مصداقية دعوى الباطنية محركا أساسيا لنقدها ومن ثمة الرد عليها لإبطال عقائدها .

فخرج من ثورة الشك عاملا على ترسيخ الإيمان بالله و نبيه و اليوم الآخر مؤكدا على طريق الحدس الديني و الكشف الباطني و قيمته في حصول المعرفة و العلم اليقيني فكان حجة للإسلام بحق و سيفا على أعدائه الذين انتقدهم و بين بدعهم و ثار عليهم خاصة تلك الفرق الباطنية المغالية في اعتماد منهج التأويل الباطني .

و بهذا المنهج النقدي رسم "الغزالي" لنفسه طريقا في مفكري عصره حتى تفوق به عليهم و كان له السبق به ، و تأثر به كثيرون جاؤوا بعده و حذوا حذوه ، أضافوا إلى هذا المنهج و عدلوا فيه أمثال "ديكارت" و "كانط" وغيرهما..

و الملاحظ أن خصوص "الغزالي" في غمار المسائل السياسية و بحثه في مشكلة الإمامة كان كرد فعل لما تنشره الباطنية من معتقدات حولها بين الناس يحرض بشكل خفي أو جلي على الثورة و التمرد على الخلافة العباسية القائمة و يجيز خلع الإمام القائم ليحل محله آخر من ذويهم يثبتون له العصمة و يشترطون التعلم منه دون غيره .

لكن حجة الإسلام لم يسمح للتعاليم الإسماعيلية الباطنية الهدامة الشاذة عن ما عهده المسلمون بأن تنتشر دون قيد أو سلطة رادعة بل حاول جاهدا من خلال مؤلفاته إبطالها بالنسبة للعصمة مثلا « يرى الغزالي أنهم إذا أصابوا في نسبة العصمة إلى الإمام في التعليم أخطئوا في تعيين الإمام المعصوم »² و حسبه أن النبي وحده يمكن أن يكون ذلك الإمام المعصوم و المعلم الأجدر بالتعليم فهو أقرب منزلة من غيره إلى الله تعالى .

1 - المرجع نفسه ص 409

2 - كمال اليازجي ، معالم الفكر العربي ، ص 247

وحاول الإمام " أبو حامد الغزالي " في نقده للباطنية من حيث مسألة الإمامة اعتماد الشرع و العقل في مناقشة تلك القضايا الكلامية حول الإمامة باعتماد أساس « العقل المتأدب الشرع »¹. فضرب كثير من آراء أولئك الشيعة الباطنية بعرض الحائط ، فمنها ما أبطله ومنها ما صححه ليخرج من رده عليهم بنظرية سياسية لا يختلف فيها عن رأي الجماعة السنيّة، بل حملت تعديلات تساند الخلافات السنيّة القائمة على نهج التشاور والاختيار، لا بطريق النص والتوارث أو الوصية .

فيظهر أن موقف " الغزالي " من الإمامة يرتبط في شتى جوانبه بمذهبه الأشعري السني لكنه قد حمل في الوقت ذاته بعض الإضافات فيما يتعلق بشروط المتقدم لمنصب الخلافة ، وكذا رفض فكرة الثورة على الخليفة القائم أو خلعه . وهذا ما لاحظته بعض المفكرين المهتمين بفلسفته إذ « يرى البعض أن الغزالي ادخل تعديلا ملحوظا على صفات الإمامة مسيطرة لمبدئ في تأييد نظام الحكم القائم فهو لا يشترط توافر صفات النجدة أو الكفاية أو العلم في الحاكم نفسه و إنما يكفي بتوافر النجدة فيمن ينصره و الكفاية في رأي الوزير والعلم في الاستعانة بما يتفق عليه العلماء في كل واقعة »².

و ما كان موقف " الغزالي " الراض للخلع الإمام أو الخروج عليه إلا حرصا منه على حفظ الأمة من الفتن . فهو يساند دائما ضرورة نصب الإمامة مهما عرضت لها من عوارض باعتبار أن « الإمامة ضرورية للمجتمع و الدين و لأن الضروريات تبيح المحضورات ، فهي خير من الحرب الأهلية أو إثارة الفتن »³ إذا لا يؤيد مسألة الخروج على الإمام الحاكم مهما كان جوره و ظلمه باعتبار أن جوره أشد رحمة من خلعه الذي يجلب الفتن.

فكانت آراؤه السياسية مرتبطة في مجملها بالجانب الأخلاقي و التربية ، يؤكد من خلالها على ضرورة تحقيق المآرب الدنيوية و الأخروية ، حتى أنه دعا إلى تدخل الدولة لحماية إيمان العوام و قد عارض بعض المتكلمين في مشكلة الكفر و الإيمان و أشار إلى أن الغاية من وجوب تأسيس الدول هو تحقيق سعادة الإنسان و تنظيم شؤون حياته . و لأجل تحقيق هذه الغاية أكد على وجوب الإمامة واعتبرها أمر مهما و ضروريا ، الأمر الذي دفعه للرد على الفرق التي عملت على تشويهها و أبرزها الشيعة الباطنية التعليمية.

1 - المرجع نفسه ص 248

2 - زكي محمد عدل الدين سالم ، الإنسان في فلسفة الغزالي ، ص 154

3 - نور الدين حاروش ، الفكر السياسي ص 203

مما يؤكد لنا بشكل لا مجال فيه للشك بأن « فلسفة الغزالي يمكن أن تعد بمثابة رد على ما انتشر في الدولة الإسلامية من دعوات إسماعيلية و فاطمية و قرمطية و مذهب فلسفية مصحوبة بضعف في الدين و فوضى في الأخلاق و اضطرابات في السياسة »¹.

و لأنه بذل قصارى جهده في تفنيد دعوى الباطنية و إبطال حججهم حتى شرحها أفضل منهم إلى حد ظن فيه بعض المفكرين أنه تبني مذهبهم و ساند حججهم « حتى لآمه بعضهم على تقرير حججهم و إسهامه في نشرها »².

و اضطر للدفاع عن نفسه ليؤكد لهم أن بإمكانية تقرير حججهم أفضل منهم و إبطالها بالحجج القاطعة الدامغة لكنه مع ذلك ساهم كشخصية شهيرة معروفة بغض النظر عن نواياه و غاياته في تعريف الناس بحججهم و عقيدتهم التي كانت غير معروفة و لا منتشرة بذاك القدر. الأمر الذي عرضه للنقد الشديد من أهل السنة أنفسهم ، رغم أنه لم يستهدف أن تتعلق بها الأذهان بل أراد إبرازها لإبطالها قائلًا عن ذلك « أي قررت شبههم إلى أقصى الإمكان ثم أظهرت فسادها بغاية البرهان »³.

فثارت نائرة كثير من علماء الأمة و فقهاؤها الحذرين من انتشار أباطيل الباطنية بسبب عرض الغزالي لها، فتشيع بين الناس العامة و الخاصة و تلقى القبول و التصديق.. فتفسد الحياة و أخلاق العباد جرّاءها .

من ناحية أخرى رأى بعض خصوم " الغزالي " لا سيما من الباطنية ، أنه حين انتقد ها في مسألة الإمامة حاول بالقدر المستطاع بيان بطلانها في كتبه المختلفة كالمستظهر المنقذ من الضلال و فيصل التفرقة.. كان حريصا على جعل إمامة المستظهر بالله الخليفة العباسي، هي الإمامة الوحيدة المقبولة الصحيحة ، نظرا لتوفر شروطها .

لأجل ذلك اتهم بأن له خلفيات أخرى من وراء نقده هذا للباطنية و خاصة موقفه من الإمامة الشيعية التعليمية « فلم تكن الغاية من دراسة مذهب الباطنية البحث عن الحقيقة كما يذكر ذلك في المنقذ من الضلال بل الامتثال لأمر أمير المؤمنين " المستظهر بالله " الذي كان يريد كتابا من إمام معروف يثبت إمامته و زعامته الروحية الزمنية ، و يهدم إدعاء خصومه الذين ينادون بإمام معصوم هو وحده الإمام الشرعي »⁴.

1 - جميل صليبا ، تاريخ الفلسفة العربية ، ص 409

2 - جميل صليبا ، تاريخ الفلسفة العربية ص 400

3 - أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال، ص 49

4 - حنا الفاخوري و خليل الجر ، مرجع سابق ، ص 656

رغم أن القلة هم أصحاب هذا الموقف السليبي ، الذي ركز في نقده للغزالي ، على كون موقفه ما هو إلا استجابة لذلك التكليف الوارد عليه من الخليفة المستظهري للرد على الباطنية نتيجة تزايد خطرهم على الخلافة العباسية القائمة . فكان واحدا من أولئك المسخرين من قبل الخليفة لنصرة إمامته فأراؤه السياسية تتماشى مع ما طلب منه .

فمخالفة " الغزالي " لجمهور أهل السنة والجماعة الذين أجاز مقاومة الحاكم الجائر في حالة ظلمه وقوله بوجوب الطاعة مهما كان الحال « وربما يعود السبب في ذلك لتوالي الغزالي منصب التدريس في المدرسة النظامية ببغداد وصلته بالسلطة "السلجوقية" فأراد بذلك تحاشي غضب الحاكم ¹ » وعدم تهيج خصومه عليه بإثارة الفتنة أو تحريكها .

من زاوية أخرى يسوقنا الحديث إذا ما قمنا بتحديد أهم الانتقادات الموجهة " للغزالي " بسبب موقفه المعادي لفرقة الشيعة الباطنية التعليمية في مسألة الإمامة ، إلى تأكيد الكثير من الدارسين لفكره على بحثه عن الشهرة و طلبه الجاه في الفترة التي ثار فيها على التعليمية .

هذا ما يوضحه الدكتور "سليمان دنيا" أحد المهتمين بالمؤلفات والآراء الغزالية، إذ يذكر لنا سمة في " الغزالي " يشبه فيها مفكري عصره بقوله « لم يخرج الغزالي على سنة العصر من التزلق إلى الرؤساء وطلب الجاه والشهرة عندهم » .

كما يزيد في ذلك توضيحا قال فيه « فقد رأينا كيف سعى إلى نظام الملك و تردد على مجالسه و خاض في غمار الجدل الذي كانت تدار رحاه أمامه ليظهر على أقرانه وليطير اسمه في الآفاق » .

" فالغزالي " في بداية حياته قد مارس التعليم في المدرسة النظامية بتشجيع من صديقه الوزير "نظام الملك السلجوقي" بغرض نشر المذهب السني و الانتصار له على المذهب الشيعي فكان عمل الغزالي في هذه الفترة و ما ألفه خلالها من كتب يحتوي شيئا من النصر و الموالات للخلافة القائمة .

و يذهب "سليمان دنيا" إلى التأكيد على أن عمل الغزالي في بداية حياته ، و أيضا علمه لم يكن نقيا خاليا من الخلفيات و التعصبات و طلب الملذات كما كان في ما بعد هذه الفترة التي صار فيها متصوفا ، فقد « ألف وعلم و رفع صوته عاليا مدويا بالدفاع عن الدين و الزناد عنه

وباعثه على كل ذلك ليس وجه الله تعالى بل وجه الرؤساء و الحكام «¹ الذين كان هدفهم إعلاء كلمتهم و ذبوع خلافتهم و صيتهم في الأقطار من خلال اعتماد كبار العلماء و الفقهاء للدعوة لهم بطرق مختلفة . حتى أن كثيرا من المفكرين في دراستهم لفكر " الغزالي " لا يعتبرون بتلك الحقبة الأولى من حياته التي غال فيها من تأييد أهل السنة و نصره عقيدة الجماعة، حتى ذاع صيته في الأمصار و نقد الفلاسفة و المبتدعة و رد على الباطنية التعليمية، حتى أعتبر فاضح أمرهم و كاشف بدعهم و تلبساتهم .

وربما تكون من أشد الأسباب التي جعلت " الغزالي " في بداية حياته يتحامل على " الباطنية " ليتفق رأيه مع رأي غيره من مؤيدي الخلافة العباسية هو حبه للجاه و الشهرة فحسب ما يقوله أهم ناقديه الدكتور " سليمان دنيا " « و احتمال أن الغزالي لما كان في تلك الفترة في نشوة غرور و حب ظهور ، فليس يبعد أن يكون قد صور المعنى ذلك التصوير حتى يتيسر له الهجوم عليه و التشنيع على أصحابه و احتمال آخر أن الغزالي لم يكن في تلك الفترة قد بلغ ما بلغه بعد أن تصوف و كُشوف»² .

لذلك أنتقد الإمام " الغزالي " حتى من أقرب المقرين إليه ، و وجهت إليه الاتهامات و وصف تفكيره بالتناقض و الاضطراب و « يعتقد الفلاسفة و خاصة " بن رشد " بأن " الغزالي " لم يكن دائما ذا إيمان سليم ، حتى " بن طفيل " رغم الاحترام الذي يكنه له أقر بأن هناك تضاربا في أنظمتهم »³ حيث اتهم حجة الإسلام بالاضطراب بعدما أصابه مرض " الكنظ " و اعتزل الناس لفترة قبل تصوفه و تراجعته عن عدد من الآراء التي سبق و أن قالها هو و تبناها .

أما إذا ما نظرنا لموقف هذا الفقيه السني من الباطنية ، من زاوية أخرى ، سنجد مثلا أن الباحثين في الفكر الشيعي لا سيما الباطني ، يؤكدون وجود تحامل و مبالغة من قبل " الغزالي " على الفرق الباطنية فنجد مثلا " مصطفى غالب " (1923-1981م) يركز في مؤلفه " الحركات الباطنية في الإسلام " على ذلك التحامل الموجه لهذه الحركات الباطنية خاصة من أبي حامد الغزالي الذي حسب هذا الباحث « خلط بين الدعوات الباطنية الدينية الفلسفية و بين أصحاب الحركات الثورية السياسية الاجتماعية الذين انتفضوا على ظلم العباسيين لتقويض دعائم ملكهم على أساس من التنظيم العسكري و الاجتماعي و السياسي »⁴ .

1 - سليمان دنيا ، الحقيقة في نظر الغزالي، قيطار المعارف بمصر، ط 3، 1971 ، ص 59

2 - سليمان دنيا ، الحقيقة في نظر الغزالي ، ص 399

3 - هنري سيرويا ، فلسفة الفكر الإسلامي ، ص 98

4 - مصطفى غالب ، الحركات الباطنية في الإسلام ، ص 59

فأحصى " الغزالي " في كتابه " فضائح الباطنية " عشرة ألقاب للباطنية من تعليمية، سبعية إسماعيلية ... دون تمييز بين ما هو للباطنية و ما هو لغيرها ، مؤكداً أن هذه الألقاب لنفس الفرقة تقريباً « فأصحاب الدراسات الإسلامية الحديثة أظهروا بوضوح وجللاء بأن الإسماعيلية لقبّت في أول ظهورها بالسبعية والتعليمية والقرامطة أو القرمطية.. أما الألقاب الأخرى التي ذكرها الغزالي كالخرمندية ، البابكية و الحمرة فهي ألقاب نسبت لفرقة واحدة أو بالأحرى لحركة ثورية واحدة هي المزدكية »¹.

مما سبق يتبين أن ما اتخذته " الغزالي " من آراء و مواقف سياسية تمحورت حول مشكلة الإمامة و تداعياتها سواء كان مصيباً فيها أو مخطئاً جعله يقف وجهاً لوجه مع فرقة الباطنية التعليمية التي أدلت بدلونها هي الأخرى في مسألة الإمامة و جعلتها عقيدة هامة من عقائدها فجسد صراعهما الفكري و المذهبي ما شهدته ذلك العصر من اضطرابات سياسية انعكست على صعيد الفكر و تمثلت أزمة العصر في آراء المفكرين و مذاهبهم و فرقهم. و ما الجدال الفكري القائم بين الغزالي و الباطنية إلا مثال بسيط لما أحدثته الإمامة من اضطرابات و تداعيات فكرية و عقدية.

1 - مصطفى غالب ، الحركات الباطنية في الإسلام ص 59

الفصل الثامن

إن البحث في مسألة الإمامة شائك و متشعب ، تاه فيها الخائضون ، و انقسموا حولها إلى فرق و مذاهب . بل الملاحظ أنهما كانت سبب في تطور الخلافات و الصراعات السياسية بين المسلمين التي امتدت إلى عصورنا القريبة . و هددت أمننا و حتى استقرارنا . مع ذلك لا ننكر ما للإمامة من أهمية بالغة في حياة الشعوب لاسيما الإسلامية . فلا بد من وجود قيادة للأمة و سياسة لمصالحهم ، تعمل على تنظيم حياة الرعية و تلبية متطلباتهم . و ارتبطت الإمامة بشروط و مهام لا يمكن لغير متوليها فعلها و قضاءها .

وإذا كنا نميز بين رأيين مختلفين حول قضية الإمامة، متباينان كل التباين هما التصور الشيعي و التصور السني ، فما ذلك إلا لاختلاف تصورات المفكرين لها، فكل حسب مذهبه و نزعته أو ميله الشخصي و موالاته لطرف محدد دون آخر.

و كما سبق أن تعرضنا لرأي كل منهما في الإمامة بالتطرق إلى نموذجين بارزين من كل تيار، نقصد الشيعة الباطنية كمثل قوي للفكر الشيعي التي أدلت بدلوها في غمار الإمامة و جعلتها عقيدة شيعية تدور حولها كل أرائها في السياسة و المعرفة و النبوة .. بل صار للإمامة في الفكر الشيعي أهمية بالغة قرنتها بتعاقب الأدوار و حركات الأفلاك و أضفت عليها هالة من التقديس بل إن مسألة تأليه الحاكم من أبرز الأفكار الشيعية المصاحبة لعقيدتهم في الإمامة ، و هذا ما نجلى بوضوح مع الفرق الباطنية و ما أفرزته من تصورات و آراء سياسية انفردت بها عن غيرها و أدخلتها ضمن الفرق المغالية في نظر أهل السنة و تعرضت لردودهم و انتقاداتهم و السبب في ذلك كله نصرتها لآل البيت العلوي و اشتراطها لبقاء الإمامة في عقبهم ، بغض النظر عن الطرق و الأساليب المعتمدة في سبيل تحقيق ذلك .

و في مقابل تلك الفرقة يظهر حجة الإسلام " الغزالي " ذلك الفقيه السني و المفكر الأشعري المتصدي لمغالاة الباطنية و بدعها، خوفا على وحدة الإسلام و إيمان العوام . فقد ألف التأليف و صنف التصانيف لدحض آرائها ، متسلحا بصفاء العقيدة ، مؤيدا من الخلافة السلجوقية و العباسية ، داعيا إلى طاعة الحكام القائمين بالحق و عدم رفع راية العصيان في وجههم ، و ليس كما فعلت الباطنية المتمردة على الخلافات القائمة ، محذرا من خطر ذلك على العباد و البلاد ، و إن كان قد اهتم بالتحيز و الموالاتة للعباسيين في نقده و تزييف الحقائق طلبا للجاه ، من قبل مؤيدي الإسماعيلية الباطنية و مفكريها، إلا أن نقده لها كان الأشد و الأكثر شهرة بين مفكري عصره، نظرا لما أقدم عليه من فضح لتلبساتهم و كشف لبدعهم.

و ما نصل إليه من خلال المقارنة بين التصورين السابقين ، يقودنا إلى تأكيد فكرة هامة مفادها اعتبار الإمامة كانت من أبرز القضايا التي شغلت مفكري الإسلام في عهودهم الأولى وانقسما إزاءها إلى فرق و مذاهب متباينة لكل فيها رأيه . الأمر الذي فرق المسلمين إلى تيارين مختلفين سنة و شيعة ، وأدى إلى احتدام الصراع بينهما لفترة طويلة ميزتها الاعتداءات بالقلم تارة و بالسيف طورا آخر، فاتخذ الصراع بين الفريقين شكلا فكريا و آخر سياسيا ما.

و الحقيقة أن الإمامة عند المسلمين على اختلاف اتجاهاتهم و مذاهبهم ما هي خلافة إلهية للدولة الإسلامية، لها مزايا خاصة إحداهما « أن الأساس الذي يقوم عليها بناؤها هو تصور(مفهوم) حاكميه الله الواحد الأحد وأن نظريتها الأساسية أن الأرض كلها لله وهو ربها والمتصرف في شؤونها فالأمر والحكم والتشريع كلها مختصة بالله وحده وليس لفرد أو أسرة أو طبقة أو شعب بل ولا للنوع البشري كافة شيء من سلطة الأمر والتشريع فلا مجال في حظيرة الإسلام ودائرة نفوذه إلا لدولة يقوم فيها المرء بوظيفته لله تباركت خليفته أساؤه و لا تأتي هذه الخلافة بوجه صحيح إلا من جهتين : إما أن يكون ذلك الخليفة رسولا من الله أو رجلا يتبع الرسول فيما جاء به من الشرع والقانون من عند ربه »¹

فالإمام واجب النصب وهو خليفة الله في أرضه ولا تتصور قيام تنظيم بشري خال من حاكم يرعى شؤونه « وهذا الكون الذي نعيش فيه و نتنفس لا يجري أمره من غير سلطان أمر، بل له ملك هو الحاكم المتصرف في شؤونه »² .

فالله حاكم الكون كله و الخليفة له حاكم بأمره فيما استخلف فيه لذا كان الخليفة أو الإمام هو المنفذ لأمر الله نيابة عن رسوله ﷺ في الحكم وهذا تشبيها بإمامة الصلاة لما روي عن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ قال « إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا ركع فاركعوا وإذا رفع فارفعوا وإذا صلى جالسا فصلوا جلوسا »³ .

فظهر ما للإمامة من عظيم المكانة في سياسة الشعوب ، فالاتفاق قائم بين "الباطنية" و"الغزالي" ، حول وجوب نصب الإمام وأهمية ذلك بالنسبة للأمم. لكن الاختلاف ما يزال قائما حول أصل ذلك الوجوب وعلته ، و أدلته . و ما يترتب عن ذلك من ضروب الغلو والمغالاة . الأمر الذي أخرج مسألة الإمامة عن حقيقتها، و أدى إلى ظهور البدع فيها ، فزيد

1 - أبو الأعلى المودودي ، منهاج الانقلاب الإسلامي ، دار الشهاب ، باتنة ، الجزائر [د ط] ، [د ت] ، ص 15 ، 16

2 - أبو الأعلى المودودي، منهاج الانقلاب الإسلامي ، ص 40

3 - البخاري ، صحيح البخاري ، ج 1، ص 181

في الأركان أو حذف من شروطها كل ذلك تماشياً مع الأهواء و الميول و متطلبات الحكام ، فصارت فتنها أعظم من نفعها و خطرهما أشد وطأة من الدور المنوط بها. كما ظهر ذلك في عهد الباطنية و الغزالي من فتن الاقتتال بسببها.

و من خلال استعراض تصور كل من التيار الشيعي المائل في الباطنية كنموذج بارز في هذا التيار العريق ، و التيار السني المتمثل في آراء الإمام " الغزالي " حول مسألة الإمامة وتداعياتها ، كشفنا عن المفهوم الذي يعطيه كل منهما لها مبرزين أهم المسائل الخلافية بينهما تلك القضايا التي باعدت بين المذهبين الشيعي و السني ، محاولين إدراك الأسباب التي تستر وراء ذلك و التي تركت العالم الإسلامي غارقاً في خلافاته السياسية ، التي ما تكاد تخمد حتى تندلع من جديد بشكل أكثر عنفا و دموية . و من ناحية أخرى أردنا الوقوف على أبرز الأفكار التي من شأنها التقريب بينهما لإخراج العالم الإسلامي من صراعه الطويل و القاتل حول الحكم و اعتلاء عرش الإمامة .

مما جعل الإمامة تخرج عن أهدافها السامية و مهامها النبيلة، لتولد الأحقاد و الضغينة و تجلب الفتن و القلاقل. فنفر منها الخلق و لم يباليوا بمن يتولاها و لا بشروطه ، ما دام الاعتقاد السائد اليوم أنها لم تعد قادرة على تلبية متطلبات الأفراد ، و لا حريصة على التوفيق بين مصالح الدين و الدنيا. بل صارت وسيلة لتحقيق مآرب شخصية ، ظاهرها الصلاح و المصلحة العامة و باطنها مشوب بالمكر و الخداع. و قلما تتحقق تلك الإمامة الراشدة التي شرعت لنظام الحكم الإسلامي العادل كما أوصى الرسول ﷺ .

و ما تزال للإمامة امتداداتها في كل عصر ، كما في الماضي ، رغم أنها لم تعد الشغل الشاغل للفقهاء و المفكرين ، بل تم التنظير لها و وضعت قوانين تقيّد سلطة الإمام الذي صار لقبه " الخليفة و الحاكم و الملك ، الرئيس .. " أكثر شيوعاً من وصفه بالإمام . كما ظهرت الدساتير و نظمت عملية اختيار الحاكم و نصبه ، و فصلت و قسمت السلطات ، حتى أن الرعية يتولون شؤونهم ، و يعبرون عن انشغالهم ، أو يتدخلون في تسيير النظام تطبيقاً لمبدأ الشورى ، عن طريق المجالس النيابية و غيرها.

في الوقت ذاته ما تزال بعض الشعوب العربية تعتمد مبدأ التوارث و النص ، و العهد بالإمامة للأبناء، فلم يتخلص العالم الإسلامي من تقاليدته السياسية التي يتم توارثها في الأعقاب، كما حال بعض دول الخليج، التي تنتشر فيها العقائد الشيعية .. و حتى تلك التي لا محل فيها للشيعية تعتمد التوارث، و تخل بشروط الإمامة و تجعلها حقاً متوارثاً..

و في الختام نستنتج أن مسألة الإمامة اكتست من الأهمية ما جعل أغلب الآراء السياسية للمسلمين تدور حولها، فجادت القرائح فيها بما استوجب ذلك، و انقسم المسلمون إزاءها طوائف و فرق، منها المغالية و منها المعتلة، و منها المجددة المبدعة أو المقلدة المتبعة... فثارت الفتن لأجلها و تسابق الخلق لبلوغها طمعا في الرياسة، و إرضاءا لشهوة الملك . و انعكس الخلاف و الصراع السياسي على الفكر من جميع جوانبه، فكان لمسألة الإمامة إسهام كبير فيما حققه المسلمون من تراث فكري و فلسفي، فلا يمكن إنكار أثرها ، أو استبعاد تأثيراتها.

فهرس الأيات القرائية

فهرس الآيات

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا	البقرة	124	84-09
وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا	الأنبياء	73-72	09
فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ	التوبة	12	09
وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا	الفرقان	74	16-10
وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ	النور	55	13
وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ	الأنعام	165	18-16-13
يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ	ص	26	18-13
وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً	البقرة	30	18-16-13
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ	النساء	59	178-70-18
وَأْمُرْهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ	الشورى	38	204-182-21
وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ	آل عمران	159	193-182-22
إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ	الأنعام	159	32
يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ	الحديد	13	129-42
إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا	الأحزاب	33	49
قُلْ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى	الشورى	23	50
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ	النساء	59	211-72

72	07	الرعد	إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ
72	02	البقرة	ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ
76	67	المائدة	يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ
81	32	يوسف	قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنِ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ
86	01	الحجرات	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ
86	47	المائدة	وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ
86	46	الأنفال	وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ
248-87	101	المائدة	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَن أَشْيَاءٍ إِن تُبَدَ لَكُمْ تُسْأَلُونَ
87	07	الطلاق	لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا
87	19	الشورى	اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ
94	11	غافر	قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا ائْتِنَّا ائْتِنَّا وَأَحْيَيْتَنَا ائْتِنَّا
94	85	القصص	إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ
94	243	البقرة	أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ
94	259	البقرة	أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِثَّةَ عَامٍ تَمَّ بَعَثَهُ

108-104-110	28	الزخرف	وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
105	253	البقرة	تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ
109-107	34-33	آل عمران	إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ
114	35	الفرقان	وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا
117	98	الأنعام	وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ
126-125-253	07	آل عمران	هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ
128	05	الجمعة	مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَاتُ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا
128	99	الحجر	وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ
131	53	الأعراف	هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ
133	120	الأنعام	وَذُرُوا ظَاهِرَ الْأَيْمَنِ وَبَاطِنَهُ
133	33	الأعراف	قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ
140	28	الفجر	ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً
141	56	النساء	كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ
149	01	النصر	إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ

149	110	آل عمران	كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ
178	27	المائدة	وَإِذْ قُلْنَا لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ
178	46	هود	قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ
197	69	النساء	وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا
199	90	النحل	إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ
199	58	النساء	وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ
203-199	11	المجادلة	يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ
199	09	الزمر	قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ
199	28	فاطر	إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ
208	44	البقرة	أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
209	31	يوسف	إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ
211	25	الأنفال	وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً
215	12	المتحنة	وَلَا يَعْصِبَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ
221	26	آل عمران	قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ
224-223	40	الأحزاب	مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا

227	170	البقرة	وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ
228	104	المائدة	وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ
150-228	187	آل عمران	وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ
228	67	المائدة	يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ
236	32	الروم	كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ
243	19	الأعراف	فَكُلًّا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ
245	37	النور	رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ
252-251	85	الإسراء	وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا
255	02	الحشر	فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ
255	190	آل عمران	إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ
259	185	البقرة	يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ
259	06	الشرح	إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا
261	201	الأعراف	إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ

فہرست الآحاد پیشہ

فهرس الأحاديث النبوية

الصفحة	الرواة	الحديث
13	ابن حزم ، الإحكام	إن الأئمة من قريش و الناس برهم تبع لبرهم و فاجرهم تبع لفاجرهم
15	أبو داوود	كان النبي إذا سافر يقول : اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل
13	أبو داوود	من جهز غازيا فقد غزا و من خلفه في أهله بخير فقد غزا
18 218	مسلم و أحمد	من مات و ليس في عنقه بيعة إمام مات ميتة جاهلية من خلع يدا (من طاعة إمام) لقي الله تعالى يوم القيامة و لا حجة له، و من مات و ليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية
40	أبو داوود	اللهم أنت الظاهر فليس فوقك شيء و أنت الباطن ليس دونك شيء
43 105 - 50	صحيح عند البخاري وغيره	علي مبي بمذلة هارون من موسى أنت مبي و أنا منك
78	لا أثر له ، موضوع	لولا أن يقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النصراري في عيسى بن مريم لقلت فيك اليم مقالات لا تمر على ملاء من المسلمين إلا أخذوا من تراب رجلك و..لكن حسبك أن تكون مبي و أنا منك ترثني و أرتك و أنت مبي بمذلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي"
50-43	صحيح ، النسائي والحاكم	إني تارك فيكم الثقيلين كتاب الله و عترتي و إلهما لم يفترقا حتى يرذا على الحوض ألم أترك فيكم القرآن و عترتي..
50	صحيح ، أكده الترمذي	و الذي نفسي بيده لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم لله و لرسوله
50	ضعيف ، من جامع السيوطي	و الذي...حتى يحبكم لله و لقرايتي
50	صحيح أورده البخاري	لأعطين الراية غدا رجلا يفتح الله على يده...حمر النعم

71	البخاري	من كنت مولاه فعلي مولاه
72	البخاري	من يبايعني على روحه وهو وصي وولي هذا الأمر من بعدى؟ فلم يبايعه إلا علي
81	متفق عليه	إنه ليغان على قلبي و إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة
87	البخاري	لن يرح الناس يسألون حتى يقولوا هذا الله خالق كل شيء فمن خلق الله
95	لا أثر له موضوع	أيها الناس خذوها من خاتم النبيين إنه يموت من مات منا وليس بميت و يبلى من بلى منا و ليس ببالي
111	لا أثر له ،موضوع	أنا و علي من نور واحد
111	ضعيف لا إسناد له	لولا أن يقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى في عيسى بن مريم لقلت فيك اليوم مقالات لا تمر على مالا من المسلمين إلا أخذوا من تراب رجلك وفضل طهورك يستشفون به ولكن حسبك أن تكون مني وأنا منك ..
111	لا أثر له ،موضوع	أرسل علي مع كافة الأنبياء سرا و أرسل معي جهرا
113	السلسلة الضعيفة	أنت أخي و وصيي و وارثي و وزيرني و قاضي ديني
133	حسن	طوبى لمن رأى من رأي أو رأى من رأي من رأي من رأي
152	صحيح أورده البخاري	أسكن أحد ، فليس عليك إلا شهيدان و صدّيق
152	متفق على صحته وأورده البخاري	إن من أمنّ الناس عليّا في صحبته و ماله أبا بكر . و لو كنت متخذنا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر ، و لكن أخوة الإسلام و مودته لا يبقين في المسجد باب إلا سُدّ، إلاّ باب أبي بكر. لو كنت متخذنا من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر لكن أخي و صاحبي
153	لا أثر له ، موضوع	خلقت أنا و علي من نور و كنّا عن يمين العرش قبل أن يخلق آدم بألفي عام ، ثم خلق الله آدم فانقلبنا في أصلاب الرجال ثم... فالله محمود و أنا محمد والله الأعلى و علي عليّ
153	لا أثر له ، موضوع	صلّي عليّ الملائكة و علي بن أبي طالب سبع سنين و لم يصعد و لم ترفع شهادة أن لا إله إلا الله من الأرض إلى

		السماء إلا مني ومن علي بن أبي طالب
150	أبو داود	رفع القلم عن ثلاث عن النائم حتى يستيقظ. و عن المجنون حتى يعقل و عن الصبي حتى يحتلم
184	ضعيف و منكر	لعن الله قوما تقودهم امرأة
192-184	صحيح ، رواية متواترة عن أنس بن مالك	الأئمة من قريش
185	متفق على صحته	قدّموا قريشا و لا تقدّموها
187	صحيح البخاري	إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كَبّه الله في النار
187	صحيح البخاري	لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان
190	ضعيف بهذا اللفظ	لا تجتمع أمي على ضلالة"
196	صحيحة أوردها بن ماجه وأبو داود	إني لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة إنه ليغان على قلبي حتى إني لأستغفر الله تعالى في كل يوم مائة مرة
198	السلسلة الضعيفة	عدل السلطان يوما واحدا أحب إلى الله من عبادة سبعين سنة
198	السلسلة الضعيفة	أحب الناس إلى الله تعالى و أقربهم إليه لا السلطان العادل و أبغضهم إليه و أبعدهم منه السلطان الجائر
200	متفق على صحته	من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين
200	الترمذي رواه أبو داود و الترمذي و بن ماجه	فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم فصل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وأن العلماء ورثة الأنبياء و أن الأنبياء لم يرثوا دينارا واحدا و لا درهما و إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر
201	ابن قدامه المقدسي	أشدّ الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه
201	الدرامي	من تعلّم علما يبتغي به وجه الله - عزّ وجل- لا يتعلمه إلا ليصيب به عرض من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة
201	الدرامي	من تعلم العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه فهو في النار

201	استند إليه الغزالي	إياكم و مواقف الفتن؟ قيل و ما هي؟ قال: أبواب الأمراء يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب و يقول ما ليس فيه
215-202	مسلم	الدين النصيحة الدين النصيحة " قلنا : لمن؟ قال : لله و لكتبه و لرسله و لأئمة المسلمين و عامتهم
202	الغزالي	لا تزال هذه الأمة تحت يدي الله و كنفه ما لم يمالي قرأوها أمرؤها
205	الغزالي	خيار الأمراء الذين يأتون العلماء
208	أورده مسلم و أحمد والترمذي	"التقوى ها هنا
211	متفق عليه ، أورده البخاري و مسلم	"من كره من أميره شيئا فليصبر فإنه من خرج عن السلطان شبرا مات ميتة جاهلية"
212-211	متفق عليه أورده البخاري و مسلم الترمذي و أحمد	إنكم سترون بعدي أثره و أمورا تكرهونها .قالوا :فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال : أدوا إليهم حقهم و سلوا الله حقكم
212	البخاري	حديث الرسول(ص) مع حذيفة بن اليمان عن الواجب فعله إذا ما تزايدت الفتن قال له " تلزم جماعة المسلمين و إمامهم" قال حذيفة"فإن لم تكن جماعة و لا إمام؟" قال (ص) "فاعتزل تلك الفرق كلها، و لو أن تعضّ بأصل شجرة حتى يدركك الموت و أنت على ذلك
217-212	البخاري	من أطاعني فقد أطاع الله و من عصاني فقد عصى الله و من أطاع أميري فقد أطاعني ، و من عصى أميري فقد عصاني
217-212	متفق عليه و أورده البخاري	اسمعوا و أطيعوا و إن استعمل عليكم عبد حبشي كان رأسه زبيبة
215-213	متفق عليه و ذكره البخاري	السمع و الطاعة على المرء المسلم فيما أحب و كره ما لم يأمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع و لا طاعة
213	البخاري	نما الطاعة في المعروف
215	متفق عليه	لا طاعة في معصية الله إنما الطاعة في المعروف

213	مسلم و الدرامي	ما من عبد استرعاه الله رعية فلم يحطها بنصيحة ، لم يجد رائحة الجنة
213	حسن عند البخاري ومسلم و الدرامي	ما من وال يلي رعية من المسلمين فيموت و هو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة
214	البخاري	من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر فإنه ليس أحد يفارق الجماعة فيموت إلا ميتة جاهلية
215	الترمذي	من أهان السلطان أهانه الله
215	مسلم	اسمعوا و أطيعوا فإنما عليهم ما حملوا و عليكم ما حملتم
216	النسائي و أحمد	أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر
218	أحمد بن تيمية	من أتاكم و أمركم على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه
218	رواه أحمد	سيليكم بعدي ولاة فيليكم البر ببه و يليكم الفاجر بفجوره فاسمعوا لهم و أطيعوا في كل ما وافق الحق، فإن أحسنوا فلکم و لهم ، و إن أسأؤوا فلکم و عليهم
235	الترمذي، و أبو داود	ستفترق أمتي نيفا (ثلاثا) و سبعينا فرقة ، الناجية منها واحدة. قيل: من هم؟ فقال : أهل السنة والجماعة. فقيل: و ما السنة و الجماعة ؟ قال : ما أنا الآن عليه وأصحابي
239	متفق عليه و ذكره البخاري	ككل مولود يولد على الفطرة
254	متفق عليه ذكره البخاري و مسلم والنسائي	من اجتهد و أخطأ فله أجر و من اجتهد و أصاب فله أجران عن عمر بن العاص قال: سمعت رسول الله (ص) يقول : إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد و أخطأ فله أجر
255	وأحمد .. وغيرهم من الرواة	من اجتهد و أصاب فله أجران و من اجتهد و أخطأ فله أجران
259-258		
259-255	الترمذي و أحمد	سأل الرسول (ص) مع معاذ بن جبل لما بعثه لتولي منصب القضاء باليمن
264	أبو داود	إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها

فهرس المصادر والمراجع

المصادر و المراجع

أولاً: المصادر

أ - القرآن الكريم

ب - الحديث النبوي

مؤلفات أبو حامد الغزالي

- إحياء علوم الدين ، دار السلام للطباعة و النشر و التوزيع و الترجمة، القاهرة مصر ، ط 2 ، 2005
- الاقتصاد في الاعتقاد ،دار الأمانة ، بيروت لبنان ، ط 1 ، 1969
- إلجام العوام عن علم الكلام ،دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، [د ط]، [د ت]
- الرسالة الوعظية ،دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، [د ط]، [د ت]
- روضة الطالبين و عمدة السالكين ،دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، [د ط]، [د ت]
- سر العالمين و كشف ما بين الدارين، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، [د ط] ، [د ت]
- فضائح الباطنية، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة، [د ط]، 1964
- فضائل الأنام من رسائل حجة الإسلام الغزالي، ترجمه ا عن الفارسية نور الدين آل علي، الدار التونسية للنشر، د ط، 1972
- فيصل التفرقة بين الإسلام و الزندقة ،دار الكتب العلمية، بيروت لبنان [د ط] [د ت]
- قانون التأويل ،دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، [د ط]، [د ت]
- القسطاس المستقيم، دار المشرق ، بيروت لبنان، ط 3، 1991.
- قواعد العقائد في التوحيد، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، [د ط] ، [د ت]
- معراج السالكين ، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ، ط 1، 1994
- مكاشفة القلوب ،المكتبة العصرية ، صيدا بيروت ، [د ط]، 2005
- المنقذ من الضلال، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، [د ط] ، 1997
- ميزان العمل ،دار المعارف بمصر ، ط 1، 1964

مؤلفات شعبية

- أبو نصر الفارابي : السياسة المدنية ، دار المشرق ، بيروت لبنان، ط 1، 1993
- أبو يعقوب السجستاني : إثبات النبوات ، دار المشرق ، بيروت لبنان ، ط 1، 1982
- إخوان الصفاء : رسائل إخوان الصفاء ، موفم للنشر ، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، وحدة الرغبة ، الجزائر [د ط] 1992
- حسن كاشف آل غطاء : أصل الشيعة وأصولهم، منشورات المكتبة الحيدرية بالنجف ط 14، 1965
- عبد الحسن دستغيب: النبوة ، ترجمة أحمد القباجي ، دار التعارف للمطبوعات ، [د ط] 1988

عبدان قرمط : شجرة اليقين، تحقيق عارف تامر، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، 1982

علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، مراجعة وتحقيق محمد عبده، دار الجيل بيروت لبنان [د ط] [د ت]

ثانياً: المراجع

أ- المراجع بالعربية

-إبراهيم مذكور: في الفلسفة الإسلامية، منهج وتطبيقه، دار المعارف القاهرة مصر، [د ط] [د ت]
-ابن قدامه المقدسي : مختصر منهج القاصدين، الشركة الجزائرية اللبنانية، ط 1، 2006
-أبو الأعلى المودودي : منهاج الانقلاب الإسلامي، دار الشهاب، باتنة الجزائر، [د ط]، [د ت]
-أبو الحسن الأشعري : مقالات الإسلاميين و اختلاف المصلين، مكتبة النهضة المصرية، ط 2
1969،

-أبو الفتح الشهرستاني : الملل والنحل، المكتبة التوفيقية، القاهرة مصر، [د ط]، [د ت]
-أبو بكر جابر الجزائري : منهاج المسلم، دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع، بيروت لبنان
ط1، 2003

-أجناس جولد تسيهر : العقيدة و الشريعة في الإسلام، ترجمة : محمد يوسف موسى، علي حسن
عبد القادر، عبد العزيز عبد الحق، مطابع دار الكتاب العربي، مصر، ط 2، [د ت]
-أحمد أمين : ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط 1، 2005
-أحمد بن تيمية : الخلافة و الملك، شركة الشهاب للنشر و التوزيع، الجزائر، [د ط]، [د ت]
-أحمد بن تيمية : السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، دار الجيل، بيروت لبنان، ط 1
1993،

-أحمد بن تيمية : النبوات، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، [د ط]، 2005
-أحمد بن تيمية: منهاج السنة النبوية، في نقض كلام الشيعة القدرية، مكتبة المعارف، المغرب ط 1،
1998

-أحمد توفيق عياد: التصوف الإسلامي، تاريخه و مدارسه و طبيعته و أثره، مكتبة الأنجلو المصرية
القاهرة مصر، [د ط]، [د ت]

-أحمد عبد المهيمن : إشكالية التأويل بين كل من الغزالي و بن رشد، دار الوفاء لندنيا للطباعة
و النشر الإسكندرية، مصر، ط 1، 2001

-أحمد فروخ : منهاج الجديد، الفلسفة العربية، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط1، 1970
-أحمد محمود صبحي : في علم الكلام "الأشاعرة"، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت
لبنان ط 5، 1985

- أحمد محمود صبحي : في علم الكلام "الزيدية" ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت لبنان ط،3، 1991
- إسماعيل بن كثير : تفسير القرآن العظيم ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان، ط1، 1985.
- إسماعيل زروخي : الدولة في الفكر العربي الحديث ، دار الفجر ، للنشر والتوزيع ، القاهرة مصر، ط1 ، 1999
- البخاري : صحيح البخاري ، دار الفجر للتراث ، القاهرة مصر ، [د ط] ، 2005
- ت.ج. دي بور : تاريخ الفلسفة في الإسلام ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريذة ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت لبنان ، ط 5 ، 1981
- جلال محمد عبد الحميد موسى : نشأة الأشعرية و تطورها ، دار الكتاب اللبناني ، [د ط] 1982
- جميل صليبا : تاريخ الفلسفة العربية ، الشركة العالمية للكتاب ، ط 3 ، 1995
- حسين مروة : التزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية ، دار الفارابي ، بيروت لبنان ط 7 ، 1985
- حنا الفاخوري، وخلي الجرج: تاريخ الفكر الفلسفي عند العرب ، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر، لو نجمان، القاهرة ، ط1، 2002
- ديلاسي أوليري : معالم الفكر العربي و مكانته في التاريخ ، ترجمة: تمام حسان، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الترجمة و الطباعة و النشر ، مصر ، [د ط] ، [د ت]
- راشد لبرايوي : قادة الفكر الإسلامي في ضوء الفكر الحديث ، مكتبة النهضة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة مصر ، ط 1 ، 1969
- رفيق العجم : الأصول الإسلامية ، منهجها و أبعادها ، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان ، ط 1 ، 1983
- زكي محمد عدل الدين سالم : الإنسان في فلسفة الغزالي و تصوفه، دار الفكر العربي ، القاهرة مصر [د ط]، [د ت]
- سليمان دنيا : الحقيقة في نظر الغزالي ، قيطار المعارف بمصر، ط 3، 1971
- سليمان مظهر : قصة الديانات ، مكتبة مدبولي ، مصر ط 2 ، 2002
- الشاطبي : الموافقات في أصول الأحكام ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع [د ط] ، [د ت]
- صبري خدمتلي : العقيدة و الفرق الإسلامية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون ، الجزائر [د ط] 1994
- عارف ثامر : إخوان الصفاء وخلان الوفاء ، منشورات المطبعة الكاثوليكية ، بيروت لبنان، ط2
- عارف ثامر : القرامطة ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت لبنان ، [د ط] ، [د ت]

- عاطف سلام: الوحدة العقائدية عند السنة و الشيعة ، دار البلاغة للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت لبنان ، ط1 ، 1987
- عبد الجبار المعتزلي : شرح الأصول الخمسة ، موفم للنشر، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، وحدة الرعاية الجزائر، [د ط] 1990
- عبد الجليل بن عبد الكريم سالم : التأويل عند الغزالي ، المطبعة العصرية ، تونس ، ط1، 2000
- عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة المسماة ديوان المبتدأ والخبر، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ، ط1، 2004
- عبد العزيز الثعالبي : محاضرات في التفكير الإسلامي و الفلسفة ، دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، 1991
- عبد الفتاح أحمد فؤاد : الفرق الإسلامية و أصولها الإيمانية ، دار الوفاء ، لدنيا الطباعة و النشر ، الإسكندرية ، مصر ، [د ط] ، [د ت]
- عبد القاهر البغدادي : أصول الدين، مطبعة الدولة ، استانبول ، ط1، 1982
- عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ، دار المعرفة ، للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت لبنان، ط3 ، 2001
- عبد الله محمد الفلاحى: نقد العقل بين الغزالي وكان ط ، المؤسسة الجامعية للدراسات و الطباعة والنشر ط1 ، 2003
- عبد الله نعمه: فلاسفة الشيعة ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت لبنان، [د ط] ، 1930
- عبد المتعال الصعيدي : القضايا الكبرى في الإسلام ، دار أشريفة ، للطباعة و النشر و التوزيع بوزريعة الجزائر ، [د ط] [د ت]
- عبد المجيد تركي : مناظرات في أصول الشريعة الإسلامية ، بين بن حزم و الباجي ، ترجمة و تحقيق : عبد الصبور شاهين ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت لبنان ، ط1 ، 1986
- عبد المحسن عاطف سلام : حيوات العرب ، الشركة القومية للتوزيع ، ط1، 1968
- عصام محمد شيبارو : السلاطين في المشرق العربي، الماليك، دار النهضة العربية بيروت لبنان [د ط] 1994
- علي بن أبي طالب ، نهج البلاغة ، مراجعة و تحقيق محمد عبده ، ج1، دار الجليل ، بيروت لبنان ، ص 30
- علي حسن الخربوطلي : الإسلام و الخلافة ، دار بيروت للطباعة و النشر، بيروت لبنان [د ط]، 1969

- علي سامي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، نشأة التشيع وتطوره ، دار المعارف ، ط 4 ، 1969
- علي عبد الفتاح المغربي : الفكر الديني الشرقي القديم ، و موقف المتكلمين ، مكتبة وهبة ، القاهرة مصر ، ط 1 ، 1996
- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة : نبيه فارس ، منير البعلبكي ، دار العلم للملايين بيروت لبنان ، ط 10 ، 1984
- كامل حمود : دراسات في الفلسفة العربية ، دار الفكر اللبناني ، بيروت لبنان ، [د ط] ، 1991
- كامل مصطفى الشبيبي : الصلة بين التصوف والتشيع ، دار المعارف ، القاهرة مصر ، ط 2 ، [د ت]
- كمال اليازجي : معالم الفكر العربي ، دار العلم للملايين بيروت لبنان ، [د ط] ، [د ت]
- لطفي جمعة : تاريخ فلاسفة الإسلام ، [د ط] ، [د ت]
- الماوردي : الأحكام السلطانية ، دار الكتاب العربية ، بيروت لبنان ، ط 3 ، 1999
- محب الدين الخطيب : الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامية الإثني عشرية ، مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، [د ط] ، 1401 هـ - 1980 م
- محسن عبد الحميد : حقيقة البابية و البهائية ، منشورات المكتب الإسلامي ، ط 1 ، 1999
- محسن عبد الناظر : مسألة الإمامة و الوضع في الحديث عند الفرق الإسلامية ، الدار العربية للكتاب [د ط] ، 1983
- محمد إبراهيم الفيومي : الإمام الغزالي وعلاقة اليقين بالعقل ، دار الفكر العربي ، القاهرة مصر [د ط] [د ت]
- محمد أبو زهرة : الإمام بن حزم ، دار الفكر العربي ، القاهرة مصر ، [د ط] ، [د ت]
- محمد أبو زهرة : الوحدة الإسلامية ، دار الفكر العربي ، القاهرة مصر ، [د ط] ، [د ت]
- محمد أبو زهره : تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة و العقائد و تاريخ المذاهب الفقهية ، دار الفكر العربي ، بيروت لبنان ، [د ط] [د ت]
- محمد أحمد الخطيب : الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ، دار عالم الكتب للنشر و التوزيع ، الرياض ، السعودية ، ط 2 ، 1986
- محمد السيد رضا : الخلافة ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة مصر ، ط 2 ، 1988
- محمد الطاهر النيفري : أهم الفرق الإسلامية ، نشر الشركة التونسية ، [د ط] ، 1974
- محمد أمين بدوي : الشيعة و نشاطهم السياسي في العصر الأموي ، مطبعة الجبلأوي القاهرة مصر ، ط 1 ، 1985
- محمد بن الحسن الديلمي : بيان مذهب الباطنية و بطلانه ، مطبعة الدولة استانبول [د ط] 1938

- محمد جلال سرور : الحياة السياسية في الدول العربية الإسلامية خلال القرنين الأول و الثاني بعد الهجرة ، دار الثقافة العربية ، للطباعة ، مصر ، [د ط] ، 1960
- محمد جلال شرف : دراسات في التصوف الإسلامي، دار النهضة العربية ، بيروت لبنان ، [د ط] ، 1984
- محمد جلال شرف : نشأة الفكر السياسي و تطوره في الإسلام ، دار النهضة العربية ، بيروت لبنان ط 2 ، 1990
- محمد رضا : الإمام علي بن أبي طالب
- محمد سعيد العشماوي : جوهر الإسلام ، الوطن العربي ، بيروت لبنان ، ط 1 ، 1984
- محمد صبحي الصالح :النظم الإسلامية نشأتها و تطورها، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان، ط 1 ، 1965
- محمد عزيز نظمي سالم : جدلية التاريخ و الحضارة ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، مصر ، [د ط] 1996 ،
- محمد علي أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت لبنان ، ط 2،
- محمد كامل حسين : طائفة الإسماعيلية ، تاريخها نظمها أصلها وعقائدها ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة مصر ، ط 1، 1959
- محمد كامل ليلة : النظم السياسية ، الدولة والحكومة ، دار النهضة العربية، بيروت لبنان [د ط] 1969
- محمد محدة : مختصر علم أصول الفقه الإسلامي ، شركة الشهاب الجزائر ، ط 4 ، 1990
- محمد يوسف موسى: بين الدين و الفلسفة في رأي ابن رشد وفلاسفة العصر الوسيط، العص ر الحديث للنشر و التوزيع، بيروت لبنان، ط 2 ، 1988
- مصطفى النشار : فلاسفة أيقظوا العالم ، دار الثقافة للنشر و التوزيع ، القاهرة مصر [د ط] ، 1988
- مصطفى حلمي :نظام الخلافة بين أهل السنة و الشيعة ، دار الدعوة للطبع و النشر و التوزيع الإسكندرية مصر ، ط 1، 1988
- مصطفى غالب : الحركات الباطنية في الإسلام ، دار الكاتب العربي ، بيروت لبنان ، [د ط][د ت]
- نور الدين حاروش : تاريخ الفكر السياسي ، دار الأمة للطباعة و النشر ، و التوزيع ، برج الكيفان الجزائر، ط 1 ، 2004
- هنري سيرويا : فلسفة الفكر الإسلامي ، ترجمة : محمد إبراهيم ، دار الثقافة العربية للطباعة و النشر القاهرة مصر ، [د ط] ، 1961

-هنري كوريان : تاريخ الفلسفة الإسلامية ، ترجمة : نصير مروة ، وحسن قبسي ، عويدات للنشر والطباعة، بيروت لبنان، ط 1، 2004،

-الوليد بن رشد: فصل المقال و تقرير ما بين الشريعة و الحكمة من اتصال، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت لبنان، [د ط]، [د ت].

-يحي هويدي : تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية ، مكتبة النهضة المصرية [د ط]، [د ت]

ب-المراجع بالفرنسية:

111-Mohamed -Ali Amir -Moezzi Christian Jambet:Qu' est-ce que Le shiisme ? librairie Arthème Fayard, 2004.

112-Philippe Lannois. L'orient désorienté. Etudes vivantes Paris – Montréal . 1980

ثالثا: الموسوعات و المعاجم

-ابن منظور: لسان العرب، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان ، ط3، 1999

-إسماعيل بن حماد الجوهري : الصحاح تاريخ اللغة و صحاح العربية ، دار العلم للملايين بيروت لبنان ط 4 ، 1990

-أندري لالاند : الموسوعة الفلسفية ، ترجمة : خليل أحمد خليل، منشورات عويدات بيروت ، باريس ط2 ، 2001

-حسين علي حمد : قاموس المذاهب و الأديان ، دار الجيل ، بيروت لبنان ، ط1، 1998

-سميح دغيم: موسوعة مصطلحات علم الكلام، مكتبة لبنان، ط 1، 1998

-عبد المنعم الحفني : المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة ، مكتبة مدبولي ، القاهرة مصر ، ط 3 ، 2000

-فرج الله عبد الباري : موسوعة العقيدة و الأديان ،الاختراق اليهودي للمجتمعات الإسلامية، دار الأفاق العربية ، ط1 ، 2006

-الفيروز أبادي : قاموس المحيط ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط 1 ، 1999

-كميل الحاج : الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي و الاجتماعي، مكتبة لبنان، ناشرون، ط 1، 2000

-مجموعة من الباحثين : موسوعة الأديان في العالم ،الفرق الإسلامية ، دار كرييس أنترناسيونال ، بيروت لبنان ، [د ط] ، 2000

-محمد الشريف الجرجاني ، التعريفات ، مكتبة لبنان ، بيروت لبنان ، ط 1 ، 1990

- ممدوح الزوي : معجم الصوفية ، دار الجيل للنشر و الطباعة و التوزيع ، بيروت لبنان ،
ط2004،1

رابعاً: أعمال الملتقيات و الندوات:

- أعمال الملتقى الدولي "التفاهم بين المذاهب" ، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى ، الجزائر،
2002

رابعاً: المجلات

- مجلة دراسات فلسفية ، سلطة التأويل في الخطاب الرشدي، العدد الخامس ، نشرت بالجزائر،
1998،

خامساً : الرسائل

- عبد الحميد الخطيب:الغزالي بين الدين و الفلسفة ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر،[د ط]،
1986

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

6-1	المقدمة
29-7	الفصل الأول : حقيقة الإمامة و أهميتها في الفكر الفلسفي
9	المبحث الأول : مفهوم الإمامة و حقيقتها
9	المطلب الأول : مفهوم الإمامة في اللغة و الاصطلاح
9	أولا : المدلول اللغوي للإمامة
10	ثانيا : المدلول الإصطلاحي للإمامة
12	المطلب الثاني : الإمامة و الخلافة و الفرق بينهما
12	معنى الخلافة
12	أولا : المدلول اللغوي للخلافة
14	ثانيا : المدلول الإصطلاحي للخلافة
17	المطلب الثالث: حكم نصب الإمامة و أدلته
17	أولا : حكم نصب الإمامة
18	ثانيا : علة و دليل وجوب الإمامة
20	المبحث الثاني : كيفية نصب الإمامة و انعقادها
20	المطلب الأول: انعقاد الإمامة بالبيعة و الاختيار
20	أولا : المدلول اللغوي للبيعة
21	ثانيا : المدلول الإصطلاحي للبيعة
21	معنى العهد
22	المطلب الثاني : حكم البيعة
23	المطلب الثالث : شروط البيعة
24	المبحث الثالث: أهمية الإمامة و علاقتها باحتدام الصراع بين السنة و الشيعة
24	المطلب الأول: مكانة و أهمية الإمامة في الفكر الإسلامي
25	المطلب الثاني: الإمامة أساس الصراع المذهبي بين السنة و الشيعة
27	المطلب الثالث : الإمامة من الصراع السياسي إلى الإبداع الفكري و العقائدي
154-30	الفصل الثاني : الإمامة و تداعياتها العقدية عند الشيعة الباطنية
32	المبحث الأول: الشيعة الباطنية التعليمية ، مفهومها ، تاريخها ، تعاليمها
32	المطلب الأول : معنى الشيعة و التشيع و تاريخ ظهورها
32	أولا: المدلول اللغوي للشيعة

32	ثانيا: المدلول الإصطلاحي للشيعة
34	ثالثا : بدايات ظهور التشيع و تطوره عبر التاريخ
36	رابعا : أسباب التشيع
38	خامسا : تطور التشيع و فرقه
40	المطلب الثاني : مفهوم الشيعة الباطنية التعليمية
40	أولا: المدلول اللغوي للشيعة الباطنية
41	ثانيا: المدلول الإصطلاحي للشيعة الباطنية
42	المطلب الثالث : تاريخ ظهور الباطنية التعليمية ، و تعاليمها
42	أولا : تاريخها و ألقابها
47	ثانيا : تعاليمها و مبادئها
49	1 * أفضلية أهل البيت و مكانتهم عند الشيعة(قداستهم و خلودهم)
52	2 * كتاب الجفر
53	3 * التخطيط و الدعاية و حسن التنظيم للفرقة الباطنية
56	المطلب الرابع : الحسن بن الصباح و دوره في بناء الفرقة الباطنية التعليمية و نشر عقيدتها
56	أولا : تأسيس بن الصباح للحركة الباطنية التعليمية
58	ثانيا : درجات و طبقات الباطنية التعليمية
58	* تقسيم الحسن الصباح للجماعة و دهائه و حنكته
60	ثالثا: التخطيط و الدعاية في عهد الحسن الصباح و دعوته
62	* علاقة الإسماعيلية بالباطنية
67	المبحث الثاني : عقيدة الإمامة عند الشيعة الباطنية
67	المطلب الأول :التصور الشيعي الباطني لمسألة الإمامة
68	أولا : الإمامة عقيدة شيعية في الأصل
69	ثانيا : العقل أساس وجوب الإمامة
70	المطلب الثاني :وجوب الإمامة بالنص و توارثها في الأعقاب
70	أولا : النص على الإمامة
71	1 * أدلة وجوب الإمامة بالنص
74	2 * بطلان الاختيار في وجود النص
74	3 * الإمامة تفويض إلهي توجهه عناية إلهية
77	ثانيا : توارث الإمامة
79	المطلب الثالث :عصمة الإمام و ضرورة التعلم منه
79	أولا : عصمة الإمام

- 82 ثانيا : بطلان نظر العقول في وجود معلم معصوم
- 82 1* أخذ العلم عن الإمام المعلم المعصوم
- 84 2* إبطال الرأي و نظر العقل
- 85 3* المنكرون للرأي و نظر العقل من غير الشيعة الباطنية
- 87 المطالب الرابع : مبدأ التقية و التستر للإمام
- 87 أولا : مفهوم التقية و التستر
- 88 ثانيا : حكمها
- 88 ثالثا : الظروف و الأسباب التي دعت الأئمة إلى التستر و التقية
- 90 رابعا : أهمية دور التستر في الحفاظ على عقيدة الإمامة
- 93 المطالب الخامس : الغيبة و الرجعة
- 94 أولا : أدلة تثبت الرجعة بعد الغيبة
- 96 ثانيا : أسباب القول بالرجعة بعد الغيبة
- 97 ثالثا : خلود الأئمة و التقديس المطلق لسلطتهم
- 97 * خلود الأئمة
- 97 * التقديس المطلقة لسلطة الأئمة
- 100 المبحث الثالث : ارتباط الإمامة بالنبوة و الوحي
- 100 المطالب الأول : حقيقة النبوة عند الباطنية
- 101 شرح كيفية حدوث النبوة عند الشيعة الباطنية
- 102 المطالب الثاني : مكانة و ترتيب الإمامة بين النبوة و الوصاية
- 102 أولا : النبوة و الوصاية
- 103 ثانيا : الإمامة و الوصاية
- 104 ثالثا : النبوة و الإمامة
- 109 المطالب الثالث : توارث النبوة و تأثير ذلك على مسألة الإمامة
- 111 * توارث الأئمة لعلم الأنبياء
- 114 المطالب الرابع : أدوار الإمام
- 114 أولا : الناطق و الصامت
- 116 ثانيا : السابق و التالي
- 117 ثالثا : المستودع و المستقر
- 119 المطالب الخامس : الأصول الفلسفية لعقيدتي النبوة و الإمامة عند الباطنية
- 122 المبحث الرابع : المنهج التأويلي الباطني و دوره في تبرير و تدعيم عقيد

161	أولا : أسباب و دوافع الرد على الباطنية
163	ثانيا : أسلوبه و طريقته في الرد على الآراء السياسية للباطنية
165	المطلب الرابع : الغاية من البحث في الإمامة و مكانتها في فلسفة الغزالي
165	أولا : مركزية و مكانة السياسة في فلسفة الغزالي
168	ثانيا : ربط السياسة بالأخلاق
171	المبحث الثاني : تصور الغزالي السني الأشعري لمسألة الإمامة
171	المطلب الأول : تصور الغزالي لمفهوم الإمامة
171	أولا : وجوب نصب الإمامة
175	ثانيا : تقسيم المجتمع (وطبقات الدولة) و ترتيب أجزائه
176	المطلب الثاني : شروط انعقاد الإمامة
176	أولا : إبطال النص على الإمامة و إثبات قيامها بالبيعة و الاختيار
176	1* إبطال النص على الإمامة
178	2* بطلان التوارث
180	3* البيعة و الاختيار أساس انعقاد الإمامة
182	ثانيا : شروط الإمام و خصاله
183	أ* الصفات الخلقية
188	ب* الصفات المكتسبة
188	1* النجدة
190	الشوكة
191	2* الكفاية
193	3* الورع
197	4* عدل الإمام
199	5* العلم
207	المطلب الثالث : وظائف الإمام العلمية و العملية التي بالمواظبة عليها يدوم استحقاقه للإمامة
207	أولا : الوظائف العلمية
209	ثانيا : الوظائف العملية
211	المطلب الرابع : وجوب طاعة الإمام القائم بالحق "المستظهي" و عدم الخروج عليه
211	أولا : طاعة الإمام
216	ثانيا : عدم خلع الإمام و الخروج عليه

- 219 * أهمية النظرية السياسية للغزالي
- 222 المبحث الثالث: علاقة الإمامة بالنبوة عند الغزالي
- 222 المطلب الأول: معنى النبوة و ختمها مع محمد ﷺ
- 222 أولا: معنى النبوة
- 223 ثانيا: الفرق بين النبي و الرسول
- 225 ثالثا: الإمامة و النبوة
- 225 المطلب الثاني: أهمية النبوة عند الغزالي و مكانتها
- 225 أولا: مكانة النبوة والحاجة إليها
- 226 ثانيا: عصمة الأنبياء و بطلان القول بعصمة الأئمة وتقديسهم
- 228 ثالثا: ضرورة تقليد الأنبياء و التعلم عنهم و رفض التعلم من الإمام الشيعي
- 230 المطلب الثالث: تأثير النزعة الصوفية على تصور الغزالي لحقيقة النبوة
- 230 أولا: اختلاف النبوة عن الإمامة و الملك
- 231 ثانيا: خواص النبوة وتأثيرات الصوفية
- 232 المطلب الرابع: نقد الغزالي للنبوة بالمفهوم الشيعي الباطني
- 235 المبحث الرابع: المنهج النقدي الشكّي و إبطاله للتأويل الباطني
- 235 المطلب الأول: المنهج النقدي الشكّي مفهومه ، قواعده ، و أسباب اعتماده الغزالي له
- 235 أولا: أسباب اعتماد الغزالي للمنهج الشكّي و دوره في بلوغ العلم اليقيني
- 235 1* كثرة الفرق و تضارب آرائها
- 235 2* البحث عن العلم اليقيني
- 236 3* الشك في قيمة العقل و الحواس
- 237 4* التأكيد على سلك طريق الصوفية
- 238 ثانيا: قواعد المنهج الشكّي
- 239 المطلب الثاني: الغزالي رائد الأشعرية والتوفيق بين العقل و النقل
- 242 المطلب الثالث: موقفه من التأويل الباطني
- 242 أولا: فساد تأويلات الباطنية
- 244 ثانيا: نقد الغزالي للتأويل الباطني
- 244 * أسلوبه و طريقته في الرد عليهم
- 247 ثالث: شروط قبول التأويل و العمل به: التأويل للراسخين في العلم دون سواهم
- 254 المطلب الرابع: أهمية النظر و الاجتهاد العقلي و بطلان التعلم عن الإمام

254	أولا : معنى الاجتهاد
255	ثانيا : حكم إعمال الرأي و الاجتهاد
256	ثالثا : أهمية النظر العقلي و دوره في بناء المعرفة عند الغزالي
257	رابعا : إعمال الرأي مع الحذر و الذم لدى بعض الصحابة و الفقهاء
258	* إتفاق الغزالي مع المالكية في حكم الإجتهد و نظر العقل
260	المطلب الخامس: إبطال التعلم والعودة إلى الإمام المعصوم
275-272	الخاتمة
281-276	فهرس الآيات
287-283	فهرس الأحاديث
296-288	فهرس المصادر و المراجع
	فهرس المواضيع

ملخص البحث

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد ﷺ
خاتم الأنبياء والمرسلين و على آله و صحبه أجمعين.. والحمد لله رب العالمين حمدا
طيبا مباركا.

لا يفوتني في هذا الموضع أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من قدم لي يد العون و
الدعم من قريب أو من بعيد و أخص بالذكر الأستاذ الفاضل " ساعد خميسي " الذي تولى
مهمة تأطيري منهجيا و معرفيا ، و لم يبخل علي بالنصح و التوجيه طيلة دراستي لهذا
الموضوع فله مني فائق التقدير و الامتنان.

دون أن أنسى أن أتوجه بالشكر العظيم إلى الأساتذة الذين وقفوا معي منذ بدايات
البحث و قدموا لي التوجيه و النصح لا سيما الأساتذة : إسماعيل زروخي ، غيوة فريدة
، رشيد دحدوح بوقرن عبد الله و موسى معيرش... و غيرهم من زملائي لأعزاء .
كما يشرفني أن أتقدم بتحية خالصة إلى لجنة المناقشة بأعضائها الكرام على تفضلهم
بقراءة مذكرة بحثي و قبول مناقشتها فلکم مني فائق التقدير.

لكل هؤلاء أقدم ملخص بحثي حول " مسألة الإمامة و تدعياتها العقدية بين الباطنية و
الغزالي " راجية من المولى عز و جل كل التوفيق.

تعد الفلسفة السياسية من أهم المباحث التي خاض فيها فلاسفة الإسلام وأدلوها فيها بدلائهم وكانت لهم فيها رؤى و تصورات بارزة حاولت مسايرة تعاليم الدين الإسلامي الحنيف . وامتزج فيها الفقه بالفلسفة ، بل قد نبغ في مجال الفكر السياسي ثلة من علماء الإسلام و مفكره .

و لقد دارت جُلّ النظريات السياسية للمسلمين حول مسألة " الإمامة " باعتبارها محور الصراع الفكري و المذهبي بينهم بعد وفاة النبي الكريم ﷺ . لكون أمر ولاية شؤون المسلمين وحكمهم من الضروريات التي ينبغي أن تراعى لحراسة الدين و الدنيا . فقد لقب خليفة المسلمين بالإمام و كانت له شروط و مزايا و مهام يؤديها و بناء على ذلك يتم حصوله على منصب الإمامة.

حتى أن كثيرا من المؤرخين و الدارسين للفكر الإسلامي يرجعون ظهور الفتن إلى مشكلة الإمامة التي قسمت المسلمين إلى سُنّة و شيعة و زادت في الهوة السحيقة بينهما. فكان لكل نيار مناصروه و علماءه الذين دافعوا عن تصوره في مشكلة الإمامة. بل كانت السلطة القائمة تدعم التيار الذي تمثله و تغذيه ... و تتخذ من المفكرين دعاة لنصرة خلافتها القائمة و مذهبها في الإمامة .

لأجل ذلك ارتأيت أن يكون موضوع بحثي متمحورا حول مسألة الإمامة لإبراز مكانتها وأهميتها في الفكر السياسي بالنظر إلى ما أحدثته من تداعيات واضطرابات غيرت مجرى الأحداث السياسية في البيئة الإسلامية و زادت من حدة الصراع بين السنة و الشيعة .

فوقع اختياري على " فرقة الإسماعيلية الباطنية" كأشهر ممثل للتيار الشيعي هذه الطائفة التي كانت تنظر إلى الإمامة نظرة تقديس وتضفي على الأئمة صفات خاصة انفردت بها عن غيرها من سائر الفرق الأخرى و حتى الشيعة منها .

فالباطنية الإسماعيلية جعلت من النص أساسا لنصب الإمامة و قالت بخلود الأئمة و رأت أن الإمام معين بالنص الشرعي و أوجبت طاعته طاعة عمياء من قبل الأتباع.. إذ أن وجوب الإمامة هو وجوب عقلي.ودافعت عن رأيها بنصوص شرعية وباعتماد التأويل الباطني كل ذلك لتبرير تصورها للإمامة كعقيدة شيعية في الأصل.

و في مقابل فرقة الباطنية الشيعية تعرضت في بحثي إلى ألد أعدائها من التيار السنّي والمتمثل في شخص حجة الإسلام " أبا حامد الغزالي " الذي تصدّى لآرائها بشدة ووقف للرد عليها ، ولدحض آرائها المغالية - حسبه - فانصرف للتيار السنّي وحدد مفهوم الإمامة يتفق مع ما تعارف عليه أهل السنة و الجماعة ، معتمدا في ذلك على الشرع والعقل ، بهدف الحفاظ على الشريعة وإيمان العوام من منظور مذهبه العقدي .

فكان الجدل بين الطرفين على أوجه الأمر الذي أفرز آراء و معتقدات هامة كشفت عن ما بينهما من نقاط خلافية في جوانب شتى ، كان أشدها تعقيدا مسألة الإمامة . فكل فريق قد أصبغ عليها من مذهبه و توجه ما انفرد به عن غيره سواء من حيث مفهومها و حكمها و شروطها وحتى طريقة إنعقاد ونصبها ...

وما كان تركيزنا في هذا البحث على " فرقة الباطنية " و كذا " الغزالي " إلا لإبراز أثر الإمامة و دورها و إختلاف تصوراتها و ممارساتها بين السنة والشيعية خاصة و أن هذا الصراع حولها بين التيارين لم يخمد أبدا و يظهر في كل مرة بشكل أشد و أعمق . وفي الأخير أسأل الله التوفيق و السداد في هذا المسعى حتى يكمل بالإنجاح . و لكل هؤلاء يشرفني أن أقدم ملخص بحثي حول " مسألة الإمامة و تداعياتها العقدية بين الباطنية و الغزالي " راجية من المولى - عز و جل - كل توفيق .

RAPPORT FINAL

Au nom de Dieu le clément et miséricordieux.

Grâce à Dieu , j ai pu terminer cet humble travail relevant de la recherche académique.

Mes remerciements à tous ceux qui ont contribue de prés ou de loin à la réalisation de ce projet .

En particulier au professeur encadreur Mr Saad KHEMISSI qui m'a apporte toute l'aide nécessaire dont j'avais besoin .

Mes remerciements aussi à tous les autres professeurs qui m'ont été d'une grande utilité : Ismail ZEROUKHI ,farida GHIOUA , Rachid DAHDOUH, Abdallah BOUGARNE et moussa MIRECHE ,

Mes remerciements à l'honorable commission chargée de la soutenance qui a supervise le travail et m'a autorisée à soutenir .

Enfin , je remercie tous mes collègues pour leur aide et leur sympathie

Les musulmans se sont beaucoup intéressés à la philosophie politique et l'ont marquée de leurs empreintes en émettant plusieurs réflexions compatibles avec les préceptes de l'islam .

Plusieurs savants musulmans (ulémas) ont brillé dans le domaine de la pensée politique . Les différentes théories politiques traitent du problème de (Al imama) qui est un sujet de divergence entre les divers es parties .

Le poste d'imam est tributaire d'un bon nombre de critères,de privilèges et autres rôles que le khalife doit exercer pour devenir imam Ces critères de choix autres modalités régissant le poste ou la fonction d'imam et surtout la durée , le mode de gestion des affaires des musulmans ,ne bénéficient pas de l'unanimité de tous .

Tout cela a provoqué la division des musulmans en groupes ,parties, communautés et autres fractions si bien que les choses se sont aggravées passant de l'affrontement verbal à l'affrontement par l'épée .

Beaucoup d'historiens et chercheurs qui se sont spécialisés dans la pensée islamique ,expliquent que la division des musulmans en chiites et sunnites est due au problème de la imama ,et chacun des deux camps essaye de défendre ses idées et positions en bénéficiant de l'aide du pouvoir qui états en place et en fonction des intérêts de ce dernier ,

Tout cela m'a motivé pour que mon projet de recherche porte sur le dogme de la imama et tout ce qu'elle a engendré comme polémiques ,divergences et affrontements .

J'ai choisi de travailler sur l'un des groupes qui forment le mouvement chiite et qui est le groupe d'El batinia Al ismailia qui voyait en la imama la sacralisation et permet à l'imam d'avoir des qualités spéciales qui distinguent ce groupe des autres .

Le mouvement d'Elbatinia alismaïlia a fait du texte sacré la base de la nomination de l'imam et parle de l'éternité des imams et que ces derniers qui sont nommés par le texte sacré doivent être obéis de manière aveugle par leurs partisans et défendent leur vision de la imama par des textes sacrés ;se basant sur le taàwil (l'interprétation) dans leur vision profonde du chiisme à propos du sujet de la imama

J'ai aussi présenté dans mon travail de recherche les positions des détracteurs de cette vision :Abou Hamed ALGHAZALI (sunnite) qui s'est opposé avec force à ces idées et a établi une nouvelle définition et une nouvelle conception de la imama acceptées par les sunnites et la djamaa afin de préserver la charia et la foi de tous .

Ces vives polémiques ont donné naissance à différents avis et croyances d'une très grande importance concernant le jugement , les conditions et autres critères qui règlent le déroulement de la imama.

Le but de mon travail ne consiste pas à exposer les divergences des uns et des autres mais à apporter toute la lumière sur la place et l'importance de la imama et son rôle dans les conflits et l'émiettement des musulmans,

Je prie Dieu de me venir en aide pour réussir dans mon travail .

**AU NOM DE DIEU LE CLEMENT ET
MESICORDIEUX**

The report of the final expository

I thank God for helping me to finish this modest study. I am so grateful to all those who helped me and guide me during the work .

My great thanks to my teachers "Saad khmissi" who advised me a lot and who enlightened me during my researches ,among them .

I name professors Zeroukhi Ismail ,Ghiwa Farida Dahdouh Rachid , Bouguern Abdellah and Moussa Maireche and others.

I dedicate this work to my friends who stood by my side in every difficult moment . Finally , my full gratitude is for the members of the commission who has accepted to control and discuss my study.

For all ,I present a short summary of my work entiled "The problem of Governance and the Call of Beliefs between the Battinia and Al Gahazali ".

Political philosophy is one of the major interest of Muslim writers . they had very important views .that went together with the teaching of Islam .our great religion .

There were important philosophers who had theories concerning governance and ruling in Islam .the rulers were also called the ; Imams .These were selected based on specific conditions and on the roles that they had .

The position of the "Imam" was also a major cause to conflict and differences which were so intense and ended sometimes in bloody acts .

Many historians and Islamic writers supposed the appearance of problems divided the Islamic empire into two parts "The Sunnis" and " the Shiites" which separated the muslims into two completely different wings.

There were followers and scholars for each side who strongly defended their views concerning governance. I chose this topic of study to be a modest research on the beliefs in choosing the Imam and the causes of differences and conflicts.

The most famous defenders of the shiite wing "The Ismailia Group" which considered the Imam sacred and had alone special characteristics different from all the other shiite group .They believed the Imam must be obeyed blindly by its disciples basing their doctrine from some Islamic texts.

As opposed to this group , and one who fought the Shiite views strongly was "Abou Hamed Al ghazali " .He stated that governance should be a democratic process based on Islamic principles and being widely open to criticism so that to protect the "Imam" from bad ruling and weakness.